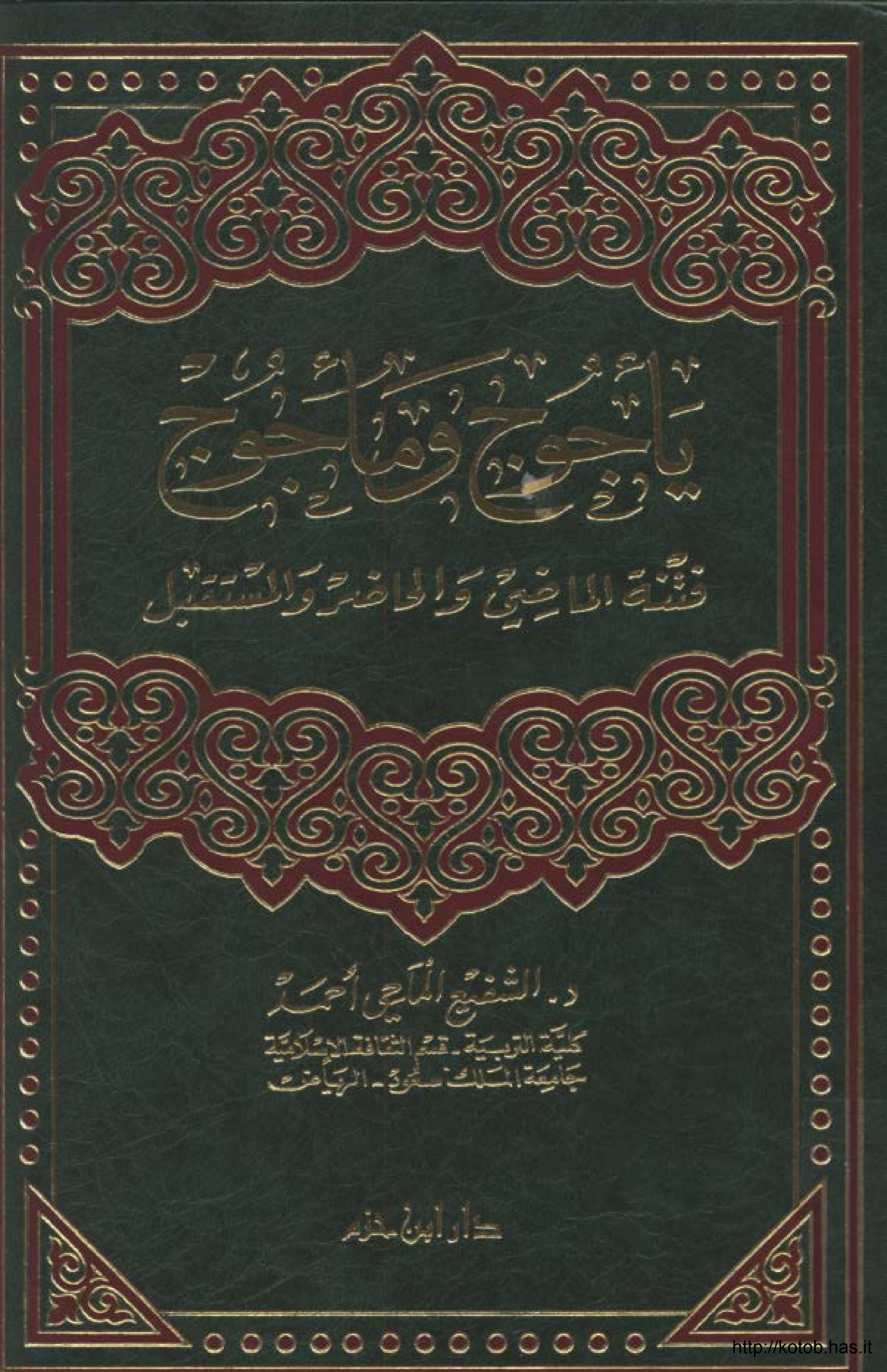

يأجوج ومأجوج
فتنة الماضي والحاضر والمستقبل
د. الشفيع الماحي أحمد
كلية التربية - قسم الثقافة الإسلامية
جامعة الملك سعود - الرياض
دار ابن حزم



فتنة الماضي والحاضر والمستقبل

د. الشفيع الماحي أحمد

كلية التربية - قسم الثقافة الإسلامية

جامعة الملك سعود - الرياض

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٨٣١٣٣١

فهرس

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
الفصل الأول: الأصول	٧
الفصل الثاني: التأجج	٢٧
التنظيم	٣٥
الطاعة المطلقة	٤٢
القسوة والوحشية	٤٤
الفصل الثاني: الخروج	٤٧
الخروج الثالث	٤٩
الخروج الرابع	٦٤
الخروج الخامس	٨٦
الخروج السادس	١١٣
الخروج السابع	١٦١
الخروج في الحاضر والمستقبل	٢٩٣
الخروج الأخير	٢٩٦
الفصل الرابع: مظاهر الخروج	٣٠٥
الفتح	٣٠٥
السد	٣٠٦
الفساد	٣٢٩
السرعة	٣٣٦
خمود التأجج	٣٣٩
المصادر	٣٤٨

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

توطئة

يأجوج أو مأجوج أو يأجوج ومأجوج معاً هو الابن الثاني ليافث أحد أبناء نوح عليه السلام الثلاثة والذين من أصلابهم تفرقت البشرية في الأرض بعد الطوفان، واختار نوح لابنه يافث مشرق الأرض سكناً له، وفي الركن المنزوي بعيداً في الشمال الشرقي منها، وضمن مساحة واسعة وعالية الإرتفاع استقر يأجوج ومأجوج وذريته، فسميت تلك الأرض بادىء الأمر باسمه، ولما شاع الاسم وتداولته ألسنة إخوانهم وأبناء عمومتهم في مختلف العصور خُضِّع لقواعد لغاتهم وطرق نطقها، وحُرف وبُدل فيه إلى أن صار اليوم (منغوليا).

وعرفت سلالة يأجوج ومأجوج لدى خروجهم على إخوانهم وأبناء عمومتهم بأسماء متعددة، فعرفوا عند الأشوريين في القرن السادس قبل الميلاد باسم السكيثيون Scythians، وسماهم الصينيون في القرن الثالث قبل الميلاد باسم هسيونغ - نو Hsiung-nu، وسماهم الأوروبيون في القرن الرابع الميلادي باسم الهون Hun، واحتفظ لهم القرآن الكريم عند نزوله وحياً خاتماً للبشرية جمعاء في القرن السابع الميلادي باسم يأجوج ومأجوج، وعرفوا عند المسلمين والصينيين والأوروبيين في القرن الثالث عشر الميلادي باسم المغول والتتار.

وخروج يأجوج ومأجوج من ذلك الركن القصي من الكرة الأرضية للعالم لا يشبه خروج إخوانهم وأبناء عمومتهم من حيث الغاية والمقصد، وإنما يخرجون لإحداث ضروب من القتل والفساد والخراب وبطريقة يقف

الناس مذهولين من هول قسوتها ووحشيتها وافتقارها إلى أبسط المعاني الإنسانية الخيرة، وعند نقطة معينة يبلغ خروجهم أوج غايته، يبدأ منها في الانحسار والتراجع والاضمحلال، وتبقى دوماً بقية منهم في موطنهم الأصلي حاملة لبذرة الخروج والقتل والخراب والفساد.

ويهدف هذا الكتاب في مجمله للكشف عن بعض الجوانب الخفية والكامنة في خروجهم للعالم بهذه الطريقة المدمرة، وإبراز معالمه ومظاهره الكبرى، إذ هو وحده السمة المميزة لهم عما عداهم من البشر، وهو وحده الذي يقف شبحاً مخيفاً لإخوانهم وأبناء عمومتهم في حاضر الزمان ومستقبله.

الفصل الأول

الأصـــول

آل الحال بالبشرية قبل مبعث نوح عليه السلام إلى الخروج كلية عن مقتضى الميثاق الذي واثقهم به ربهم وهم في ظهر أبيهم آدم عليه السلام، وعن مقتضى منهج النبوة والأنبياء من بعد آدم عليه السلام، فعبدت الأصنام والأوثان والطواغيت من دون الله وكثرت المعاصي وشاعت الفواحش والمنكرات، وتحللوا في خاتمة الأمر من كل رابطة تربطهم بوحي الله تعالى، ومما تبقى لهم من ميراث النبوة، فأرسل الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام من خيار وصفوة ذرية آدم يدعوهم إلى أفراد الله تعالى وحده بالعبادة، وألا يعبدوا صنماً ولا وثناً ولا طاغوتاً، ولكن نتيجة لانغماسهم في الكفر والظلم والفجور، مُسخت فطرتهم وتشوهت المعاني الخيرة في نفوسهم، فكذبوا نبيهم واستهزأوا بدعوته، وامتنعوا بإباء وعناد وإصرار مقيت عن الإيمان واتباع الحق.

قضى نوح عليه السلام بين هؤلاء القوم ألَف سنة إلا خمسين عاماً، لم يؤمن به مع تطاول الزمان وتعاقب الأجيال، ولين المجادلة، والإخلاص في النصح، والتذكير بآيات الله، وصبره على أذى السفهاء، واستخفافهم به، وازدرائهم بمن آمن به، إلا قليل، قدروا في بعض المصادر الإسلامية بتسعة وسبعين رجلاً وامرأة، زوجته وأم أولاده الثلاث، وبنوه الثلاث سام وحام ويافث ونساؤهم، واثنان وسبعون رجلاً من غيرهم، يرى البعض أن نصفهم من الرجال ونصفهم من النساء، ويميل آخرون إلى القول بأن جلّهم من الرجال.

وبنهاية هذه الفترة الطويلة من عمر الدعوة أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام بصنع سفينة (فلك) عظيمة لا نظير لها ولا مثيل من قبل، ولا يكون لها ما يشابهها من بعده، فقال له:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وتنفيذاً لأمر الله تعالى استأجر نوح عليه السلام من يعينه على بنائها من قومه، وكان أبناؤه الثلاثة يعملون معه، فلما فرغ من بنائها، أوحى الله تعالى إليه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع المخلوقات، لأن القوم وما يملكون هالكون بالغرق جزاء على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم، وجعل الله تعالى من فوران التنور آية وعلامة بينه وبين نوح على بدء تنفيذ حكم الله.

فلما فار التنور نادى نوح عليه السلام أهله والقلة التي آمنت به من ذرية آدم بدخول السفينة سريعاً، فهرع إليها الجميع، فراراً ممن حقت عليهم كلمة العذاب، وشوقاً إلى أرض جديدة يعبدون فيها ربهم ولا يشركون به شيئاً، ثم لحق بهم نوح فكان آخر الراكبين، وسرعان ما اندفعت المياه من ينابيع الأرض، وأمطرت السماء مطراً غزيراً، قال تعالى:

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[2].

أي التقى ماء السماء بماء الأرض حتى إذا كثر وغطى الأرض حمل السفينة الجبارة بمن فيها فارتفعت عن الأرض، وسارت على وجه الماء باسم الله مجراها ومرساها.

أما ما حدث للمخلوقات بعد الطوفان فيصفه سفر التكوين بقوله:

---

(١) سورة هود: الآية ٣٧.

(٢) سورة القمر: الآيتان ١١، ١٢.

«وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمس عشرة ذراعاً في الإرتفاع تعاظمت المياه، فتغطت الجبال، فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض، من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس، كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات، فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض، وتبقّى نوح والذين معه في الفلك فقط، وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً»[1].

ولما هلك القوم الظالمين غرقاً، أوحى الله تعالى إلى ماء الأرض والسماء بالكف عن التدفق، فقال تعالى:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[2].

وعلى الفور انسدت الينابيع، وانشقت الأرض وبلعت ماءها، رحبست السماء ماءها، ورويداً رويداً تراجع الماء إلى أن استقرت السفينة على جبل الجودي، فخرج نوح وأهله ومن آمن به، وما حملوا معهم من مخلوقات الأرض، عندها أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام بألاّ يكون هناك طوفان كهذا في الأرض، ولا تعاقب ذريته أو تهان من بعده بالغرق، جاء ذلك في سفر التكوين حيث قال:

«وكلّم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً، وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم، ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم، الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض، أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً

---

(١) سفر التكوين ٧: ١٩ - ٢٤.

(٢) سورة هود: الآية ٤٤.

بمياه الطوفان، ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض، وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر، وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض، فيكون متى انشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب، إني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد، فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد، فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض، وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذي أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض»[١].

تجاهلت المصادر الإسلامية واليهودية مصير من آمن بنوح عليه السلام من ذرية آدم، كأن لم يكونوا من الناجين معه، ولم تتحدث إلا عن زوجته وأبنائه الثلاثة وزوجاتهم، فجاء في سفر التكوين:

«وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث، وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض»[٢].

ويقول ابن كثير:

«وأما أولاده الثلاثة فنجوا، وجاء من نسلهم أهل الأرض، فكل الخلائق ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة، لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ (الصافات: ٧٧) فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم سام وحام ويافث»[٣].

ويفهم من هذا التجاهل المتعمد لمن نجا من ذرية آدم عليه السلام

---

(١) سفر التكوين ٩: ٨ ـ ١٧.
(٢) سفر التكوين ٩: ١٨ ـ ١٩.
(٣) قصص الأنبياء ج (١) ـ ابن كثير ص ١٣٧.

بعد الطوفان أمرين: فإما أنهم هلكوا بأجمعهم في السفينة قبل هبوطها واستقرارها على جبل الجودي، أو أنهم من الرجال - كما ذهبت إلى ذلك بعض المصادر الإسلامية - ولذلك أُغفل ذكرهم وأهمل شأنهم، إذ لم يكن لهم بعد الطوفان أي تأثير في تشكيل معالم البشرية على الأرض، وانصبّ جلّ اهتمام المؤرخين على ذرية نوح عليه السلام.

ويهمنا من أبناء نوح عليه السلام الثلاثة يافث وحده، فمن ذريته يأجوج ومأجوج موضوع حديثنا، وقد احتفظ يافث لنفسه بمكانة خاصة ومنزلة أثيرة في نفس والده، ولم تهتز ثقة أبيه فيه ولا احترامه وتقديره طوال حياته، والواقعة الوحيدة التي أُرّخت لهم بعد الطوفان، وحددت علاقة كل منهم بأبيه، روتها المصادر الإسلامية على النحو التالي:

«أقبل نوح على ابنه سام فقال: يا بني إني لم أتهنأ بالنوم منذ ركبت الفلك، وإني أحب أن أنام نومة أشبع فيها، فوضع رأسه ونام نومة عميقة، فهبت الريح وكشفت عورته فرآه حام وهو على هذه الحالة فضحك ضحكاً شديداً، وكان سام ويافث في مكان ما فبلغهما ما صنع أخوهما، فأقبلا ومعهما ثوب وهم مستدبرين فغطيا سوءة أبيهما ووجوهما مستدبرة كي لا يقع نظرهم عليها، ونوح نائم لم ينتبه لكل ما جرى، فلما استيقظ أوحى الله إليه ما صنع حام فلعنه ودعا عليه»[1].

قسّم نوح عليه السلام الأرض قبيل وفاته بين أبنائه الثلاثة، فخص يافث بمشرق الأرض، وحدود مشرق الأرض كما نص عليها النيسابوري «من قيسون مما وراءه إلى مجرى الصبا»[2] وتقع ضمن دائرة واسعة تكاد تغطي شرق الأرض والعالم الجديد.

وفي بقعة ما من تلك الأرض المختارة رزق الله تعالى يافث بعدة

---

(١) قصص الأنبياء ج (١) الكسائي ص ٩١ والنور المبين - الجزائري ص ٧٠.

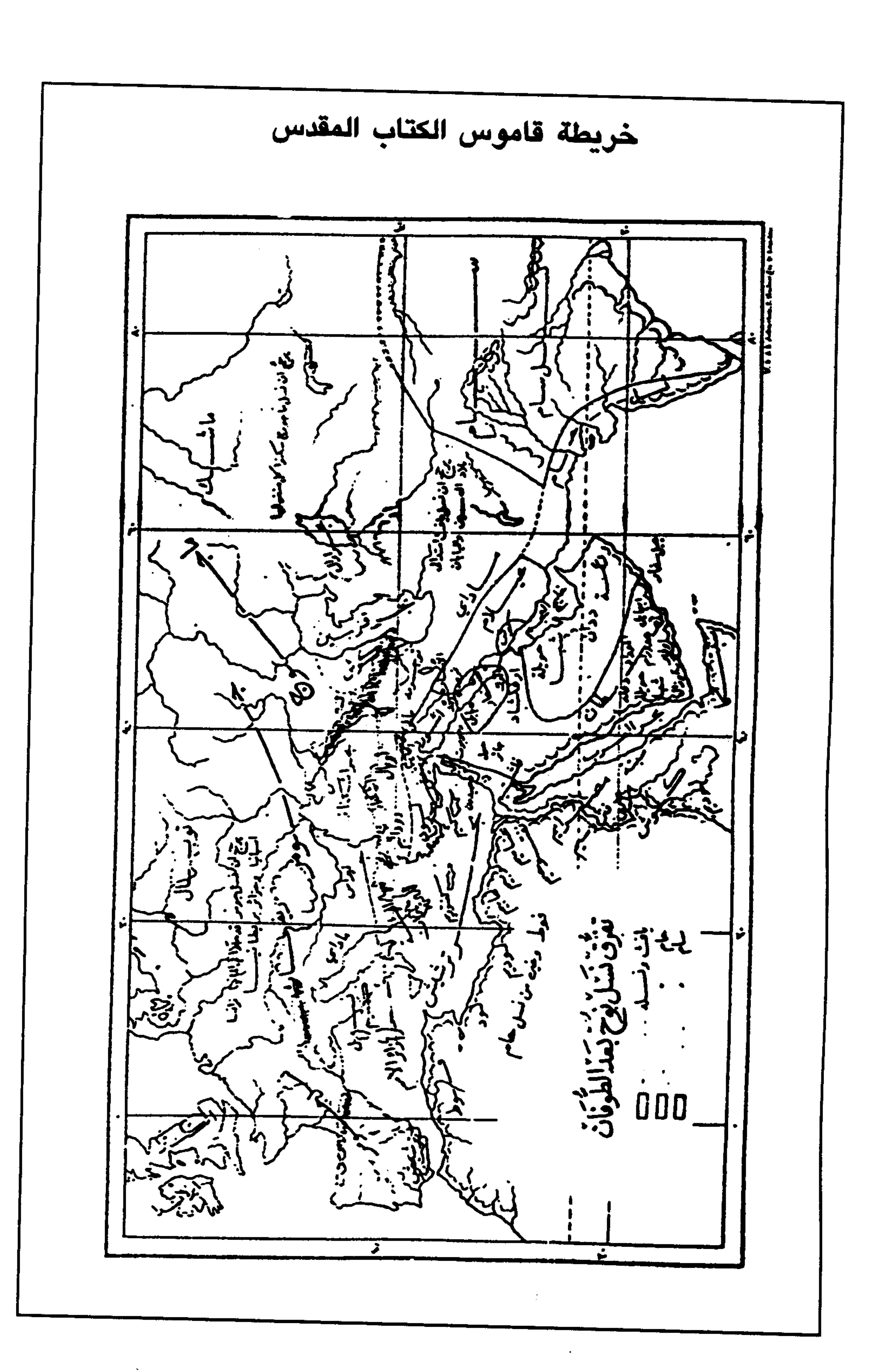
(٢) قصص الأنبياء، أبو إسحاق النيسابوري ص ٦١.

بنين هم على التوالي «جومر ومأجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس»[1] وفيها توالدوا وتناسلوا وكثرت ذريتهم، ومنها انتشروا وتفرقوا ليغطوا مناطق شاسعة من شمال وجنوب ووسط قارة آسيا.

وفي حين اندمج أبناء يافث وذابوا بتعاقب الأجيال في بعضهم البعض، وشكلوا في النهاية أمة تنسب في مجموعها إلى يافث وحده، ولها من الخصائص والصفات والملامح ما يميزهم عن أبناء عمومتهم، استقل يأجوج ومأجوج وذريته من بعده منفردين ليس فقط باسمهم، وإنما أيضاً بشخصيتهم المميزة وكيانهم الفريد عن سائر إخوانهم، وظل اسمهم راسخاً في ذاكرة الناس، ومتداولاً بينهم، ومثبتاً في الوحي المنزّل على رسلهم وأنبيائهم منذ ذلك الزمن البعيد وإلى يومنا هذا، بل إلى آخر الأيام، وعلى نحو لا نظير له عند إخوانهم وأبناء عمومتهم.

(١) سفر التكوين ١٠: ١ ـ ٢.

خريطة قاموس الكتاب المقدس



فها هو حزقيال يتنبأ بخروج أبناء يأجوج ومأجوج بجموعهم الهادرة من أقاصي الشمالي وفي زمان ليس بعيداً عن زمانه ناشرين الرعب والفزع والخراب والفساد في الأرض، إلى أن يصلوا في زحفهم الطويل إلى أرض فلسطين فيقضي الله تعالى عليهم. فيقول حاكياً عن الحق عز وجل:

«وكان إليّ كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك وتوبال وتنبأ عليه وقل، هكذا قال السيد الرب هاأنذا عليك يأجوج رئيس روش ماشك وتوبال، وأرجعك وأضع شكائم في فكيك وأخرجك أنت وكل جيشك خيلاً وفرساناً كلهم لابسين أفخر لباس جماعة عظيمة مع أتراس ومجان كلهم ممسكين السيوف، فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة، وجومر وكل جيوشه وبيت توجرمة من أقاصي الشمال مع كل جيشه شعوباً كثيرين معك، استعد وهيّيء لنفسك أنت وكل جماعاتك المجتمعة إليك فصرت لهم موقراً، بعد أيام كثيرة تفتقد، في السنين الأخيرة تأتي إلى الأرض المستردة من السيف المجموعة من شعوب كثيرة على جبال إسرائيل التي كانت دائمة خربة للذين أخرجوا من الشعوب وسكنوا آمنين كلهم، وتصعد وتأتي كزوبعة وتكون كسحابة تغشى الأرض أنت وكل جيوشك وشعوب كثيرون معك.

هكذا قال السيد الرب، ويكون في ذلك اليوم أن أموراً تخطر ببالك فتفكر فكراً رديئاً، وتقول إني أصعد على أرض أعراء، آتي الهادئين الساكنين في أمن كلهم ساكنون بغير سور وليس لهم عارضة ولا مصاريع، لسلب السلب ولغنم الغنيمة لرد يدك على خرب معمورة وعلى شعب مجموع من الأمم المقتني ماشية وقنية الساكن في أعالي الأرض، شبا وددان وتجار ترشيش وكل أشبالها يقولون لك هل لسلب سلب أنت جاءٍ، هل لغنم غنيمة جمعت جماعتك لحمل الفضة والذهب لأخذ الماشية والقنية لنهب نهب عظيم.

لذلك تنبأ يا ابن آدم وقل لجوج هكذا قال السيد الرب، في ذلك

اليوم عند سكنى شعبي إسرائيل آمنين أفلا تعلم، وتأتي من موضعك من أقاصي الشمال أنت وشعوب كثيرون معك كلهم راكبون خيلاً جماعة عظيمة وجيش كثير، وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابة تغشى الأرض، في الأيام الأخيرة يكون، وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حين أتقدس فيك أمام أعينهم يأجوج.

هكذا قال السيد الرب، هل أنت الذي تكلمت عنه في الأيام القديمة عن يد عبيدي أنبياء إسرائيل الذين تنبأوا في تلك الأيام سنيناً أن آتي بك عليهم، ويكون في ذلك اليوم يوم مجيء جوج على أرض إسرائيل يقول السيد الرب أن غضبي يصعد في أنفي، وفي غيرتي في نار سخطي تكلمت إنه في ذلك اليوم يكون رعش عظيم في أرض إسرائيل، فترعش أمامي سمك البحر وطيور السماء ووحوش الحقل والدابات التي تدب على الأرض وكل الناس الذين على وجه الأرض وتندك الجبال وتسقط المعاقل وتسقط كل الأسوار إلى الأرض، واستدعى السيف عليه في كل جبالي يقول السيد الرب، فيكون سيف كل واحد على أخيه، وأعاقبه بالوباء وبالدم وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الذين معه مطراً جازماً وحجارة برد عظيمة وناراً وكبريتاً، فأتعظّم وأتقدّس وأعرف في عيون أمم كثيرة فيعلمون إني أنا الرب»[(١)].

وعندما اصطفى الله تعالى محمداً ﷺ من خيار ذرية سام رسولاً ونبياً للناس كافة، وأوحى الله بما ليس للناس علم به، كانت ذرية يأجوج ومأجوج هي وحدها المذكورة في سياق آيات القرآن المتعبد بتلاوتها دون سائر أبناء نوح عليه السلام وفي مناسبتين مختلفتين:

١ ـ أرّخ في الأولى لواحدة من دورات خروجهم على أبناء عمومتهم وذلك في سياق قصة ذو القرنين فقال تعالى:

---

(١) سفر حزقيال ٣٨: ١ ـ ٢٣.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[1].

٢ ـ وكشف في الثانية منهما عن حجب الغيب البعيدة متنبئاً عن آخر خروج لهم على ما تبقى من ذرية نوح قبل قيام الساعة، فقال تعالى:

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[2].

أما ما روي عنه ﷺ مما أوحى إليه به ربه عنهم فورد ما نقله جابر بن عمر عن النبي ﷺ قال:

«إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا عن الناس معائشهم، ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، إن وراءهم ثلاث أمم تأويل وتاريس ومنسك»[3].

ويقول الرسول ﷺ حاكياً عن ربه:

«يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير بين يديك، فيقول: اخرج بعث النار، قال: وما بعث النار، قال: في كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قالوا: وأينا ذلك،

---

(١) سورة الكهف: الآيات ٩٣ ـ ٩٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات ٩٥ ـ ٩٧.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم ـ ابن كثير ص ٢٠٢.

قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف»[1].

ويبدو اسم يأجوج ومأجوج في ظاهره كالإسم الأعجمي الذي اتخذ صورة جعلته أقرب إلى العربية، مما جعل الكثير من فقهاء اللغة العربية يميلون إلى القول باشتقاقه من الأصل الثنائي المعتل (أ ج)[2] الدال في مجمله على شدة الحر وسرعة العدو، فمن جهة يشتق من أجيج النار وهو التهابها وشدة حرها وتوهجها، ومن جهة أخرى يشتق من الأج وهو الإسراع والهرولة، أو سرعة العدو والحركة.

وقد لا يكون الاشتقاق صحيحاً لما في الاسم من عجمة لا تخفى على أهل العربية، ولكننا نرجح على أقل تقدير صحة اشتقاق الاسم في دلالته ومعناه، وذلك لأنه هو وحده المنتزع انتزاعاً طبيعياً من أحوالهم وصفاتهم الذاتية وخواصهم المميزة، فجاءت دلالته عليهم أصلية، وفيها التعبير المباشر عن مكنون دواخلهم النفسية والروحية، والمعبر الحقيقي عن شخصيتهم الفريدة، والمميز لهم عما عداهم من الناس، بحيث يصبح سائر ما أطلق عليهم من أسماء من قبيل الحلية والصفة وتلك على كثرتها لا تنبىء ولا تدل على شيء، وهي التي ضللت الناس قديماً وحديثاً عن أصول القوم.

واسم يأجوج ومأجوج وإن بدا كالإسمين إلا إنه اسم واحد، اشتق من مادة واحدة، وجاء حرف الواو في صورة الواو العاطفة وذلك حتى يتحول اللفظ أو اللفظين معاً إلى كلمة واحدة مركبة هذا التركيب المزجي الفريد في لفظه وفي دلالته ومعناه، والمناسب تماماً لأحوالهم وخصائصهم وصفاتهم وأفعالهم، وقد يكون الواو حرف عطف ليربط بين لفظين يشتق كلاهما من مادة واحدة، يتفرع منها معنيان شدة الحر وسرعة العدو، يكمل كل منهما الآخر، وهو أليق بهم وأصدق في التعبير عن كيانهم الفريد وشخصيتهم المميزة.

---

(١) صحيح البخاري ج (٦) ص ٣٨٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة العربية ج (١) - ابن فارس ص ٨، ٩.

أما المنطقة التي استقروا عليها جيلاً بعد جيل حتى أصبحت لهم بطول المقام وطناً لهم، فهي ما يعرف اليوم بمنغوليا، وهم بأنفسهم أكدوا في كتبهم المأثورة على أن هذه المنطقة دون سواها هي مهد أجدادهم الأوائل، ويعنون بالتحديد القطاع الواسع من الأرض والذي يضم صحراء جوبي وجبال ألطاي Altai والجزء الشرقي من تيان شان Tien shan.

والجويني (عطا ملك) الذي كان معاصراً لخروجهم السابع على العالم الإسلامي نقل لنا ما سجّله أحفادهم لا من باب التصديق وإنما من باب الإعجاب، إذ أن المنطقة التي حددت في كتبهم من مناطق الأرض التي يصعب تصور حياة عليها، فقال بالحرف الواحد:

«ومن مزاعم المغول أن بدء وجودهم وتناسلهم كان على نهر أرتون (أورخون) الذي ينبع من جبل يسمونه قراقورم»[١].

ويتبين لنا بعد الرجوع لأصل الكلمة في تاريخ الشعوب المجاورة لهم، وعند الأمم التي لها موروث ديني وعلى صلة بخبر السماء، أن أصل الكلمة يرجع إلى كلمة منكوك أو منجوك[٢] (بالكاف الفارسية) وتنطق في اللغة العبرية ماكوك، ومنها نقلت إلى اليونانية فصارت ميكاك، وكلاهما يطابق في نطقه كلمة مأجوج في صورتها العربية، وعندما خُضِّعت الكلمة لقواعد نطق ألسنة الأمم باختلاف وتباين مخارج حروفها وأصواتها حُرِّفت الكلمة فأصبحت منغول.

ولما وضع الجغرافيون المسلمون على هدى ميراث الأمم وعلومها، وعلى ضوء كشوفاتهم العلمية ورحلاتهم في أصقاع البلاد، صورة للأرض وتقسيماً للمعمور منها، لم يجدوا اسماً للأرض التي سكنها أسلافهم خلاف اسمهم، فسموها به، وحدود موضعها في خرائطهم في ركن قصي

---

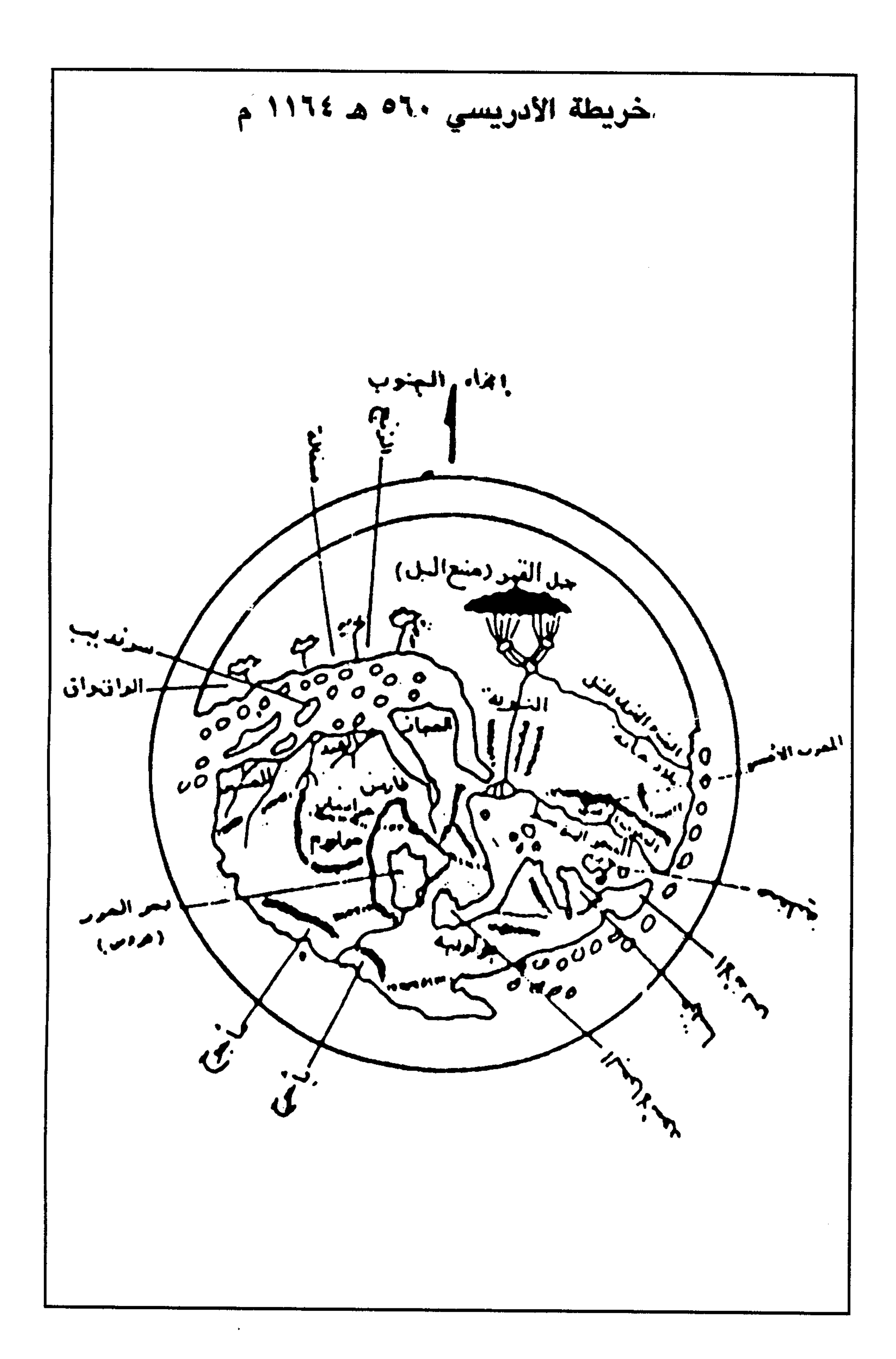
(١) تاريخ فاتح العالم جـ (١) ـ الجويني ص ٨٠.

(٢) ويسألونك عن ذي القرنين ـ أبو الكلام أزاد ص ١٦٥.

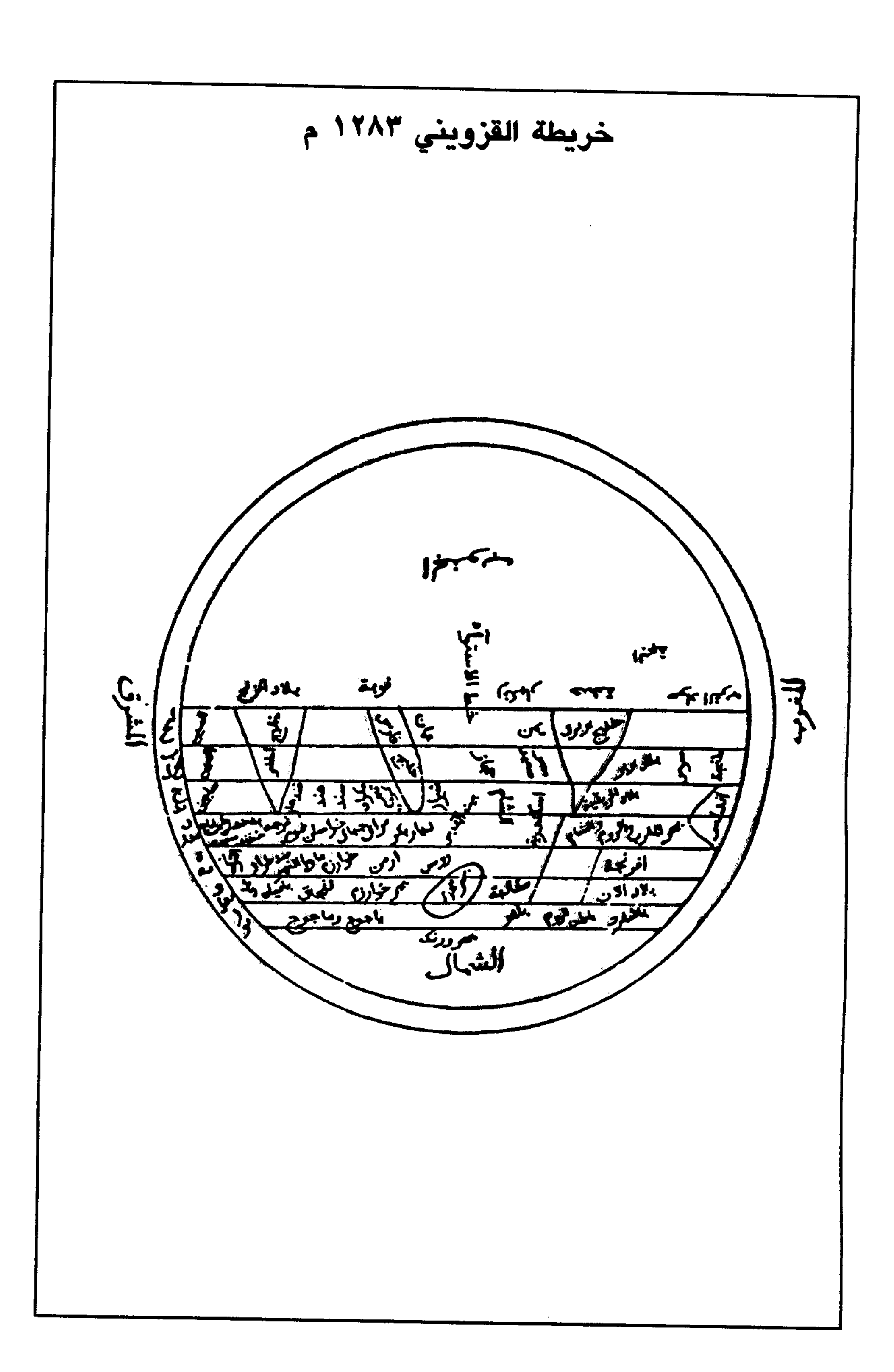
منزوي، يقع ضمن دائرة الكرة الأرضية في الشمال الشرقي منها.

وتقع منغوليا الحالية بشقيها الداخلي والخارجي في منطقة تعد من أكثر مناطق آسيا بل والعالم أجمع ارتفاعاً ونتوءاً ووعورة، فمن جهة الشمال الغربي وإلى الجنوب الشرقي تمتد سلسلة جبال ألطاي بطول يزيد عن سبعمائة ميل، وبارتفاع يتراوح ما بين اثني عشر ألف قدماً وثلاث عشرة ألف قدماً فوق سطح البحر، وأعلى قمة في سلسلة الجبال كلها هي قمة جبل (تابون بوكدو أولا) والتي يزيد ارتفاعها عن خمسة عشرة ألف قدماً فوق سطح البحر.

خريطة الأدريسي ٥٦٠ هـ ١١٦٤ م



خريطة القزويني ١٢٨٣ م



وتتدرج جبال ألطاي في المناطق الشمالية تدرجاً تخف فيه حدة الارتفاع وتنبسط سلسلة الجبال لتشكل في تدرجها وانحدارها سهولاً منخفضة في ارتفاعها إذا ما قورنت بسائر جبال هضبة منغوليا، ولذا فارتفاعها لا يزيد في أعلى المناطق عن ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، في حين تنحدر سلسلة الجبال الجنوبية انحداراً شديداً ومتطرفاً لتشكل حاجزاً طبيعياً يطوق الهضبة على طول حدودها الجنوبية الغربية.

وتمتد من الشمال الشرقي وإلى الجنوب الغربي سلسلة جبال تيان شان بطول يبلغ حوالي ألف ومائتي ميل، وبارتفاع يتفاوت ما بين خمس عشرة ألف قدم إلى عشرين ألف قدم فوق سطح البحر، وإلى الجنوب الغربي من سلسلة جبال تيان شان تقع سلسلة أخرى هي جبال البامير Pamir، لتؤلف بمفردها هضبة مستطيلة الشكل وبالغة الارتفاع، وتنحدر نحو الغرب انحداراً لا تطرف فيه.

وفي أقصى الشرق تقع سلسلة جبال خانجاي Khangai والتي تمتد من شمال هضبة منغوليا إلى جنوبها حتى تتصل بصحراء جوبي Gobi القاحلة، وتمتد صحراء جوبي عبر منطقة شاسعة من الجنوب وحتى الشمال الغربي حيث تتصل بجبال خانجاي على حدود منشوريا.

وصحراء جوبي سهل مسطح تغطيه طبقة كثيفة من الحصباء شديدة الصلابة، جرّدتها الرياح العنيفة من العناصر الدقيقة كالطين والرمل، فأصبحت قاحلة ووعرة، حتى ظهرت في بعض مناطقها مساحات واسعة من الصخور تبدو للرائي من بعيد وكأنها جزر بحرية متناثرة هنا وهناك.

فإذا كانت سلاسل الجبال هذه مع صحراء جوبي تطوق منغوليا من جهة الشرق والشمال والغرب تطويقاً محكماً، فإن سلسلة جبال الهملايا تكمن هي الأخرى من جهة الجنوب أحكام التطويق، فتعزل منغوليا عن بقية مناطق آسيا الجنوبية.

وعلى هذا فمنغوليا عبارة عن هضبة مغلقة تقع ضمن دائرة واسعة

محيطها هذه السلسلة الجبلية الشاهقة والمنيعة، وتتخللها أودية وسهول شاهقة، ولا تتصل بآسيا والعالم إلا عبر ممرات جبلية ومسالك سهلة العبور نسبياً، تربطها بالصين من جهة الجنوب والشرق، وبأوروبا من جهة الغرب، أما من جهة الشمال والجنوب فلا تتوفر في الممرات والمسالك تلك السهولة النسبية، نظراً لارتفاعها الشاهق من جهة، ولبرودتها القارسة من جهة أخرى.

أسهم ارتفاع منغوليا عن معدله الطبيعي، وبعدها الشديد عن البحار وتأثيراها المختلفة، وتضاريسها المتموجة، وتكويناتها الأرضية الغريبة إسهاماً فاعلاً في خلق مناخ قاري متطرف إلى أبعد الحدود، ولا يثبت على حالة واحدة أبداً، بل تتخلله تغيرات متطرفة في درجات الحرارة والبرودة تبلغ حد الشذوذ، فبينما تكون البرودة قارسة في الشتاء تصل إلى درجة التجمد، تتفاقم درجات الحرارة صيفاً فتفوق المعدلات العادية بمراحل كثيرة.

وحتى هذا التطرف والتغير في مناخ الإقليم لا ينتظم على حالة واحدة صيفاً وشتاءً، فبينما تعاني المناطق الشمالية من البرد القارس تصطلي المناطق الجنوبية في الوقت نفسه بالشمس المحرقة والعواصف الترابية الهائلة. أما الجفاف فقد يضرب مناطق كثيرة في ذروة حرارة الصيف، كما يضرب مناطق أخرى في ذروة برودة الشتاء حتى أصبح التطرف الشديد من السمات المميزة لمناخ المنطقة، مع أن الاستقرار والانتظام والثبات من الأمور الطبيعية السائدة في أغلب البقاع الواقعة ضمن خطوط الطول والعرض نفسها التي يقع فيها الإقليم، مما تحتم معه القول بأن مناخ منغوليا نسيج وحده، ويعد بكل المقاييس نموذجاً فريداً ومتميزاً كسكانه تماماً.

بعد هذا العرض الإجمالي للمناخ المتطرف نأتي لبيانه على فصول الإقليم السنوية.

يعد فصل الصيف من أقصر فصول السنة، إذ لا يتجاوز عمره ثلاثة أشهر هي: يونيو ويوليو وأغسطس، وهو مثله في ذلك مثل سائر فصول الهضبة قد تحكمت فيه إلى حد كبير الجبال المحيطة بها، فمنعت عنه الرياح الدافئة الممطرة، مما نتج عنه ارتفاع في درجات الحرارة تبلغ حد التطرف والشذوذ، وتتفاوت من منطقة إلى أخرى بشكل مخيف، فقد تتراوح ما بين ٣٨ و ٤٢ درجة، وتصل أحياناً إلى ٦٠ درجة، وقد تزيد عن ذلك، فتحيل السهول إلى قطعة ملتهبة.

غير أن درجات الحرارة صيفاً لا تنطبق برمّتها على نصف الدائرة الجبلية من مرتفعات ألطاي وشيان تيان، ولا على المناطق الشمالية من الهضبة، حيث تخف درجات الحرارة وتنخفض تدريجياً كلما اتجهنا صوب الشمال، حتى لا تتجاوز في أقصى بقعة من الإقليم عن عشر درجات مئوية.

وفي منتصف شهر يوليو تلتهب المناطق السهلية الخضراء من شدة الحرارة، وسرعان ما يذبل جمالها الأخّاذ، وتتوارى خضرتها اليافعة مخلّفة وراءها لوناً أصفراً باهتاً يبعث في النفس الحزن والأسى، وتنصبّ عليها حرارة الشمس نهاراً بلا توقف فتحيلها إلى كتلة من الحرارة لا تطاق، وعندما تنحدر الشمس ميمّمة وجهها نحو الغرب، تخف شدة الحرارة إلى أقصى مدى لتفتح الباب عن مصراعيه لهبوب الرياح العاتية التي تضرب المنطقة يميناً وشمالاً وبلا رحمة لساعات طويلة.

وفصل الصيف على قصره وشدة حرارته لا يثبت على حالة واحدة. ففي الوقت الذي تقاسي فيه مناطق متفرقة من الإقليم لفحات الحرارة العالية، تهب على مناطق أخرى عواصف رعدية تغطي المنطقة كلها بسرعة جنونية، وبلا مقدمات، وعادة ما تكون مصحوبة ببَرَدٍ يتساقط على المنطقة بكثافة، وفي التو واللحظة يذوب البَرَد لارتفاع درجة الحرارة ويتحول بسرعة إلى سيول جارفة تكتسح كل ما يعترض طريقها.

أما فصل الشتاء فيمتاز بطوله، فيبدأ في الغالب في شهر نوفمبر ويستمر ما بين أربعة إلى خمسة أشهر، وقد يزيد عن ذلك قليلاً، وتنخفض درجة الحرارة فيه إلى أقصى حد، وتتراوح في بعض المناطق ما بين ١٥ إلى ٣٢ درجة تحت الصفر.

وفي فصل الشتاء تتجمد المياه في السهول وفي المنخفضات، بل قد تتجمد المياه حتى في أواني الشرب، ويتساقط الثلج بكميات تحيل المنطقة بأكملها إلى كتلة من الجليد، وتصبح وكأنها جزء من سيبريا ويستمر الشتاء هكذا حتى شهر مايو، حيث تخف حدة البرودة وينحسر الثلج من وجه الأرض.

ويندر سقوط الأمطار في شهور الشتاء، وإذا شذت القاعدة وهطلت أمطار فعادة ما تكون على شكل برد لا يستمر طويلاً، إذ تهب طوال الشتاء رياح ثلجية باردة من سيبريا شديدة الهبوب وفي غاية من العنف، فتعمل بقوة اندفاعها على إزاحة الغطاء الثلجي الرقيق الذي يغطي الأرض ويحميها، فتتعرى الأرض لتقع تحت وطأة برودة الرياح الشديدة فتتجمد القشرة العلوية من التربة، وربما تغلغل التجمد إلى باطن الأرض. ومع بداية انحسار البرودة وهبوب الرياح الدافئة تخف وطأة التجمد على التربة، وتعود الأرض إلى ما كانت عليه من قبل.

وما إن يودع الشتاء المنطقة ويحل فصل الربيع حتى ترتفع درجة الحرارة رويداً رويداً متخطية حد التجمد، فيصفو الجو، وتزدان الأرض بالخضرة، ولكن درجة الحرارة ـ كما هو الحال في أغلب فصول السنة ـ لا تثبت على حالة واحدة، فترتفع تارة وتهبط تارة أخرى طوال شهرين كاملين هما عمر هذا الفصل.

وفصل الربيع عموماً يتميز بشدة هبوب الرياح فيه، ويسبق رياحه نسيم لطيف يهب على المنطقة، ثم يعقبه سكون خامد ثقيل تتخلله ذبذبات هوائية تتحول بالتدريج إلى زئير رتيب يتعالى بين لحظة وأخرى، ثم تجتاح

المنطقة عاصفة غبراء داكنة لها زئير يبعث الفزع في القلوب، ومحملة بالرمال والحصى تقذف به وبقوة هائلة إلى مسافات بعيدة، عندئذ يصبح التنفس عسيراً والرؤية مستحيلة، والسير ولو لخطوتين مجازفة مميتة.

ولا يزال سكان منغوليا إلى يومنا هذا يلقون بأنفسهم بلا تردد إذا هبت مثل هذه الأعاصير الرملية، إذ هي وسيلتهم الوحيدة للنجاة، ويدفنون وجوههم في الأرض، أو في قطع من القماش المبلل، إذ هي الطريقة المفضّلة للتنفس، ويمكثون هكذا طوال فترة هبوب العاصفة.

ويتفاوت زمن هبوب العواصف الربيعية ما بين ساعة وأسبوعين، ومنها ما يهب لفترة وجيزة من الزمان قد لا تتجاوز الدقائق، ويغمر المكان عقب هبوب كل عاصفة ربيعية طال زمانها أم قصر سكون مطبق ينعدم فيه الهواء إلى حد خانق ومقبض، وترتفع فيه درجة الحرارة بلا سابق إنذار بحيث يتلهف المرء إلى نسمة من الهواء ولا يجدها.

ظلت هذه المنطقة الناتئة من العالم، ومنذ الخطوات الأولى لأبناء نوح عليه السلام على الأرض، وبكل تناقضاتها الحادة وتضاريسها المتموجة، مهداً ومستقراً ليأجوج ومأجوج وذريته من بعده، ألفوا قسوتها، وتأقلموا مع ظروفها البيئية الشاذة، وفي دائرة حدودها الضيقة تكاثروا، ومنها خرجوا على إخوانهم وأبناء عمومتهم خروجاً عاصفاً مدمراً شبيهاً بعواصفهم الربيعية، تضاربت في دوافعه الآراء والتفسيرات، وأجمع الكل على أنه لا نظير له ولا شبيه في تاريخ البشر.

الفصل الثاني

التـــأجـــج

يشترك يأجوج ومأجوج وذريته مع إخوانهم من سلالة يافث في نظام الجسم العام، ويقتربون منهم إلى حد كبير في ملامح الوجه العامة، فقد اشتهر اليافثيون قديماً وحديثاً بالرأس المستدير، والشعر الأسود الخشن، والجبهة المرتفعة، والوجه العريض المفلطح، والعيون المنحرفة ذات الجفون السميكة، والأنوف العريضة، والآذان الطويلة الضيقة، والشفاه المتوسطة لا هي بالغليظة ولا هي بالرقيقة، واللون الضارب إلى الصفرة، والقامة المتوسطة.

بيد أن الله تعالى خلق يأجوج ومأجوج وسلالته على هيئة ميزتهم عن إخوانهم، وركب فيهم من الصفات والخصائص ما لا يصدر عنه إلا كل ما يتسم بالشدة والاضطراب والسرعة، فشبهوا بالنار في اشتعالها واضطرامها وتوهجها، وجعل كل ذلك قوام لتكوينهم النفسي والروحي، ومبنى لنظام أجسامهم وملامحهم، وأظهر ما ركبه وركزه فيهم للوجود فخرجوا وقد اصطبغوا بصبغة التأجج والأجيج، منها انتزع اسمهم فكانوا اسماً على مسمى، وغرز بذرة التأجج في أصلابهم فظلت تنتقل من السلف إلى الخلف، وستبقى كامنة فيهم ومتوارثة في أجيالهم إلى آخر الزمان.

ومن المؤسف أن الأمم المجاورة لهم، أو تلك البعيدة عن ديارهم والتي أغاروا عليها في مراحل خروجهم المبكرة، لم تخلف لنا في تراثها ما يكشف عن خاصية التأجج في القوم والتي تظهر على ملامح الوجه وفي تكوينهم الجسمي، يرقى لمستوى الشهادة الحية والمعاصرة لهم، كل ما

تركوه لنا عبارة عن شذرات متفرقة تصف مظاهر خروجهم مثل استهتارهم البالغ بقيمة الحياة الإنسانية، وتخريبهم للديار على نحو يتجاوز حد المعقول، نجدها مبعثرة هنا وهناك في تاريخ الصين وفارس واليونان.

ومنذ القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن الثالث عشر الميلادي أغارت جموع يأجوج ومأجوج على الصينيين والأشوريين والرومان والمسلمين، وأحدثوا من الخراب والفساد الشيء الكثير، ولكن هؤلاء وحدهم الذين أدركوا خاصية التأجج فيهم وسبروا أغوارها، ووقفوا عندها مبهورين فزعين لما تنطوي عليه من قسوة وعنف وهمجية لم يعهدوا مثلها في غارات الناس، فجاءت كتاباتهم حية ومعبرة ومتشابهة في وصف خصائصهم ومميزاتهم وملامح وجوههم وتكوينهم الجسمي، على الرغم من تباعد ديارهم، وتباعد خروج القوم في الزمان والمكان.

والذين أرخوا لهم في دورات خروجهم المعروفة في هذه الفترة كثيرون، مهم من سمع عنه، فوثَّق ما سمعه عنهم، ومنهم من رآهم رأي العين في عنفوان تسلطهم على الناس وفي أوج قوتهم فأثبت ما رآه على الورق، وكان دافع الجميع إلى توثيق ما سمعوه أو رأوه هو غرابة أوصافهم وفظاعة أفعالهم وبشاعة وجوههم وشراسة ملامحهم، نعرض هنا لبعض منها، بادئين بما رآه الطبيب اليوناني أبقراط.

شدت ملامح السكيثيين وغرابتها أبو الطب اليوناني أبقراط في أخريات القرن السابع قبل الميلاد فوقف أمامها متحيراً ومستغرباً، وذلك لتفرد وجوههم بسحنة نارية لم يرَ لها شبيهاً فيمن رأى من البشر، فقال معبراً عما رأى بعينيه في كلمات غاية في الدقة والإيجاز:

«والسكيثيون يتشابهون فيما بينهم بمقدار ما يختلفون عن سائر الشعوب، ولونهم أحمر مشرب بسمرة»[1].

---

(١) الأهوية والمياه والبلدان ـ أبقراط ص ٥٠.

ويرد أبقراط سبب اختلاف وجوههم وشذوذ ألوانهم إلى المناخ المتفاوت ما بين الحرارة الشديدة والبرودة القارسة، إضافة إلى إقامتهم الدائمة في منطقة سهلية عالية الارتفاع، كل هذا أدى ـ كما يذهب ـ إلى اختلاف ملامحهم عن بقية الناس، ومن ثم أضعف في الظاهر انتماءَهم إلى العنصر البشري، وإن شابهوهم فيما يتشابه فيه كافة البشر.

أما نظامهم الجسمي فقد رده هو الآخر إلى تغيرات المناخ ولذلك وصفه بقوله:

«والسكيثيون بالضرورة ضخاماً، سمنهم يحجب مفاصلهم، وأبدانهم رطبة مسترخية، وتجاويفهم ولا سيما السفلى ملآنة رطوبة، لأنه لا يمكن أن ييبس البطن في مثل هذه البلاد ومع هذا المزاج وتحت هذا الإقليم، فسمنهم وبضاضة جلودهم يجعلانهم متشابهين بعضهم لبعض، رجالهم لرجالهم، ونساؤهم لنسائهم، لأنه لما كانت فصولهم تكاد تكون واحدة لم يكن المني يحصل في تجمده فساداً أو تغير إلا لآفة أو مرض.

وجميعهم مكويون على مناكبهم وذرعانهم ومعاصمهم وصدورهم وأوراكهم لرطوبة بدنهم ورخاوته لا لسبب آخر، والكي يذهب بزيادة الرطوبة من المفاصل ويشد أطرافهم ويزيدها تغذية وبروزاً.

أما سبب استرخاء أبدانهم وضخامتهم وقصرهم:

فأولاً: إنهم لا يستعملون القماط ـ كما في بلاد مصر ـ ولا يريدون هذه العادة ليحسن جلوسهم على ظهور الخيل.

وثانياً: لعيشتهم التي يلبثون فيها دائماً ساكنين، والصبيان ما داموا غير قادرين على الركوب يبقون أكثر أوقاتهم في المركبات قاعدين ولا يمشون على أرجلهم إلا قليلاً لأنهم دائماً في الرحيل والتطواف»[1].

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤، ٥٥.

ويتحكم في نظام أجساد النساء وصفاتهن نفس الخاصية التي هي قوام نظام أجسام رجالهن لا تشذ عنها في شيء، فيقول عنهن:

«ونساء السكيثيون مثل رجالهن في غاية الرطوبة»[١].

وهن يخضعن لما يخضع له الرجال من ضروب القسوة لتعديل نظام أجسادهن ليتلاءم مع المناخ، وينفردن عن الرجال في بعض النواحي الخاصة بهن كإناث، تحدث عنها أبقراط بقوله:

«ونساؤهم ما دمن عذارى فيركبن الخيل، ويشددن القوس، ويرمين السهام وهن راكبات، ويقاتلن أعداءهن، ولا يسمحن بفض بكارتهن قبل أن يقتلن ثلاثة أعداء، ولا يساكن حتى يتممن فروض الشريعة، ومتى تزوجت الواحدة منهن انقطعت عن ركوب الخيل والقتال، اللهم إلا إذا اضطرت الأمة كلها لحمل السلاح، وليس لهن ثدي أيمن، وذلك لأن أمهاتهن يحمين آلة من نحاس حتى تتوهج من شدة حرارتها ويكوين بها الثدي المذكور وهن في سن الرضاع، فيتوقف بذلك نموه، وتتحول كل قوته ونمائه إلى المنكب الأيمن والذراع اليمنى»[٢].

وفي القرن الخامس الميلادي خرجت جموع يأجوج ومأجوج قاصدة العالم الروماني، فشاهد الأوروبيون أناساً يشاكلونهم في الملامح وفي نظام الجسم العام، ويختلفون عنهم في قبح سحنهم وتشوهها إلى حد يثير الاشمئزاز ويبعث على الخوف، فعيونهم صغيرة سوداء اللون ومدفونة بعمق في الرأس، وأنوفهم مسطحة فطساء، وشعرهم أسود صلب، وأجسامهم مربوعة القامة ممتلئة ومنتصبة على الدوام، وأطرافهم قوية ومكتنزة، ورقابهم غليظة وصلبة، وأكتافهم عريضة، وعضلاتهم بارزة، ورؤوسهم بالنسبة إلى أجسامهم فكبيرة تضفي عليهم هيئة وحشية مرعبة، وغالباً ما يكونون خلو من الذقون، ولونهم داكن لا تطاق رؤيته.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق ص ٥٠.

ووصف المؤرخ الروماني جوردانيس Jordanese ملامحهم وصفاً استقاه من مشاعر وأحاسيس من رآهم عن قرب من معاصريهم فجاء صورة نابضة بالحياة، يستشف من خلالها خاصية التأجج المميزة لهم عما عداهم فيقول:

«هؤلاء (يعني الهون) ليسوا ببشر، وليس لهم لسان مفهوم كسائر خلق الله، ولا حرفة عندهم إلا الصيد وإدخال الرعب في قلوب أعدائهم، فقد كان مظهرهم مخيفاً لدرجة أن الشعوب القوية كانت تهرب في فزع تجنباً للقائهم، لأن لونهم الداكن ووجوههم الكالحة كانت تقذف الرعب في القلوب، فهم لا يملكون رأساً كالآدميين، وإنما لهم كتلة من العظام تقف على العنق لا شكل لها، وبها ثقبان صغيران يمثلان العينين.

وقسوتهم تجاه أبنائهم لا تعرف حدوداً، فقد كانوا يعاملون مواليدهم بفظاظة زائدة، ففي اليوم الأول من مولد الطفل يخدشون وجناته بالسيف قبل أن يسمحوا له بالرضاع من ثدي الأم، ويقصدون من وراء ذلك أن يشعروا كل طفل من أطفالهم بآلام الجروح قبل أن يستشعر لذة لبن الأم، وعندما يكبر الطفل تظهر على وجنتاه آثار تجاعيد عميقة ومتجمدة، ونتيجة لذلك لا تنبت لأحدهم لحية، ولا يكون له أي مظهر للجمال مثل الخصيان، أما وجوههم فتصبح قبيحة بصورة بشعة ومشوهة إلى الحد الذي يحسب فيه المرء أنهم من الحيوانات ذات الساقين»[1].

وبنفس الملامح السابقة والسحن القبيحة الشرسة التي تبعث الخوف والرهبة في القلوب اشتهر المغول في العالم الإسلامي بعد عدة قرون من ظهور إخوانهم في أوروبا، وما رآه المسلمون لا يختلف كثيراً عما رآه الأوروبيون، فالمغول متقاربو الشبه والخلقة، وجوههم عريضة مسطحة، ورؤوسهم كبيرة، وعيونهم صغيرة غائرة ذات جفون مسترخية ولكنها نفاذة تشبه عيون الصقر، وأنوفهم فطساء، ووجناتهم بارزة وشفاههم متوسطة،

---

(١) سبع معارك فاصلة ـ جوزيف داموس ص ٢٥ وأيضاً قصة الحضارة جـ (٢) ـ ول ديورانت المجلد الأول ص ٣٧٢.

وأعناقهم قصيرة وصلبة، وصدورهم واسعة، وشعرهم أسود خشن مستقيم.

أما أجسامهم فمربوعة وممتلئة مع قصر ملحوظ في القامة، وأكتافهم تميل قليلاً إلى الانحناء، وأطرافهم قوية، وعضلاتهم مفتولة، والغالب على لون بشرتهم اللون الأصفر النحاسي، والبني، والأسمر المائل إلى السواد، والبشرة بصورة عامة سميكة ومتغضنة.

ومن المسلمين الذين شدتهم غرابة سحنهم وشذوذها عما هو معهود ومألوف في بني البشر الشاعر الفارسي أمير خسرو، فوصفهم وصفاً دقيقاً ووافياً قال فيه:

«إن عيون المغول ضيقة جداً، وتظهر مجوفة بشكل عميق، بحيث يخيل للمرء من ضيقها ونفاذها كما لو قد حفرت في قطعة نحاس صفراء، ورائحة أجسامهم منتنة ومقززة للنفس، وأشد قرفاً وبشاعة من لونها المرعب، أما رؤوسهم فموضوعة على أبدانهم بحيث تبدو للعيان كما لو كانت قد وضعت على أجسامهم دون أن يكون لها رقاب.

وخدودهم تشبه القوارير الجلدية تغطيها غضون وثنايا وتجاعيد ذات عقد، وأنوفهم مفلطحة تمتد من عظمة وجنة العين إلى عظمة وجنة العين الأخرى، وأما فتحات أنوفهم فتبدو على شكل جحور فاسدة متعفنة من ميتة فيها، يتدلى من داخلها الشعر حتى الشفاه، وشواربهم طويلة وكثيفة إلى حد الغرابة، بينما شعر اللحية خفيف يتناثر على الذقون بلا نظام.

ولصدورهم لونان أسود [وأسود وأبيض] مغطاة بقمل يظهر وكأنه حبيبات سمسم نبتت في تربة رديئة وغير صالحة، أما بقية جسدهم فمغطى بهذه الحشرات، وجلودهم مبرغلة تشبه حبيبات مهروسة خشنة انتشرت فوق إهاب جلد حصان يصلح فقط لصنع الأحذية، وكان السلطان غياث الدين (سلطان دلهي ١٢٦٦ ـ ١٢٨٧) يعجب لمظهرهم الحيواني ويقول: إن الله خلقهم من نار الجحيم»[(١)].

---

(١) جنكيز خان ـ محمد أسد الله ص ١٣٢ وأيضاً المجتمع المغولي ـ سعد الغامدي ص ١٢٩، ١٣٠.

وسكان منغوليا اليوم يختلفون عن سائر الناس، ويشبهون أسلافهم في معظم ما عُرف عنهم، فشكلهم العام لمن يمعن فيه النظر يجده بلا تناسق ولا تناسب كأنهم يعانون من اضطراب عصبي، وهم ليسوا بأي حال من الأحوال من ذوي المناظر الوجيهة، ولا تسر ملامحهم أحداً، ولا يرتاح إليها من يراهم، ويستطيع الواحد لما يحسه من قلق واضطراب في تكوينهم أن يفرق بينهم وبين غيرهم على الرغم من اختلاطهم بغيرهم، وكثرة أوجه الشبه بينهم وبين إخوانهم من سلالة يافث.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن خاصية التأجج أصيلة فيهم، وركبت فيهم تركيباً غريزياً تتوارثه الأجيال، فليس من السهل حدوث تغيير يذكر سواء في ملامحهم أو خصائصهم ومميزاتهم، في المستقبل القريب أو البعيد، ويكفي للتدليل على صحة ذلك إيراد ما وصفهم به الرسول ﷺ في آخر خروج لهم على الناس وصفاً لا يختلف عما عرف عنهم في الأمس البعيد أو اليوم، فقال عليه السلام في خطبة له:

«إنكم لتقولون لا عدو لكم، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون، صهب الشعاف، من كل حدب ينسلون، كان وجوههم المجان المطرقة»[1].

ووصفهم البلخي وصفاً استند في معالمه البارزة على حديثه ﷺ، وصاغه صياغة لا تشذ عن مألوف ما عرف عنهم فيقول فيه:

«إن الغالب عليهم خفش العيون، وفطس الأنوف، وقصر القامة، وهم أسوأ الناس عيشاً وأخبثهم طعماً، وأقلهم تمييزاً وفطنة»[2].

فملامحهم في آخر الزمان تطابق ملامح أسلافهم، فوجوههم عريضة وغليظة تبعث الرعب والفزع، وعيونهم صغيرة، وأنوفهم مفلطحة انخفضت

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم - ابن كثير ص ٢٠٠.

(٢) البدء والتاريخ ج (٤) - البلخي ص ٦٤.

قصبتها إلى أقصى حد، وشعورهم حمراء يعلوها سواد، أو ما بين الحمرة والسواد، أما أجسامهم فقصيرة، أي مربوعة.

ومقارنة يسيرة بين ما سيكونون عليه في آخر الزمان، وبما كانوا عليه في الماضي، وبما هم عليه الآن، ترينا شدة تشابههم، وتقارب أوصافهم، مما يؤكد أن القوم قد فطروا وجبلوا على ما يجعلهم يحافظون دوماً على ذلك الشيء الذي ينفردون به عن غيرهم، وهو الذي يلفت نظر الرائي إليهم من الوهلة الأولى، فيُشد بقوة إلى غرابة ملامحهم وبعدها عما ألفه في البشر، ويسري في بدنه شعور غريب بالخوف والرهبة، يخيل إليه أن القوم ليسوا بشراً وإن اتخذوا هيئة البشر وشكلهم.

والتأجج وإن أطغى عليهم في مختلف الأزمنة سحناً وملامح متشابهة تفردوا بها عن غيرهم، فهو في الوقت نفسه ميزهم من حيث الحركة والنشاط الحركي والسلوك على المستوى الفردي العادي وعلى المستوى الجماعي كأُمة من دون الناس.

فعلى المستوى الفردي تبقى خاصية التأجج كقوة محركة ومحفزة له على النشاط الحركي أقرب إلى الخمود حيث تظهر فرديته في إطار ضيق تحفزه تحفزاً داخلياً للنشاط والحركة في تعامله مع محيطه وبيئته، وفي تعامله مع غيره، وبها يتشكل نسيجه الفريد وانتماؤه البين الصريح لأصوله الأولى، فتصبغه بصبغة خاصة، وتطبعه بطابع لا يمكنه من الذوبان والتلاشي في غيره بسهولة.

أما إذا اشتد التأجج وأصبح تحفزاً وحركة ونشاطاً خارجياً، أي خارج دائرتهم الضيقة، وخارج بيئتهم المألوفة، هنا يتعرض الفرد العادي إلى تفسيرات عميقة في كيانه النفسي والروحي، حيث يتوارى التأجج الداخلي في مجموع الأمة، ويندمج الفرد مع إخوانه ليؤلف مغ غيره كياناً جديداً يظهرون به للناس.

والتأجج كاندفاع خارجي يكسبهم وحدة وتماسكاً لا تحقق لهم على

المستوى الداخلي، وفيه التعبير عن مكنون الفرد العادي وعن مكوناته النفسية وأصوله العرقية، فينصهر في مجموع الأمة حتى يفقد إحساسه بفرديته واستقلاليته، وتضمحل فيه غريزة البقاء ويندفع للهدم والقتل والتخريب موجهاً خاصية التأجج إلى ذروتها، وهي الحالة التي يعبر فيها الفرد عن روح الأمة التي ينحدر منها، وتتمثل الأمة بأجمعها في هذا الفرد، ومن ثم تظهر الأمة للناس كياناً جديداً تلاشت الفردية والأنية بصورة مدهشة ومثيرة للإعجاب، وندر مثيلها في حياة الأمم.

وعموماً يتسم خروج هذا الكيان الجديد للعالم بسمات فريدة وجديدة لم تكن له من قبل نحصرها في ثلاث هي:

١ ـ التنظيم:

يملك الفرد العادي قبل انصهاره في بوتقة الأمة مميزات وخصائص يمارس بها حياته وضمن دائرة ضيقة، وبانخراطه في مجموع الأمة ينضوي تحت لواء تجمع جديد يحتويه ويعطيه دوراً ووظيفة يؤديها مع الجميع، وعندما يخرجون على الناس فإن السمة المميزة لهم كأفراد هي التنظيم البارع، والتخطيط الدقيق، والتنفيذ المتقن لأهداف الخروج، وقد فاقوا في ذلك أكثر الأمم ذكاء وحضارة ورقياً واقتداراً ومهارة في تنظيم وتحريك الجموع، وهو أمر لا يتفق مطلقاً مع ما كانوا عليه قبل الخروج من أمية وتوحش وانحطاط في الفكر والسلوك، وما كان يسود حياتهم من فردية وتنافس وتنازع وصراعات وخلافات، وتقاتل على أبسط الأشياء وأتفهها.

وربما تبادر للذهن بأن سمة التنظيم هذه قاصرة فقط على المحاربين وحدهم، ومن ثم فخروجهم للعالم إنما هو خروج جيش توفرت فيه أعلى درجات الانضباط، بينما الواقع خلاف ذلك، إذ أن خروجهم هو خروج أمة بلغ تأججها ذروته فوحد بينها، ودفع بشريحة كبيرة منها للقتل والقتال والإفساد في الأرض، ولذلك يشكل المحاربون قوتها الضاربة، في حين ينتقل غير المحاربين من النساء والأطفال والمسنين والعجزة على مركبات مبنية كالبيوت تجرها الخيول.

وتحريك مثل هذه الجموع الضخمة يتم هو الآخر وفقاً لخطة متقنة يوفر لهم أكبر قدر من الأمن والأمان، وفي الوقت نفسه لا يؤثر على حركة وتحريك المقاتلين، ولا يعرقل أهداف الخروج، ولذلك ضبطت حركتهم مع المستجدات ومع نتائج المعارك العسكرية، فتارة ينقلون إلى مناطق بعيدة عن مسرح العمليات، وتارة أخرى ينقلون إلى أقاليم فتحت حديثاً وأجلى أهلها عنها، وفي الغالب يصحبون المقاتلين ويسيرون في ركابهم، وكل ذلك يتم بطريقة لا تؤثر في البنية الاجتماعية للجماعة، ولا تعطل وظيفتها أثناء الخروج.

أما القوات المقاتلة فتنظيمها في حد ذاته بلغ درجة من الدقة والفاعلية يشبه إلى أبعد الحدود تنظيم الجيوش المعاصرة في أرقى ما وصل إليه العلم العسكري، بحيث تحول المقاتلون فيه إلى أداة قتالية منضبطة غاية الانضباط مع صرامة وشدة، ورغم قلة المعلومات عن هذه السمة في دورات خروجهم المعروفة، فإن ما بين أيدينا منها عن المغول كاف لبيانها، ننقله هنا بتمامه، فالجيش المغولي كان منظماً على النحو التالي:

«يعيّن ضابطاً على كل عشرة رجال، وآخرين لقيادة كل مائة وكل ألف وكل عشرة ألف على التعاقب، وهكذا يحدث أن عشرة من الضباط الذين يقودون عشرة رجال يتلقون أوامرهم ممن هم على أمرة مائة، وكل عشرة من هؤلاء يتلقون الأوامر ممن يقود ألفاً، وكل عشرة من هؤلاء الأخيرين ممن يقود عشرة ألف، وبهذا الترتيب لا يتحتم على كل ضابط إلا أن يرعى تدبير عشرة رجال أو عشر مجموعات من الرجال.

وعندما تحين أمام قائد هذه المائة ألف مناسبة لتجهيز فصيلة لأي خدمة معينة، يصدر أوامره إلى قادة عشرات الآلاف ليزوده كل منهم بألف رجل، ويصدر هؤلاء أوامرهم بالمثل إلى قادة الألف الذين يوجهون أوامرهم إلى من يقودون مائة، حتى يصل الأمر إلى الذين يقودون عشرة، فيوجهون فوراً العدد المطلوب إلى رؤسائهم من الضباط الأعلين.

وبهذه الطريقة يسلم مائة رجل لكل ضابط يأمر ألفاً، وألف رجل لكل ضابط يقود عشرة آلاف، وكل مجموعة من مائة تسمى توك، وكل ألف تسمى منغان، وكل عشرة آلاف تسمى تومان.

وعندما يتقدم الجيش لأداء خدمة يرسلون أمامه كوكبة من الرجال تتقدمه مسيرة يومين، وتوضع فصائل في جناحيه ومؤخرته رغبة في الحيلولة دون مهاجمته على حين غرة، فإذا كانت المهمة بعيدة لم يحملوا معهم إلا الشيء القليل، وذلك يكون بوجه خاص فيما يلزمهم من وسائل التخييم وأدوات الطبخ، ولكل رجل ثمانية عشر حصاناً وفرساً، إذا تعب الحصان الذي يركبه بدله بآخر.

وهم مزودون بخيام صغيرة مصنوعة من اللباد، يتقون بها المطر، وإذا حزبتهم الظروف في أثناء تنفيذهم مهمة تحتاج إلى السرعة فإن في مستطاعهم الزحف عشرة أيام طباقاً بغير تجهيز أطعمة، ويعيشون في أثناء تلك المدة على دم خيولهم، إذ يشق المقاتل عرقاً ويشرب من الدم ما يكفيه، ثم يسد الجرح.

وعند خروجهم للخدمة العسكرية يحملون معهم ما يقارب عشرة أرطال من اللبن المجفف لكل محارب، وتوضع في زق أو قربة صغيرة مع القدر اللازم من الماء، وبفضل حركتهم وهم ركوب تهتز محتويات القربة اهتزازاً عنيفاً ويتكون منها ما يشبه العصيدة الخفيفة فيتناولونها وجبة غداء»[1].

أما في حالة القتال والصدام المباشر فإنهم عادة ما يتحاشون الاشتباك الملتحم أول الأمر، ووفق خطة موضوعة مسبقاً، وهي إما مهاجمة العدو ثم الفرار من أمامه أو التظاهر بالفرار قبل الالتحام الفعلي، وظلت براعتهم في هذا النوع من القتال نمطاً ثابتاً لا يضاهى، استخدموه في أغلب

---

(١) رحلات ماركو بولو ص ١٠٩، ١١٠.

معاركهم وعلى وتيرة واحدة، فيصف تاريخ كمبردج خطة السكيثيين الرئيسية في الحرب فيقول:

«يحوم السكيثيون حول العدو قبل الالتحام المباشر بقواته، ثم يضربونه ضربات خاطفة ويفرون من أمامه، أو يحومون حوله إلى أن يجدوا فيه نقطة ضعف فينتهزونها وينزلون به ضربات مميتة، وإذا تجرأ العدو قبل بدء القتال واقترب من مربعاتهم القتالية، فإنهم عادة ما يتظاهرون بالفرار، وعندما يبتعد مسافة كافية عن تشكيلاته أو تتراخى وحدة جيشه، يكرون عليه بسرعة فيوقعون به هزيمة قاسية»[1].

وتكرر نفس هذا الفن من فنون القتال المؤثر على قوة العدو والموهن لروحه المعنوية عند الهون، فالهون عندما يهاجمهم العدو يتراجعون مطلقين السهام للدفاع عن أنفسهم، وقد يغيرون عليه وهم يولولون ويطلقون صيحات غريبة ومرعبة، حتى إذا ما لاقوا مقاومة تفرقوا، ولكن ليجتمعوا ويعودوا بالسرعة نفسها، وحالما يتحمل العدو خسارة جسيمة يكرون ويجهزون عليه.

وطبق المغول نفس النمط القتالي بلا تعديل يذكر، حتى يخيل للواحد أنه شيء غريزي فيهم، ويتحدث عنه ماركو بولو فيقول:

«وعندما يتقدم المغول للاشتباك في القتال فإنهم لا يطبقون على الأعداء أبداً، وإنما يظلون يحومون حولهم، ويطلقون عليهم سهامهم من هذا الجانب أولاً ثم من ذاك بعد ذلك متظاهرين أحياناً بالفرار، وهم يطلقون السهام إلى الخلف أثناء فرارهم من متعقبيهم، فيقتلون الرجال والخيول كأنما يقاتلونهم وجهاً لوجه.

وفي مثل هذا الضرب من القتال يتصور الخصم أنه أحرز نصراً، بينما هو قد خسر المعركة في الواقع، وذلك لأنهم حين يلحظون الضر

---

(١) The Cambridge Ancient History Vol. 3 P.199.

الذي أنزلوه به، يستدبرونه إليه ثم إذ يجددون القتال يتغلبون على ما بقي له من جند فيأخذونهم أسرى.

ودربت خيلوهم أحسن تدريب على التغييرات السريعة في الحركة حتى أنها لتبادر بالدوران على الفور في كل اتجاه لدن صدور الإشارة إليها، وبفضل هذه المناورات السريعة تمت لهم انتصارات كثيرة»[1].

والتنظيم الدقيق والانضباط العسكري الصارم يتطلب بالضرورة مميزات خاصة انفردوا بها في كل دورة من دورات خروجهم، من بينها مقدرتهم البدنية العالية على تحمل مكابدة الشدائد بكافة أنواعها بدءاً من الحرارة اللافحة والبرد القارس، مروراً بالسير لمسافات طويلة قد تستغرق أياماً بطولها، انتهاء بالصبر على الجوع الشديد، وذلك على الرغم من قوة شهيتهم للأكل، فلا يتذمرون ولا يتضجرون، ولا يرى عليهم آثار اضمحلال القوى وفتور الهمة.

ولقد شهد لهم كل من عاصر خروجهم بقوة عزيمتهم وصبرهم على القتال في أسوأ الظروف، وشدة مراسهم وبأسهم أمام عدوهم، واجتيازهم كافة الموانع والعقبات وإن كان فيها موتهم، يقول وزير الحرب الصيني إبان حكم الأمبراطور ون تي Wen Ti عن الهسيونغ نو:

«إن مقياس هبوط الهسيونغ نو من الجبال شديدة الانحدار يكون بسرعة مدهشة ومحيرة، ويتحملون الريح والمطر والجوع والعطش، وبإمكانهم المضي في السير القهري والاضطراري فلا تحول بينهم الجرف العميقة ولا تعوقهم شفا الكارثة، يوجهون خيلهم ليكونوا على مستوى أقرب إلى الأرض، وهم بارعون في استخدام السهام، وفي حالة الهجوم الفجائي يمكنهم إطلاق سهامهم وهم في السرعة القصوى، إنهم يهاجمون ويرتدون وإذا حدث وإن واجهوا عقبة فإنهم وبسهولة تامة يختفون دون ترك

---

(١) رحلات ماركو بولو ص ١١٠.

أثر كما لو كانوا سحابة صيف»[١].

ويقول المؤرخ الروماني أمينوس عن الهون:

«هذه الحيوانات السائرة على قدمين، هؤلاء الفرسان المزدرون بالتعب، المختلفون شكلاً خارجياً عن الأوروبيين»[٢].

ويتحدث ابن الأثير عن المغول في زمانه فيشهد لهم بما شهد لهم به كل من ابتلى بهم من قبله فيقول:

«سمعت عن بعض الأكابر وكان قد قدم رسولاً إنه قال: من حدثكم أن التتار انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثكم أنهم قتلوا فصدقوا، فإن القوم لا يفرون أبداً، ولقد أخذنا أسيراً منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر»[٣].

والمحارب منهم فارس من الطراز الأول، وجريء جراءة فائقة، وشجاع إلى حد الاستيئاس الأهوج، وحاد النظر، عينه كعين الصقر التي اعتادت النظر في المسافات البعيدة مترامية الأطراف، ولديه حاسة قوية لمعرفة الاتجاهات مكّنته من القيام بمسيراته الطويلة عبر الصحارى والأودية والسهول دون خرائط ودون إدلاء.

وعموماً فهو خفاف، سريعو الحركة إلى حد مذهل، بارعون في ركوب الخيل، لا يضاهيهم في ركوبها أحد، ولا نظير لهم وهم على ظهورها، لا يعرفون في حروبهم اعتبارات الخوف والأمل التي تكبح حركة المقاتل، وتقيد من حركة الحروب في الزحف والهجوم والإغارة، كما يعرفها المتحضرون في زمان خروجهم، هجومهم عنيف وشديد جداً، ينقضون على عدوهم كالوحوش الضواري، دون أن يقيموا وزناً كبيراً لحياتهم.

---

(١) The great wall of china - Jonathan Fryer P. 81.

(٢) تاريخ الحضارات العام ـ المجلد الثاني ص ٥٥١.

(٣) الكامل في التاريخ ج (١٢) ـ ابن كثير ص ١٧٧.

وبلغوا حد الإعجاز في الرمي والرماية والتسديد، مع براعة فائقة في استخدام القوس والسهام، يطلقونها من أي موضع وهم على ظهور الخيل، وحتى من الخلف، فبينما يجيد غيرهم الرمي كفن من فنون القتال، فإن المقاتل منهم قواس من الدرجة الأولى، يسدد السهم من مسافات بعيدة فلا تخطئ الهدف، والويل لمن يسدد نحوه سهمه الذي يحمل الموت، وسهامهم سريعة للغاية تنطلق بسرعة تقارب سرعة انطلاق الرصاص في زماننا هذا.

يتحدث هيرودوتس عن براعة السكيثيين في ركوب الخيل ومهارتهم في استعمال القوس فيقول:

«السكيثيون بين كل الأمم التي نعرفها هم الذين وجدوا آمن الوسائط ليحفظوا أفضل الامتيازات، ولكني لا أعرف عندهم شيئاً آخر يستحق المدح غير أنهم لا يدعون من يغزوهم يعود سالماً، فهم حاذقون في رمي السهام على الخيل»[1].

ويؤكد أمينوس على براعة الهون في استخدام الرمح والسهم فيقول:

«إن فرسان الهون هم أشد المحاربين جميعاً إثارة للرعب، لأنهم يحاربون من مسافات بعيدة مستخدمين القذائف التي بها عظمة حادة بدلاً من طرفها المدبب في العادة، وهذه العظمة الحادة مربوطة بالرمح بمهارة فائقة، ثم ينقضون بسرعة ليقطعوا المسافة التي بينهم وبين العدو ويقاتلون وجهاً لوجه بالسيوف دون تفكير في أرواحهم»[2].

وكذلك الحال عند المغولي فهو محارب لا يفوقه أي إنسان في حسن استخدام القوس والرمي، ويستطيع وهو راكب أن يصيب الهدف على بعد يتراوح ما بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ متر ومن جميع الاتجاهات، وجواده

(١) التواريخ ـ هيرودوتس ص ٣٧٢.

(٢) سبع معارك فاصلة ـ جوزيف داهموس ص ٢٦.

ينطلق إلى الأمام بأقصى سرعة، وفي القليل النادر ما يخطىء الهدف، ويبلغ سرعة نارية في رمي السهام، فيرمي السهمين والثلاثة مقابل سهم واحد لعدوه، متى وصف أحد القادة العسكريين هذه السرعة فقال:

«إن سهامهم كانت تمر كالبرد خلال سحب مثقوبة كالغربال»[١].

وبفضل ذلك التنظيم الدقيق للقوات المحاربة، وهذه المقدرة العسكرية الفذة، والتوجيه المتقن لتوزيع أدوات التدمير، ثم اعتمادهم وبصفة جوهرية على الخيالة كقوة ضاربة في الهجوم السريع المباغت، وسهولة تحريكها في كافة الاتجاهات مع موهبة نادرة في الرمي وإصابة الهدف بدقة، اكتسحت جموع يأجوج ومأجوج مناطق واسعة من العالم وتدمير جيوش لأمم بلغت درجة عالية من العلم والرقي والمدنية، الأمر الذي جعل فرق المشاة التقليدية والفرسان عديمة الجدوى، وعاجزة على الصمود أمام مناوراتهم وهجومهم السريع الخاطف.

وعلى الرغم من تبني معظم الشعوب لطريقتهم في القتال، وتغيير ما ألفته من فنون قتالية، بل وتقليدهم ومحاكاتهم فيما برعوا فيه وتفوقوا عليهم به، واقتباس أساليبهم في الحركة والمناورة، والاعتماد الكلي على الخيالة كقوة ضاربة في الجيش، إلا أن جحافل يأجوج ومأجوج أثبتت دوماً بأن كل ذلك لا يكفي للتغلب عليهم، والحد من تدفقهم وانتشارهم ووقف اندفاعهم التخريبي، بل هناك عامل خفي، وقوة متوارية خفية، يشعر بها كل من ابتلى بهم، هي السبب في تفوقهم، وفي دحرهم لكافة من تصدى لهم ووقف في طريقهم.

٢ ـ الطاعة المطلقة:

يبادر ذلك التكتل الجديد في أوج تأججه إلى وضع نفسه تحت إمرة قائد واحد يطيعونه طاعة من له أصلاً قابلية للرضوخ والخضوع والتجرد، وبإرادة حرة، وتمييز ووعي شديدين، حتى يخيل للمرء أن الفرد منهم

(١) جنكيز خان ـ محمد أسد الله ص ١٤٤ و ١٤٣.

وكأنه في ظمأ شديد للطاعة، إلى حد أنه يخضع وبشكل غريزي وعلى نحو غاية في الإعجاب وندر مثيله لمن يتولى أمره.

بيد أن تلك الطاعة هي في كل الأحوال صفة عرضية مؤقتة لا تتخذ معنى الطاعة من حيث هي استجابة لأمر الآمر، صحيح أن فيها عنصر الاختيار، ولها مجالها الحيوي المعهود، ولكنها في حقهم استجابة لداع خفي كامن في دواخلهم، ومرهونة بانفتاحهم الخارجي على الناس. حينئذ تتجه جموعهم مجذوبة بعوامل وقوى ليست منظورة، وفي حالة من الغضب الشديد، ومشبعين بروح وحشية يتجردون فيها عن أبسط ما تواضع عليه البشر من معاني الخير، وعن كل ما يتحلون به من صفات إنسانية.

وقد توافرت شواهد كثيرة على طاعتهم المطلقة لقادتهم ورؤسائهم، قل أن يحظى بها قائداً أو رئيس، وعلى استعدادهم الغريزي لإلقاء أنفسهم في المهالك، وتنفيذ أشق المهام وأخطرها بإشارة منه نكتفي منها بشهادة المسلمين في آخر خروج لهم.

فمن المعروف أن المسلمين قد انبهروا بإرادة قواد المغول الآمرة على جندهم، وغرابة سيطرتهم عليهم، وبمقدرتهم العجيبة على تحريك تلك الجموع الضخمة والتي تبدو وكأنها مجردة من الإرادة دون أن تسجل ولو حادثة واحدة خالف أحدهم فيها آمره، فيقول القلقشندي:

«وأما حالهم في طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا لمال أو لجاه، بل ذلك دأب لهم، حتى إنه إذا كان أميراً غاية من القوة والعظمة، وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب، حتى أذنب ذنباً يوجب عقوبته، وبعث السلطان إليه من أخص أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه يدي الرسول ذليلاً ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل»[١].

---

(١) الإسلام والتتار ـ عبد الخالق أبو رابية ص ٣١.

٣ ـ القسوة والوحشية:

يتسم تعامل جموع يأجوج ومأجوج مع غيرهم في ذروة تأججهم وأوج قوتهم بالوحشية والشراسة والبربرية، ولا تعرف الرحمة ولا الشفقة طريقها إلى قلوبهم، كأنها انتزعت منهم انتزاعاً، فهم لا يتورعون أبداً ولا يترددون في القضاء على كل ما يقع تحت أيديهم لا يفرقون بين المحارب والشيخ العاجز، ولا بين المرأة والطفل الرضيع، ولا بين الحيوان والنبات، فالكل عندهم سواء، والكل هدف لرغبتهم العمياء في الخراب والفساد، بل يجدون فيما يفعلون متعة تفوق سائر متع الدنيا.

سأل جنكيز خان ذات يوم صديقه ورفيق عمره نويان:

ـ ماذا يعود على الإنسان بالسعادة القصوى؟

فأجابه:

ـ جواد سريع يجوب به السهول الخضراء في فصل الربيع ممسكاً بيده باز يطير ليعود إليه بصيد.

فقال جنكيز خان:

ـ كلا، بل السعادة أقصى السعادة أن تسحق العدو سحقاً حتى يجثو خاشعاً عند قدميك، وأن تستحوذ على كل ما يملك، وأن ترى من حوله نساؤه باكيات يذرفن الدموع.

وتفتقر تلك القسوة والوحشية إلى أسس معقولة وأسباب وجيهة، ودوافع لها مسوغاتها اللهم إلا الشهوة البهيمية والرغبة الحقودة في القتل والخراب أينما وجد بشر، ووجد معمور من الأرض، ووجدت حياة، وهو ما لم يشهد له التاريخ مثيلاً، فغالباً ما تستند الأمم في خروجها وغزواتها على دوافع ومقاصد لها مسوغاتها المقنعة، ولا تشتط في قسوتها على الآخرين كما يفعل يأجوج ومأجوج، الذين إن خرجوا لا هم لهم إلا الفساد والخراب، وبقوة هوجاء لا عاطفة لها ولا شعور، ولا تختلف كثيراً عما

يفعله الإعصار المدمر والسيل الجارف والجراد الذي يقضي على الخضرة فلا يخلف وراءه إلا أغصاناً مجردة من بهجة الحياة ورونقها.

وفوق ذلك يتسم تعاملهم مع غيرهم بالمكر والغش والخداع والكذب، وانعدام الحس الأخلاقي، وفساد الطوية، وخبث السريرة، وسوء النية، وعدم احترام ما تواضع الناس على احترامه من عهود ومواثيق، وغرائز وضيعة جعلت جشعهم وطمعهم وشغفهم بما في أيدي الناس كريهاً وبغيضاً لذوي النفوس الكريمة الأبية.

يقول عنهم المؤرخ أمينوس:

«إن هذا الجنس من البشر (الهون) لم تعقه أَي ضوابط فقد كان يتحرق شوقاً مدفوعاً بالرغبة غير الإنسانية إلى انتزاع ممتلكات الآخرين، وتحت شكلهم الآدمي كانوا يخفون فظاعة الحيوان المتوحش، وشقوا طريقهم العنيف بين عمليات السلب والنهب التي شملت كل الشعوب التي اعترضت طريقهم.

وهم إذا ما عقدوا هدنة فإنهم كانوا غادرين، وغير جديرين بالثقة، وكانوا يميلون للفرصة المواتية، وعلى مثال الحيوانات المسوقة بالعاطفة الجامحة كانوا يجهلون كلية الفرق بين الصواب والخطأ، وكانوا مخادعين، وفي غموض شديد عند محادثتهم، ولم يرتبطوا بأي توقير لدين أو خزعبلات»[1].

وإلى جانب ذلك كله لا يعرفون الإحسان إلى غيرهم، ويبلغون درجة التطرف والمغالاة في البخل، فلا يجودون على غيرهم، بل لا تطاوع الواحد منهم يده بالإحسان لغير بني قومه، ولو بأتفه الأشياء وأهونها وأقلها نفعاً، حتى لو كان ما يجود به فيه إنقاذ لحياة إنسان.

---

(١) سبع معارك ـ جوزيف داهموس ص ٢٧.

وهم يعتقدون عن يقين راسخ بأنهم أفضل خلق الله، وخلاصة بني آدم المختارة، وصفوة الإنسانية، وخير من مشى على قدمين، ولهم اعتزاز وافتخار بأنفسهم فوق اعتزازهم وافتخارهم بأصولهم العرقية والسلالية ظل ممتداً إلى يومنا هذا بل وإلى الغد، وبالتالي فهم يحتقرون ما عداهم من البشر، وينظرون إليهم نظرة لا تساويهم بالحيوان وما دونه.

الفصل الثالث

الــــخـــروج

إن تاريخ سلالة يأجوج ومأجوج في معظمه تاريخ محفوف بالغموض. وتختلط وقائعه وتتشابه أحداثه مع تاريخ إخوانهم اليافثيين، وبقليل من إمعان النظر في تاريخ الصينيين أقرب شعوب المنطقة إليهم وأكثرهم احتكاكاً بهم يمكن رصد بعض منه، لا يؤخذ مأخذاً علمياً يطمئن إلى صحته ووثوقه، ولكنه يلقي الضوء على وجودهم في الإقليم الذي قدر أن يكون مسقط رأس أجدادهم ووطناً لهم.

فمثلاً نجد في الحوليات التي أرّخت لأباطرة الصين الأوائل وخاصة ياو Yao وشون Shun ما بين عام ٢٣٥٦ و ٢٢٠٦ ق.م[١]. إشارات سريعة ومقتضبة عن وجود قبائل متبربرة إلى الشمال والشمال الغربي منهم، كثيرة التنقل والحركة، أزعجت السلطات الصينية بغاراتها على الحدود للسلب والنهب، عرفت باسم هين يون Hien Yun شديدة الشبه في خصائصها وصفاتها وأحوالها بالهسيونغ نو.

وفي الفترة ما بين عام ٢٢٠٦ و ١٠٠٠ ق.م. على وجه التقريب حدث انفجار بشري هائل تدفق عبر نهري أرخون وكيرولين وبحيرة بالكاش نحو مناطق واسعة من آسيا وآسيا الغربية بلغ الذروة في الشراسة والبربرية أضعف الكثير من مجتمعات العالم القديم، ودمر بعض المدنيات فاضطرت شعوب كثيرة للنزوح من مواطنها الأصلية والهجرة غرباً وجنوباً مسببة

---

(١) The Cambridge Ancient History Vol. 4 P. 187.

بكثرتها الهائلة تصدعات في البنية الاجتماعية لشعوب المنطقة، ومؤدية في خاتمة المطاف إلى قيام مجتمعات جديدة هي خليط من عناصر شتى.

ويصعب في تلك الفترة الغامضة من التاريخ رصد حقيقي لخروج جموع يأجوج ومأجوج يرقى إلى مستوى اليقين العلمي، وما بقي حياً في ذاكرة الأمم وتناقلته أجيال البشرية عن أسلافهم عبارة عن شذرات قليلة وسطور تعد على أصابع اليد الواحدة تكشف عن قسوتهم البالغة على الناس، نجدها متناثرة ومبعثرة بين أيدي الشعوب من أقصى الشرق عند جيرانهم الصينيين إلى أقصى الغرب عند الآشوريين والإغريق.

ويمكن من خلال تلك الشذرات والسطور القليلة، مضافاً إليها ما حوته حوليات أباطرة الصين رصد خروجين لهم، وعلى فترتين متباعدتين من الزمان، يشبهان في روحهما العامة ومظاهرهما المميزة خروجهم المعروف والموثوق به:

ـ الأوّل منهما اندفعت فيه جموعهم إبان حكم أسرة هيا Hia (٢٢٠٦ ـ ١٧٧٩ ق.م) نحو الصين ووسط آسيا في موجات بشرية كاسحة ضربت أغلب شعوب المنطقة، وبعد هذا التاريخ ولمئات السنين اقتصر خروجهم على الإغارة بقصد السلب والنهب، بلغت ذروتها أثناء حكم الإمبراطور وو وانغ Wu Wang (١١٢٢ ـ ١١١٥ ق.م)[١]، وأدت إلى هجرة للصينيين من شمال البلاد إلى جنوبها.

ولعل هذا الخروج وما تلاه من غارات هو الذي أحدث تحولاً عميقاً في تفكير الصينيين وسياستهم تجاه جيرانهم في الشمال، فأرغموا أمام قسوتهم وهمجيتهم إلى القيام بحملات ضخمة، توغلت في أراضيهم وخاضت معارك شرسة وقاسية توّجت جميعها بإضعافهم وكسر شوكتهم، وفرضت عليهم هيمنة غير مباشرة عن طريق الولاءات القبلية والزيجات بين

---

(١) The Imperial History of China - Macgown P.42.

أَميرات البلاط الصيني وزعماء قبائلهم، ضمنت ولفترة محدودة جانبهم وأمنت شرورهم.

واعتباراً من عام ٩٦٦ ق.م خفت القبضة الصينية، وضعف بمضي الزمن ولاؤهم، فأبدت الكثير من القبائل علامات التذمر وعدم الرضا عن هذه الهيمنة الذليلة، فأعد الإمبراطور موه Muh (١٠٠٠ ـ ٩٤٦ ق.م) حملة ضخمة لوأد تحركهم في مهده، والقضاء على أي محاولة لتوحيدهم، ولكن قسوة المناخ، وصعوبة التضاريس أنهكت قوى الحملة، وكلفت المعارك الحربية الصينيين آلاف القتلى، وكانت حصيلة الحملة على ضخامتها كما يقول أحد مؤرخيهم وبسخرية شديدة جلب «أربعة من الأيل وعدد كبير من الثعالب والذئاب»[1].

أما ثاني خروج لهم فالراجح إنه كان ما بين ١٥٠٠ و ١٠٠٠ ق.م وذلك على ضوء التغيرات السياسية والاجتماعية التي رصدت لمناطق وسط آسيا خلال هذه الفترة، وامتد وجودهم ليشمل المناطق الواقعة حول بحر قزوين والبحر الأسود، والإقليم الممتد شمال القوقاز وحوض نهر الفولجا والدانوب، وأحدث انتشارهم الواسع كالعادة اضطراباً كبيراً ليس فقط في السكان، وإنما في خريطة المنطقة برمتها.

ومن القرن السابع قبل الميلاد يبدأ التاريخ الفعلي والموثوق به لدورات خروج جموع يأجوج ومأجوج على العالم.

الخروج الثالث:

تدفقت جموع يأجوج ومأجوج مع بداية القرن السابع قبل الميلاد على المناطق السهلية الواسعة جنوب روسيا، ومنها انتشروا حول بحر قزوين والبحر الأسود وشمال القوقاز، ثم اصطدمت طلائعهم جنوباً

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٥١.

بالآشوريين، حيث عرفوا في الأخبار والمتون الآشورية باسمين مختلفين في النطق والشكل هما: أشكوزي Ishkuzai و Scythians (سكيثيون)، ومنها انتقل إلى الفرس والأوروبيين بأشكال مختلفة هي: Saka و Sace و Scythe و Socolote.

والاسم فيما يبدو لكبرى قبائلهم وصاحبة الأفضل الأول في خروجهم، أما لكثرتها العددية أو لقوتها وتوحيدها لكافة قبائلهم وإخضاعهم لسلطانها، وعندما اصطدموا بالأشوريين أكبر القوى العسكرية في ذلك الزمان وأعلاها حضارة ومدنية، ورد اسمهم ضمن الأعمال المجيدة التي أداها حكام آشور لأمتهم ولبلادهم، فشاع هذا الاسم دون غيره، وأثبته لهم الناس في تواريخهم كما سمعوه، وأخضعته كل أمة لقواعد لسانها، فتعددت أشكاله إلى أن استقر بهيئته السائدة اليوم.

نزل السكيثيون على القبائل القاطنة جنوب روسيا كالسيل العرم، وفي ضربات سريعة ومدمرة أخضعوا المنطقة برمتها لنفوذهم، وفر غرباً وجنوباً كل من حملته قدماه على الهرب، فأشاعت جموعهم المذعورة الخوف والرعب بين السكان، ولما وصلت جموعهم شرق بحر قزوين اصطدموا بدولة السيميرين Cimmerians، ومن هول ما سمع السيميريون عن قسوة السكيثيين وبربريتهم، وهنت قواهم وأيقنوا بعجزهم عن مواجهة هؤلاء الوحوش، مما سبّب خلافاً بينهم وبين حكامهم قصه هيرودوتس كما يلي:

«... فلما رأى السيميريون هؤلاء الغزاة قد نزلوا بأرضهم تشاوروا فيما بينهم، فاختلفت بينهم الآراء، كان رأي الشعب أن يخرجوا من البلاد ولا يعرضوا أنفسهم بلا تبصر لمحاربة جمّ غفير لا قبل لهم بحربهم، وكان من رأي الأمراء منازلة الغزاة ومقاومتهم أياً كانت النتائج، فما أراد الشعب أن يسلم برأي الأمراء، ولا أراد الأمراء أن يسلموا برأي رعاياهم.

كان رأي الشعب أن يرتحلوا بلا حرب ويسلموا البلاد إلى الذين اكتسحوها، وبعكس ذلك كان رأي الملوك، فإنهم رأوا أن من الأشرف لهم

أن يموتوا في وطنهم ولا يهربوا مع الشعب، فمن جهة كانوا يتصورون المنافع التي تمتعوا بها إلى ذلك العهد، ومن جهة أخرى كانوا يحسبون المصائب المزمعة أن تقع عليهم قطعاً إذا تركوا وطنهم.

وأصر كل من الحزبين على عزمه الأول، فتفاقم الشقاق بينهما وإذا كانوا متساويين في العدد أضرموا نار الحرب، فكل الذين قتلوا في ذلك الوقت دفنهم حزب الشعب قرب نهر تيراس Tyras، حيث ترى قبورهم حتى اليوم، وبعد أن انتهوا من الاحتفال بدفنهم خرجوا من البلاد فوجدها السكيثية مهجورة فاستولوا عليها»[١].

تدفق السيميريون بقضهم وقضيضهم على مملكة أورارتو Urartu[٢] حوالي عام ٧٠٧ ق.م، ولم يقوَ جيشها على الصمود طويلاً في وجه أمة تهرب بأجمعها من الموت فتحطم، وبتحطيمه تحطمت المملكة نفسها، فاضطر ملكها روماس للانتحار من فداحة ما ألم بشعبه ومملكته، ثم شق السيميريون طريقهم إلى شمال فارس عبر ممر داريل الرابط الوحيد ما بين شمال المنطقة وجنوبها.

ولدى اجتيازهم جبال القوقاز انقسموا إلى مجموعتين:

- مجموعة أصغر نسبياً فضلت الاتجاه جنوباً صوب بحيرة أورميا في الهضبة الإيرانية، ونظراً لقلة عددهم وافتقارهم الشديد للمأوى والمؤن وجهلهم بطبيعة الإقليم، فسرعان ما تحالفوا في الملك الميدي خشاتريتا في صراعه الطويل مع القبائل الفارسية والدولة الآشورية.

- والمجموعة الكبرى شقت طريقها غرباً تجاه دولة آشور وآسيا الصغرى تحت قيادة تنشبا Tenshpa، فتصدت لهم الجيوش الآشورية وأنزلت بهم هزائم مريرة أجبرتهم على الاندفاع شمالاً صوب الأناضول، وفي طريقهم

---

(١) التواريخ - هيرودوتس ص ٢٦٦.

(٢) The Cambridge Ancient History Vol. 4 P. 188.

التقوا بالملك ميداس ملك فيرجيا Phirgia وألحقوا به هزيمة منكرة مكّنتهم من التوغل شيئاً فشيئاً في عمق البلاد، مما يعني فعلياً تقوض المملكة.

مال السيميريون بعد ذلك على مملكة ليديا، فلم يقوَ ملكها جيجس على مقاومة الغزاة أو التصدي، فطلب العون من الدولة الآشورية على الرغم من العداء الطويل بينهم، وأكره الأشوريين أمام انقلاب ميزان القوى في المنطقة بظهور السكيثيين إلى عقد تحالف بين الدولتين للوقوف في وجه العدو المشترك.

تصدى الحليفان لجموع السميريين في إقليم كيكيكة حيث دارت معركة فاصلة وضعت حداً نهائياً لوجودهم في آسيا الصغرى، وبقيت منهم شراذم قليلة ظلت تنتقل هنا وهناك بلا حول ولا قوة، ودونما رغبة واضحة في الاستقرار، إلى أن لحقوا بالسكيثيين في اندفاعهم جنوب القوقاز.

عقب رحيل السيميريون توطدت أقدام السكيثيون في المنطقة وأقاموا من أنفسهم حكاماً لإمبراطورية ضخمة تبدأ حدودها من صحراء [جوبى] في منغوليا وحتى شمال البحر الأسود، وتضم في امتدادها الطويل شعوب وقبائل متعددة وكثيرة، أكرهوا جميعاً للانضواء تحت قواتهم المحاربة، فتكون جيش مرهوب الجانب وبأعداد كثيفة أخلّ بميزان القوى شمال وجنوب القوقاز، ودفع بالدولتين الميدية والآشورية إلى التودد إليهم، وضمان صداقتهم، وكسبهم إلى جانبهم في الصراع الدائر بين مختلف القوى في المنطقة.

وأول من سعى إلى استقلال هذه القوة الجديدة هو الملك الميدي خشاتريتا الذي عقد تحالفاً مع الملك السكيثي بارتاتوس Partatus[١] ضمن بموجبه وقوفهم إلى جانبه، فانغمس في حرب طويلة من أجل توحيد بلاده، تمكن خلالها من ضم معظم القبائل الميدية إلى سلطانه، وأقرت له القبائل الفارسية بالتبعية، وبذلك بسط سيادته على رقعة واسعة من الأرض.

---

(١) The Cambridge Ancient History Vol. 4 P. 188.

ولما وصل خشاتريتا إلى مجمل أهدافه، وبلغ حداً من القوة والسلطان يزيد على ما لدى الآشوريين، واطمأن إلى وعود السكيثيين له بالوقوف على الحياد في أي حرب يخوضها مستقبلاً، فكر في مهاجمة الآشوريين، وهي فكرة غاية في التهور والخطورة، وتنم عن جهل فاضح بطبيعة السكيثيين، وبمعزى التغيرات الهائلة التي أحدثوها في المنطقة وفي زمن قصير وبسرعة ليست معهودة، أربكت الأهالي وأشاعت فيهم ذعراً وخوفاً لا مثيل له.

اندفعت جيوش خشاتريتا الجرارة نحو حدود دولة آشور موقعة بجيوشها هزائم متتالية، وبعد مقاومة مستميتة للآشوريين داخل بلادهم وعلى طول خط سير الفرس دحر الآشوريين نهائياً، وانفتح الطريق المؤدي إلى نينوى العاصمة، ولم يمض وقت طويل حتى حوصرت العاصمة حصاراً طويلاً نفدت فيه الأقوات وقلّت المؤن ووهنت عزيمة المدافعين، فأخذوا في الاستعداد لتسليم العاصمة بشروط تكفل للسكان الأمن والأمان على أرواحهم وممتلكاتهم.

في هذه الأثناء توفي بارتاتوس قائد دورة الخروج الثالثة في معسكره شمال القوقاز، وكما هي تقاليدهم في دفن زعماءهم اختيرت له بقعة نائية من أملاكهم لا يعرفها غيرهم لدفنه فيها، وهناك حفر له خندقاً مربعاً كبير الحجم، في الوقت الذي بدأت إجراءات إعداده لمثواه الأخير تجري على قدم وساق، فطليت جثته ونظفت وملئت بالطيوب، وفي طريقهم الطويل إلى حيث مدفنه، حلق رجال الموكب الحزين ما أحاط برؤوسهم من شعر وجرحوا سواعدهم، وخدشوا جباههم وأنوفهم، وخرقوا أيديهم اليسرى بالسهام.

ولما وصل الموكب إلى الموضع الذي تقرر دفنه فيه، وضعوه على فراش من الحشيش وورق الشجر، وفي المكان الفارغ من الخندق وضعت إحدى سراريه بعد خنقها، وكذلك ساقيه وطاهيه وسائسه ووزيره وأحد

خدمه وبعض الخيول وبقية الأشياء التي كان يستخدمها في حياته اليومية، وبعد الفراغ من كل هذا ملأوا الخندق تراباً حتى بلغ تلة عالية.

وبعد مضي عام على وفاة الزعيم أخذوا من خدمه من كان في حياته أكثر نفعاً له، وكلهم سكيثيون، ثم خنقوا نحو خمسين منهم، ومثلهم من أحسن خيله، ثم حنطوا الخدم والخيل بطريقة غاية في الغرابة وصفها هيرودوتس بقوله:

«يستخرجون الأحشاء وينظفون البطون ويملأونها تبناً ويخيطونها ويضعون على خشبتين نصف دائرة منقلبة، ثم نصف دائرة على خشبتين أخريين وكثيراً غيرها وهلم جرا، يعلقونها على نمط واحد، ثم يرفعون على أنصاف الدوائر الخيل بعد أن ينفذوا فيها أوتاداً على طول البدن حتى الرقبة، فأنصاف الدوائر الأولى تلقى عليها أكتاف الخيل والبقية بطونها ومؤخراتها بحيث تبقى القوائم سائبة إذ لا تلقى على شيء ثم يضعون لها لجماً وشكائم ويجرون اللجام إلى الأمام ويعلقونه في وتد، وبعد ذلك يأخذون الشبان الخمسين الذين خنقوهم ويضعون كلاً منهم على فرس بعد أن ينفذوا في بدنه من المعقدة إلى الرقبة وتداً يغرز أسفله في ظهر الفرس متصلاً بالوتد الذي في جوفه»(١).

ثم وضعوا هؤلاء الفرسان بترتيب معين حول القبر.

وفي الاجتماع الكبير الذي ضم أغلب القادة العسكريين لمناقشة أهداف المرحلة المقبلة وما ينبغي اتخاذه إزاءها، أُسندت قيادة الدورة إلى ابنه ماديس Madyes(٢)، وبعد فترة من الهدوء النسبي امتدت لفترة قصيرة زحفت جموعهم جنوباً عبر الممر الشرقي لدربند أطول الطرق وأشقها، وهيرودوتس هو وحده الذي أشار إلى اتخاذهم طريقاً غير ذلك المألوف للعابرين بين شمال القوقاز وجنوبه فقال:

---

(١) التواريخ - هيرودوتس ص ٢٨٨.

(٢) The Cambridge Ancient History Vol. 3 P. 190.

«والمسافة من بالوس هيوتيس إلى ناسة وكلخيدة ثلاثون مرحلة للمجد، والطريق المؤدية من كلخيدة إلى مادي بين الجبال (داريال)، لكن المسافة ليست طويلة بين هاتين المملكتين غير بلاد سابيرة، فإذا اجتازها المسافر يصل إلى بلاد مادي، وأما السكيثيون فلم يدخلوا من تلك الجهة، لكنهم ذهبوا من فوقها بطريق طويلة، بحيث كان جبل قوقاز (دربند) من على يمينهم»[١].

أحدث نزول السكيثيون المفاجىء بجموعهم الضخمة عل المنحدرات الجنوبية للقوقاز، واجتياحهم الخاطف لكل من اعترض طريقهم اضطراباً واسعاً بين الأهالي، وسادت الفوضى في شمال مملكة ليديا، ولم يكن هناك مفر من سرعة أخطار خشاتريتا بالخطر الداهم، فاضطر إلى رفع الحصار عن نينوى والعودة على عجل للدفاع عن مملكته.

وإلى الشمال من بحيرة أورميا دارت معركة حربية بين الطرفين، قاتل فيها الميديون دفاعاً عن أنفسهم ووطنهم قتالاً عنيفاً، ولكن تفوق السكيثيون في الفرسان ومقدرتهم العالية في القتال على صهوات الجياد، وسرعتهم الخارقة للعادة في ميدان المعركة حسمت الحرب لصالحهم، وَهُزِم الميديون هزيمة قاسية، فقدوا فيها كل أمل لهم في المقاومة أو الصمود، وأذعن خشاتريتا الإذعان المطلق لشروط المنتصر المهينة، ولم يلبث خشاتريتا طويلاً عقب ذلك فمات، وبموته انفتحت البلاد على مصراعيها لجحافل يأجوج ومأجوج فنزلوا عليها كالوحوش يعملون فيها نهباً وقتلاً وحرقاً وتخريباً، وتناقل الناس ما ارتكبوه من فظائع ما بين مصدق ومكذب، وما بقي حياً في ذاكرة الميدين أثبت منه هيرودوتس الجزء اليسير في تاريخه حيث قال:

«وأكثر السكيثيون من العبث والتخريب، وفضلاً عن أموال الجزية

---

(١) التواريخ - هيرودوتس ص ٦٣.

المرتبة كانوا يغرمون أفراد الناس ويسلبونهم أموالهم، وكانوا يسطون على البلاد ناهبين سالبين أموال الأهالي»[1].

بعد ذلك اتجهت جموع السكيثيين غرباً تجاه آشور، فعبروا ممرات جبال طوروس حيث اصطدموا بالحصون والاستحكامات الآشورية على طول الحدود الشرقية، وأبدى مقاتلوها مقاومة باسلة صمدت فيها أمام هجوم خيالتهم ومهارتهم الفائقة في الرمي، إلى أن انهارت الاستحكامات ودمرت الحصون على بكرة أبيها.

ولم يبق لدى الدولة الآشورية بسقوط الاستحكامات الدفاعية من قوى تتصدى بها للأعداء، فاستدعيت على عجل كل الوحدات العسكرية المرابطة على حدود الولايات الغربية، والمدن الكبيرة، وأيضاً الفرق العسكرية المكونة من الشعوب الخاضعة للدولة، أما الوحدات العسكرية فقد أنهكت قواها في حروب آشور الطويلة، وأما الفرق المؤلفة من الشعوب المقهورة فلا تملك من الكفاءة القتالية والإخلاص للدولة ما يعوض ضعف الجيش الآشوري، وهو الذي يعول عليه في كل حروب الدولة، الأمر الذي أدى بالقيادة الآشورية إلى التخلي نهائياً عن مجابهة الغزاة وجهاً لوجه، والاكتفاء بحشد كل الوحدات المقاتلة داخل حصون المدن الرئيسية وخاصة نينوى وآشور، وخلف المجاري المائية كخطوط دفاع لا يمكنهم عبورها بسهولة.

وبحلول عام ٦٢٠ ق.م عبرت جحافل يأجوج ومأجوج نهر [الخوصر] في طريقها إلى نينوى على الضفة الشرقية من نهر دجلة، وتقع بالتحديد في منطقة مثلثة تمتد من التقاء نهر دجلة بالزاب، وتمتد شمالاً لمسافة تزيد عن خمسة عشر ميلاً، والمدينة نفسها تقع داخل المثلث مع ميل واضح نحو الغرب، وأحيطت المدينة بمنطقة واسعة من المزارع

---

(١) التواريخ ـ هيرودوتس ص ٦٣.

والبساتين التي تنتج شتى المحاصيل لتأمين قوت السكان في الأوقات العادية وفي وقت الحصار، وفي الجزء الشمالي منها شيد الملوك وكبار رجال الدولة وقادة الجيش أفخم البنايات وأجملها.

وبلغت نينوى في هذا الوقت أوج ازدهارها وعظمتها، وغطت شهرتها العالم القديم كله، وشأنها شأن المدن الكبرى في عصرها فقد أحيطت بأسوار شامخة شيدت بالأجر والأحجار، وخلف السور مباشرة حفر خندق عميق، وبمحاذاة السور وفي مواضع متفرقة نصبت أبراج عالية للمراقبة، ويضم السور عدة أبواب أهمها باب الشمس شمس، وباب المسقى، وباب نرجال، وباب آشور[1].

لا يعرف بالتحديد ما جرى للمدينة وسكانها بعد أن ضرب السكيثيون الحصار حولها، ولكن فيما يبدو أن المدينة على سعتها وقوة أسوارها، وشحنها بزهرة الجيش الآشوري، قد آثرت الاستسلام على مقاومة يائسة يعقبها دمار شامل للمدينة وتنكيل بأهلها، أو ربما تكون المدينة قد اشترت سلامتها وسلامة أهلها بكميات لا حصر لها من الذهب، ولو أبدت نينوى أقل قدر من المقاومة، ودخلها الغزاة عنوة، لاستبيحت وارتكب فيها المنتصرون من القتل والخراب والحرق والنهب ما تتناقل فظاعته كافة الشعوب التي اكتوت بظلم وجور وجبروت الآشوريين، ولبقى حياً في التاريخ إلى يومنا هذا.

وبعد استسلام عاصمة البلاد اجتاح الغزاة ولايات غرب الدولة، ولاية إثر ولاية، ومدينة إثر مدينة، دون مقاومة تذكر يدمرون كل ما يقف في طريقهم، ويقتلون الناس بلا رحمة ولا شفقة، ومن بقي حياً سيم الخسف، وضربت على عنقه نير العبودية، وشاع الرعب والفزع في المنطقة بأثرها، وكتب النبي أرميا عن تلك الأيام السوداء المليئة بالخوف والقلق والاضطراب في حياة الناس حيث قال:

---

(١) الذاكرة الأولى - عبد الحكيم الذنون ص ١٣١، ١٣٢.

«اسمعي أيتها الأرض هاأنذا جالب شراً على هذا الشعب ثمر أفكارهم، لأنهم لم يصغوا لكلامي، وشريعتي رفضوها، لماذا يأتي لي اللبان من شبا وقصب الذريرة من أرض بعيدة، محرقاتكم غير مقبولة وذبائحكم لا تلذ لي، لذلك هكذا قال الرب هاأنذا جاعل لهذا الشعب معثرات فيعثر بها الآباء والأبناء معاً، الجار وصاحبه يبيدان، هكذا قال الرب، هو ذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من أقاصي الأرض، تمسك القوس والرمح هي قاسية لا ترحم، صوتها كالبحر يعج وعلى خيل تركب مصطفة كإنسان لمحاربتك يا ابنة صهيون، سمعنا خبرها، ارتخت أيدينا، أمسكنا ضيق ووجع كالماخض، لا تخرجوا إل الحقل، وفي الطريق لا تمشوا لأن سيف العدو خوف من كل جهة»[١].

توغل السكيثيون في المنطقة حتى وصلت جحافلهم شواطىء البحر الأبيض المتوسط، وهنا تجابهنا ندرة في المعلومات عن خط سيرهم، ومعظم ما أورده المؤرخون عن وجودهم في المنطقة وزحفهم جنوباً إلى حدود الإمبراطورية المصرية استخلص في مجمله مما أوحت به أسفار أنبياء بني إسرائيل الذين عاصروا زوال السيادة الآشورية في المنطقة برمتها، ومن أولئك الذين تنبأوا باجتياح يأجوج ومأجوج لفلسطين وما يجري على أيديهم من فساد، منهم على سبيل المثال أرميا الذي تنبأ بما سيحدث للسكان بصفة عامة ولليهود بصفة خاصة فقال:

«لذلك هكذا قال الرب إله الجنود، من أجل إنكم تتكلمون بهذه الكلمة هاأنذا جاعل كلامي في فمك ناراً وهذا الشعب حطباً فتأكلهم، هاأنذا أجلب عليكم أمة من بعيد يا بيت إسرائيل يقول الرب: أمة قوية أمة منذ القديم أمة لا تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به، جعبتهم كقبر مفتوح، كلهم جبابرة، فيأكلون حصادك وخبزك الذي يأكله بنوك وبناتك،

---

(١) سفر أرميا ٦: ١٩ ـ ٢٥.

يأكلون غنمك وبقرك، يأكلون جفنتك وتينتيك، يهلكون بالسيف مدنك الحصينة التي أنت متكل عليها، وأيضاً في تلك الأيام يقول الرب لا أفنيكم»[1].

ومن هناك زحف السكيثيون عبر الساحل حتى عسقلان ومنها حتى حدود الإمبراطورية المصرية، فاصطدموا بدفاعاتها وتحصيناتها المنيعة، وذلك لأن بسماتيك فرعون مصر بمجرد سماعه باندفاع الغزاة في الهلال الخصيب، وعجز كل القوى في إعاقتهم ووقف تقدمهم، طوى جانباً خططه التوسعية باستعادة الأملاك المصرية في فلسطين والشام، ورفع الحصار الطويل عن مدينة أشدود، ووجه كل إمكانيات الدولة لتحصين الخطوط الأمامية مستغلاً مهارة وخبرة المهندسيين الآشوريين، وعندما تسربت طلائع السكيثيين إلى الحدود اصطدمت بتلك الاستحكامات والتحصينات توقفوا.

استغل بسماتيك تلك الدفاعات أفضل استغلال، ووضع السكيثيين في موقف لا يتفق وطبيعتهم وهم في أوج قوتهم، ولا يتفق أيضاً مع طبيعة انفتاحهم على الناس، فعرض عليهم كميات ضخمة من الذهب، وهدايا لا حصر لها، مقابل رجوعهم من حيث أتوا، ووافق القوم على ما عرض عليهم، ومن ثم عادوا إلى فلسطين سالكين نفس الطريق الذي جاءوا به.

استقرت جموع السكيثيين في الهلال الخصيب فترة قصيرة في عمر الزمان، ثم فشا فيهم وباء غريب أودى بحياة الكثيرين منهم، ووضع حداً نهائياً لوجودهم في المنطقة، وبقيت جثثهم المتعفنة منتشرة على طول البلاد تزكم بروائحها الكريهة أنوف المسافرين، إلى أن دفنت في واد من الأودية حمل اسمهم فيما بعد، وحزقيال وحده هو الذي تنبأ بهذه النهاية الغريبة للسكيثيين حيث قال:

---

(١) سفر أرميا ٥: ١٥ ـ ١٨.

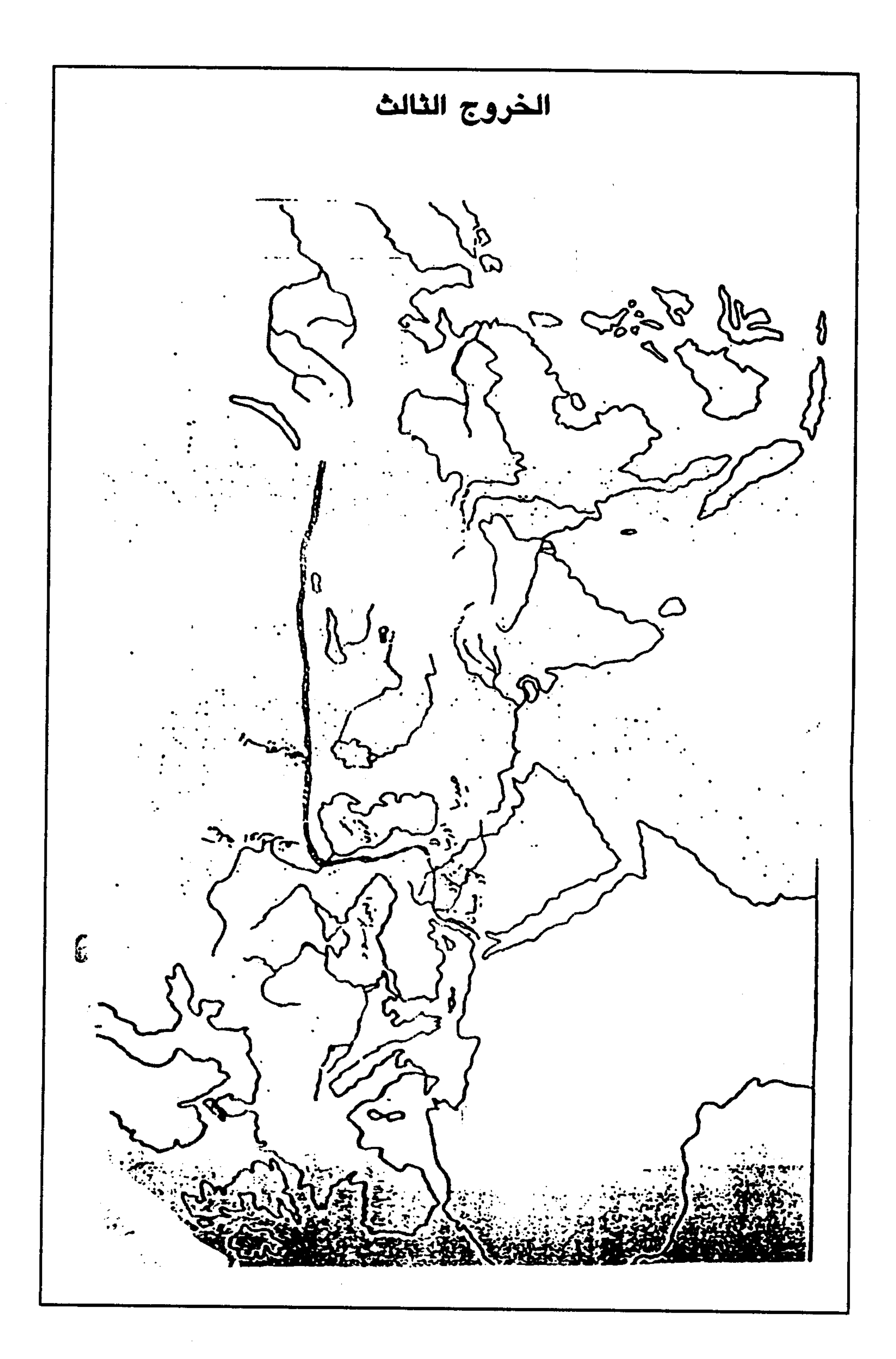
«وأنت يا ابن آدم تنبأ على جوج، وقل، هكذا قال السيد الرب، هاأنذا عليك يأجوج رئيس روش ماشك وتوبال، وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال وآتي بك على جبال إسرائيل، وأضرب قوسك من يدك اليسرى وأسقط سهامك من يدك اليمنى، فتسقط على جبال إسرائيل أنت وكل جيشك والشعوب الذين معك، أبذُلك مأكلاً للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل، على وجه الحقل تسقط لأني تكلمت يقول السيد الرب، وأرسل ناراً على مأجوج وعلى الساكنين في الجزائر آمنين إني أنا الرب، وأعرف باسمي المقدس في وسط شعبي إسرائيل ولا أدع اسمي المقدس ينجس بعد فتعلم الأمم إني أنا الرب قدوس إسرائيل.

ها هو قد أتى وصار يقول السيد الرب، هذا اليوم الذي تكلمت عنه، ويخرج سكان مدن إسرائيل ويشعلون ويحرقون السلاح والمجان والأتراس والقسي والسهام والحراب والرماح ويوقدون بها النار سبع سنين، فلا يأخذون من الحقل عوداً ولا يحتطبون من الوعور لأنهم يحرقون السلاح بالنار وينهبون الذين نهبوهم ويسلبون الذين سلبوهم يقول السيد الرب.

ويكون في ذلك اليوم إني أعطي جوجاً موضعاً هناك للقبر في إسرائيل ووادي عباريم بشرقي البحر فيسد نفس العابرين، وهناك يدفنون جوجاً وجمهوره كله ويسمونه وادي جمهور جوج، ويقبرهم بيت إسرائيل ليطهروا الأرض سبعة أشهر، كل شعب الأرض يقربون ويكون لهم يوم تمجيدي مشهوراً، يقول السيد الرب، ويفرزون أناساً مستديمين عابرين في الأرض قابرين مع العابرين أولئك الذين بقوا على وجه الأرض تطهيراً لها، بعد سبعة أشهر يفحصون، فيعبر العابرون في الأرض وإذا رأى أحد عظم إنسان يبني بجانبه هوة حتى يقبره القابرون في وادي جمهور جوج، فيطهرون الأرض»[١].

---

(١) سفر حزقيال ٣٩: ١ ـ ١٦.



الخروج الثالث

ولا يعرف بالتحديد موقع وادي جمهور يأجوج ومأجوج في المنطقة، وإشارة حزقيال إلى موضعه شرق البحر أفادت مؤرخي التوراة إلى احتمال وقوعه قرب بحر الجليل أو على الطريق العظمى بين سوريا، ولكنه ظن لا يرقى إلى مرتبة اليقين.

وعلى أي حال فبعد الكارثة الرهيبة التي أودت بحياتهم في غرب آسيا أحس الميديون بزوال ذلك السلطان الخفي الذي قهروا به الناس وأخضعوهم ردماً من الزمن، وساقوهم في ركابهم مسلوبي الإرادة، لذلك أقام الملك الميدي كياكسارس Cyaxares عام ٦١٥ ق.م مأدبة ضخمة دعا إليها ماديس وكبار قادة الخروج، حيث تعمد تقديم الخمر إليهم بكميات كبيرة حتى فقدوا الوعي، عندها دخل عليهم الفرس وقتلوهم عن بكرة أبيهم.

وبمقتل قادة الخروج فقد السكيثيون القوة المحركة والموجهة لجموعهم، فضعف شأنهم، فمنهم من عاد عبر القوقاز إلى بلاده، ومنهم من آثر البقاء في ميديا كرعايا للفرس، فشكل منهم كياكسارس قوة عسكرية ألحقها بجيشه، وكان آخر عمل قاموا به قبل اختفائهم نهائياً من المنطقة هو اشتراكهم في تدمير الإمبراطورية الآشورية.

ففي أوائل عام ٦١٢ ق.م اتحد كل من الميدين والبابلين بهدف القضاء التام على الإمبراطورية الآشورية وتقسيم ممتلكاتها، فتصدى لهم الجيش الآشوري شرق دجلة ولكنه هزم، فتوجه الحلفاء نحو مدينة نينوى، ونظراً لفخامة المدينة وكبر مساحتها وقوة تحصيناتها، ضربوا حولها حصاراً طوقها من جميع النواحي، تلته هجمات متكررة على الأبواب وأبراج المراقبة ردها المدافعون ببساطة منقطعة النظير.

وبعد ثلاثة أشهر من الحصار غدت المقاومة مستحيلة، وفي شهر يوليو من العام نفسه سقطت المدينة في أيدي الحلفاء، فاندفعوا في شوارعها يقتلون وينهبون بشكل مريع، ثم أشعلوا النيران فدمرت القصور والمباني والعابد وطمست معالمها، وتحولت المدينة في النهاية إلى أكوام

من الحجارة والطين، وضاعت من جراء ذلك ألوف الألواح الطينية من مكتبة نينوى، وساعد على ذلك الخراب الشامل عامل لم يكن في الحسبان وهو فيضان نهر دجلة وتدفق مياهه بغزارة في الشوارع والساحات، فقضى على ما لم تمتد إليه يد الفاتحين.

كان لسقوط نينوى دوي عظيم في أنحاء العالم المعروف آنذاك تردد صداه من جبال القوقاز إلى نهر النيل، لا حزناً وأسىً على دمار عروس المدن القديمة وتشريد شعبها، وإنما لأن في سقوطها رمز لسقوط الظلم والطغيان، وبداية عهد جديد لشعوب كثيرة طالما عانت من عسف وعجرفة ملك آشور، وعدم مراعاتهم لأبسط المبادىء الإنسانية في معالمة الشعوب المقهورة.

ومن بني المراثي التي لا يزال صداها يتردد في العالم، وتعبر بحسرة عما ألمّ بنينوى، وسقوطها من ذرى المجد وأوج العظمة إلى حضيض الذل والهوان مرثية لناحوم يقول فيها:

«ونينوى كبركة ماء منذ كانت، ولكنهم الآن هاربون، قفوا قفوا ولا ملتفت، انهبوا فضة انهبوا ذهباً فلا نهاية للتحف للكثرة من كل متاع شهي، فراغ وخلاء وخراب وقلب ذائب وارتخاء ركب ووجع في كل حقو، وأوجه جميعهم تجمع حمرة.

ويل لمدينة الدماء، كلها ملآنة كذباً وخطفاً، لا يزول الافتراس صوت السوط وصوت رعشة البكر وخيل تخب ومركبات تقفز وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية للجثث، يعثرون بجثثهم.

هاأنذا عليك يقول رب الجنود فاكشف أذيالك إلى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والممالك خزيك، وأطرح عليك أوساخاً وأهينك وأجعلك عبرة، ويكون كل من يراك يهرب منك ويقول خربت نينوى من يرثي لها، من أين أطلب لك معزين.

هو ذا شعبك نساء في وسطك، تنفتح لأعدائك أبواب أرضك، تأكل النار مغاليقك، استقي لنفسك ماء للحصار، أصلحي قلاعك، أدخلي في الطين ودوسي في الملاط، أصلحي الملين، هناك تأكلك نار يقطعك سيف يأكلك كالغوغاء، تكاثري كالغوغاء، تعاظمي كالجراد، أكثرت تجارك أكثر من نجوم السماء، الغوغاء جنحت وطارت، رؤساؤك كالجراد وولاتك كحرجلة الجراد الحالة على الجدران في يوم البرد، تشرق فتطير ولا يعرف مكانها أين هو، نعست رعاتك يا ملك آشور، اضطجعت عظماؤك تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع، ليس جبر لانكسارك، جرحك عديم الشفاء، كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام»[١].

ولا يوجد اليوم ما يدل على وجودهم في طول المنطقة التي غطها خروجهم هذا سوى اسم سكيثوبليس Scythoplis[٢] والذي أطلقه الإغريق على حصن بيث شان Beth Shan وبه سميت مدينة بيسان الحالية في فلسطين.

الخروج الرابع:

أرّخ القرآن الكريم لخروج يأجوج ومأجوج الرابع وذلك في سياق قصته لمهمات ذو القرنين (قورش) الثلاث، الأولى إلى أقصى الشرق، والثانية إلى أقصى الغرب، والثالثة والأخيرة إلى الشمال فقال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ

(١) سفر ناحوم ٢: ٨ - ١٠ و ٣: ١ - ١٩.

(٢) The Cambridge Ancient History Vol. 4 P. 146, 293.

﴿مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣﴾[1].

والمهمة الثالثة كما هو واضح من منطوق الآية جرت بعد منصرفه من مطلع الشمس، فمن المعروف إن ذا القرنين بعد انتهاء مهمته الشرقية أخذ طريقه متوجهاً إلى الشمال قاطعاً مسافة طويلة حتى وصل إلى مادا الشمالية، ومنها إلى خارج بلاده تاركاً بحر قزوين عن يمينه، ومنها إلى السهول والوديان التي تقع إلى الجنوب من جبال القوقاز، وعلى أحد شواطىء أنهار الإقليم عسكر بجيشه، فسمي النهر بنهر سائرس أي قورش، ولا يزال النهر يعرف إلى يومنا هذا بنهر (كورا).

وتمتد سلسلة جبال القوقاز امتداداً عرضياً من البحر الأسود وحتى بحر قزوين، وتشكل في امتدادها العرضي جداراً جبلياً منيعاً وشامخاً، لا يمكن لوعورته وارتفاعه عبوره ولا تسلقه، وتنحدر السلسلة الجبلية في البحر انحداراً مخيفاً، وفي وسط هذه السلسلة وبميل بسيط نحو الشرق يوجد مضيق يشق سلسلة الجبال شقاً طولياً، حتى انفصلت فيه السلسلة الجبلية مكونة سلسلتين جبليتين منفصلتين تمام الانفصال.

وهذا المضيق في موقعه الفريد، ووضعه اللافت للنظر هو الذي أطلق عليه القرآن اسم (السدين)، وهو إطلاق يصور الموقع تصويراً غاية في الدقة، إذ أن المضيق بالفعل يحجز بين سلسلتين من الجبال بينهما ممر أشبه بالثغرة، قاعدته على مستوى الأرض ويسهل عبوره، وجعل كل من السلسلتين تقف إحداها في مواجهة ومقابلة الأخرى، تماماً مثلما يقف الجبلان كلاهما وجهاً لوجه، تمتد الأولى من الممر شرقاً حتى بحر قزوين، وتمتد الثانية غرباً حتى البحر الأسود.

---

(١) سورة الكهف: الآيات ٨٣ ـ ٩٣.

وكان المضيق بشكله هذا هو المنفذ الوحيد بين شمال المنطقة وجنوبها، بل هو الرابط الفريد بين شمال آسيا وجنوبها، يجتازه المسافرون وسكان الأقاليم الشمالية والجنوبية جيئة وذهاباً في مختلف أغراضهم، وعبرة السميريون في هروبهم الكبير حين اجتاح السكيثيون المنطقة، وسلكته من بعدهم جموع السكيثيين في خروجهم على آسيا الغربية.

وفي المنطقة الواقعة ما بين السدين ونهر سائرس تنتشر السهول والوديان شرقاً حتى بحر قزوين وغرباً حتى البحر الأسود ومملكة ليديا، وجد ذو القرنين قوماً من الناس وصفهم القرآن بقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وذلك لقلة فطنتهم ونباهتهم وبطء فهمهم، ومخالفة لغتهم للغات من حولهم، لا يعرفون غيرها وبالتالي لا يمكنهم الفهم عن غيرهم، ولا يمكن لغيرهم الفهم عنهم.

والقوم من مدلول وصف القرآن لهم بدائيون ومنقطعون عن العالم، ومتخلفون عن ركب العلم والحضارة والمدنية، ومن ثم كانوا خلوّاً من نعمة التأمل وإنعام النظر واستعمال العقل لترقية حياتهم واستنباط الحيل والأسباب التي تقيهم شر أعدائهم.

وينطبق وصف القرآن على القبائل المذكورة في التواريخ اليونانية باسم كولشي، وكانت تستوطن نفس المنطقة التي نزل بها ذو القرنين، ولم تعرف الخضوع لأي من القوى السياسية المجاورة لها، فظلت منقطعة عن العالم يُجهل عنها كل شيء، وما يعرف عنها مشوب بالأساطير والخرافات، ولما خلف دارايوش ابن عمه قورشي (ذو القرنين) بعد وفاته في كرسي الحكم على مادا وفارس، ضم إقليمهم إل مملكته، وذكرهم في لوحة أعماله التذكارية ضمن الشعوب الكثيرة الخاضعة له باسم كبادوسيا Cappadocia[١].

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين ـ أبو الكلام أزاد ص ١٣٤ وأيضاً Iran - Ghirshman P. 153.

ومن القليل الذي عرفه هؤلاء الناس من أخبار الملوك في عصرهم خبر ذي القرنين، وما يتحلى به من صفات كريمة، وتطلع دؤوب لبسط العدل بين الشعوب المقهورة، ورفع الظلم عن المضطهدين، فلما نزل بديارهم ورأوا رأي العين ما أتاه الله من الملك والسلطان والعلم والقوة المادية، وما أيّده الله به من جند لا يعصون له أمراً، نأدوه باللقب الذي اشتهر به نداء المستضعفين فقالوا:

﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[١].

وقولهم السابق على ما هم عليه من بطء في الفهم، قد نقل إلى ذي القرنين، إما بواسطة مترجم منهم له إلمام بلغة الميدين الفرس، أو من الفرس أنفسهم ممن له معرفة بسيطة بلسان القوم، أو ربما يكون ذو القرنين بما آتاه الله من الأسباب فهم شكواهم واستغاثتهم بتيسير من الله وبلا حاجة إلى وسيط.

وشكوى القوم ـ كما هو واضح ـ ليست من يأجوج ومأجوج من حيث هم بشر، وإنما مما يصاحب خروجهم من قتل للأنفس وتخريب للديار وإشاعة الذعر والخوف في قلوب الخلق، وسائر أنواع الفساد والتي بقيت ذكراها الدامية حية يتناقلها الخلف عن السلف، وتحولت في النهاية إلى كابوس ثقيل جثم على صدورهم تزيد من حدة وطأته غارات من تخلف منهم واستوطن شمال بحر قزوين وجبال القوقاز للسلب والنهب.

ولشدة هلعهم من خروج آخر ليأجوج ومأجوج لا من غارات أحفادهم المحدودة تندفع فيها جموعهم عبر هذا المضيق وينكلون بهم كما فعلوا بأسلافهم سألوا ذا القرنين مستفهمين:

﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا﴾[٢].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٩٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ٩٤.

إن استفهام القوم الاستخباري لذي القرنين ببناء سد يحجز بينهم وبين أي خروج ليأجوج ومأجوج في المستقبل، بنى على معرفتهم البسيطة بضخامة العمل الذي سيؤديه لهم، وعظم تكلفته، وكثرة الأيدي العاملة في إقامته، لذلك عرضوا عليه مبالغ طائلة من المال كأجر يدفعونه له مقابل الجهد الخارق المبذول لتأمين حياتهم.

ولو أخذ ذو القرنين أجراً نظير ما يؤديه من عمل مهما عظم وكبر، لأُسند إليه العمل وحده، ولما أعانه أحد منهم على ما يحتاج إليه في البناء، ولهذا خاطبهم خطاب قصد به خيرهم وصلاحهم، وأظهر فيه كمال عناية الله به، وسعة ما بسطه عليه من مال وقدرة وسلطان فقال لهم:

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾(١).

ويرمي ذو القرنين من معونتهم مساعدته له فيما ينقصه هو مثل القوى العاملة لنقل مواد البناء ورفع الأثقال، ومواد البناء من حديد ونحاس وأخشاب، ثم الآلات اللازمة لإذكاء النار وصهر المعادن وتذويبها، وكلها متوفرة عندهم، وبالحصول عليها يكونون قد أعانوه على اكتمال ما عنده من أسباب القوة.

استخدم ذو القرنين في ردمه للمضيق قطع الحديد الكبيرة (زبر الحديد)، فوضع بعضها فوق بعض حتى سدت الفراغ بين الجبلين، ثم أمر القوم بإشعال النار في قطع الحديد، ولما صارت قطع الحديد كالنار من شدة الاحمرار، صب النحاس المذاب (القطر) على الحديد الملتهب، وذلك ليلتصق الحديد بعضه ببعض ويشتد تماسكه، وتنسد الثقب التي فيه، وبزوال الحرارة وخمود النار عاد الحديد والنحاس إلى حالتهما الطبيعية

(١) سورة الكهف: الآيتان ٩٥، ٩٦.

عندها ظهر للوجود بناءً أو ردماً حجارته الحديد وطينه النحاس المذاب.

وعن طريق التسلسل الزمني لمجريات الأحداث الكبرى في المنطقة يمكننا بالتقريب تحديد الفترة التي تدفقت فيها جموع يأجوج ومأجوج في رابع خروج لهم على العالم، فمن الثابت تاريخياً إن رحلة ذو القرنين نحو مشرق الشمس وعودته منها مباشرة إلى ما بين السدين استغرقت حوالي ستة أعوام، وذلك من عام **٥٤٥** ق.م إلى عام **٥٣٩** ق.م، وهو العام الذي اكتمل فيه بناء الردم، وبعد عشر سنوات وبالتحديد في عام **٥٢٩** ق.م توفي ذو القرنين، وخلفه في الحكم ابنه قمبيز، واستمر حكم قمبيز لفترة قصيرة لم تتجاوز ثمانية أعوام، ارتقى بعدها عرش البلاد دارايوش وذلك في عام **٥٢١** ق.م.

وما بين عام **٥٣٩** ق.م وعام **٥٢١** ق.م انقطعت حركة انتقال الشعوب ما بين شمال القوقاز وجنوبه، وضعفت بالتالي حركة نقل المعلومات وما يجري في الإقليم الشمالي، وهي التي نرجح فيها وصول جموع يأجوج ومأجوج للمنطقة، واندفاعهم نحو الممر الوحيد المؤدي إلى إيران الشمالية وآسيا الغربية، فاصطدموا في آخر نقطة فيه جنوباً بالجدار الحديدي، فحاولوا تسلقه والنزول إلى الجهة الثانية فما قدروا، وذلك لارتفاعه الشاهق والذي يوازي ارتفاع السلسلة الجبلية من جهة، ولملاسته الشديدة والتي تجعل من يتسلقه ينزلق إلى أسفل من جهة أخرى، ولما فشلوا في المرتين حاولوا ثقبه من أسفل فلم يفلحوا أيضاً وذلك لصلابته وشدته، والمحاولتان هما اللتان أرخ لهما القرآن بقوله:

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾[1].

ومما يقوّي ترجيحنا لتلك الفترة الزمانية القصيرة أن القرآن في سرده لأحداث مهمة ذو القرنين الثالثة قرن ما بين اكتمال بناء السد وبين

---

(١) سورة الكهف: الآية ٩٧.

محاولتهم اليائسة لتجاوزه في مستقبل الزمان بطريقة لافتة للنظر وفي تعاقب طبيعي وترتيب منطقي يشعر القارىء وكأنه يؤرخ لمحاولات حاضرة لا محاولات قادمة، ليعود مرة أخرى ودون انقطاع في السرد التاريخي ليختم وقائع المهمة كلها بما قاله ذو القرنين شكراً لربه بما أنعم عليه به من قوة وسلطان، وتوفيقه في بناء السد فقال لهم: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[1].

ومهما يكن من أمر فما إن حل عام ٥٢١ ق.م وما بعده حتى كانت معظم جموع يأجوج قد ردت على أعقابها، واستقرت وببطء شديد في المنطقة الواقعة شمال القوقاز وجنوب روسيا، ولم يشكل وجودهم الدائم أي خطر على شعوب الإقليم، إذ أن اصطدامهم بالسد قد حد من تأججهم، وبارتدادهم زال عنهم كل سلطان يمكنهم قهر الناس به، وأخذوا بالتدريج في الاندماج والتأقلم مع حياة الإقليم وسكانه، مع احتفاظهم إلى حد كبير بخواصهم المميزة مصدر فزع الناس وخوفهم.

ويعتبر دارا يوش وحده دون سائر حكام المنطقة الذي لم يطمئن إلى استقرارهم شمال حدود مملكته، وقدر حجم تهديدهم لبلاده وللمنطقة كلها في أي خروج محتمل لهم تقدير دفعه للقيام بحملة عسكرية ضخمة لكسر شوكتهم العسكرية، وإضعافهم إلى أقصى حد ممكن.

جهز دارا الحملة العسكرية[2] بتجهيزات لم يسبق لها مثيل في حملات العالم القديم، فأرسل إلى نوابه في الولايات الفارسية، وإلى حكام الشعوب الخاضعة لنفوذه يأمرهم بجمع وحدات عسكرية منتقاة من ذوي الخبرة في ميادين القتال، وممن لهم مقدرة بدنية عالية على تحمل صعاب السفر والسير الطويل، كما استأجر في الوقت نفسه عدداً كبيراً من مهرة اليونان في صناعة السفن لإعداد أسطول حربي كبير بالمواصفات التي

---

(١) سورة الكهف: الآية ٩٨.

(٢) مصدرنا الوحيد لحملة دارا هو كتاب هيرودوتس ـ التواريخ القسم الرابع ص ٣٠٥ وما بعدها في الترجمة الإنجليزية وص ٢٩٣ وما بعدها في الترجمة العربية.

تتطلبها الحملة، وذلك لنقل الجنود بعدتهم وعتادهم، وأيضاً بناء جسر من القوارب على البسفور التراقي Tharcian Bosporus.

وفي فترة زمنية قصيرة توفر لدارا حوالي سبعمائة ألف مقاتل من خيار الجند، وممن مارس الحرب والقتال لفترات طويلة ومن أفضل ما أمكن انتقاؤه من شعوب الإمبراطورية، فضلاً عن أسطول حربي تربو عدد سفنه على ستمائة سفينة وقارب.

ومع إطلالة عام ٥١٤ ق.م بدأت الحملة العسكرية الضخمة زحفها الطويل من عاصمة البلاد نحو البحر الأسود وخليج البسفور، إذ هو وحده الطريق المؤدي إلى حيث استقرت جموع يأجوج ومأجوج بعد ارتدادهم عن سد ذي القرنين وخمود تأججهم.

ولما وصلت الحملة إلى مدينة سوسة Susa أمر دارا أحد قواده بشن غارات سريعة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، وأسر كل من يصادفه من الأهالي، ونفذت العملية بسرية تامة وبنجاح باهر لم يتنبه إليها أحد، ومن الأسرى أمكن الحصول على معلومات قيمة أزالت المخاوف وزللت معظم الصعوبات التي يحتمل أن تواجه الجند في زحفهم الطويل، وعلى ضوء تلك المعلومات وضع دارا خطته للتوغل في قلب أرض العدو، فقسم جيشه إلى قسمين:

- قسم تنقله الأساطيل الحربية من البسفور على البحر الأسود، ومهمته الأساسية بناء جسر على نهر الدانوب.

- والقسم الآخر يسير مع دارا على البر بمحاذاة البحر الأسود لتأمين ظهر المقاتلين وإخضاع القبائل التي يمكن أن تعرقل مسيرة الحملة، ثم يلتقي الجيشان على الجسر، ومنه ينطلقان لضرب جموع يأجوج ومأجوج في معاقلهم.

ونفذت الخطة كما وضعت بالتمام، فأبحرت السفن الحربية من

البسفور مسترشدة بأدلاء يونانيين وغيرهم نحو جزر كيانيا Cyaneae، ومنها أقلعت رأساً إلى مصب نهر الدانوب على البحر الأسود، ثم صعدت إلى مجرى النهر وسارت عكس التيار لمدة يومين إلى حيث يتفرع النهر فروع كثيرة هي عبارة عن مصبات تشكل في مجموعها دلتا النهر، وعلى رأس الجسر أقام مهندسو الأسطول جسراً من القوارب ربط ما بين ضفتي النهر، بينما انتشر المشاة والخيالة شرقاً وعلى طول النهر لتأمين الجسر من أي اعتداء.

أما دارا فقد سلك الطريق البري بمحاذاة البحر الأسود حتى وصل ينابيع تيارس Tearus، فخلب لبه منظر الينابيع وسحر الطبيعة من حولها، وبجواره عسكر هو وجنده، وفي نفس المكان نصب عموداً تذكارياً كتب عليه:

«ينابيع تاريس أشرف مياه العالم وأجملها، ودارا ابن هستاسب Hystasp أشرف الناس وأنبلهم وأجملهم، ملك الفرس وكل آسيا لما زحف على السكيثيين وصل إلى ضفتيها».

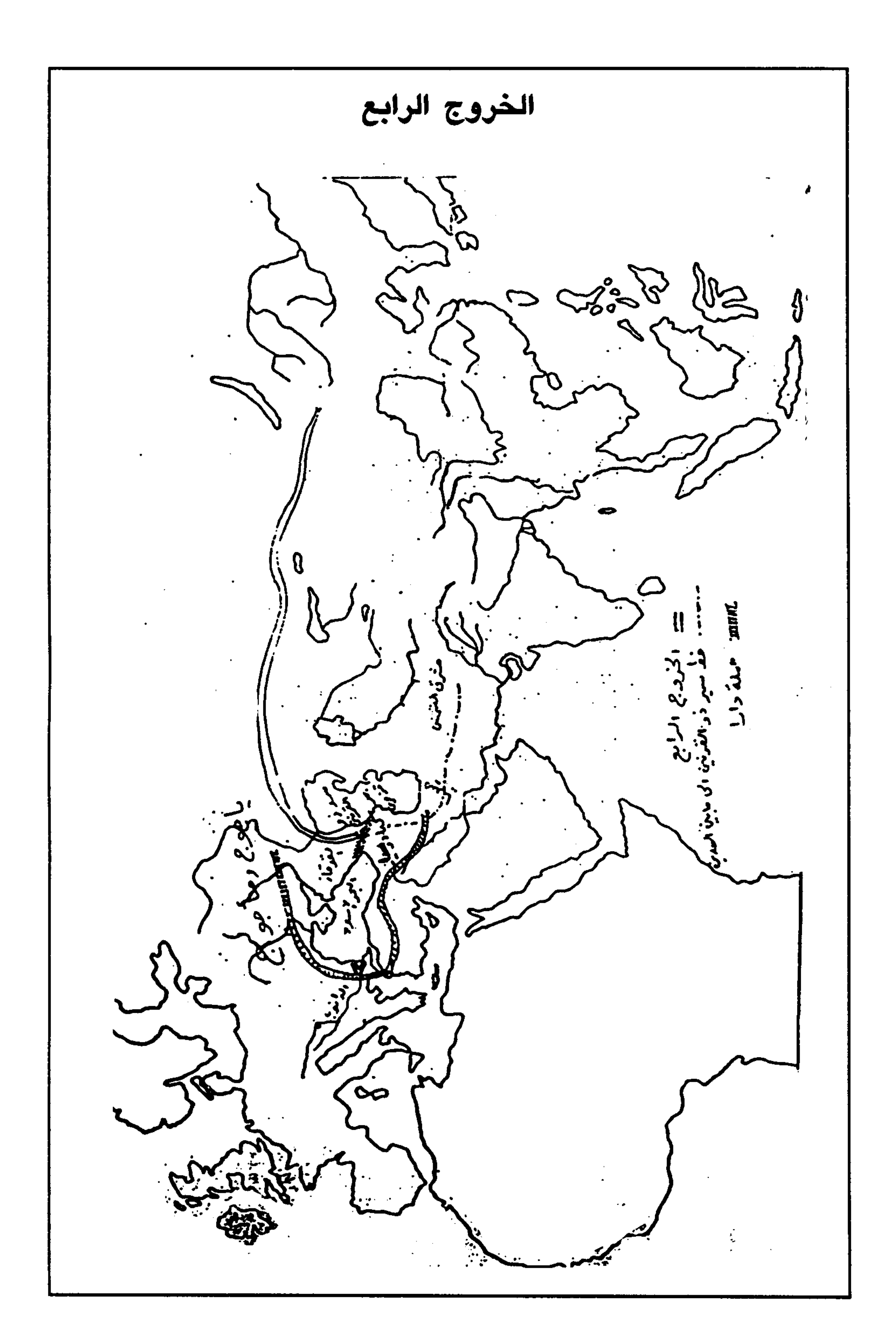
ومن ينابيع تيارس واصل القسم الثاني من الجيش سيره شرقاً عبر أراضي التراقيين Thracians دون مقاومة، اللهم إلا قبيلة واحدة أبدت تذمراً وعناداً، ورفضت الخضوع لسلطان الفرس، مما اضطر الجيش إلى مواجهتها بمنتهى الحزم والشدة، أُجبرت على أثره للاستسلام والخضوع.

ولما وصل دارا إلى دلتا النهر وجد الجسر قد أعد، عندئذ أمر الجند بالعبور إلى الضفة الشرقية وتفكيك الجسر وحمله مع الجيش لئلا يستفاد منه، وليصبح النهر وحده حداً فاصلاً بينه وبين التراقيين، ولكن بناة الجسر من اليونانيين وغيرهم لم يحبذوا الفكرة فاستأذن المهندس كويس أركسانر Coes Erxaner للدخول على دارا لإبداء رأيه في خطورة هذا العمل، ولما أُذن له بالكلام قال:

- أيها المولى، إنك الآن في طريقك للحرب في بلاد ليس فيها

أرض محروثة ولا مدن معمورة، فدع الجسر باقياً على حاله، ولكن مر فقط الذين بنوه بالبقاء عنده لحفظه وحراسته وحمايته من أي اعتداء، وسواء وجدنا من نريد وحققت الحملة أهدافها، أم لم نجدهم يمكننا في الحالتين العودة آمنين.

الخروج الرابع



وإني يا مولاي لا أخاف مهاجمة القوم، ولا أهاب حربهم، ولكني أخشى في حالة عدم العثور عليهم أن نصاب في تلك القفار بحوادث مكدرة تكرهنا على التقهقر.

ربما قيل يا مولاي إني أتكلم من أجل مصلحتي وأفضّل البقاء بسلام هنا، ولكني أبدي لك من الرأي والمشورة ما أراه أكثر نفعاً وفائدة وأنا على أتم استعداد لاتباعك إلى حيث تشاء، لأن النعمة التي تغدقها عليّ لا تدعني أبقى هنا.

ابتهج دارا بشجاعة كويس أركسانر، وانشرح صدره لقوة حجته وصواب رأيه فقال له:

- لقد أسديت لي نصيحة غالية، فإذا رجعت من هذه الغزوة سالماً إلى مملكتي، فإياك ألا تحضر إليّ لكي أكافئك بما تستحق.

وعلى الفور طلب سير جلدي طويل، واستدعى المهندسيين اليونانيين وغيرهم، وعلى مرأى منهم عقد في السير الجلدي ستون عقدة ثم خاطبهم قائلاً:

- لقد غيّرت رأيي بخصوص الجسر، خذوا هذا السير الجلدي واجتهدوا ما وسعكم الاجتهاد في تنفيذ أوامري، فبمجرد مغادرتي هذا النهر ماضياً في طريقي لمحاربة الأعداء، عليكم كل يوم بحل عقدة من هذه العقد الستين، فإذا لم أرجع بعد ستين يوماً، عودوا أنتم إلى بلادكم، وحتى ذلك الوقت تولوا حراسة الجسر وصيانته والدفاع عنه.

أحدث عبور الحملة لنهر الدانوب اضطراباً واسعاً وسط جموع يأجوج ومأجوج المنتشرة على طول المنطقة وعرضها، وأحسوا بعجزهم وعدم مقدرتهم على التصدي للفرس، ولهذا وطنوا أنفسهم على تكوين جبهة تضم كل الشعوب التي يفترض مرور الحملة بأراضيها أو تلك التي قد تتأثر بالعمليات الحربية، ولذلك انطلقت وفودهم إلى جميع الممالك المجاورة

عارضين عليهم التحالف في وجه الغازي الدخيل، فوافق على الفكرة من حيث المبدأ ملوك التوري Tauri والأغاثيري Agathyrsi والنوري Neuri والأندروفاجي Androphagi والميلانشليني Melanchlaeni والجيلوني Geloni والبوديني Budini والسورماتي Sauromatae.

وفي الاجتماع الكبير الذي عقد شمال بحر قزوين تشاور قادة يأجوج ومأجوج في هدف الحملة الأساسي، والمخاطر الناجمة عن اكتساح أراضيهم وهزيمتهم، وكان مجمل ما طرحوه على المجتمعين ينحصر في قولهم:

ـ بعد أن أخضع دارا البر الآخر (غرب الدانوب)، واستسلمت له قبائل تراقيا بلا مقاومة، وأذعن لحكمه بالقوة من عاند، عبر الدانوب على جسر من القوارب بقصد الاستيلاء على بلادنا، وليس من العدل ونحن جيرانكم اتخاذ جانب الحياد في صراعنا مع الفرس، وتتركوننا نهلك بإغضائكم عنا، فلنزحف معاً على العدو الذي أتى يكتسح وطننا.

فإذا أبيتم الاتفاق معنا ورددتمونا ووجدنا نحن أنفسنا في موقف حرج يهدد كياننا، هجرنا البلاد، ولسنا على استعداد في كل الأحوال للبقاء حيث نحن بشروط الفرس المذلة لنا ولكرامتنا.

ولا تخدعوا أنفسكم بأمان يمنحه لكم الفرس، ولا يغرنكم الأهداف المعلنة من الحملة، فإن ما يصيبنا يصيبكم، وهاكم برهان جلي لا يمكنكم نقضه ولا التهوين من شأنه وهو:

لو لم يكن للفرس غرض سوى الأخذ بالثأر منا لكون آبائنا وأجدادنا قد استعبدوهم في الماضي، لاكتفوا بالتوجه إلينا وحدنا دون التعرض للشعوب التي مروا بأراضيها وأخضعوها لحكمهم مثل التراقيين وغيرهم. وهم بفعلهم هذا قد أظهروا للجميع ما يبطنون، فهم لا يريدون استعبادنا وحدنا، وإنما أنتم معنا أيضاً.

ناقش المجتمعون ما طرح من آراء وأفكار، وتبودلت وجهات النظر في مختلف الاحتمالات المترتبة على زوال سلطة يأجوج ومأجوج من المنطقة على سائر الممالك، وتباينت المواقف الواجب اتخاذها حيال كافة الاحتمالات، وأخيراً انقسم المجتمعون إلى فريقين:

ـ الأول: اقتنع بوجهة نظر يأجوج ومأجوج، واتفقوا معهم على الوقوف في وجه الحملة مهما كانت النتائج، وهؤلاء هم ملوك الجيلوني والبوديني والسورماتي.

ـ أما الثاني: ويمثله ملوك التوري وأغاثيري والنوري والأندروفاجي والميلاتشليني، فقد امتنعوا من الدخول معهم في حلف ضد الفرس، واتخذوا جانب الحياد، وعللوا حيادهم هذا بقولهم:

ـ لو لم تبدأوا أنتم بالإساءة والاعتداء على الفرس لكان فيما طلبتم منا أمراً معقولاً، وللوقوف معكم في وجه عدوانهم عدلاً وإنصافاً، ولكان في اهتمامنا بكم وبمصالحكم ما يلزمنا للسعي مسعاكم، ولكنكم اكتسحتم بلادهم دون مشاركة منا، وأبقيتموهم تحت استعبادكم إلى ما شاء الله، وأراد الله اليوم أن يجازيكم بجنس صنيعكم فيهم، وأما نحن فلم نسيء إليهم من قبل، ولذلك لن نبادرهم اليوم بالعداوة والخصومة، أما إذا اكتسحوا بلادنا وبادروا بحربنا، وقتئذ نعرف كيف ندافع عن بلادنا وأنفسنا، وإلى ذلك الوقت سنبقى ساكنين لا معهم ولا على عليهم، إذ يظهر لنا أن الفرس لا يقصدون غيركم لأنكم بدأتموهم بالإساءة.

أضعف حياد هؤلاء الملوك من موقف يأجوج ومأجوج، وجعلهم لا يطمئنون إلى المتحالفين معهم، وأصبح أمر مشاركتهم في خوض حرب طويلة لا يمكن التنبؤ بنتائجها موضع شك، ولذا أجمعوا على ألا يلتحموا مع الفرس في معارك مكشوفة، وألا يصطدموا بهم ولو أجبروا، وعليهم جميعاً إخلاء البلاد والاتجاه شرقاً، وفي طريقهم يغورون الآبار ويتلفون الكلأ.

أما الخطة الكفيلة بردع العدو وإجباره على العودة إلى بلاده فقد استوحيت من خبرتهم الطويلة في تحريك الجموع من موضع إلى آخر وبسرعة قياسية، والانسحاب المنظم الذي يوهم الخصم بعجزهم وضعفهم، وبناء على ذلك قسموا أنفسهم إلى قسمين:

- القسم الأصغر منهم يتجه مع السورماتي إلى بلاد سكوباسيس Scopasis، فإذا طاردهم الفرس إلى تلك الجهة يرتحلون بالتدريج إلى جهة نهر تانيس Tanais، ومتى ما توقف العدو عن مطاردتهم وعادوا أدراجهم يأخذون هم في ملاحقتهم، وإذا انقلبوا عليهم يعودوا من حيث أتوا، وهكذا دواليك.

- أما القسم الأكبر ويتكون أغلبه من يأجوج ومأجوج بقيادة أيدانثيرسس Idanthyrsus، وينضم إليهم الجيلوني والبوديني فعليهم جر الفرس رأساً إلى بلاد الذين آثروا الوقوف على الحياد، حتى يضطروهم إلى حمل السلاح وحرب الفرس دفاعاً عن أوطانهم، وبذلك تتسع دائرة الحرب، وتتعدد جبهات القتال بمعارك ينوء بها جنود الحملة.

بدأ تنفيذ الخطة المتفق عليها بترحيل النساء والأطفال والمواشي إلى مناطق آمنة، وبعيدة عن الدائرة التي رسمت فيها الخطة، ولما اطمأن المحاربون على أسرهم، أرسل القادة كوكبة من الخيالة للظهور أمام أعين الفرس، وعلى مسيرة يوم واحد شرق الدانوب لمح الفرس طلائع يأجوج ومأجوج على ظهور الخيل، فتبعوهم، وتظاهر هؤلاء من جانبهم بالانهزام وكأنهم أخذوا على حين غرة، ووجهتهم إلى الشرق صوب نهر تنايس، وعبر الفرس النهر في أثرهم، واستمروا في مطاردتهم حتى اجتازوا بلاد السورماتي ووصلوا إلى بلاد البوديني.

ولأول مرة منذ عبور نهر الدانوب تواجه الحملة بنقص حاد في احتياجات الجند اليومية، وقلة العلف الصالح للخيل، وذلك لأن الأهالي قد أتلفوا كل ما يستفاد منه أراضيهم، وبمضي الوقت تفاقمت المشكلة وأصبحت تشكل تهديداً خطيراً لمهمة الحملة برمتها، فاضطروا للدخول في

بلاد البوديني بحثاً عما يتقوى به الجند وخيولهم، وبمجرد دخولهم مدينة جيلونوس الخشبية وجدوها خاوية على عروشها، لأن أهلها حملوا معهم كل ما يلزمهم، ثم أضرموا فيها النيران.

وبعد لأي تمكن الفرس من اجتياز بلاد البوديني بسلام، وواصلوا زحفهم المرهق إلى أن دخلوا بادية لم يجدوا فيها إنساناً، ولكنهم عثروا فيها على ما يسد احتياجاتهم، وعلى ضفاف نهر أوراس Orasus عسكر دارا بجيشه فترة للراحة والاستجمام، أمر خلالها ببناء ثمانية صروح كبيرة تخليداً لذكرى بلوغه هذا النهر.

وبينما الجميع منهمكين في بناء تلك الصروح وردت إلى دارا أنباء تفيد بعودة يأجوج ومأجوج إلى بلادهم، فأبقى تلك الصروح ناقصة وتوجه بجيشه نحو الغرب قاطعاً المسافة نفسها التي قطعها في مطاردتهم الأولى، وكان الفرس يتوقعون وجودهم، ولكنهم في واقع الأمر كان يتبعون آثارهم، ولم تتسرب تلك الأخبار بعودتهم إلا لجرهم من جديد لمطاردة أخرى.

أما وجهة يأجوج ومأجوج هذه المرة فكانت نحو الممالك التي رفض حكامها الاتحاد معهم، فدخلوا أولاً بلاد الميلانشليني فارتاع أهلها لما علموا بقدومهم والفرس على أثرهم، ثم جروا الفرس إلى بلاد الأندروفاجي وهناك أيضاً ألقوا الرعب والاضطراب في الأهالي، ومنها مضوا أمام الفرس إلى بلاد النوري وتكرر الشيء نفسه، ولم يهتم أحد منهم بالدفاع عن بلاده، ونسوا ما اتفقوا عليه في حالة دخول الفرس بلادهم، ولجأوا جميعاً إلى بلاد الأغاثيرسي.

ولما رأى أهالي الأغاثيرسي الناس يهربون وقد استولى عليهم الخوف والفزع، أرسلوا إلى يأجوج ومأجوج وحلفائهم يحذرونهم مغبة اجتياز حدودهم، ويهددونهم بالحرب إذا هم تجرأوا وأقبلوا عليهم، وقرنوا القول بالعمل، فنقلوا قواتهم العسكرية إلى الحدود واستعدوا لصدهم، وأحدث الوعيد أثره في نفوسهم فتحاشوا عبور الحدود وعادوا إلى بلادهم يتبعهم الفرس.

وأخيراً تبين للفرس أن عدوهم ينفذ خطة متفق عليها مسبقاً وبدقة وإحكام لاستنزاف طاقة الحملة القتالية وإنهاك قوى الجند، أما بعد تحقيق هذا الهدف فشيء آثار مخاوفهم وقلقهم، لذلك أرسل دارا إلى أيدانثيرسس زعيم يأجوج ومأجوج رسالة شفهية يقول له فيها:

- يا أشقى الناس وأتعسهم، لماذا تنهزم وتفر كلما اقتربت منك، وأنت قادر على منازلتي، أليس لديك ثقة في نفسك للثبات أمامي، أما إذا كنت تعلم ضعفك وضعف جندك، فكف عن الهرب، وأدخل مع سيدك دارا في مفاوضات تضع حداً لكل هذا، وإياك ألا تأتي بالماء والتراب رمزاً للخضوع والولاء.

رد أيدانثيرسس على رسول دارا قائلاً:

- يا ملك الفرس ليس الخوف هو الذي ألجأني للهرب والانهزام، والآن لست أنهزم منك، ولا أفعل الآن إلا ما كنت أفعله في أوقات السلم، ولكني أخبرك لماذا لا أحاربك حال دخولك بلادنا، إننا قوم لا نخشى أن تؤخذ لنا مدن، إذ ليس لنا مدن، ولا أن يقع فساد في أرضنا، لأننا لا نزرع، فما الذي يدعونا للإسراع في القتال وتعجل الحرب، ومع ذلك فإذا أردت إجبارنا حقاً إلى الحرب في أقرب وقت، فدونك قبور أجدادنا وآبائنا، امض إليها وحاول نبشها أو تخريبها، حينئذ ستعرف هل نعقد عن حربك لحمايتها، وفي كل الأحوال لن ندخل معك في حرب بلا سبب قوي.

ما قلته لك فيه الكفاية بخصوص الحرب، أما قولك (سيدك) فلا أعلم لي سيداً إلا الله، وعوضاً عن الماء والتراب أبعث إليك بهدية تليق بمقامي وتناسب الموقف، وأما أنت الذي تتباهى بكونك سيدي فخليق بك أن تبكي.

أثار ذكر دارا لكلمة الاستعباد في رسالته الشفهية حنق وغضب يأجوج ومأجوج، مما دفعهم إلى استبدال الخطة الأولى بأخرى جديدة تهدف إلى زعزعة الأرض من تحت أقدام الفرس، وتتكون من شقين:

ـ الأول: إقناع اليونانيين الذين عهد إليهم القيام بحراسة الجسر بالعودة إلى بلادهم.

ـ والثاني: تقييد حركة الفرس ومنعهم من التجوال في المنطقة ثم مداهمتهم كلما جلس الجند لتناول الطعام.

وفي الحال عهد إلى جموعهم الموجودة في نواحي نياس وهم القسم الأصغر بالانطلاق من ساعتهم في التفافة واسعة حول مناطق انتشار الجيش الفارسي والاتجاه غرباً حتى ضفاف نهر الدانوب ومنها إلى الجسر، وحالما وصلوا خاطبوا الحراس قائلين:

ـ نحن نعلم أن دارا أقامكم حراساً على الجسر لفترة حددها لكم قبل رحيله بستين يوماً فقط، وفي حالة عدم رجوعه في نهاية المدة أعطاكم الحرية في العودة إلى أوطانكم، وقد انقضت الآن المدة المتفق عليها، فليس هناك من يلومكم إذا رحلتم، فما الذي يدفعكم إلى البقاء، ولماذا لا ترجعون إلى بلادكم سالمين.

أدرك الحراس من الوهلة الأولى الدوافع الحقيقية التي حدت بهم لنصحهم بالرحيل، ولكنهم في موقف لا يسمح لهم بأقل من قبول النصح، فوعدوهم بتفكيك الجسر والعودة إلى الوطن، الأمر الذي سروا له وعادوا من حيث أتوا.

وتنفيذاً للشق الثاني من الخطة، أخضع جنود الحملة لمراقبة طويلة ورصد دقيق لمعرفة الأوقات التي يتناولون فيها الطعام، ومن ثم بدأت المداهمات الخاطفة على ظهور الخيل وهم يطلقون صرخاتهم المرعبة، ونتيجة لهذه المداهمات عانى الفرس الأمرين، فشكلوا فرقاً من الفرسان لحماية الجند أثناء جلوسهم لتناول الطعام، وكان تفوق فرسان يأجوج ومأجوج عليهم ملحوظاً، فاستعان الفرس بحملة السهام من المشاة كقوات مساعدة لفرسانهم، ونجحت الخطة حتى تحول رماة السهام إلى كابوس يضطرهم في كل مرة إلى الرجوع دون تحقيق نجاح يذكر.

وبمضي الوقت بدأت تطفو على السطح آثار تلك الخطة وأبرزها ازدياد حاجة الفرس اليومية للمؤن والعلف، وشدة اضطرابهم، واستنفارهم الدائم للجند لأقل بادرة لتحرك خيالة العدو، عندها لجأت جموع يأجوج ومأجوج إلى حيلة ذكية يبقون فيها الفرس حيث هم ولأطول وقت ممكن، فشدوا الرحال إلى ناحية أخرى تاركين خلفهم بعض المواشي مع رعاتها، وانطلت الحيلة على الفرس حيث وقعت بسهولة في قبضة الفرس وساقوها إلى معسكرهم، وتكررت مثل هذه الواقعة أكثر من مرة، وفي كل مرة يحسب الفرس أنهم يحققون فوزاً ونصراً، ولكنهم في الواقع ودون تبصر كشفوا عن شدة حاجتهم واعتمادهم الكلي على ما ينالوه من عدوهم.

عندئذ بعث أيدانثيرسس إلى دارا بهدايا هي: طائر وجرذ وضفدعة وخمسة أسهم، تعجب دارا من غرابة الهدايا، فسأل الرسول عن معناها، فأجابه بأنه مكلّف فقط بتقديمها، ولكنه ينصحهم بالاجتهاد في تأويل معناها والكشف عما تتضمنه من مغزى إذا كانوا أصحاب حذق.

عقد دارا اجتماعاً طارئاً ضم كبار قواده ومستشاريه لهذا الغرض، وافتتح الجلسة بتقديم تفسير يوافق هواه، فقال:

- إن القوم في الواقع يقدمون تراباً وماءً رمزاً لخضوعهم وذلك بناء على أن الجرذ يتولد من التراب ويقتات بالقمح كالإنسان، والضفدعة تتولد من المياه، وللطائر علاقة وطيدة بالفرس، أما الأسهم فتعني تقديم قواهم لنا.

غير أن قوبريس Gobryes أحد مستشاريه رأى رأياً مخالفاً لرأي دارا فقال للمجتمعين:

- أيها الفرس معنى هذه الهدايا هو: إذا لم تطيروا في الهواء كالطيور، ولم تختفوا في الأرض كالجرذان، ولم تقفزوا في المياه كالضفادع، فلن ترون بلادكم أبداً، بل تهلكون بهذه السهام، فالهدايا بمثابة إنذار بالحرب، وتهديد لنا بالفناء والاستئصال.

وبعد إرسال الهدايا اصطفت جموع يأجوج ومأجوج ومن معهم استعداداً للقتال في مواجهة الفرس، وفجأة ظهر أرنب بين الجيشين فترك فرسان يأجوج ومأجوج كل شيء وانطلقوا في أثره وهم يصرخون صراخاً شديداً، فسأل دارا في خيمته خلف الجيش عن سبب هذه الضجة العالية قبل بدء القتال، فأخبروه أن البرابرة يركضون وراء أرنب، ولأول مرة أحس دارا ليس فقط بمدى احتقارهم واستخفافهم بهم، وإنما بوقوعهم في ورطة حقيقية لن يخرجوا منها سالمين إلا بانسحاب دقيق ومنظم لا يشعر به أحد منهم، وفي الحال جمع مستشاريه لأخذ آرائهم في الموضوع فقال قوبريس:

ـ يا مولاي ما كنت أعرف فقد هؤلاء الناس إلا ما يشاع عنهم من الأخبار، ولكن منذ وصولنا إلى ديارهم قد لمسته عن قرب، إذ رأيت كيف يهزأون بنا، ولذلك أرى يا مولاي وبمجرد دخول الليل أن نضرم ناراً كبيرة في المعسكر كعادتنا كل ليلة، ونلزم الجندالضعاف والمرضى والأقل احتمالاً للمشاق بالبقاء هنا، وبعد أن نربط كل الحمير، نرحل قبل أن يسبقنا العدو رأساً إلى الدانوب ويقطعوا الجسر، وقبل أن يؤثر غيابنا الطويل في الحراس فيفكروا الفكرة التي فيها هلاكنا.

اتبع دارا مشورة قوبريس، وحالما دخل الليل عين عدداً من الجند للحراسة، وأبقى المرضى ومن لا يهمه هلاكهم في المعسكر، كما أمر بربط الحمير لكي يظل نهيقها مسموعاً، وأخيراً أمر بإشعال النيران، ثم هرع مسرعاً ومعه أغلب جنده تجاه نهر الدانوب، ولما وجدت الحمير المعسكر وقد خلا من الجند جعلت تنهق بأشد من نهيقها العادي، فظنت جموع يأجوج ومأجوج بأن الفرس باقون في معسكرهم.

وبمطلع شمس اليوم التالي تبين للمتخلفن كيف خدعهم دارا، وتركهم في الميدان وحدهم يواجهون عدواً لا يرحم، في حين لاذ هو ومن معه بالفرار، عندئذ اتصلوا بيأجوج ومأجوج وأطلعوهم على ما ينفعهم

في ملاحقة دارا وجنوده، وفي الحال انطلقوا وراءهم رأساً نحو نهر الدانوب.

إن الشيء الذي ساعد يأجوج ومأجوج في الوصول إلى الجسر قبل الفرس هو أن سواد الجيش الفارسي من المشاة، ولا معرفة لهم بالطرق المؤدية رأساً إلى الجسر، بينما معظم أعدائهم على ظهور الخيل، ويعرفون أقصر الطرق إلى النهر، ولذلك وصلوا قبلهم بمدة حاولوا خلالها إقناع اليونانيين بتفكيك الجسر والعودة إلى بلادهم حيث قالوا لهم:

- أيها اليونان إن الأجل المضروب بينكم وبين دارا قد انقضى، ولا حاجة لكم في البقاء أكثر من ذلك، فإذا كان مكوثكم هنا حتى الآن بسبب الخوف فاقطعوا الجسر وانصرفوا حالاً شاكرين الله لأجل خلاصكم من عبودية دارا، وأما الذي كان سيدكم من قبل فإننا سنعامله معاملة لا يعود بعدها قادراً على محاربة أحد.

تشاور اليونانيون فيما بينهم لفترة، ثم اتفقوا على تفكيك رأس الجسر الواقع على الضفة الشرقية، وذلك لكي يظهروا شكرهم ليأجوج ومأجوج، وفي الوقت نفسه لئلا يتمكنوا من عبور النهر لأي سبب من الأسباب، مع ترك باقي الجسر على حاله، وتولى هستيوس Histiaeus نقل ما اتفقوا عليه، حيث قال لهم:

- لقد تبين لنا أن في نصيحتكم السلامة، وجاءت في ظرف نحن أشد ما نكون فيه لمعرفة الطريق القويم الذي يجب أن نسلكه، وحتى نريكم مدى استعدادنا لإجابتكم فسوف نقوم بقطع الجسر ونجتهد بعدها في الرجوع إلى بلادنا، أما أنتم فامضوا وابحثوا عن الفرس بينما نحن نشتغل في تفكيك الجسر، وإذا وجدتموهم خذوا لنا بثأرنا وثأركم منهم.

وللمرة الثانية وثق يأجوج ومأجوج في وعود اليونانيين وعادوا للبحث عن الفرس في الأراضي التي تكثر فيها المياه والأعلاف لكونها كما ظنوا أنسب الأماكن التي يمكن للفرس الهروب عبرها إلا أن الفرس سلكوا الطريق الذي يمر عبر الأراضي التي ردمت آبارها وأتلفت أعشابها.

وبعد معاناة قاسية كابد فيها الجميع مرارة الجوع والعطش وصلت الحملة ليلا إلى الجسر، وعلى ضوء القمر شاهدوا جانباً من الجسر مقطوعاً وخالياً من الحراس، بينما الجانب الآخر باقياً على حاله، وما بين الخوف والأمل استدعى دارا رجل مصري جهير الصوت وأمره بالوقوف على ضفة النهر ليناديَ بأعلى صوته على هستيوس الملطي.

ولم يكن هستيوس ومن معه في حاجة إلى أكثر من سماع صوت أحد جنود الحملة ليدرك أبعاد الموقف برمته، وفي الحال أُصلح الجسر وهيئت السفن، فعبر عليها من تبقى من جنود الحملة غرب النهر، ومن هناك اجتاز دارا ومن معه إقليم تراقة، وأبحرت السفن بالجنود غرباً نحو مضيق البسفور، ومن البسفور شقت الحملة طريقها البري عبر آسيا الصغرى إلى عاصمة البلاد.

وعلى الرغم مما بذل في الحملة من إعداد وتجهيز وتخطيط فقد فشلت في تحقيق أهدافها، ويرد الفشل في مجمله إلى سوء فهم دارا للأبعاد الخفية لخاصية التأجج عند القوم، لا في ذروة اجتياحهم للعالم، ولا في أحوالهم العادية، وبالتالي عجز عن سبر أغوار المهددات الحقيقية لتواجدهم شمال القوقاز، وذلك لأنهم في حالة الخروج، وهو ما لا ينطبق عليهم بعد ارتدادهم عن السد، يتحولون إلى قوة عاتية لا يمكن الوقوف أمامها فضلاً عن المبادرة بالقضاء عليها في مهدها، أما في أحوالهم العادية، وهو ما ينطبق عليهم قبل حملة دارا وبعدها، فلا يتخطى فسادهم دائرة السلب والنهب، ولا يتسع في رقعته المكانية لأبعد مما يتسع له فساد العصابات، وهما الحالتان اللتان قدر لأولئك القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً التفريق بينهما، فحصروا شكواهم لذي القرنين ليس من فساد غاراتهم المحدودة، وإنما من فسادهم في ذروة تأججهم وخروجهم، والذي يتخذ طابعاً لا قبل لأحد من البشر به.

والشيء الوحيد الذي وعاه دارا جيداً من خصائصهم وهم في أحوالهم

العادية، ويجعل من السيطرة عليهم مغامرة وخيمة العواقب هو مقدرتهم العجيبة ومهارتهم الخارقة للعادة على الحركة وتحريك الجموع وبصورة تعجز عنها أكثر الشعوب علماً ورقياً وحضارة، حتى غدت مع عدم ارتباطها بالخروج خاصة مميزة لهم، وطبيعة ثانية فيهم، وهي التي جعلت جيش دارا يقف عاجزاً في التعامل معها، وإن اتخذ من الحركة السريعة نهجاً له في حربهم ومطاردتهم.

ولعل أرتابانوس Artabanus شقيق دارا هو أول من لفت نظر أخيه إلى هذه الخاصية الفريدة والعصية عن فهم الغير لها، والتي يلحظها المتأمل في طبيعتهم الغريبة كشيء خاص وذاتي لهم، يدرك ولا يقلد، ولكن مخاوف دارا، وثقته بنفسه وبقدراته العسكرية الهائلة أعمته عن رؤية الصواب والصدق في كلام أخيه.

وعقب وفاة دارا قص أرتابانوس على ابن أخيه وخليفته في الحكم هذه الواقعة ومبصراً له بذلك الجانب الخفي من القوم حيث قال:

- لقد أشرت على الملك دارا أبيك وأخي بألاّ يحارب السكيثيون الذين لا يسكنون المدن، ولكن غرة الأمل بنصر باهر على تلك القبائل الرحالة، فلم يسمع مشورتي، ورجع من حملته بعد أن فقد أحسن جيوشه.

الخروج الخامس:

على الرغم من كثرة غارات يأجوج ومأجوج على الصين إبان حكم أسرة شو Chou في الفترة ما بين عام ١١٠٠ ق.م وحتى عام ٢٢١ ق.م، إلا أن كتاب حوليات الأسرة لم تتح لهم المعرفة الدقيقة ولا النظرة العميقة بطبيعة جيرانهم لكي يفرقوا ما بين غارة عادية بقصد السلب والنهب وبين خروج هو بالطوفان والسيل الجارف أشبه منه بزحف بشري، وما أمكن رصده ما بين عام ٧٧١ ق.م وحتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد لم يتجاوز في أسوأ الحالات على كونه غارات عادية ألفها سكان شمال الصين كما ألفتها أسرة شو نفسها.

وقد تتجاوز الغارة مع ضعف الجيش والحروب الأهلية حداً تأخذ فيه

طابعاً عسكرياً منظماً بقصد السيطرة على رقعة من الأرض لفترة قصيرة من الزمان، كما حدث عندما احتلت قبيلة شوان جونغ Shwangong عاصمة أسرة شو الغربية هاو سينغ حوالي عام ٧٢٢ ق.م، وأعملت فيها القتل، ثم غادرتها محملة بالأسلوب والغنائم.

وقد تتلقى جيوش أسرة شو من الهزيمة والانكسار في بعض الغارات ما يجبرها على نقل عاصمة البلاد جنوب نهر وي Wei مناطق الدفاع التقليدية طوال حروبهم مع جيرانهم الشماليين، وهو خط يعجز المغيرون على تجاوزه، مما يسهل على الأسرة إعادة تنظيم الدولة وبسط الأمن، والسيطرة على الفوضى الناجمة عن الغزو.

والغارة الوحيدة التي تجاوزت في عنفها ودمويتها وسعة انتشارها وفاقت النمط التقليدي المألوف، وأرخ لها كتاب حوليات الأسرة بوصفها غارة عادية هي التي جرت وقائعها في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، في ذلك الوقت ضعفت قبضة أسرة شو على مقاليد الأمور في الدولة، وتحول حكمهم إلى حكم أسمى تركت فيه أمور الحكم والإدارة إلى الولاة المحليين الذين انقلبوا بدورهم إلى إقطاعيين، وتحولت الإقطاعيات بمرور الوقت إلى دويلات صغيرة في مساحتها ومتنافسة فيما بينها على مزيد من الأرض والنفوذ.

وعلى الحدود الشمالية كان الوضع مختلفاً، إذ ظهر للوجود أثناء ذلك اتحاد قبلي ضم عدة قبائل تنحدر من أرومة واحدة أطلق عليه الصينيون فيما بعد اسم هسيونغ نو Hsiung-nu، أخذ ولو مرة يشكل تهديداً خطيراً ليس لحكام الدويلات الشمالية وإنما لسكان الصين بأجمعهم.

وما بين يوم وليلة اجتاحت جموع الهسيونغ نو الدويلات الصينية، فتساقطت تباعاً الواحدة إثر الأخرى كورق الشجر، ودون أي مقاومة تذكر، وعلى أثر ذلك تدفق الهاربون من الشمال على مدن شرق وغرب وجنوب الصين يحملون معهم ما ارتكبه الغزاة من مجازر بشرية لا تصدق، وفنون

في التخريب لا مثيل لها، فعم الخوف والذعر الصين من أقصاها إلى أقصاها.

وكالعادة لم يجد إمبراطور أسرة شو مفراً من الانتقال جنوب نهر وي Wei مسبباً بذلك مزيداً من البلبلة والفوضى وسط المواطنين، وتاركاً المقيمين في وادي النهر الأصفر بلا حماية، وعرضة لسيوف المغيرين الذين أشبعوهم قتلاً وتنكيلاً وبصورة لم تعهدها الصين في أعتى غاراتهم وأشدها وحشية وهمجية.

واعتبر مؤرخو الصين ما حدث خلال هذه الفترة غارة عادية مثل سائر غارات البرابرة على الصين، إذ لم ترد أي تفاصيل دقيقة لوقائعها في حوليات الأسرة، على الرغم من عنفها وسعة انتشارها، وبالتالي لم يلتفت إليها أحد منهم، وأصبح وصف الغارة أقرب إليها، وهي التي نرجح خروجهم فيها كخامس خروج لهم على الناس، وذلك فقط من خلال ما أعقبها من إجراءات لم يسبق لها مثيل في تاريخ الصين ولا في تاريخ العلاقات بين الصينيين وبين جيرانهم في الشمال.

وتنحصر تلك الإجراءات كلها في أمرين:

أولهما: إنشاء أسوار حدودية لمنع أي غارات لهم في المستقبل.

وثانيهما: إعادة جديدة لرسم الحدود ما بين عالم الصين وعالم البرابرة.

فعقب انحسار خروج الهسيونغ نو قام حكام الدويلات الشمالية بتشييد أسوار ثابتة أقيمت على مداخل الطرق الرابطة ما بين الصين والبرابرة، وأنشئت حولها مستعمرات نقلت إليها الفرق العسكرية والفلاحين، كما أقيمت حولها أسواق ضخمة لمقايضة المنتجات الزراعية مع البدو وغيرهم، وهكذا ظهرت للوجود ولأول مرة الأشكال المبكرة لسور الصين العظيم.

ظلت تلك الأسوار الحدودية تؤدي مهمتها في دائرة ما أنشئت من

أجله طوال ما تبقى من عمر لحكم أسرة شو، ولما حلت بعدها أسرة شين Chin في الحكم، وعلى رأسها شين شيه هوانغ تي Chin Shih Hwang ti اجتهدت أولاً في توحيد الصين سياسياً، وتم لها ذلك في عام ٢٢١ ق.م ثم تفرغ هوانغ تي مؤسس الأسرة لحماية وتأمين حدود الدولة الموحدة مع الهسيونغ نو، فأعد لهذه الغاية حملة ضخمة شبيهة بحملة دارا قوامها حوالي ثلاثمائة ألف جندي وفلاح أسند قيادتها للجنرال منغ تيان Meng Tien، وذلك لإنجاز أمرين:

أولهما: دفع حدود الصين إلى أبعد مما هو متعارف عليه حتى بين البرابرة أنفسهم، بغية طرد كل القبائل المنحدرة من أصول يأجوج ومأجوج من إقليم أوردوس Ordus، وحرمانهم بصفة أساسية من أفضل المراعي وأخصبها.

وثانيهما: إعادة بناء وترميم الأسوار القديمة وفقاً لنظام دفاعي جديد، تدمج فيه جميعها في سور واحد يمتد على طول الحدود الجديدة مع الهسيونغ نو من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن هنا ظهرت ولو مرة في الوجود (عام ٢١٤ ق.م) فكرة سور الصين العظيم.

بيد أن هوانغ تي أدرك كغيره ممن ابتلوا بيأجوج ومأجوج أن هناك شيء يستتر وراء شكلهم الإنساني إذا خرجوا به على الناس لا تحول بينهم وبين العالم العقبات والسدود، ثم نظر إلى السور فوجده أشبه بالبوابة التي أحكم إغلاقها في وجوههم، وهم من وراءها متحفزون للانقضاض عليهم في أي وقت، فتبنى سياسة المحالفات مع القبائل المستقرة بجوار السور، وذلك بقصد خلق منطقة عازلة بينهم وبين إخوانهم، ونجحت تلك السياسة لفترة ساد فيها الهدوء والسلام، أمن خلالها سكان شمال الصين من غاراتهم، ثم ظهر لمن تبوأ حكم الصين من بعده فشلها، إذ تخلى الحلفاء تدريجياً عن حياتهم البدوية الخشنة وراحوا يقلدون الصينيين في ولعهم بحياة الدعة والترف، إلى أن جاء وقت لم يشكلوا فيه قوة عازلة بينهم وبين إخوانهم في الشمال.

وعلى أي حال فقد حد السور إلى درجة كبيرة من غزوات الهسيونغ نو على الحدود الشمالية، وبقي منذ إنشائه خطاً فاصلاً بين عالمين، عالم الصينيين وعالم البرابرة، ولكنهم لم يبعد وبصورة نهائية التهديد المحتمل من قبلهم، ولا الخطر الماثل في تواجدهم الدائم شمال السور، وذلك لأن السور بُني أصلاً عقب دورة خروج كاملة ولاعتبارات متعلقة بأمن واستقرار سكان الشمال، ولم يبنِ كما بني سد ذو القرنين لكبح جماح تأججهم بكل مظاهره المتعددة.

وقبيل انهيار أسرة شين بسنوات قلائل فقد السور كل أهميته كخط دفاع ثابت، وعندما آلت أمور الدولة لأسرة هان Han (٢٠٦ ـ ٢٢٠ ق.م) وصل السور نتيجة الإهمال والافتقار إلى الصيانة المنتظمة والإشراف، مع المناخ المتطرف صيفاً وشتاءاً إلى حالة لم يعد صالحاً فيها للحد من تدفق الغزاة ولا الحيلولة بينهم وبين التوغل في قلب الصين.

ومن الطبيعي ألا يلتفت الإمبراطور كاو تسو Kao Tsu مؤسس أسرة هان إلى السور، وألا يضعه على رأس قائمة اهتماماته الدفاعية، ليس فقط بسبب تردي حالته، وإنما أيضاً لأن الصراع القبلي بين جموع يأجوج ومأجوج نجمت عنه ظهور قوة جديدة لم تكن في حسبان أحد، تجعل من السور كقوة مساعدة للجيوش الصينية ذكرى من ذكريات الماضي الجميل.

ففي ذلك الوقت انتهز الهسيونغ نو بقيادة تومان Tuman ضعف أسرة شين، والفوضى والاضطراب السياسي اللذين صاحبا انهيار الأسرة للتحرك مرة أخرى لتشكيل اتحاد قبلي يتولى فيه هو مركز الصدارة والقيادة، بوصف الهسيونغ نو هم أكبر المجموعات القبلية قوة وعدداً.

والمشكلة الوحيدة التي جابهت تومان وكادت أن تقضي على أحلامه في الزعامة هي طموحات ابنه البكر باقهدر Baghder المعروف في الحوليات الصينية باسم مو تون Mo Tun، والتي لا تقف عند حدود خلافة والده في قيادة الاتحاد الجديد، بل تمتد لقيادة جموع يأجوج ومأجوج كلها، وتكوين إمبراطورية ضخمة لا تقف عند حدود منغوليا وحدها.

وحتى يتخلص تومان من ابنه وطموحاته فقد أرسله بعيداً إلى قبيلة يوي شيه Yue Chih في غرب منغوليا، كرهينة في باطن الأمر، وكوديعة في الظاهر بحجة الحفاظ على حياته من خطر الصراع القبلي المحتدم، ولم يلبث تومان أن قاد هجوماً مباغتاً في معمعة معاركه لتوحيد الأمة على قبيلة يوي شيه، قاصداً في المقام الأول التخلص من ابنه، فإذا قتل ظهر للجميع كما لو قتل إما أخذاً بالثأر من والده، أو ضمن من قتل من رجالات القبيلة ومحاربيها.

بيد أن الابن كان يفوق والده دهاءاً ومكراً، فلم تنطلي عليه دسائس والده الساذجة، ولذلك أعد للأمر عدته، فبمجرد سماعه بوصول جيش والده تسلل من محبسه بهدوء وفر هارباً، مما جعل والده يعدل من خططه، ويعترف مكرهاً بأن أفضل حل لمشكلة الابن الطموح هي منحه قليل من المسؤولية، وتحت إشرافه المباشر، ومراقبة حركاته ورصدها، ولذلك أسند إليه قيادة الفرسان، مهيئاً بهذا الإسناد الخطير الفرصة له لقيادة جموع الهسيونغ نو، وفاتحاً أطول صفحة في تاريخ الصراع بينهم وبين الصينيين امتدت حتى القرن الأول الميلادي.

ومنذ تسلم باقهدر لقيادة الفرسان شرع في تدريب اتباعه على طاعته المطلقة، وفي كل ما يأمر به وينهى عنه بلا تردد ولا مناقشة، وكان له نوع من السهام تنطلق في الجو محدثة صفيراً حاداً يوقع الرهبة في القلوب، استخدمها في تعليمهم كيف يطيعونه، فقال لهم:

ـ حالما تسمعون صفير سهمي عليكم بإطلاق سهامكم نحو ذات الهدف الذي يقصده سهمي، وكل من يتردد أو يتلكأ في إطلاق سهمه عقب سهمي سيقتل فوراً.

ولكي يختبر مدى استيعابهم لكلامه، وكيف تكون طاعتهم وانقيادهم لأمره، قادهم ذات يوم في رحلة صيد، وإختار من بين جياده أفضلها، وأطلق عليه سهمه بصفيره الحاد وسط تردد أتباعه واستغرابهم وبالتالي لم

يقدر أحد منهم على انتزاع سهمه وتسديده نحو الجواد الأثير، وتنفيذاً لتهديداته ساقهم جميعاً إلى الموت واحد إثر الآخر بلا شفقة.

وأجرى تجربة أخرى كان هدفه هذه المرة إحدى زوجاته المحبوبات، وللمرة الثانية انكمش الأتباع مأخوذين بفداحة ما أقدم عليه، ومذهولين من تحجر قلبه وقسوته حتى على أقرب الناس إليه، وكانت حركتهم هذه كافية لقتلهم جميعاً إسوة بالسابقين.

وفي المرة الثالثة قادهم إلى حيث كانت خيول والده ترعى، وكالعادة سدد سهمه نحو أفضل جياد أبيه وأحبها عنده، وبلا تردد انتزع الأتباع سهامهم وأطلقوها دفعة واحدة على القطيع كله فأردوها ما بين قتيل وجريح، عندئذ ضمن باقهدر طاعة أتباعه وولاءهم له وإخلاصهم في تنفيذ كل ما يأمر به، كما أدرك من جهة أخرى بأن الوقت قد أزف لخلافة والده في قيادة الهسيونغ نو.

على أن باقهدر لا يريد الوثوب على مركز القيادة عن طريق التآمر والدسائس، بل يريد الوصول إليه بطريقة تثبت عن جدارته واستحقاقه لها، وعلى مرأى ومسمع من الجميع، وبعملية تلقي الرعب والفزع في قلب كل من تسول له نفسه التمرد أو الخروج عن إرادة القائد الجديد، فمكث غير بعيد يترقب خروج والده للصيد في معية رجالات القبائل ووجهائها، وفي موكب ضخم تظهر فيه كل علائم السلطة والنفوذ.

وذات يوم خرج والده في موكب ضخم، وقبيل مغادرة الموكب معسكر القبيلة دار باقهدر على ظهر جواده دورة كاملة، شدت انتباه الجميع وأثارت فضولهم، وبحركة سريعة انتزع سهمه وأطلقه على والده وسط دهشة القوم وذهولهم، ومع صفير السهم الحاد أطلق أتباعه سهامهم على الهدف نفسه، وقبل أن يفيق الجميع من هول ما يجري أمامهم، كانت جثة الزعيم مطروحة على الأرض وقد اخترقتها السهام، وبهدوء ورباطة جأش وجسارة منقطعة النظير تقدم باقهدر ليعلن على الملأ من نفسه زعيماً أوحد على الهسيونغ نو.

لـم تنظر قبائل هو Hu في شرق منغوليا بعين الرضا لهذا التغيير المفاجىء في أكبر تكتلات المنطقة، كما لم تطمئن إلى القائد الجديد، ولكنها لم تبادر بإظهار عداوة لا تحمد عقباها، فتقدمت من قبيل تحسس مواطن الضعف والقوة إلى باقهدر بطلبات لا تمس في ظاهرها سيادة الهسيونغ نو، فطلبوا حصاناً معيناً وتسلموه في الحال، وطلبوا واحدة من زوجاته الأثيرات وتسلموها هي الأخرى، ولما تجرأوا وطلبوا جزءاً من أراضيه رفض قائلاً:

ـ إن الأرض أساس الأمة.

وجد باقهدر في صلف القوم وعرجفتهم وتماديهم في الخروج على أعراف القبائل دافعاً قوياً ليفرض سيطرته عليهم، وينطلق لتحقيق مشروعه الكبير، وبسرية تامة قاد جيشه في هجوم مباغت أنزل بهم هزيمة منكرة قتل فيها زعيم القبيلة، ومن بقي حياً منهم انضم إلى المنتصر، وضمت بلادهم إلى مملكته الجديدة.

ومن الشرق زحف غرباً نحو تجمع قبائل يويه شيه Yueh chih قاصداً تحطيم وحدتهم ودمجهم في التكتل الجديد والوحدة الكبرى لجموع يأجوج ومأجوج، ولم يستغرق ذلك منه وقتاً يذكر، حيث توج هزيمتهم بقتل قائدهم، ومن جمجمته صنع كأساً بطّنه بالفضة يريه كل من تراوده نفسه بشق عصا الطاعة، وكل من يشكك في زعامته وقيادته.

أما بقية القبائل الأقل تنظيماً وعدداً والمنتشرة في مناطق متفرقة من البلاد، فقد آثرت بمحض إرادتها الانضمام للاتحاد الجديد، وسلك من لم يرتض الدخول في تجمع الهسيونغ نو الطريق عبر تركستان الصينية إلى غرب آسيا والتبت.

وهكذا أمكن لباقهدر من إحكام قبضته على مقاليد الأمور لجميع قبائل يأجوج ومأجوج على امتداد تواجدهم من غرب منشوريا وعبر منغوليا إلى أقصى الغرب، وإلى الجنوب امتد نفوذه إلى أبعد قليلاً من خط الدفاع القديم الذي جعله الإمبراطور هوانغ تي حداً فاصلاً بين الصين والبرابرة،

مكوناً بذلك إمبراطورة ضخمة هائلة القوة وكثيرة العدد، وعلى أهبة الاستعداد للانفتاح على العالم.

وهذا ما حدث بالفعل فما إن حل عام ٢٠١ ق.م حتى بدأت الاستعدادت تجري على قدم وساق للخروج نحو الصين، في أكبر زحف بشري حشدوا فيه كل قوى الأمة المحاربة، وبلغ سلاح الفرسان وحده درجة من الكثرة إلى حد قيل إنه كان يضم أكثر من ربع مليون حصان وخيال ورام للسهام، وكإجراء تمهيدي للزحف الكبير تقدمت فرق المشاة في العام نفسه وأحكمت سيطرتها على مداخل السور الرئيسية والمؤدية إلى مدن شمال الصين ومن بينها العاصمة.

وفي صيف نفس العام تحرك الهسيونغ نو صوب الصين عبر البوابات الرئيسية، ومنها تدفقوا جنوباً، قسم منهم انحرف قليلاً إلى الغرب زارعين الحريق والخراب في كل مكان، أما القسم الأكبر بقيادة باقهدر نفسه فقد اتجه صوب عاصمة المقاطعات الشمالية ماي يي Mai Yi حيث ضرب حولها حصاراً لم يستمر طويلاً استسلم على أثره حاكم المقاطعة بشروط ضمنت للأهالي سلامة أرواحهم وممتلكاتهم.

فتح سقوط أغلب شمال الصين في أيدي الغزاة الطريق أمامهم نحو قلب الصين العامر بالسكان، غير أن باقهدر تباطأ قليلاً في زحفه ليجمع جنوده المتفرقين في الأقاليم، ولما حل فصل الشتاء تركت جموعهم في طقس قارس البرودة، ولم ينتظر الإمبراطور كاو تسو من جهته الغزاة في عاصمته، وإنما قاد بنفسه جيشاً لملاقاة العدو حيث واجه جنوده برداً متطرفاً فقد البعض منهم أصابعه.

يتميز الجيش الصيني بقادة على مستوى رفيع من الحنكة والذكاء والخبرة، وجند ذو كفاءة قتالية عالية اكتسبت خلال الحروب الأهلية والصراع الطويل مع قبائل يأجوج ومأجوج، وتلك مميزات على ما لها من أهمية إلا أنها ذات مردود سلبي على الصينيين لا على أعدائهم، إذ أدخلت

في روعهم مقدرتهم على وقف الغزاة وطردهم بعيداً خارج السور، وهو ما استغله باقهدر جيداً، وأسس عليه خطته لمجابهة عدوه التقليدي.

أخفى باقهدر الفرسان والخيالة في أحد السهول والأودية، وترك في مواجهة الصينيين قوة من الجيش، وبمجرد اتخاذ الطرفين مواقعهم القتالية، تظاهر الهسيونغ نو بالهزيمة وتراجعوا كما لو كانوا أخذوا على حين غرة. ووقع كاو تسو في الفخ، فطارد بنفسه العدو، وقاده الفارين إلى حيث أخفى باقهدر فرسانه، وهناك توقف في انتظار بقية الجيش والإمدادات، وعلى الفور أحاطت بهم الخيل من كل جانب، في الوقت الذي استدارت فيه القوات المتظاهرة بالهرب لمحاصرة مدينة بنغ شينغ Ping Ching، وهكذا حوصر الإمبراطور، وانقطعت عنه بحصار المدينة الإمدادات والمؤن.

استغرق الحصار سبع أيام بلياليها فشل خلالها الهسيونغ نو من اقتحام استحكامات الجيش الصيني، ومن الصعب على الجيش فك الحصار ولو بعملية عسكرية باهظة التكاليف، فلجأ إلى حيلة تنم عن معرفته العميقة بنفسية القوم، وسعة فهمه لطبيعة خروجهم، فهرّب سراً رسولاً إلى إحدى نساء باقهدر ومعه هدايا قيّمة خلبت لب الزوجة، وطلب منها التأثير على زوجها ليرفع الحصار أو يدخل معه في مفاوضات تنتهي لصالح الطرفين ولصالحها هي على وجه أخص، فقالت لزوجها محاولة إقناعه بما طلب منها:

«ما الغرض من إثارة الحروب والمشاكل بين قائدين يحدث لكل منهما من القلاقل والاضطرابات في بلاده بما فيه الكفاية، وأنت حتى إذا تمكنت من الاستيلاء على أملاك أسرة هان فلا تستطيع السيطرة عليها طويلاً، فقد يهب الله للإمبراطور نفس القوة التي تفوقت بها عليه الآن، فأتوسل إليك أن تعيد النظر في الموقف برمته قبل الإقدام على عمل قد تندم عليه فيما بعد»[١].

---

(١) The Great Wall of China - Jonathan Fryer P. 79.

إن تفوق الهسيونغ نو العسكري لم يغري باقهدر على اجتياح مدن الشمال أو التوغل إلى داخل البلاد، لإدراكه الواعي بطبيعة قوة الدفع المحركة لهم على الخروج، وهي قوة مهما بلغت من البطش لا تمكنهم من التسلط على الصينيين وقهرهم، ولذلك جاءت نصيحة زوجته في وقتها، واختار عن قناعة المفاوضات سبيلاً للوصول إلى مكان سيصل إليه بقوة السيف.

وفي المفاوضات المطولة التي جرت بين الطرفين تم الاتفاق على معاهدة سلام بشروط مهينة للصينيين من أبرزها:

- تدفع الحكومة الصينية للهسيونغ نو أتاوة سنوية عبارة عن كميات هائلة من الحبوب والحرير والملابس والخمر وبعض الأدوات الكمالية.

- على الحكومة الصينية التنازل عن بعض الأراضي للهسيونغ نو، وخاصة إقليم أوردوس الخصب.

- عقد زيجات بين قادة الهسيونغ نو والأميرات الصينيات، ويشترط فيمن يقع عليها الاختيار أن تجري في عروقها الدماء الملكية.

- يجب على الإمبراطور كاو تسو تزويج ابنته لباقهدر، وذلك حتى تمتزج الدماء بين الشعبين.

وتنفيذاً للبند الأخير من الاتفاقية أراد الإمبراطور كاو تسو إرسال ابنته زوجة للعاهل الكبير، ولكن زوجته الإمبراطورة لو Lu رفضت الفكرة بازدراء شديد، واختارت له واحدة من أجمل فتيات البلاط وأرسلتها له بدلاً عن ابنتها وفي موكب إمبراطوري فخم، وفيما يبدو لم يلاحظ الزوج أي فرق بين الأميرة ووصيفتها، وبالتالي لم تسبب الخدعة أي نقض لبنود المعاهدة.

توفي الإمبراطور كاو تسو عام ١٩٥ ق.م فخلفه في الحكم ابنه البالغ من العمر عشرة أعوام، ومن ثم انتقلت مقاليد الأمور تلقائياً إلى والدته الإمبراطورة لو، فأثبتت جدارة فائقة في إدارة شئون الدولة، وحنكة

سياسية في التعامل مع تقلبات الهسيونغ نو وغاراتهم المتقطعة على الحدود، وداومت بأعصاب باردة على إرسال الحبوب والملابس والأميرات كما تنص المعاهدة.

أدت سياسة ضبط النفس والتقاضي عن الغارات والترضيات المتواصلة بباقهدر إلى إرسال رسالة للإمبراطورة لو يعبر فيها عن شكره على جميل صنعها ووفاءها، وفي سياق الرسالة اعترف لها بما يعانيه من وحدة، وأبدى لها عن رغبته في الزواج منها، إذ الزواج ـ كما يقول ـ قد يشكل تحالفاً بين الأمتين يستمر لأجيال، ورت عليه الإمبراطورة معتذرة بكبر سنها فقالت:

«لقد أصبح تنفسي بطيئاً، وتساقط شعري وأسناني، وعجزت قدماي على حملي، فقلّت حركتي، ولكن عندي عربتين ملكيتين وأربعة جياد مطهمة أرسلها لك عرفاناً بالجميل»[1].

حافظت الإمبراطورة لو طوال فترة حكمها نيابة عن ابنها على معاهدة السلام، وبعد خمس عشرة سنة توفي ابن الإمبراطور كاو تسو ليخلفه في الحكم ابن عمه ون تي Wen Ti (١٨٠ ـ ١٥٧ ق.م)، وفي بداية حكمه وجّه رسالة طويلة لباقهدر يشكو فيها من الخرق الدائم والنقض المستمر من جانبهم لروح المعاهدة وشروطها، ويذكره بسياسة الصين الثابتة تجاه جيرانهم إلى أن قال:

«إن أول إمبراطور لهذه الأسرة (كاو تسو) قد تبنّى السياسة التالية:

كل من هم شمال السور الطويل من شعوب القوس والسهم (الهسيونغ نو) يخضعون للرئيس العظيم (باقهدر) ومن رعاياه، وكل من هم داخل السور الطويل من أسر وعائلات القبعة والحزام (الصينيون) يخضعون لأسرة هان ومن رعاياها، وعلى كل هؤلاء أداء أعمالهم الخاصة بسلام،

(١) المصدر السابق ص ٥٦.

الذين يتبعون لنا زراع وصناع ملابس، والذين يتبعون لكم صيادون ورماة سهام.

إن الهان والهسيونغ نو أمتين متجاورتين منذ القدم، ومناخكم في الشمال قارص البرودة وقاتل، وأرضكم قاحلة، لذلك اعتدنا أن نرسل لكم سنوياً ما يكفيكم من الطعام والملابس وأشياء أخرى كثيرة نافعة ومفيدة، والآن الإمبراطورة تنعم بسلام، والشعب يعيش في رخاء وازدهار، ولا يجوز لأسباب تافهة تمزيق أواصر الصداقة وروابط الإخوة بيننا، إن السماء كما يقال لا تستر أحداً على وجه الخصوص، والأرض مسكن عام لبني البشر.

دعنا الآن بنية صافية، ورغبة صادقة نتناسى الماضي بكل مشكلاته، ونفتح صفحة جديدة نوثق فيها صداقة باقية على مدار الأيام، حتى يمكن لشعبانا العيش مثل أطفال الأسرة الواحدة في البيت الواحد.

وعندما يسود السلام بيننا، فكن على ثقة واطمئنان بأن من يعكر صفوه، وينقض بنوده لن يكون من أسرة هان»[١].

أدت وفاة باقهدر عام ١٧٤ ق.م إلى تغييرات عميقة في سياسة الصين تجاه أعداءها التقليديين، وفي التجمع القبلي لجموع يأجوج ومأجوج، إذ بدأت تجنح أغلب القبائل التي ضمها الهسيونغ نو إلى الاستقلال، وقبل اتخاذ أي قرار على ضوء ما يحدث في الشمال، أرسل الإمبراطور ون تي بعثة ظاهرها الترضيات المألوفة، وباطنها استقصاء حالة القوم بعد اختفاء القيادة الموحدة لهم.

وفي التقرير الذي أعدّه رئيس البعثة حصر المشكلة برمتها في اختلاف طبيعة القوم وعاداتهم ورغباتهم ومغايرتها تماماً عن طبيعة وعادات ورغبات الصينيين، ثم ختم تقريره بنبرة مشحونة بالأمل والتمني والتحسر تنبىء بكبر الفارق بين الأمتين فقال:

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦.

«لو اكتسب هؤلاء الناس فقط نصف طباعنا، وإذا كان لهم خمس احتياجاتنا، فبلا شك سيكونون غير أتباع لنا»[1].

وعلى الرغم من انفراط عقد القبائل في الشمال، إلا أن أسرة هان حرصت دوماً على سياسة الترضيات والمصاهرة كنهج ثابت في التعامل مع جيرانهم، وامتد مع التغيرات الجديدة ليشمل قبائل أخرى موالية للهسيونغ نو أو معادية لهم، حيث أغدقت عليهم الهبات والمنح مقابل خدمات معينة يؤدونها للدولة، ومع كل هذا لم تتوقف الغارات حتى غدت شيئاً مألوفاً طوال فترة حكم ون تي، أخطرها على الإطلاق غارة عام ١٦٦ ق.م وفيها وصل البرابرة إلى مشارف شانغ آن Chang an عاصمة البلاد، وفي كلمات تفيض حزناً وأسى عبر الإمبراطور عن حالته فقال:

«بسبب ضعفي وعجزي لم أعد قادراً على نشر فضيلتي بين الجميع، وإلا فلماذا كل الأقاليم خارج نطاق سيطرتي لا تريح ولا تستريح، وهؤلاء الذين خارج مناطق الصحراء الأربعة لا يحبون أبداً حياة هادئة ومستقرة»[2].

وبعد مضي عام على هذه العبارات الحزينة لفظ الإمبراطور ون تي أنفاسه الأخيرة تاركاً لخليفته تركة مثقلة بالمشاكل، ولم يلبث الإمبراطور الجديد طويلاً في الحكم فتوفي عام ١٤١ ق.م مفسحاً المجال إلى وو تي Wu Ti (١٤٠ ـ ٨٧ ق.م) ابن الإمبراطور ون تي، ليقود أطول حرب في تاريخ الصين مع جموع يأجوج ومأجوج.

استدعى الإمبراطور وو تي لدى اعتلائه العرش مجلساً كبيراً ضم كبار الساسة وقادة الجيش وأمراء البلاط والاقتصاديين لوضع سياسة جديدة للتعامل مع الهسيونغ نو وغاراتهم الدائمة، ولتفادي خطرهم في المستقبل، وفي هذا الاجتماع طرح عليهم سياسته الجديدة والقاضية بمهاجمة الأعداء في عقر

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٨١.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٨٢.

دارهم، وتحطيم قواهم، ونبعت موافقة أغلب المجتمعين على مجمل سياسة الإمبراطور من أن غارات البرابرة المتكررة بدأت لهم كما لو كانت تهديداً مباشراً للعاصمة وللمناطق الخلفية الآهلة بالسكان، ولذلك صمموا على ضرورة كسر شوكتهم، والحيلولة بينهم وبين قيام وحدة تهدد الصين مستقبلاً.

وعارض سياسة الإمبراطور الجديدة كل من كان على فهم عميق وإدراك شامل لطبيعة القوم، وقد عبر عن رأيهم شو نوين أحد موظفي البلاط بقوله:

«إن بلاد الهسيونغ نو شاسعة للغاية، وخبرة أجيال عديدة أثبتت بألا يطمع أحد في التغلب عليهم أو حكمهم، إنهم يغيرون ويسلبون ويقتلون ثم يفرون بنفس السرعة التي أغاروا بها، هذه هي حياتهم، وهكذا خلقهم الله»(١).

ومنذ ذلك التاريخ أرسلت عدة حملات عسكرية واحدة تلو الأخرى، يقدر عدد جند الحملة الواحدة منها ما بين خمسين إلى مائة ألف نجحت جميعها في الحد من قوتهم، ولكن بتكاليف باهظة وخسائر فادحة في الأرواح، وكميات ضخمة من الذهب وزعت كأجور للجند ورشاوي للحلفاء المحليين، بينما تكاليف إمداد الحملات بالمؤن والعتاد عبر السور الكبير إلى عمق تلك الأراضي القاحلة والتي من المستحيل إعداد مخازن دائمة فيها من الضخامة بحيث أحدثت كارثة في الاقتصاد الصيني جعلته يعاني من تقلبات لا حصر لها.

ومهما يكن من أمر فإن نجاح السياسة الجديدة يعود في المقام إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

١ ـ تجديد وتحديث فنون القتال، وخاصة الاستخدام الأمثل للخيالة كقوة ضاربة في ميدان المعركة بدلاً عن المشاة.

---

(١) A history of China - Rodzinski P. 61.

٢ ـ وجود قادة في الجيش الصيني هم خليط من العنصر الصيني والبربري، أو من عنصر بربري محض ـ أي من سلالة يأجوج ومأجوج ـ تميزوا ببراعة مدهشة في وضع الخطط الحربية وفي تحريك الجيوش.

٣ ـ التوظيف الدقيق لسياسة التآمر والدس وبث روح الفرقة والنزاع بين الهسيونغ نو كبرى القبائل وبين غيرها، وذلك بقصد خلق اضطراب مستمر ومنازعات دائمة فيما بينهم، وسياسة محاربة البرابرة استخدمها الإمبراطور هوانغ تي، ولكن وو تي وظفها هذه المرة لتأتي متزامنة مع العمليات الحربية.

ويعد العامل الثاني هو السمة البارزة في حروف وو تي، إذ نسب إلى هؤلاء الأسلوب الحربي الجديد وتقليد الأعداء فيما برعوا فيه من فنون قتالية وأولها القتال من على صهوات الجياد، فمثلاً الجنرال هوا شنق بنغ Hua Chung Ping بدأ حياته كصبي راع في سهول منغوليا قبل اندماجه في الحياة الصينية وتحوله إلى واحد من أشهر المحاربين في تاريخ الصين.

وهوا شنق بنغ هو وحده من بين جميع قادة الحملات الذي تمكن في عام ١٢١ ق.م من التوغل في أراضي الهسيونغ نو إلى عمق لم يصل إليه أحد قبله، وفي عام ١١٩ ق.م تقدم بقوى من الفرسان وضم المنطقة المعروفة بممر كانسو الرابط الوحيد للمنطقة بغرب آسيا. صحيح أن خيالة الجيش تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، ولكن القتلى في صفوف الأعداء بلغوا حداً يفوق الحصر والإحصاء، وعاد القائد المظفر إلى عاصمة البلاد وبصحبته ما يناهز مئة أسير من زعماء القبائل.

لم يستعد الهسيونغ نو قواهم بالكامل بعد هذه المعارك الدامية والهزائم المتتالية، كما أن القبائل الأقل عدداً لم تعد هي الأخرى قادرة على تحمل مزيد من الخسائر البشرية، فآثرت الاستسلام بالكامل للصينيين، ومنها من نزح مفضلاً الإقامة والاستقرار شمال وجنوب السور الكبير وتحت الحكم الصيني المباشر.

وفي الوقت الذي كانت فيه المعارك الحربية على أشدها في الشمال، اتجه الإمبراطور وو تي لترسيخ وتثبيت الحدود، فأنشأ عدة مستعمرات شمال السور وجنوبه، وفي الأراضي السهلية وفي إقليم أوردوس، أرسل إليها في عام ١٢٠ ق.م وحده ما يزيد عن مئة ألف فلاح، وزعت عليهم الأراضي الزراعية، وحفرت قنوات للري، وأقيمت نقاط مراقبة دائمة للحماية ورصد تحركات العدو.

وترمي خطة الإمبراطور كما هو واضح إلى مد الوجود الصيني عدة أميال شمال السور، حتى يمكنهم الوصول إلى أي بقعة وفي أسرع وقت، وبذلك أصبحت منغوليا كلها من الناحية النظرية على الأقل تحت سيطرته، غير أن الخطة أحدثت تغييراً مهماً في الطريقة التي كان ينظر بها إلى السور، إذ لم يعد كما كان عليه من قبل حد فاصل بين العالم الصيني وعالم يأجوج ومأجوج، وحاجز لمنع المغيرين عن الأقاليم الشمالية، إذ تحول على ضوء التغييرات الأخيرة إلى نقطة انطلاق مما أفقده وظيفته الدفاعية، وعطل من دوره.

وفي غمرة الاستعدادات المكثفة للحملات العسكرية تذكر وو تي ما حدث لقبيلة يويه شيه والتي هزمت على يد باقهدر، وقتل زعيمها وصنع من جمجمته كأساً للشراب، وكيف أُجبرت على التخلي عن أراضيها والنزوح غرباً، فسعى لإقناع رجالات القبيلة بالعودة إلى ديارهم والدخول معه في حلف لكبح جماح عدوهم المشترك.

ولأجل هذه الغاية أرسل الضابط شان شيان Chan Chien في بعثة يصحبه حوالي مئة شخص، وغادرت البعثة العاصمة في عام ١٣٨ ق.م وعندما عبر أفرادها الجزء الغربي من السور ودخلوا في حدود إمبراطورية الهسيونغ نو وقعوا على الفور في كمين لإحدى الدوريات، وأخذوا جميعاً لمقابلة الزعيم، ويبدو من الوقائع التي تلت عملية القبض أن الزعيم لم يكن مطلعاً على مهمة البعثة ولا يعرف بالتحديد وجهتها، كما لم يكلِّف نفسه أي

عناء في الوصول إلى مراميها. ولذلك أظهر لأعدائه رحمة ليست متوقعة، فأودعهم جميعاً في الحبس لمدة بلغت عشر سنوات بكاملها.

وفي السنوات الأخيرة خففت الحراسة على الأسرى، وسمح لهم بالتنقل والتجول ضمن دوائر معينة لا يتخطونها، مما أتاح الفرصة لشان شيان بالزواج من إحدى فتيات الهسيونغ نو، وفي نهاية العشر سنوات وبمعونة من زوجته نجح في الهرب، ومضى قدماً في تنفيذ ما أوكل إليه، إلى أن وصل أحد الأودية التي كانت تقيم فيها القبيلة، ولكنه فوجىء بمغادرتهم المكان قبل مجيئه بفترة، فقطع رحلة طويلة عبر فرغانة إلى حيث مستقرهم الجديد في إقليم بكتريا Bactria.

عرض شان شيان على زعيم القبيلة فكرة العودة إلى أراضيهم القديمة تحت حماية الجيش الصيني، وعقد حلف يهدف إلى تقليص نفوذ الهسيونغ نو في المنطقة، مع توفير كافة احتياجاتهم من الطعام والملابس، ولكن المبعوث الصيني لم يجد لدى القوم أدنى رغبة في العودة، ولم تؤثر فيهم الإغراءات للانضمام إلى حلف بقحمهم من جديد في صراعات لن تنتهي بسهولة.

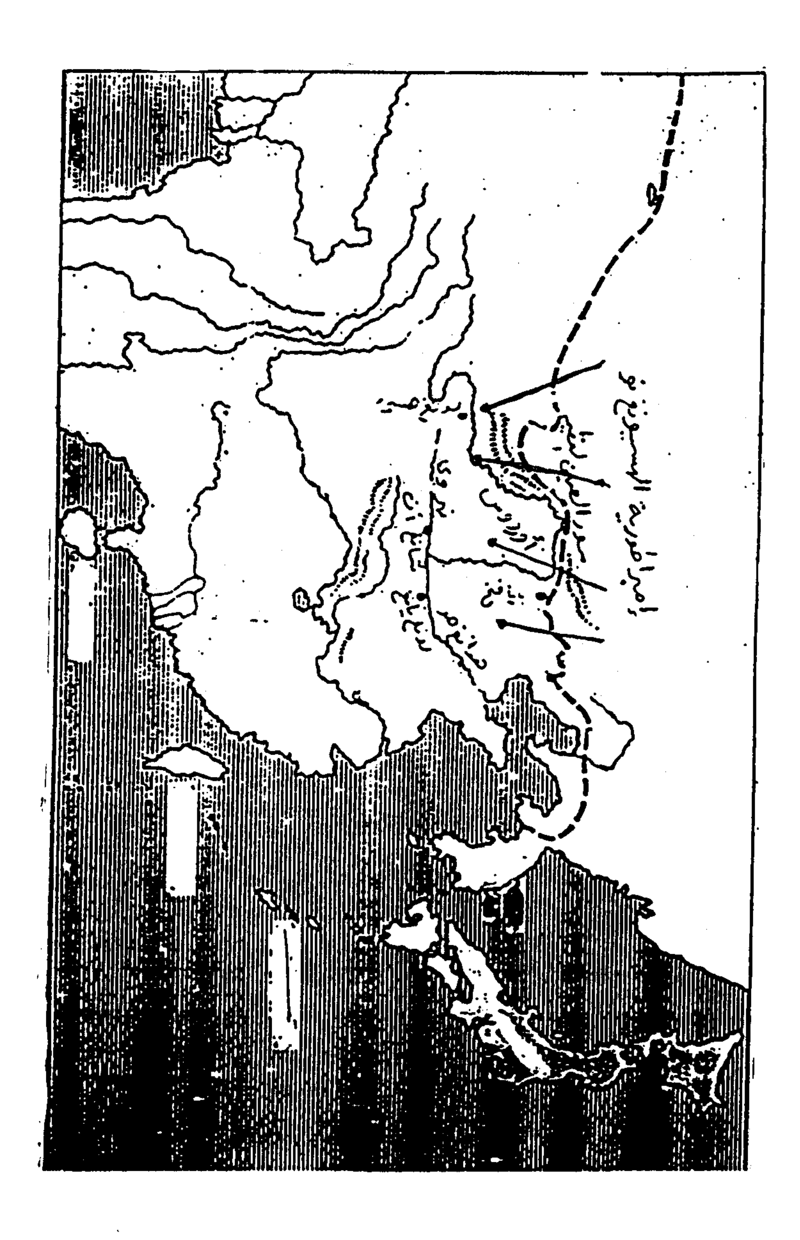
أقام شان شيان في بكتريا عام بكاملها حاول خلاله إقناعهم بالعدول عن موقفهم والعودة إلى وطنهم القديم، ولما باءت كل محاولته بالفشل استسلم للأمر الواقع وكر عائداً إلى بلاده، سالكاً هذه المرة طريقاً آخر يمر فوق السور ليتجنب دوريات الهسيونغ نو، غير أن غيابه الطويل لم يمكنه من معرفة نظام الدوريات المتبع، وللمرة الثانية وجد نفسه أسيراً في قبضة الأعداء.

وبعد مضي عام استغل حدوث نزاع نشب بين آسريه فتسلل هو وزوجته وأحد الأحياء من أعضاء البعثة هاربين في جنح الليل، وفي عام ١٢٦ ق.م وصل الجميع إلى عاصمة البلاد شانغ آن Chang-an بعد غياب طويل دام اثنتي عشرة عاماً.

كان الإمبراطور يسعى وبأي ثمن لإقامة حلف مع قبائل يأجوج ومأجوج يعي جيداً إمكانيته من واقع انتصاراته الأخيرة، يخفف من التكاليف المالية الباهظة، ويقلل من الاستنزاف المتواصل لطاقات الجيش البشرية، فوقع اختياره على قبيلة وو سن Wu Sun في شمال نهر تاريم Tarim وللمرة الثانية أوقد شان شيان لعرض المشروع على القبيلة، وعاد بعد فترة حاملاً معه مجموعة من الرسائل واثني عشر جواداً للإمبراطور، أما بخصوص الحلف فلم يبت فيه بوضوح، ولكنه ضمن وقوف القبيلة إلى جانبه.

ونتيجة لهذه البادرة الطيبة أرسل الإمبراطور لزعيم القبيلة كون مون Kun Mun إحدى الأميرات زوجة له، ومن سوء حظ الأميرة فقد كان الزعيم في أرذل العمر، وليس بينهما لغة مشتركة، فعاشت الأميرة طوال ما تبقى من عمره مهجورة وسط قوم غرباء، وعبرت إحدى الأغاني الشعبية الصينية عن أحزان الأميرة ووحدتها بهذه الكلمات:

الخروج الخامس



زوجني شعبي

في ركن قصي من الأرض

أرسلني شعبي إلى أرض غريبة

إلى ملك وو سن

بيتي خيمة

حيطانها من اللباد

اللحم النيء طعامي

ولبن الفرس شرابي

دائمة التفكير في بلادي

قلبي حزين

يا ليتني كنت مثل سائر اللقلق الأصفر

لا طير لبيتي القديم[1].

مات الزعيم العجوز كون مون وورث زوجته ابنه البكر كحق طبيعي، فأصيبت الأميرة بالرعب من جرّاء هذا التبدل المفاجىء في العلاقات. فأرسلت للإمبراطور تطلب النصح والمشورة. وجاء رده حاثاً إياها بالصبر والتقلب على حيرتها وقلقها والتأقلم مع عاداتهم وتقاليدهم خدمة لوطنها، ولما ينطوي عليه وجودها من أهمية في تدعيم التحالف الظاهري مع القبيلة واستجابت الأميرة لرغبة الإمبراطور وواصلت أداء مهمتها الصعبة إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة وهي تضع مولودها الأول.

وفي عام ١١٠ ق.م قاد الإمبراطور وو تي بنفسه حملة يقارب عدد

---

(١) A Short History of China - Hookhan P.57.

جنودها زهاء ١٨٠ ألف، تحركت من العاصمة في محاولة أخيرة لإخضاع الهسيونغ نو نهائياً للسيطرة الصينية، أو على أقل تقدير توجيه ضربات عنيفة لهم أينما حلوا، وذلك لإضعافهم إلى أدنى حد ممكن، غير أن الحملة على ضخامتها فشلت في تعقبهم، إذ لاذت جموعهم بالفرار إلى مناطق وعرة لا يمكن للجيش الصيني اجتيازها فضلاً عن القتال عليها.

وفي السنوات الأربع التالية أعد الإمبراطور جيشين قوام كل منهما خمسون ألف مقاتل، أرسلهما منفردين لمهام لا تختلف عن السابقات في شيء ولم يحقق كلاهما المهمة المنوطة به، إلا أنهما أثبتا للهسيونغ نو بأن صحاريهم ووعورة مسالك بلادهم لا تحول بينهم وبين الصينيين، وكانت حصيلة القتلى في الجانب البربري فادحة، في حين كانت الخسارة في الجانب الصيني أكبر وأفدح، إذ صادف أحد الجيشين في طريقه عاصفة ترابية أبادته عن آخره.

ومهما لا شك فيه أن معظم سياسات الإمبراطور وو تي قد نجحت بالفعل، وبرز ذلك النجاح في أجلى صورة في التغيرات المستمرة في بنية القبائل، وفي التحالفات سريعة الزوال، وعمق العداوات بين القبائل، وأهم من ذلك تردي حالة الهسيونغ نو وتدهور قواهم، فثارت عليهم بعض القبائل المنضوية تحت لواءهم مفضلة الاستقلال بإدارة شئونها الخاصة، الشيء الذي أجبرهم على تقليص غاراتهم، واتخاذ موقف دفاعي واضح في كل مواجهة لهم مع الجيش الصيني.

وازدادت أحوالهم سوءاً بفعل الكوارث الطبيعية، وخصوصاً فصول الشتاء بعواصفها الباردة والتي أودت بحياة الكثيرين منهم، وتلت فصول الشتاء فصول صيف جافة هاجم فيها الجراد مساحات واسعة من النباتات، نفقت على أثره أعداداً هائلة من المواشي.

في هذه الأثناء بدأت تطفو على السطح بوادر صراع حول مركز الزعامة في القبيلة عجل بالنهاية الحتمية، ففي عام ٥٨ ق.م تنافس على

قيادة القبيلة الأخوين خوجانجا Khuganga وشيه وشيه Chih Chih يدعى كل منهما أهليته وجدارته للزعامة، وكنتيجة طبيعية لأوضاعهم المتردية ولضعفهم الشديد، سعى الأخ الأصغر خوجانجا وراء اتحاد ثابت ومستقر مع جيرانه في الجنوب يقوي من موقفه، ولقي في بلاط الإمبراطور يوان تي Yuan Ti كل حفاوة وترحيب من الأمراء وكبار موظفي الدولة، حيث أعدّ له قصر وفرت له فيه كل أسباب الترف والرفاهية، وأقيمت له وطوال شهر كامل حفلات التكريم والمآدب، أدى في نهايتها وهو راكع أمام الإمبراطور باسمه وبأسماء أبنائه وأحفاده قسم الولاء الأبدي، وبكل إخلاص تسلم الختم الذي منح له رمزاً لاستقلاله الأسمى، ومضاناً لخضوعه التام للإمبراطورية.

وهكذا وبعد سنوات طويلة على وفاة الإمبراطور ووتي جنى الصينيون ثمرات حروب طويلة منهكة استنزفت قواهم البشرية والاقتصادية، هبط فيها الهسيونغ نو إلى منزلة التابع الذليل، وتحولت نصف أملاكهم إلى جزء من دولة الصين، وبذلك طويت صفحة طويلة لمعاناة قاسية تحرر فيها الصينيون من الخوف ونعموا بالأمن والطمأنينة، وتحول السور إلى خط دفاع زائد عن الحاجة.

وطوال السنوات التالية حافظ خوجانجا على علاقته بالإمبراطورية وأثبت إخلاصه وتبعيته للمملكة السماوية في أكثر من موقف، وعندما تنازل يوان تي عن العرش عام ٤٨ ق.م بعث إليه بتمنياته القلبية بحياة سعيدة هانئة ولخلفه بتهانيه وتوفيقه، وأغدق على الجميع التحف والهدايا.

وإعراباً لما أبداه الحليف الوفي من ولاء وإخلاص، أوفد إليه الإمبراطور الجديد اثنين من سفراء البلاط معبرين له عن شكره وتقديره، وهناك في مضاربهم اكتشف السفيران أن تحالفهم مع خوجانجا قد أجبر شقيقه الأكبر ومن معه من القبائل على التحرك شمالاً، مما أثار مخاوفهما وتحسباً لما تسفر عنه الأيام عُقد معه ميثاق عدم اعتداء في حالة بروز أي قوة جديدة في المنطقة، وختم احتفال التوقيع على الميثاق بحفلة أقيمت على قمة جبل ذبح فيها حصان أبيض.

وخلال الخمسة عشر سنة التالية لم يطرأ جديد على العلاقات بين الحليفين، وفي عام ٣٣ ق.م عبر خوجانجا أبواب السور في طريقه إلى العاصمة شانغ ـ آن كي يطالب بعروس صينية كرمز للحلف المقدس والصداقة القوية بين الأمتين، وبما أن هناك الكثير من الأميرات الجميلات في البلاط فقد اعتمد خوجانجا كلية على الصور التي رسمها لهن مصور القصر ماو ين شو Mao Yen Shou، وبعد تقليبه لدقائق محدودة في صور الفتيات وقع اختياره على الأميرة شاو شون chao Chun.

أثنى الإمبراطور على اختيار الحليف، فالشابة جميلة ومتميزة عن أميرات البلاط، ثم أصدر أوامره بالاستعداد لعقد القران بلا تأخير، هذا في الوقت الذي انخرطت العروس في بكاء مرير، ولم تجد ما يعزيها في محنتها، ويخفف عنها وقع المصيبة سوى قناعتها بأنها تسدي لأمتها خدمة جليلة لا تقل عما يؤديه المحارب، ولذلك منحت الرتبة الملكية (أميرة السلام الدائم) كما تنص تقاليد البلاط في مثل هذه الزيجات السياسية.

زيّنت قاعة الاحتفالات الكبرى في القصر الملكي بكثير من القطع الفنية البديعة، وأضيئت الشموع، وأطلق البخور، واحتشد الأمراء والوزراء والنبلاء وكبار ضباط الجيش وموظفي البلاط بملابسهم الرسمية فرحين بهذه الوحدة التاريخية، أما خوجانجا فقد غادر العاصمة لكي يعد لعروسه استقبالاً يليق بمكانتها الملكية.

دخل الإمبراطور وارتقى عرش التنينين، ثم تبعه سفير خوجانجا والذي سيرافق شاو شون، مرتدياً ملابس الهسيونغ نو المميزة، ثوب حريري، وعلى رأسه قبعة مخروطية الشكل غرزت فيها ريشتان، وفي وسطه حزام تتدلى منه سكاكين حديدية، وصندوق صغير، وكيس للتبغ.

شد انتباه الحضور ظهور شاو شون في القاعة بصحبة سيدات وفتيات القصر، وهي تتحرك في مقدمتهن بتواضع واحتشام، وفي خطوات متمايلة وعيونها على الأرض اقتربت من العرش، وببطء شديد ركعت على ركبتيها

ثم رفعت وجهها إلى الإمبراطور، ألقى عليها الإمبراطور نظرة سريعة، وبإيماءة من أصبعه أذن لها بالوقوف لإتمام إجراءات الزواج.

وفي اليوم التالي غادرت العروس العاصمة في عربة ملكية بصحبة الحرس الإمبراطوري يتبعهم سفير خوجانجا، وبعد عدة أيام من السفر وصل الموكب إلى السور الكبير، نزلت الأميرة من العربة وصعدت إلى تل مرتفع لتلقي النظرة الأخيرة على وطنها، ثم امتطت صهوة جواد لتبدأ رحلتها نحو الشمال. وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أشهر وصلت العروس إلى معسكر الهسيونغ نو.

اقتيدت شاو شون فور وصولها إلى داخل خيمة دائرية الشكل مصنوعة من اللباد حيث وجدت في انتظارها خليط من الأساس التقليدي للبرابرة، وبعض الخزانات وأدوات التجميل الصينية، وهي التي أمر بها خوجانجا وذلك لكي تشعر العروس وكأنها في بيتها ووطنها.

وبعد عدة أيام من الراحة والاستجمام أقيم للعروس حفل زفاف، عزفت فيه موسيقى الهسيونغ نو بأنغامها الصاخبة، والسيدات من حولها وهن يرتدين ثيابهن المظللة بخطوط حمراء، وتتدلى من رقابهن وأيديهن أصناف متعددة من الذهب والجواهر، وهن ينظرن بين الفينة والأخرى بانبهار واستغراب إلى هذه المخلوقة الرقيقة التي اختارها الزعيم زوجة له.

انتهى الحفل في منتصف الليل وأخذت شاو شون إلى غرفة الزوجية، فجلست هناك وحيدة تقلب النظر في تصاريف القدر التي ساقتها بعيداً عن الأهل والوطن، وقطع عليها حبل أفكارها وسكونها دخول زوجها المفاجىء، وكما تقضي تقاليد الهسيونغ نو في مثل هذه الزيجات، أخذ خوجانجا سهماً من الحائط وكسره على ركبته أمام زوجته كرمز على إخلاصه وولاءه للإمبراطورية الصينية.

اندمجت شاو شون في حياتها الجديدة ووجدتها أكثر متعة وإثارة من تلك التي ألفتها في القصر الإمبراطوري، وشاركت زوجها ليس فقط في رحلات الصيد، بل أيضاً في تحمل مسؤولية الحكم والإدارة، حتى إنها

اقترحت على زوجها تولى مهمة الإشراف على السور الكبير والمنطقة الفاصلة بين الهسيونغ نو والصين، وتولت بنفسها كتابة الاقتراح، وحمله وفد رسمي لعرضه على الإمبراطور.

بدأ الاقتراح لكبار ضباط الجيش وأمراء البلاط اقتراحاً وجيهاً ومغرياً، إذ فيه تخفيف لأعباء الجيش، وتوفير لمبالغ طائفة تنفق سنوياً على الحاميات العسكرية وترميم السور، واعترض عليه فقط أحد مستشاري الإمبراطور ممن له دراية واسعة ومعرفة عميقة بطبيعة القوم تدعمهما خبرة طويلة في التعامل معهم، فتحدث بهدوء ومعقولية مبيناً مخاطر ذلك الاقتراح فقال:

«ظلت اعتداءات وانتهاكات الهسيونغ نو على بلادنا تحدث بصورة عادية ومألوفة على عهد أسرتي شو وشين، وحتى ونحن في أوجّ قوتنا لم نسلم من سلبهم ونهبهم. وفيما مضى كان الفاتح باقهدر وأتباعه قد سيطروا على مساحات كبيرة من حدودنا الشمالية اتخذوها معقلاً لهم عاشوا فيها، ومنها جمعوا المواد الأولية لصنع سهامهم وأقواسهم، وجشعهم الطبيعي للذهب جعلهم يشنون باستمرار غاراتهم على الصين إلى أن هزمهم الإمبراطور وو تي هزيمة دفعت بهم بعيداً، ثم أصلح السور وقواه وعزز حامياته العسكرية، وشدد الرقابة على المخافر الحدودية ليحول دون هروب الخونة من بلادنا.

إن معظم سكان الإقليم الشمالي وعلى طول السور الكبير هم من سلالة (يأجوج ومأجوج)، ومن هنا يجب مراقبتهم مراقبة دائمة ومستمرة وبصرامة شديدة، والسور الذي بنى لأكثر من قرن مضى هو أكثر من مجرد حصن أو متراس من الطين، حفرت فيه ممرات سرية، وثبتت عليه أبراج مراقبة، ونوافذ يمكن من خلالها لرماتنا تغطية التلال المحيطة، إنه في الواقع حد فاصل بين عالمين، عالمنا وعالم سلالة (يأجوج ومأجوج) الغريب.

فإذا نحن استغنينا عن هذه الاستحكامات الدفاعية، وتركنا أمن الصين مرهون بالنوايا الطيبة لزعماء الهسيونغ نو، فستقودهم طموحاتهم حتماً إلى ضم جزء من حدودنا إلى بلادهم، ولن نسلم بعدها من غاراتهم وسلبهم وتخريبهم وقتلهم للناس بلا تمييز»[١].

لمس الإمبراطور في اعتراض المستشار العجوز وفي حججه التي ساقها تدعيماً لاعتراضه التعبير الحقيقي عن طبيعة القوم التأججية والتي لا يركن إليها بأي حال من الأحوال، فأرسل لخوجانجا كتاباً مهذباً وقوياً في لهجته، جاء فيه:

«إن مملكة الزهور (الصين) تضم من الحدود غير تلك التي في الشمال، وجيوشنا المرابطة فيها لا تقاوم العدوان الخارجي وحده، بل تمنع شعبنا من انتهاك أراضي جيراننا وأصدقائنا، والسور كما تعلم بُنِيَ على هيئته تلك لحماية الإمبراطورية الصينية من العالم الخارجي، وحماية العالم الخارجي من تعدي المغامرين الصينيين»[٢].

أنجبت شاو شون في العام الأول لزواجها طفلاً، وفي عام ٣١ ق.م توفي زوجها محطماً بوفاته كل آمالها في الحياة البدوية التي أحبتها وتأقلمت معها، وورث الحكم فوقتارون Vughturon ابن زوجها، وكما تقتضي تقاليد القوم فإن الزعيم الجديد يتزوج جميع زوجات سلفه ما عدا أمه، وهكذا تزوجت شاو شون الزعيم الجديد، وأنجبت منه طفلتين، وتوفي فوقتارون عام ٢٠ ق.م، فعاشت بعده حياته كئيبة وبائسة إلى أن قتلت هي وابنها البكر عام ١٨ ق.م، ودفنت بعيداً عن الصين لتؤكد بوفاتها المأساوية القول الشائع بين الصينيين «من يعبر السور الكبير لا يعود إليه أبداً»[٣].

وهكذا عاش الهسيونغ نو مذعنين تماماً للسيادة الصينية وبمضي

---

(١) The Great Wall of China - Fryer P. 98.

(٢) المصدر السابق ص ٩٩.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

الوقت فقدوا أغلب خصائصهم البدوية، وأصبحوا أكثر اعتماداً على حليفهم القوي في الجنوب، وهبطوا إلى منزلة تافهة لم يشكل فيها وجودهم خطراً على الصين، وحتى الغارات التي شنوها مع بداية القرن الأول للميلاد كانت فاترة وأقرب إلى أعمال عصابات اللصوص وقطاع الطرق، وفي منتصف القرن الأول الميلادي أغار عليهم الجيش الصيني غارة خسروا فيها كل شيء، وتحطمت دولتهم وتلاشت قواهم، ولم يعد لهم وجود يذكر.

أما إخوانهم في الشمال فقد حافظوا إلى حد كبير على خصائصهم المميزة وعلى أسلوب حياة القبيلة المتوارث، وقسم من هؤلاء دفعت بهم الصراعات المتفاقمة حول السلطة والزعامة إلى الانتقال التدريجي نحو الشمال الغربي، وفي الوقت الذي تحطم فيه إخوانهم في الجنوب، وفقدوا كل خواصهم المميزة إلى حد الذوبان في الغير، بدأوا هم في هجرتهم الكبيرة إلى الأراضي الرعوية وسط آسيا، ومن هناك بدأ انفتاحهم المدمر على العالم الروماني.

الخروج السادس:

في الوقت الذي خمدت فيه بذرة التأجج في القسم الجنوبي من الهسيونغ نو، بقيت حية متقدة في إخوانهم في الشمال، وبالنظر لعزلتهم التامة عن غيرهم، وعدم احتكاكهم بجيرانهم ظل تاريخهم مجهولاً لم يُعرف عنهم شيء، ولم يسمع أحد بهم إلا في أواسط القرن الرابع الميلادي، في هذا الوقت أخذت جموعهم تشق طريقها غرباً بقطعانهم وأسرابهم ونساءهم وأطفالهم عبر البراري الآسيوية، إلى أن وصلوا غرب نهو الفولجا، فعرفوا لأول مرة لدى اصطدامهم بقبائل ألاني Alani باسم الهون Hun.

وألاني من الشعوب الرعوية التي كانت تحتل الأراضي الواقعة شمال البحر الأسود، وما بين نهر الفولجا والدون، وتختلط دماءهم بالدم الروماني مما أسهم إلى حد كبير في تحسين ملامحهم فأطغى عليهم مسحة

من الجمال وبياض في البشرة ليست مألوفة في المنطقة، وعرفهم اليونان باستقلالهم وحبهم للحرية والفروسية.

ولما عبر الهون نهر الفولجا الأسفل بقيادة جورانندس بالأمير عام ٣٧٥ م وتوغلوا في أراضيهم، هب فرسان ألاني للزود عن وطنهم، والتقوا بالهون على ضفاف نهر الدون، الهون بكامل أسلحتهم التقليدية وعلى رأسها الفرسان بخيلهم السريعة، وألاني بكل ما عرفوا به من شجاعة وفروسية، وسرعان ما حسم خيالة الهون المعركة لصالحهم بضرباتهم الخاطفة والتي أذهلت ألاني وألقت الفزع في قلوبهم، وتركتهم حيارى مسلوبي الإرادة.

في هذه المعركة قتل ملك ألاني، وبمقتله تشتت الأمة، فمنهم من وجد له ملجأ وملاذ في جبال القوقاز، ومنهم من شق طريقه غرباً حيث انضم إلى القبائل الجرمانية، ومن آثر منهم البقاء فقد خضع طواعية لسلطان الهون، والهون من جانبهم قدروا لهم شجاعتهم وبسالتهم في القتال، فازدادوا بهم عدداً وقوة، وأخذوهم معهم في زحفهم الكبير لاجتياح دولة القوط الواقعة غرب إقليم ألاني مباشرة.

والقوط في الواقع ينقسمون إلى فرعين كبيرين، يقيم الفرع الشرقي منهم شرق نهر دنيستر Thyras فيما يعرف اليوم بأوكرانيا Ulcrain، في حين تمركز الفرع الغربي منهم غرب دنيستر فيما يسمى اليوم برومانيا، وتلك القسمة المكانية لأمة ينحدر فرعيهما من أصول واحدة مردها إلى صفات وخصائص تميز بها كل فرع عن الآخر، إلى درجة أعطت لكل منهما اسماً خاصاً، فعرف الشرقيون باسم أوستروقوط Ostrogoths بمعنى اللامعون أو الساطعون Bright Goths، بينما عرف الغربيون باسم فيزيقوط Visigoths بمعنى العقلاء أو الراشدون Wise Goths.

ونهر الدنيستر كحد فاصل لم يمنع من وحدة الأمة ولا من خضوعها لسلطة واحدة هي سلطة القوط الشرقيين، وتحت قيادة ملك واحد من

الشرقيين أيضاً، وحظى الغربيون من الناحية الإدارية بشيء من الاستقلال وحرية العمل، فسمح لهم بتدبير شئونهم الخاصة بأنفسهم حتى في القضايا الخطيرة كإبرام المعاهدات وشن الحرب دون الرجوع إلى السلطة المركزية في شرق النهر.

وفي الوقت الذي تمزقت فيه دولة ألاني كان القوط الغربيين ينقسمون إلى ثلاث تجمعات قبلية لكل منها حاكم أو قاضي، وتخضع جميعها إلى سلطة رئاسية موحدة، تتشكل من ثلاثة قضاة هم ألويو Alawiw وفريتجيرن Fritigern وأثاناريك Athanaric، والأخير أكبرهم سناً، وأفضلهم مركزاً، وأكثرهم قوة، لذلك تنازل له الآخران لينفرد مع نذر الخطر المحيطة بالمنطقة بقيادة القوط غرب النهر.

وعلى أي حال فقد كون القوط بشقيهم إمبراطورية مترامية الأطراف بلغت ذروة اتساعها وأوج شهرتها في منتصف القرن الرابع الميلادي عندما تبوأ العرش الملك هيرمانريك Hermanirc عام ٣٥٠ م، وجعل من مدينة كيرش Kerch في شبه جزيرة القرم عاصمة له، ودانت له كثير من القبائل الجرمانية، وبلغ من الشهرة وبعد الصيت وعظمة السلطان حتى شبهه جوردانيس مؤرخ القوط بالإسكندر الأكبر، وأطلق عليه اسم (إسكندر القوط).

وعلى امتداد الإمبراطورية تناقل القوط بدهشة واشمئزاز ما سمعوه عن أشكال الهون الغريبة، وتشوهات وجوههم المنفرة، وملامحهم الكالحة، كما انزعجوا في الوقت نفسه من الوحشية والتنكيل والقتل الجماعي وكل ما صاحب زحفهم على قرى ومدن ألاني، والتي دفعت بالألوف للفرار غرباً وجنوباً خوفاً وفزعاً، ولو مرة أحسوا بخوف من نوع غريب يسري في كيانهم كالنار في الهشيم، لم يعهدوه في كل ما عرفوه أو واجهوه من محن وكوارث.

حاول الملك هرمانريك توحيد القوط والشعوب التابعة له للوقوف في وجه الغزاة، ولكن تبين له أن الكثير من تابعيهم هو الآن أميل إلى مناصرة

عدوهم، والملك نفسه داهمته أحداث وهموم شغلته عن التفرغ للحرب، ففي الوقت الذي انطلقت فيه جموع الهون ناحية نهر الدينبر، اكتشف خيانة زوجته، فأمر بتمزيقها إرباً إرباً، وإخوان الزوجة الذين شهدوا بأعينهم قسوة العقوبة تربصوا بالملك في إحدى ردهات القصر وطعنوه بخناجرهم طعنات لم توره موارد الهلاك، ولكنها أقعدته عن اتخاذ أي إجراءات سريعة لتفادي توغل الهون في عمق أراضيه.

وفي المعركة الوحيدة التي تمكن مجلس الأمة الرئاسي الإعداد لها في غيبة الملك، هزم الجيش هزيمة منكرة، كان وقعها على هرمانريك صاعقاً لم يقوَ على تحمله فانتحر فزعاً ويأساً، تاركاً زمام الأمور لخليفته فيثيميريس Vithimiris الذي تمكن وبمساعدة عاجلة من إخوانه في الغرب ومرتزقة بعض القبائل الحليفة من التصدي للهون في معركة غير متكافئة أدت إلى هزيمتهم، وبهزيمتهم انهار تماماً الجزء الشرقي من الإمبراطورية.

إن السرعة الخاطفة التي تحطمت بها إمبراطورية القوط الشرقيين ومن قبلهم دولة ألاني وفي فترة زمنية لا تتجاوز العام مردها إلى اكتشافين مهمين توصلت إليه جموع يأجوج ومأجوج في خروجهم هذا، هما حدوة الحصان وسرجه، فالحدوة سهلت على الخيل قطع مسافات طويلة بلا توقف ودون كلل وفي وقت قصير، في حين مكّن السرج المقاتل من الاستقرار على ظهر الحصان، وسهولة التحرك فوقه دون خوف الانزلاق أو السقوط، ولذلك كانت هجمات خيالة الهون عنصراً جديداً وفعالاً أربك فرسان ومشاة الجيشين، وشل قدراتهم على المبادرة، وأوقعهم في اضطراب كانت نتيجته الطبيعية الهزيمة الساحقة.

وبانهيار الإمبراطورية تصدعت وحدة الشعب، فمنهم من اعترف بسيادة الهون وفضّل الانضمام إليهم بل وحارب إلى جانبهم، وآثرت الأكثرية اللحاق بإخوانهم في الغرب، فتدفقت جموعهم المذعورة صوب نهر الدنيستر لا تلوي على شيء.

تولى قاضي القوط الغربيين أثاريك بعد انتحار هرمانريك قيادة الأمة وتجميعها غرب النهر، وأعد خطة دفاعية عاجلة بناءها على التدهور المريع لقوى القوط، وهلعهم وخوفهم من لقاء الهون تمكنه من التراجع تجاه الغرب إذا مُنِيَ الجيش بهزيمة نكراء، لذلك بنى خطوط دفاعية دائمة بين الجبال وعلى شواطىء الأنهر لتأمين المناطق الخلفية من غارات الهون.

وبينما كان القوط في خطوطهم الدفاعية غرب نهر الدنيستر تسللت مفارز من فرسان الهون خفيفة الحركة عبر مواقع يسهل خوضها، مستعينة في الليل بضوء القمر، وداهمت كشافة القوط بسرعة وعنف، والقوط الذين لم يتوقعوا ظهورهم خلف النهر صعقوا من هول المفاجأة، وأشاعوا بخوفهم وفرارهم الاضطراب والفزع في الجيش كله، ولم يعد بعد ذلك أي معنى للمقاومة أو الصمود، وحاول أثاريك حمل جنوده على الثبات، ولكن الذعر الذي زرعه الهون في النفوس كان أكبر من كل محاولة، مما اضطره أمام تخاذل جنده وانهزامهم للرحيل مع مجموعة من أخلص أتباعه إلى مرتفعات وغابات تراتسلفانيا.

أضحى القاضي فريتجيرن بعد فرار الجيش من مواقعه الدفاعية والاختفاء المفاجىء لأثاريك الملك الفعلي للقوط، ومن سرعة إيقاع الأحداث وتتابعها، وتدفق الأمة من كل حدب وصوب على الحدود الرومانية أيقن القائد الجديد أن نهر الدانوب هو وحده الحصن المنيع الذي يمكن إنقاذهم من غضبة الهون، ومن تلك القوى الخفية التي دفعت بالشعوب والأمم إلى هجرة قسرية لا مثيل لها في القرون الوسطى.

وما أن حل خريف عام ٣٧٦ م حتى وصلت جموع القوط تحت إدارة القاضي فريتجيرن إلى ضفاف النهر الكبير، وهناك التمس وفدهم من الولاة الرومان السماح لهم بعبور النهر لحين وصول الإذن من الإمبراطور فالينز Valens (٣٦٤ ـ ٣٧٨ م)، فرفض طلبهم على الفور وبلا تردد، وذلك لأن تدفق الناس على طول الحدود اتخذ شكل الهجرة البشرية واسعة

النطاق، مما دفع بالرومان إلى تكثيف الحراسة، ونشر كتائب من الجيش على طول النهر.

ومن الضفة الغربية للنهر راقب الجنود وبكل دقة وصرامة تحركات جموعهم القلقة، وضجيجهم يشق عنان السماء، وحاول بعض المتعلجين الذين لم يتحملوا تصور مصير بشع يلقوه على يد فرسان الهون عبور النهر سباحة، فمنهم من غرق، ومنهم من رد على أعقابه، ومن وصل سالماً إلى الضفة الأخرى قتل فوراً.

كان الإمبراطور فالينز في هذه الأثناء مقيماً في سوريا لمتابعة مشاريعه التوسعية وحروبه مع الفرس، فتسلم من ضباطه تقاريراً تصور حجم الكارثة التي ألمّت بالقوط واهتزّت لها شعوب المنطقة بأسرها، والرعب الذي استولى عليهم من غارات الهون، والأعداد الغفيرة التي تغطي ولأميال عديدة ضفاف نهر الدانوب، وهم آلاف يمدون أيديهم وعويل نساءهم وأطفالهم يشق عنان السماء طالبين السماح لهم بعبور النهر، ولا أمل لهم في النجاة من قبضة الهون إلا بعبور النهر.

وفي أنطاكية استقبل الإمبراطور فالينز وفد القوط، حيث أوضحوا له مدى خطورة الهون على المنطقة بصفة عامة، وعلى الإمبراطورية الرومانية (الشرقية) بصفة أخص، فالهون ـ على حد قولهم ـ من جنس مجهول، لا يشبهون الناس، أتوا من أقصى الشرق تدفعهم رغبة شريرة في القتل والتخريب، أشاع وجودهم في نفوس الناس رعباً لا يمكن وصفه ولا شبيه له فيما ألف الناس في مثل هذه الحالات، فإذا هو سمح لهم بعبور النهر ومنحهم وطناً في مقاطعتي مويزيا Moesia وتراقيا Thrace، فسيتعهدون له بالدفاع عن الإمبراطورية وحراسة حدودها وسيكونون من أتباعه المطيعين.

إن الظرف الدقيق الذي يمر به القوط يتطلب إجابة فورية وقرار سريع، والإمبراطور بحكم بعده عن مجريات الأحداث ومشاغله الكثيرة كان يفتقر إلى التقدير الصحيح للموقف بأبعاده المختلفة، لاتخاذ مثل هذا

القرار، وبعض مستشاريه تردد في السماح لهم بالعبور لما يترتب عليه من إخلال بأمن الإمبراطورية، في حين أوضح البعض الآخر الفوائد الجمّة التي يمكن جنيها من ضمهم لرعايا الإمبراطورية خاصة في مدها بالرجال المقاتلين، والفرصة سانحة لإضافة ما يقارب المليون شخص ومن جميع الأعمار لقوى الدولة، بالإضافة إلى أنهم سوف يشكلون حاجزاً بشرياً يقف في وجه الهون إذا ما فكروا في عبور النهر.

وأخيراً وافق الإمبراطور فالينز على عبور القوط النهر شريطة الاشتراك الفعلي في حماية حدود الدولة من أي اعتداء، ووصلت الأوامر والتوجيهات لحكام الولايات وقواد الجيش بترحيلهم وإمدادهم بالمؤن والأغذية، ولكن تنفيذ الأوامر من الناحية العملية تعترضه صعوبات عديدة، من أبرزها ضخامة الأعداد التي تتلهف لعبور النهر دفعة واحدة وفي وقت واحد، واتساع عرض النهر لأكثر من ميل في مناطق العبور، والنهر في حالة ارتفاع مستمر، وأمواجه تعلو وتنخفض بشكل خطير نتيجة لهطول الأمطار في منبعه وعلى روافده، ولكن لا أحد منهم حسب حساب تلك الصعوبات والمخاطر، فالكل متحرق للوصول إلى بر الأمان رغم كل شيء.

وعلى الفور استجلبت القوارب الكبيرة والزوارق الطويلة، وما بين يوم وليلة بدأ النهر يموج بالأعداد الهائلة، ومضت أيام وليال وهم يعبرون النهر بلا توقف، ولما كان عدد القوارب لا يكفي والبعض منها غرق بحمولته في النهر، صنع القوط وسائل نجاتهم بأنفهسم، فاستخدموا الألواح الخشبية والأطواق والبراميل وجوفوا جذوع الأشجار والقوارب المنفوخة، ومن عجز عن وجود وسيلة عبر النهر سباحة، فمنهم من أوهنت قواه أمواج النهر العاتية فغرق، ومنهم من تغلب على تلك الصعوبات فوصل إلى بر الأمان.

وحين استقر اللاجئون بنساءهم وأطفالهم وحيواناتهم غرب النهر شرع

الموظفون الرومان في حصر أعدادهم كرعايا جدد، ولكن عددهم كان فوق الحصر والإحصاء فأهمل الأمر، وفي ربيع عام ٣٧٦ م استقر القوط وبصفة نهائية في الأراضي المهجورة في تراقيا وموسيا السفلى (بلغاريا الحالية)، وحتى يشعر القوط بانتمائهم للدولة وخضوعهم لقوانينها فقد عيّن فريتجيرون من قبل فالينز قائداً عاماً في الجيش الروماني ومسئولاً عن أمته.

لم تكد الجموع الغفيرة من القوط تنعم بالاستقرار في وطنها الجديد كرعايا للإمبراطورية ومدافعين عنها، حتى بدأوا يتبرمون من المعاملة العدائية التي يعاملهم بها الولاة الرومان، وزاد من سخطهم وغضبهم ما أشيع وقتها عن عزم الإمبراطور على انتزاع أطفالهم وأخذهم إلى مناطق نائية بحجة سليمة في ظاهرها تقضي بتربيتهم وتعليمهم، بينما هو حقيقة الأمر إجراء وقائي يريد به اتخاذهم رهائن لإجبار آبائهم للخلود والراحة وعدم الإخلال بأمن الإمبراطورية.

ثم تلى ذلك إجراء أشد قسوة على القوط وهو تجريدهم من السلاح، وسلاح القوط عندهم رمز للرجولة، ومصدر للفخر، وضمان لسلامتهم من عجرفة الرومان وسوء معاملتهم، فوافقوا بقليل من التردد، وفي الوقت نفسه أغروا الموظفين الرومان برشاوي ضخمة ليتجاهلوا القرار وتركهم يحتفظون بأسلحتهم، وتكفلت ثروة القوط الضخمة بإقناع الموظفين على التباطؤ والتلكؤ في تنفيذ القرار.

وعلى الرغم من أن اتفاق فالينز مع القوط ينص على إمدادهم بكل ما يحتاجون إليه لكي يتمكنوا من زراعة الأراضي المهملة واستغلالها، إلا أن تصرفات الولاة الرومان وضباط الجيش كانت عكس ذلك تماماً، فقد استغلوا حاجاتهم المتزايدة للمواد الغذائية، فاحتكروا حق شراء هذه المواد، وبيعها لهم بأسعار مبالغ فيها، وملأوا أسواقهم بلحوم الكلاب والحيوانات الميتة وبأسعار خيالية، واضطر القوط نتيجة لاستنزاف مدخراتهم إلى بيع أبناءهم وبناتهم بل وحريتهم مقابل كميات صغيرة من الخبز واللحم لا تساوي سوى مبالغ زهيدة.

وأثناء تلك الأحداث وطّد الهون أقدامهم شيئاً فشيئاً على رقعة واسعة من الأرض تلبي احتياجاتهم اليومية البسيطة، وتكفل لمواشيهم مراع شاسعة، واختاروا سهول وغابات هنغاريا مركزاً لدولتهم الجديدة، والتي تضم شرق ووسط أوروبا، وتمتد من جنوب روسيا حتى البلطيق ونهر الدانوب ويخضع لحكمها كثير من القبائل الجرمانية.

ولمدة نص قرن من الزمان شاركوا في أغلب أحداث أوروبا وآسيا، وكانوا دوماً عنصراً خطيراً في ترجيح ميزان القوى لأي طرف من الأطراف المتنازعة في المنطقة، أبرزها انضمامهم للقوط في موقعة أدريانويل سنة ٣٧٨ م حيث تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيش الروماني وقتل الإمبراطور فالينز.

وبعد معركة أدريانويل اشتدت حاجة القسطنطينية إلى فرسان الهون، وكذلك الأباطرة المطالبين بحقهم في العرش، ففي سنة ٣٨٨ م نجح الإمبراطور ثيودوسيوس في إلحاق الهزيمة بغريمه ماكسيموس المدعى لأحقيته في العرش بفضل مساعدة الهون، ووصل الأمر بالإمبراطور روفينوس إلى الاستعانة بهم كحراس شخصيين له لا يسمح لغيرهم بالاقتراب منه.

وطوال تلك الفترة تواصلت غاراتهم عبر الدانوب بلا توقف تحمل القوط وحدهم عبء التصدي لها، أشدها وأقساها غارة عام ٣٩٥ م والتي توغلوا فيها إلى عمق أراضي الإمبراطورية وتعرض السكان من جرّاءها في كل من مقاطعتي موسيا داكيا وغيرها إلى السلب والنهب والقتل.

وليست مقاطعات الإمبراطورية هي وحدها التي كانت مسرحاً لغارات هذا العام، بل تعرضت أجزاء من آسيا الغربية وسوريا إلى التخريب وبطريقة أعادت للأذهان غاراتهم على المنطقة قبل بناء سد ذي القرنين، ففي هذا العام اندفعت جموعهم عبر الشريط الساحلي الفاصل بين مياه بحر قزوين وسلسلة جبال القوقاز، واجتاحت شمال إيران وأقاليم دجلة والفرات حتى

وصلت طلائعهم إلى أنطاكيا، وكان القديس جيروم Jerome يومئذ مقيماً في فلسطين، وما كتبه خير شاهد ودليل على ما أشاعوه من خوف وذعر، ومن قتل وتخريب، يقول في رسالته:

«بينما كنت أبحث عن مسكن يليق بالسيدة فابيولا Fabiola لوحظ اندفاع سعاة البريد هنا وهناك ناقلين أخبار ارتجف لها الشرق كله، فمن مايوتيس القصية من الأرض والتي يغطيها الجليد، وماساقيتا Massagetae حيث بنى الإسكندر (ذو القرنين) سده في جبال بحر قزوين كي يقي الناس شر الأمم المتوحشة، تدفقت حشود الهون فجأة هنا وهناك ناشرة القتل والخراب والرعب في كل مكان.

في هذه الأثناء كان الجيش الروماني غائباً في إيطاليا بسبب الحروب الأهلية، فليحمي إلهنا ربنا يسوع المسيح العالم الروماني من شر هذه الوحوش البشرية.

إنهم الآن في كل مكان، وذلك أقل ما يتوقع منهم، فسرعتهم تسبق سرعة انتشار الشائعات، إنهم لا يبقون على راهب ولا على شيخ، ولا يحترمون ديناً ولا رهبنة، ولا يظهرون أدنى رحمة لصرخات الطفولة، ويجبرون الأطفال الذين لم يولدوا بعد على الموت، وعلائم الجهل بالشر تبدو على محياهم، وابتسامة باهتة ترتسم على شفائهم.

هناك اعتقاد عام بين الناس بأن مدينة القدس هي هدفهم، وذلك لما اشتهروا به من رغبة نهمة للذهب، لذلك فهم الآن يسرعون الخطى نحو المدينة الثرية، وأسوار المدينة التي أهملت بسبب السلام الزائف قد أصلحت وأعيد ترميمها. في هذا الوقت تعرضت أنطاكيا للحصار، وهرب الناس من وجه الغزاة وهم يجرجرون أقدامهم على الأرض بضجر وحسرة من هول ما سمعوا وما يحدث لهم، ومن جرّاء ذلك كله وقعت كل من فلسطين والجزيرة العربية ومصر أسيرة للخوف والرعب.

ونحن من جانبنا أعددنا السفن على الشاطىء لتبقى جاهزة للإقلاع

بمجرد وصولهم، ولم تعد تهمنا شدة هبوب الرياح ولا قسوتها، ولا احتمال غرق السفن، فكلها أهون من القتل على أيدي هؤلاء الوحوش، والمؤن التي زودنا بها السفن ليست من أجل سلامتنا، وإنما حفاظاً على طهارة وعفة عذراواتنا»[(١)].

ومع بداية القرن الخامس الميلادي نشط الهون من جديد للعمل كمرتزقة تحت قيادة أوكلار Oclar فحاربوا مع رومان الغرب ضد البورجنديين Burgundians، وبعد فترة هدوء نسبي زحفوا على شاطىء نهر الدانوب، ومنه أغاروا على إقليم موسيا، فتصدى لهم القائد الروماني جيناس Gianas يسانده القوط فردهم على أعقابهم، وفي بداية حكم ثيودوسيوس Theodosius أحرز رومان الشرق نصراً على أودلين Udlin أحد قادة الهون ورده هو الآخر على أعقابه، وأتبعوا انتصاراتهم تلك بسلسلة من الإجراءات الدفاعية والوقائية شملت تحصين مدن الدانوب، وبناء أسوار جديدة لحماية القسطنطينية، كما ازدادت حركة السفن الحربية على طول مجرى النهر تحسباً لأي تسلل من قبلهم.

وبوفاة أوكلار عام ٤٢٤ م تبوأ ابن أخيه روجيلاس Rugilas قيادة جموع الهون، وفي معسكره الخشبي في قلب غابات هنغاريا زاره القائد الروماني الغربي إيتيوس Aetius وعقد معه حلفاً يسمح له بمقتضاه الاستعانة بالهون لأغراض روما العسكرية مقابل أجور مجزية للجنود ولقائدهم.

وإيتيوس هو القائد الروماني الوحيد الذي انتهج سياسة الاعتماد على الهون لحماية النظام الإمبراطوري وحدود الإمبراطورية، ففي سنة ٤٢٥ م استخدم الهون للمحافظة على عرش فالينتنيان الثالث Valentinian بعد وفاة الإمبراطور هونوريوس Honorius، وبمساعدة من الهون أيضاً تمكن في سنة ٤٣٣ م من إجبار فالينتنيان ووالدته بلاسيديا Placidia الوصية على العرش للاعتراف به كقائد أعلى للجند.

---

(١) A history of Later Roman Empire - Bury P. 69-70.

أما رومان الشرق فقد تبنوا منذ البداية سياسة التهدئة والإغراءات المالية والهدايا، لوقف غاراتهم على الدانوب، وأول من تعهد على منح الهون مبالغ مالية هو الإمبراطور أميتوس، وجاء من بعده ثيودوسيوس ووافق على دفع ٣٥٠ رطلاً من الذهب كل عام، وحين ثارت بعض القبائل الجرمانية ممن كانت تشملهم دولة الهون، وقف رومان الشرق مع الثائرين بالتشجيع تارة وبحماية الفارين منهم تارة أخرى، وعندما قضى الهون على التمرد، ونكلوا بالثائرين أُرغم الرومان على الدخول في مفاوضات للاتفاق على معاهدة جديدة جرت وقائعها في مدينة مارقيوس Margus.

أثناء ذلك توفي روجيلاس (٤٣٣ م)، فأجلت المفاوضات إلى أجل غير مسمى انشغل خلالها الهون بانتخاب قائد جديد، إذ لم يكن لروجيلاس ابن، فوقع الاختيار على أبناء أخيه موندزوك Mundzuk بليدا Baleda وأتيلا Attila لزعامة الهون، وفور تنصيبهما دخلا في مفاوضات سلام مع سفراء القسطنطينية رافضين منذ بداية الاجتماع مناقشة أي موضوع يتعلق بغارات الهون على الدانوب، ومن منطلق القوة والتعالي العنصري وما عليه الرومان من ضعف حددا الأخوين شروط الصلح، ومن أهمها وأبرزها:

- ☐ رفع الجزية المدفوعة سنوياً من ٣٥٠ رطل إلى ٧٠٠ رطل من الذهب.
- ☐ تدفع ثمانية قطع ذهبية مقابل كل أسير روماني فر من سيده الهوني.
- ☐ يسلم لعدالة الهون كل الهاربين من أبناء القبائل الخاضعة للسيادة الهونية، والذين لجأوا إلى بلاط ومقاطعات القسطنطينية.
- ☐ تعلن هذه المعاهدة بكل شروطها وتعهداتها الخطية على أعداء الهون.

رضخ سفراء القسطنطينية لشروط الأخوين المذلة والمهينة لكبرياء الإمبراطورية، فارتفعت الجزية السنوية إلى ٧٠٠ رطل من الذهب، وبلا

أدنى تردد أعيد اثنان من أبناء أحد رؤساء القبائل كانا يعملان في خدمة القسطنطينية وسلما لسفراء بليدا، فصلبا على الفور.

حقق بليدا بحكم سنه مركز الصدارة على أخيه في قيادة الهون، ولكن قوة شخصية شقيقه الأصغر أتيلا، وحدة ذكائه، حققت عنصر التفوق على شقيقه الأكبر طوال الحقبة التي توليا فيها معاً قيادة جموع يأجوج ومأجوج، ومنذ اشتراكهما معاً في تولي السلطة وتحمل مسئولية القيادة وحتى عام ٤٣٩ م لم يعرف لهما أي نشاط يذكر، وذلك لازدواجية السلطة من جهة، ولتكريس جهودهما في تثبيت دعائم إمبراطوريتهم الواسعة من جهة أخرى. واعتباراً من عام ٤٤٠ م اضطر بليدا نتيجة لإهمال شقيقه للتخلي تدريجياً عن مركز الصدارة، وتنازل له عن كل سلطاته، وذلك قبل أن يتخلص منه نهائياً بالقتل في عام ٤٤٥ أو ٤٤٦ م.

إن الصورة الوصفية الموجزة لأتيلا والباقية إلى يومنا هذا كتب جانباً منها المؤرخ الروماني بريسكوس Priscus (٤٤٨ م)، وذلك بناء على رؤيته العيانية له أثناء زيارته له ضمن وفد القسطنطينية في قصره الخشبي بهنغاريا، والجانب الأعظم منها ورد في تاريخ المؤرخ القوطي جوردانيس والتي جمعها من الروايات الشفهية لأبناء جلدته وأثبتها في تاريخه بعد موت أتيلا بقرن من الزمان، والوصف في مجمله ينبىء عن أصله والصورة في مظهرها العام تحمل خصائص ومميزات أجداده التي لا تكاد تتغير.

فأتيلا قصير القامة، كبير الرأس، عريض المنكبين، صغير العينين، تبدو غائرة في رأسها، أفطس الأنف، لحيته خفيفة مقاربة إلى اللون الرمادي قد وخطها الشيب، وبشرته تميل إلى اللون الداكن، مربوع القامة.

ويتميز أتيلا مثله في ذلك مثل سائر سلالة يأجوج ومأجوج الحدة الطبع والعجرفة، وإذا ما انتابته نوبات الغضب يصبح قاسياً ومتوحشاً وعديم الرحمة، يمشي على الأرض بخطوات تفصح عن تكبره، وتظهر في حركات جسمه ما تنطوي عليه نفسه من تجبر وكبرياء وقوة، يعبر بها عن

شعوره بتفوقه العنصري وتشامخه على الجنس البشري، وكان عادة ما يقلب عينيه الصغيرتين الغائرتين ذات اليمين وذات الشمال بطريقة يشيع بها الخوف والذعر في نفوس مشاهديه.

ورغم كل ذلك فلم يكن متعجلاً، بل كان يتمهل فيما يقوم به من أعمال، وقد شهدت له لقاءاته مع الرومان بصبره على المفاضات الطويلة المملة، فلا يتعب ولا يتضجر، وله فوق ذلك مقدرة عالية على كبح جماح نفسه أثناء العمل، وكان رائعاً في تقبّل ما يسدي إليه من نصح رؤوفاً بالمتوسلين إليه، وفيه قسوة لا تتأثر كثيراً بالشفقة، لين الجانب مع أولئك الذين ارتضوا حمايته وخضعوا لحكمه، وله مثل ما لسائر أبناء جلدته في ذروة وأوج تأججهم ولع غريب بالحرب إلى حد لا يكاد يفهم شيئاً خارجها.

كان أتيلا بسيطاً في ملابسه، ولم يكن يزين سيفه ولجام حصانه - كما يفعل قادة الهون - بالذهب والجواهر، وكان أيضاً معتدلاً في أكله وشربه وشهواته، واعتاد على تناول طعامه وشرابه في أطباق خشبية، مكتفياً في الغالب باللحم، وبقدر ما يقيم أوده، في حين كانت موائد كبار قادته تحفل بما لذّ وطاب من الأطعمة، وتقدم لهم في أطباق من الذهب والفضة.

استمد أتيلا شهرته المخيفة قبل وبعد مقتل شقيقه من فظاعته الزائدة، وقسوته التي لا تعرف حدوداً، وكان ذكر اسمه وحده يبعث الرعب في القلوب، وضربت بوحشيته الأمثال، حتى ورد على لسانه قوله:

- إن العشب لا ينبت على الأرض التي يطأها حصاني بحوافره.

وسماه المسيحيون سوط الله وبلاء الرب، والمبعوث لعقاب البشر على ما اقترفوه من خطايا، ولانغماسهم في الرذيلة.

كان أتيلا أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، غير أن ذلك لم ينقص

من ذكائه الفطري، ولا مقدرته العالية على إدارة إمبراطورية مترامية الأطراف، وكان يحرص غاية الحرص على مراعاة مظاهر السلطة والالتزام بقواعدها الصارمة، فلا يظهر مطلقاً بما يحط من وقاره وهيبته أمام الغير، حتى مع أبناءه وأفراد أسرته، فلا يسمح لا بالاقتراب منه أو الوقوف أمامه إلا وفقاً لمراسيم وضوابط خاصة بخصوصية المناسبة.

وقد وصف المؤرخ الروماني برسيكوس أحد مآدب أتيلا وصفاً فيه التعبير الحي عن بعض مظاهر سلطته في عنفوان قوته، فكتب يقول عقب وصوله لعاصمة الهون:

«جاءتنا دعوة من أتيلا لحضور مأدبة غداء في الساعة الثالثة بعد الظهر، وعندما حان الوقت ذهبنا إلى قصره الخشبي وبرفقتنا سفير روما، وعلى عتبة قاعدة الاحتفال وفي حضور أتيلا وطبقاً لمراسيمهم القومية أعطى حملة الكؤوس كأساً لكل واحد منا، وذلك قبل جلوسنا، تذوقنا الكأس الأول، ثم دخلنا لأخذ مواقعنا على الكراسي التي صُفّت على طول جدران القاعة.

كان أتيلا يجلس على أريكة وسط القاعة، وخلفه مباشرة وضعت أريكة أخرى وبجوارها سلم يقود إلى سرير ملكه، وعلى السرير وضعت ملاءات كتانية، زيّنت بأغطية بديعة الألوان باهرة كالتي يزيّن بها الرومان والإغريق سرر عرسانهم.

إن الأمكنة التي تقع على يمين أتيلا تخصص في العادة للنبلاء وكبار قادة الجيش، أما اليسرى فمخصصة للضيوف وهي التي نجلس فيها نحن، وكان الرجل الثاني في الدولة أونيجيسيوس Onegesius يجلس على كرسي يمين أريكة أتيلا، وفي نفس الموضع يجلس اثنين من أبناء أتيلا مقابل أونيجيسيوس ولكن على مرتفع قليل من الأرض، بينما كان يجلس في أقصى الطرف الأيمن لأريكة أتيلا أكبر أبناءه سناً، وعيناه مثبتتان على الأرض في خجل وتواضع واحترام لوالده.

ولدى انتظامنا واستقرارنا في أماكننا المخصصة دخل حامل الكؤوس وقدم لأتيلا كأس خشبي من الخمر، فأخذه وحيّا به أونيجيسيوس الرجل الذي له الصدارة، ووقف أونيجيسيوس فوراً لتحية أتيلا، ثم حيّا الذين يلونه في الرتبة، وبنفس الطريقة أيضاً حيّا ضيوفه، فوقفنا جميعاً، ولا يجلس أحد كما تقضي المراسيم إلا بعد أن يتذوق أتيلا الكأس ويعيده للخادم.

ولما انتهت مراسيم الشراب طبقاً للقواعد المتبعة ووضعت الكؤوس جانباً جلسنا على مناضد سعتها لأكثر من ثلاثة أشخاص، ووضعت أمام أتيلا مباشرة منضدة يستطيع تناول طعامه منها دون مغادرة مكانه، فجاء أولاً خادم أتيلا ومعه طبق مليء باللحم، تبعه خدم آخرون يحملون أطباقاً ممتلئة بالخبز والطعام وضعت جميعها على المناضد.

وحل المساء فأوقدت المشاعل، توطئة للحفلة الغنائية فدخل القاعة رجلان يحملان آلات موسيقية وتوقفا أمام أتيلا، ثم تغنّوا بأغاني نظمت احتفالاً بانتصاراته وشجاعته وبسالته في الحروب، والبرابرة يتابعون الأغاني باهتمام شديد، فمنهم من أطربته المقاطع الشعرية للأغنية، والبعض الآخر ذكرته بالحروب التي خاضها مع أتيلا، بينما انخرط كبار السن وضعاف البنية في بكاء حاد.

وبعد انتهاء الأغاني دخل القاعة أحد المهرجين وهو يطلق أصواتاً غريبة ويتلفظ بكلمات ليست مألوفة لدينا وفي غاية من الغرابة والهمجية أجبرت الجميع على الضحك، تلاه مباشرة القزم زيركون Zerkon بملابسه الغريبة ومظهره اللافت للنظر وصوته المضحك، وهو يتلفظ بعبارات هي خليط غير منتظم من اللاتينية والقوطية والهونية، ارتفعت لها ضحكات الجميع ما عدا أتيلا الذي بقي ساكناً وهادئاً لم تتغير تعبيرات وجهه، ولم تصدر عنه حركة تقترب من الابتسامة تنم عن سروره، اللهم إلا عند دخول أرناك Ernac أصغر أبناءه، فأدناه منه وشد على خده، ونظر إليه نظرة حانية ملؤها الرضا

والغبطة، وكنت متعجباً لصدور مثل هذا الفعل منه في حين يهمل سائر أبنائه الآخرين، غير أن الهوني الجالس إلى جواري كان على إلمام باللاتينية فسر لي هذا الموقف العاطفي بقوله:

ـ إن المتنبئين قد حذروا أتيلا بأنه إذا لم يعتنِ بهذا الغلام فسوف تنقرض سلالته، ففي هذا الطفل تكمن بذرة ذريته الباقية من بعده[1].

ويتسم تعامل أتيلا مع الشعوب التي خضعت لهم في ذروة مدهم التسلطي بكثير من الاحترام والتقدير، ويتمثل ذلك في زيارته المتكررة لهم سواء في مراكز قيادة الجيوش الهونية في العاصمة، أو في معسكراتهم القبلية، طالباً منهم المشورة والرأي في مشكلات الحرب والسلم، ويعتبر كل من أدرياك Adriac ملك الجيبيد Gepid ووالامير Walamer ملك القوط الشرقيين من أخلص مستشاريه وأفضل من استخوذ على ثقته ورضاءه.

والعاصمة التي اتخذها أتيلا حاضرة لدولته هي أشبه ما تكون بمعسكر حربي شيدت مبانيها بالخشب، وغالب منازلها عبارة عن عربات متحركة تقودها الجياد، يتربى فيها الأبناء، ويقضي فيها قدامى المحاربين بقية عمرهم. فهي إذن أقرب إلى مركز القيادة منه إلى عاصمة الدولة بالمفهوم الشائع، وموضعها في مكان ما بين نهر الدانوب وأنهار ثييس Theis في المجر، وأغلب الظن في موضع مدينة بودا Buda الحالية، إذ ظل المجريين وإلى عهد قريب يطلقون على هذا الموضع اسم أتزلنبرج Etzelnburg، أي محلة أتيلا.

وفي أعلى مرتفع في الموقع شيد أتيلا لنفسه قصراً ضخماً من الخشب اللامع أحاطه بسياج ليس للحماية وإنما ليطغى على القصر منظراً خلاّباً وزيّنه بأبراج عالية، أما أرضية القصر وجدرانه فمن الخشب، وفرشت على الغرف الداخلية الطنافس وجلود الحيوانات اتقاء لبرودة

(١) A history of the Later Roman Empire - Bury P. 222, 223.

الشتاء ومنعاً لتسرب المياه، وغطيت الطرقات المؤدية إلى مخادع زوجاته بالسجاد الفاخر.

كان أتيلا في هذا الوقت أقوى حاكم في أوروبا على الإطلاق تدفع له الإتاوات من شطري الإمبراطورية الشرقية والغربية، ودانت له بالطاعة الشعوب من نهر الفولجا وجنوب روسيا إلى سائر القبائل الجرمانية في النمسا والمجر ورومانيا وجزء من بانونيا Panonia جنوب الدانوب، مثل الجيبيد والقوط الشرقيين وقبائل الروجيان Rugian والهيرول Heruli والسكريان Scrian والتركيلج Turciling والسويفي Sueve، بحيث كانت مجرد نظرة أو إيماءة بسيطة منه كافية لأن ترديهم مهاوي الهلاك. أما عبوسه وتغطيبات وجهه فكانت تشل إرادتهم وتسري في دماءهم مسرى النار.

وبناء على تعليمات أتيلا فقد كان يلازم قادة القبائل بجيوشهم معسكره لا يبارحونه إلا بإذن معه، وفي تعاقب وترتيب منتظم ودقيق بحيث لا تخلو العاصمة في أي وقت من الأوقات من جيش أو اثنين إضافة إلى جيش الهون الأساسي، وعندما يحين وقت الحرب فعلى الجميع حشد قواهم العسكرية واستنفار شعوبهم للانضمام إلى الهون، ومن هنا كان بوسع أتيلا أن ينزل إلى ميدان المعركة جيشاً يتراوح عدد جنوده ما بين خمسمائة إلى سبعمائة ألف مقاتل.

وبعد فترة من الهدوء قضاها الهون بلا فاعلية وقع حادث قد يبدو في ظاهره تافهاً، ولكنه فتح الباب على مصراعيه لاجتياحهم المدمر للإمبراطورية الشرقية. فمن المعروف أنه بموجب معاهدة ماروقس سمح للتجار الرومان بإقامة أسواق تجارية على طول الجزء الشمالي من نهر الدانوب لمبادلة ومقايضة بضائعهم وبيعها مع شعوب المنطقة، وتحت حراسة الحاميات الرومانية على الحدود، وفي عام ٤٤١ م شك الهون في تحركات بعض التجار لدى عبورهم النهر حاملين بضائعهم، فلم يترددوا في قتلهم، وهجموا مدفوعين بالرغبة في الانتقام على قلعة الحامية وسووها بالأرض.

ولما احتجت السلطات الرومانية على هذا الانتهاك الصريح لنصوص معاهدة السلام والتعدي الصارخ على مواطني الإمبراطورية وجنودها ألقى أتيلا باللائمة على كاهل الرومان مدعيا أن أسقف مدينة ماركوس قد تسلل إلى داخل أراضيهم وسرق كنوز مقابرهم الملكية، وطالب بتسليم المجرم لينال عقابه وإعادة كنوزهم المنهوبة، ورد الفارين من أتباعه، والإسراع بدفع متأخرات الجزية السنوية.

جرت مفاوضات بين الطرفين، لم يسلم فيها الرومان بادعاءات الهون، ولم يتنازل الهون عن مطالبهم، فكان لا بد من حل ما بينهما من خلاف بالقوة، وبادر الهون من جهتهم بالحرب فعبرت جموعهم نهر الدانوب واكتسحت الحاميات الرومانية على طول الحدود، ومنها اندفعوا نحو مدينة فيميناكيوم Vininacium أول المدن الحدودية فسقطت في أيديهم، ثم اجتاحوها قتلاً ونهباً وتخريباً.

كان لدمار المدينة وقعاً قاسياً وشديداً على سكان المدن الحدودية ذات القلعة والقلعتين على طول النهر، زاد من حدته قصص التنكيل الفظيعة التي نشرها اللاجئون في تدفقهم السريع نحو المناطق الآمنة، فسرى الرعب والفزع في النفوس، ولم يجد حكام المقاطعات وقادة الحاميات مفراً لدرء خطر الهون إلا الإذعان الكامل لشروطهم بما فيها تسليم أسقف مدينة ماركوس، وعقدت بالفعل وعلى عجل هدنة مؤقتة تلتها فترة سلام حذر ومشوب بالخوف.

وفي العام التالي مباشرة اجتاحت جموعهم الهادرة مدينة سينجيدانوم Singidunum (بلغراد) في أعالي موسيا، وسارديكا Sardica (صوفيا) وسرميوم Sirmium، وانقضوا على سكانها كالوحوش قتلاً وأسراً، وأفلت من غضبتهم الحقودة الهاربون وأولئك الذين اختفوا في الآبار والسرادب القديمة، وتحولت تلك المدن الزاهرة ما بين يوم وليلة إلى خرائب ينعق فيها البوم.

إن الخراب الذي أصاب مدن الدانوب الرئيسية وعجز الإمبراطورية

عن حشد قواها للتصدي للغزاة ووضع حد لاندفاعهم، أجبر المدن الأخرى وخاصة مدن الداخل لاتخاذ خطط دفاعية طويلة الأجل يعتمد فيها السكان على أنفسهم، فرمموا الأسوار وأصلحوها، وجند الأهالي طاقاتهم العسكرية، وجمعوا الأغذية من كل مكان، ولما وصل الهون إلى راتياريا Ratiaria أول تلك المدن وجدوا الأمر مختلفاً، فالمدينة محصّنة تحصيناً جيداً، وأهلها مصممون على الدفاع عن أنفسهم، وعدد الجند على أسوارها كاف للتصدي لهم ومقاومة اجتياحهم، فضربوا حولها حصاراً، ونظراً لكثافة ما ألقي على المدينة من قذائف تحطمت أبواب المدينة، واندفع الهون في شوارعها موقعين بالأهالي مذبحة مروعة وبالمدينة دماراً شاملاً.

وبسقوط مدينة راتياريا تكون قد سقطت في أيديهم أغلب المدن الحدودية، وانفتح الطريق أمامهم نحو مدن الداخل، فاتجهوا صوب مدينة مارقوس، وقبل أن يضربوا حولها حصاراً خرج إليهم أسقف المدينة وعقد معهم اتفاقاً سرياً سلمهم بموجبه مفاتيح المدينة شريطة عدم التعرض للأهالي وإسقاط كل التهم الموجهة إليه، ونتيجة لهذه الخيانة فتحت المدينة أبوابها للغزاة فدخلوها بلا قتال، ونجا سكانها من المذابح العامة، وسلمت مبانيها وقصورها وحدائقها من الدمار.

لم يبقَ من مدن موسيا الرئيسية سوى مدينة نيسوس Naissus (نيس)، وهي وحدها التي دافع عنها الأهالي بشجاعة فائقة، وصدوا ببسالة محاولات اقتحام الأسوار، ولكنها سقطت في النهاية لتلقى نفس المصير المروع والانتقام الرهيب لكل مدينة تقاوم الهون، وعندما زار المؤرخ بريسكوس المدينة وهو في طريقه مع وفد القسطنطينية إلى معسكر أتيلا بعد ست سنوات من اجتياح الهون لها، وجد المدينة مهجورة تماماً، وآثار النهب والخراب بادية في قصورها وأبنيتها وشوارعها، وصادف القليل من سكانها ممن أقعدهم المرض، فاتخذوا من الكنائس بيوتاً لهم، ووقف ومن معه على بعد قصير من النهر، حيث امتد أمامهم وحتى ضفة النهر فضاء واسع امتلأ بعظام الذين قتلوا أثناء الحصار وبعد اقتحام المدينة.

ثم اندفع الهون تجاه الجنوب الشرقي عبر ممرات ضيقة داخل إقليم تراقيا ووجهتهم الرئيسية القسطنطينية، وفي طريقهم استولوا على المدن الصغيرة مثل فيليبوبليس Philippoplis وأركاديبوبليس Arcadioplis ودمروها، كما استولوا أيضاً على قلعة أثيراس Athyras وسووها بالأرض، ليصبح أتيلا والقسم الأكبر من جيشه بعد كل هذا على مرمى حجر من القسطنطينية، أما القسم الباقي فأمرهم بالاستيلاء على مدينة أسيموس Asemus.

وكالعادة ضرب الهون حصاراً شديداً حول المدينة، ولكن المدينة صمدت في وجه العاصفة، ولم يفت من عضد المحاصرين قسوة الهون ولا ما أشيع عنهم من قصص مرعبة، أما جنود القلعة فمع قتالهم الشرس من وراء الأسوار، أغاروا عليهم غارات كثيفة أوقعت في صفوفهم خسائر فادحة، وشكل الأهالي بدورهم مجموعات هجومية كانت تسلل خفية خارج المدينة وتفاجىء البرابرة في أوقات راحتهم فتوقع بهم إصابات قاتلة، ومن ينجو من القتل تأخذه أسيراً.

وفي الوقت الذي صمدت فيه أسيموس وسلمت من الوقوع في قبضة الهون الحقودة، استدعى الإمبراطور ثيودوسيوس وعلى عجل جيوش الإمبراطورية المرابطة في صقلية وفارس، كما جمع الوحدات العسكرية العاملة في أوروبا، فتوفرت لديه أعداد هائلة من الجند، قُهرت جميعها في ثلاثة اشتباكات جرت وقائعها في إقليم تراقيا، آخرها وأكبرها دار في منطقة شيرسونيس Chersonese، وفيه سحق الهون ما تبقى من جيوش الإمبراطورية، وأحرزوا نصراً احتمى ثيودوسيوس وشعبه من شدة وقعه عليهم خلف الأسوار الكبيرة لعاصمة البلاد.

غير أن أسوار المدينة تأثرت بزلزال عنيف ضربها قبل مجيء الهون وأدى إلى سقوط ثمانية وخمسون برجاً من أبراجها، وأحدث خرقاً هائلاً في نظامها الدفاعي، وأثناء انشغال المهندسين والعمال في إصلاح ما خرب استعداداً لحصار قد يطول، سرت بين العامة إشاعة زادت من تعقد الموقف

في الداخل، وجعلته أشد خطورة من انهيار الاستحكامات الدفاعية، ومفادها: إن الله تعالى عقاباً على خطايا النصارى وآثامهم سيسلم عاصمة الإمبراطورية للهون الغرباء عن الرومان في الدين واللغة والوطن.

اتضح لأتيلا من النظرة الأولى على أسوار المدينة استحالة اقتحامها وصعوبة حصار طويل ومضن، فكّر على البقية الباقية من فلول الجيش الروماني والمتجمعة في شبه جزيرة جاليبوليك Gallipolic وأبادها عن آخرها، عقب ذلك جرت محاولات محمومة من قبل ساسة القسطنطينية لتهدئة وتسكين غضب الهون، إذ لم يعد أمامهم من خيار سوى التفاوض أو الموت.

وفي أخريات عام ٤٤٣ م وقعت معاهدة سلام بين أتيلا والنبيل الروماني أناتوليوس Anatolius نيابة عن الإمبراطور، أذعن فيها الرومان لكامل شروط الهون بكل ما فيها ذلة وإهانة، ومن أبرزها:

☐ على الإمبراطورية الرومانية التخلي عن مساحات شاسعة من الإقليم الممتد على الضفاف الجنوبية لنهر الدانوب من سينجيدونوم Singidunum وحتى نوفاي Novae، بما فيها أطلال مدينة نيسوس.

☐ تضاعف الجزية السنوية ثلاث مرات لترتفع من سبعمائة رطل إلى ألفين ومائة رطل من الذهب على أن يدفع الرومان ستة آلاف رطل من الذهب لتغطية متأخرات الجزية، وتعويض نفقات الحرب التي خاضها الهون ضدهم.

☐ جميع الهون الذين أسروا في الحرب الأخيرة وأودعوا سجون القسطنطينية يطلق سراحهم بلا فدية وبدون إبطاء، ويسلم لأتيلا جميع الجنود التابعين للقبائل المتحالفة معه وهجروا معسكروه بلا قيد ولا شرط، وفي المقابل يشتري جميع الأسرى الرومان لدى الهون حريتهم بمبلغ وقدره اثني عشر سوليدي Solidi.

وتنفيذاً لتلك الشروط القاسية اندفع موظفو الإمبراطورية في جميع

أنحاء البلاد لجمع متأخرات الضرائب ونفقات الحرب بلا رحمة ولا شفقة، وتخلى التجار وأثرياء المدن عن أموالهم وثرواتهم، وتنازلت النساء بطيب خاطر عن كل ما يمتلكن من ذهب ومجوهرات، وفي الوقت نفسه اقتيد الأمراء وقادة القبائل والجند الذين هجروا معسكر الهون بقسوة وسلموا لأتيلا لينفذ فيهم حكم القتل جزاءاً على خيانتهم وفرارهم.

انتهى سلام معاهدة أناتوليوس بعد أربع سنوات (٤٤٧ م)، وذلك عندما تحركت جموع الهون وبلا سبب معروف في ثاني أضخم هجوم لهم على الإمبراطورية الشرقية، وغطى تقريباً الأقاليم الجنوبية لمقاطعة سيسيا Scythia وموسيا السفلى وأغلب مقاطعات البلقان، ونظراً لضخامة الهجوم فقد قسم الهون أنفسهم إلى قسمين:

- شق الأول طريقه مباشرة نحو سيسيا وموسيا السفلى وعلى خط سير أبعد قليلاً إلى جهة الشرق من الهجوم الأول، وعلى ضفاف نهر ثلتوس Thultus اشتبكوا مع القوات الرومانية في معركة شرسة هزم فيها الرومان وقتل قائدهم الجنرال أرنيجيسكلوس Arnegisclus وفيها تعرض الهون ولو مرة إلى خسائر رهيبة في الأرواح لم يتعرضوا لمثلها من قبل، وعلى أثر هزيمة الجيش وقعت في أيديهم مدينة مارقيانوبوليس Marcianapolis، وبالاستيلاء عليها وقع الإقليم برمته تحت قبضة الهون.

- أما القسم الثاني فقد شق طريقه عبر وادي فاردر Varder ومقصده بلاد الإغريق، وآخر موقع معروف بلغته جموعهم هو مدينة ثرموبيلاي Thermopylae، ولا يعرف أي تفاصيل أخرى عن سيرهم أبعد من هذا.

بدأ أمر الهجوم الثاني للرومان غريباً ومحيراً وبلا تفسير معقول، فقد أذعنوا بكل ذلة ومهانة لشروط القوم واستنزفت موارد الدولة المالية عن آخرها لإشباع نهمهم الشديد للذهب، وتخلو لهم عن حزام واسع من أراضيهم، ومع كل ذلك نهبت وحرقت مقاطعات ومدن سلمت في المرة الأولى بفضل معاهدة أناتوليوس.

وللمرة الثالثة أكره الإمبراطور ثيودوسيوس لإرسال سفارة إلى أتيلا لا تحمل تفويضاً لتوقيع معاهدة سلام جديدة، وإنما لتهدئته واستعطافه واستدرار رحمته بالدولة التي أوشكت على الانهيار.

قاد السفارة هذه المرة دبلوماسي الإمبراطورية المعروف ماكسيمين Maximin يرافقه كبار موظفي البلاد وعلى رأسهم المؤرخ بريسكوس، وهو الذي أورد في التقرير الذي أعده عن السفارة معلومات غزيرة ونادرة وتفاصيل ممتعة عن حياة الهون، وما صادفه من الغرباء والأسرى والسفراء لدى بلاط العاهل الهوني الكبير، فيقول في تقريره(١):

«قطعنا المسافة من القسطنطينية إلى سارديكا Sardica في ثلاثة عشر يوماً، وكان يصحبنا حشد من البرابرة في طريقهم لمعسكر أتيلا على رأسهم أديكون Edecon، وفي سارديكا توقفنا بناء على دعوة من البرابرة، حيث اشترينا من السكان خروف وثور وذبحناهما وأعددنا منهما وليمة فاخرة.

أثناء الوليمة هتف البرابرة بحياة أتيلا، وهتفنا نحن بحياة الإمبراطور، فأبدى رفيقنا بيجيلاس Bigilas ملاحظة اعترض فيها عن مقارنة الإله بالإنسان يقصد بالإلهة ثيودوسيوس وبالإنسان أتيلا، الأمر الذي ثارت له ثائرة البرابرة، وتخفيفاً من وقع الملاحظة عليهم أدرنا الحديث وجهة أخرى، فهدأت مشاعرهم، وبعد الغداء وقبل أن نفترق أهدى ماكسيمين لاديكون ثياباً من حرير وجوهرة هندية.

ولدى وصولنا مدينة نيسوس وجدناها مهجورة كأنما تعرضت للنهب والسلب في التو واللحظة، مكثنا بها يوماً واحداً. وفي اليوت التالي عبرنا المقاطعة نحو نهر الدانوب، فدخلنا وادي كثير المنعطفات والالتواءات قادنا إلى سهل تغطيه أشجار كثيفة، وعلى ضفة النهر صادفنا برابرة انتقلنا معهم إلى الضفة الأخرى على قوارب صنعت من جذوع الأشجار الضخمة.

---

(١) نص التقرير ورد ضمن كتاب A history Later Roman Empire لمؤلفه J.B.Bury بعنوان A glimpse of Hun Life لمحة عن حياة الهون من ص ٢١٣ وحتى ص ٢٢٣.

سرنا مسافة ٧٠ ميلاً في أراضي الهون، أمرنا البرابرة في نهايتها بالانتظار في سهل معين حتى يتمكنوا من الذهاب إلى أتيلا وإخطاره بقدومنا، وبينما كنا نتناول طعام الغداء في إحدى الأمسيات سمعنا أقدام خيل تقترب من ناحيتنا، وإذا باثنين من البرابرة يتجهان نحونا ومعهم تعليمات بالذهاب فوراً لمقابلة أتيلا، طلبنا منهم أولاً مشاركتنا في الطعام فترجلا مبتهجين.

وفي اليوم التالي وصلنا إلى حيث يعسكر أتيلا، وأردنا نصب خيامنا على تل يرتفع قليلاً من الأرض استعداداً لمقابلة أتيلا، ولكن البرابرة الذين جاءوا لاستقبالنا منعونا بحجة أن خيمة أتيلا في أرض منخفضة فاستجبنا لرغبتهم، وأنزلنا الصناديق والحقائب من ظهور الحيوانات في العراء، وبحكم الحاجة شرعنا في الإعداد للمبيت، في هذه اللحظة قدم علينا رسول من أتيلا يأمرنا بانتظار الطعام، وبعد برهة وجيزة وصل الخدم وهم يحملون لحم ثور وأسماك فأكلنا منها، ثم آوينا للفراش طلباً للنوم.

وفي صبيحة اليوم التالي توقعنا رسالة لطيفة ومهذبة من البربري يسمح لنا بمقابلته، وبدلاً عنها أمرنا بالرحيل، إذ هو يعلم مسبقاً بأن سفارتنا لا تحمل أمراً رسمياً بالتفاوض، ولا نحن منتدبين من قبل بلاط القسطنطينية، ولم نرد على رسوله بل بدأنا نعد العدة لمغادرة المكان، وعندما رأيت ماكسيمين مكتئباً وواهن العزيمة أخذت معي رستيكيوس Rusticius والذي يعرف لغة الهون، وجاء معنا ليس كعضو في السفارة، وإنما كمنتدب من أتيتوس للعمل سكرتيراً خصوصياً في بلاط أتيلا، وذهبنا معاً لمقابلة سكوتاس Scottas شقيق أونيجيسيوس وأحد نبلاء الهون.

أوضحت لأسكوتاس في منزله بأن ماكسيمين سيغدق عليه هدايا فاخرة إذا هو دبر لنا مقابلة عاجلة مع أتيلا، وعلاوة على ذلك فإن نجاح السفارة لا يفضي فقط إلى منفعة عامة للقوتين المتصارعتين، وإنما أيضاً إلى منفعة خاصة إلى شقيقه أونيجيسيوس، والذي يود الإمبراطور أن يكون سفيراً للهون في القسطنطينية لترتيب أمر المفاوضات.

ركب سكوتاس من ساعته وسار نحو خيمة أتيلا، في حين عدت أنا إلى ماكسيمين فألفيته راقداً على العشب على الحالة التي تركته عليها قلقاً ومتحيراً، وصفت له ما جرى بيني وبين النبيل الهوني، وطلبت منه التهيؤ لمقابلة أتيلا، قفز من رقدته غير مصدق لما سمع، وموافقاً لكل ما قمت به، وفي الحال استدعى الرجال وأمرهم بإنزال الحمولة من ظهور الحيوانات.

وبينما نحن نتبادل الرأي والمشورة فيما ينبغي قوله لأتيلا، والكيفية التي نقدم له بها هدايا الإمبراطور جاء سكوتاس لمرافقتنا، دخلنا خيمة أتيلا فوجدناه جالساً على كرسي ومحاطاً بحشد من البرابرة، وقفنا على بعد مسافة قصيرة منه حيث تقدم ماكسيمين وحده وحياه، ثم تلى عليه رسالة الإمبراطور قائلاً:

- يبتهل الإمبراطور إلى الله كي ينعم بالسلامة عليه وعليك.

أجابه أتيلا:

- كما يرغب الرومان في السلامة لأنفسهم نرغب نحن أيضاً في السلامة لأنفسنا.

وفجأة توجه بكلامه نحو بيجيلاس رفيقنا واصفاً إياه بالحيوان الذي لا يستحي، ثم سأله قائلاً:

- لماذا تغامر بالمجيء إلينا في حين جميع الفارين لم يخل سبيلهم بعد.

مكثنا بعد رحيل بيجيلاس عدة أيام، ثم خرجنا مع أتيلا في اتجاه الأجزاء الشمالية من البلاد، وعند نقطعة معينة من الرحلة افترق عنا العاهل الهوني وسلك طريقاً آخراً، بينما قادنا البرابرة إلى قرية كان أتيلا ينوي الزواج فيها.

وبعد مسيرة عشرة أيام من هذه القرية توقفنا في قرية أخرى طلباً

للراحة من وعثاء السفر، وانتظاراً لمجيء أتيلا حتى يأتي ويتقدمنا في الرحلة، وهنا تصادف وجود سفارة من الرومان الغربيين أتوا لمقابلة أتيلا والسفارة تتكون من رومولوس Rumulus وبروموتوس Promotus وتاتولوس Tatulus وأوريستيس Orestes.

كانت مهمة السفارة تتعلق بطلب أتيلا تسليمه النحاس الروماني سلفانوس Silvanus، إذ أحس الرومان في رسالته لهم بنبرة غضب وحنق عليهم، فجاءوا لتهدئته وإزالة ما علق بنفسه تجاههم، ولكي يكشفوا له عن ملابسات وخلفيات وحقيقة المسألة برمتها وهي كالآتي:

أثناء حصار الهون لمدينة سيرميوم Sirmium في بانونيا أودع أسقف المدينة أواني وصحون ذهبية عند كونستانتيوس Constatantius، وهو مواطن من غالة وسبق له العمل كسكرتير خصوصي في مكتب أتيلا، وذلك على أساس إذا أخذت المدينة عنوة وسيق الأسقف أسيراً أن يفتديه بها، وإذا قتل تستخدم كفدية لمن يقع في الأسر من المواطنين.

ولما فتحت المدينة بالقوة وقتل الأسقف فيمن قتل واستعبد سكانها لم يحرك كونستانتيوس ساكناً، بل احتفظ ما أؤتمن عليه لنفسه وضم ما أودع عنده إلى ممتلكاته، وفي إحدى زيارته لروما رهن الأواني والصحون عند النحاس سلفانوس بكمية من المال. وعلى أساس إذا أعاد إليه ماله في الفترة المحددة بينهما ترجع إليه الأواني والصحون، وإذا تأخر عن الميعاد المتفق عليه تؤول ملكيتها لسلفانوس، وبطبيعة الحال ارتاب أتيلا وبليدا في إخلاص كونستانيتوس، واتهماه بخيانتهما، مما ترتب على ذلك صلبه.

وفيما بعد وعندما شاعت قضية الأواني وأصبحت معروفة لدى أتيلا طلب من السلطات الرومانية تسليمه سلفانوس وعلى الأرض التي سرق منها ممتلكاته، وبناءاً على ذلك أرسل إليه أتيتوس وإمبراطور الغرب يوضحان أن الأواني والصحون لم تسرق في الواقع وإنما رهنت، وبموجب الشرط الذي اتفق عليه الطرفان تصرف سلفانوس فيها. لأنها آلت إليه

مقابل المال الذي تسلمه كونستانيتوس، فباع بعضاً منها لقساوسة الكنائس، واستخدم البعض الآخر لأغراض دينية، فإذا تخلى أتيلا عن طلبه فإن الإمبراطور سيعوضه عن قيمتها، ولكنه في كل الأحوال لن يسلمه سلفانوس البريء.

انتظرنا لفترة من الوقت حتى يتقدمنا أتيلا بمسافة كافية، ثم سرنا نحن من خلفه، إلى أن بلغنا قرية واسعة قيل لنا أن لأتيلا قصر فيها أكثر أبهة وفخامة، وفي مدخل القرية استقبل العاهل الهوني استقبالاً حافلاً. أما نحن فقد ذهبنا إلى بيت أونيجيسيوس بدعوة منه حيث مكثنا فيه إلى حين موعد الغداء، فأشركونا معهم في طعامهم، وذهب أونجيسيوس ليقص على أتيلا نتائج حملته الأخيرة، ويكشف له عن ملابسات الحادث الذي وقع لابن الأمير الشاب وأدى إلى كسر يده اليمنى.

تركنا منزل أونيجيسيوس بعد الغداء مباشرة آخذين وجهتنا نحو قصر أتيلا، لكي يتاح للسفير ماكسيمين أن يكون على مقربة منه لزيارته متى ما سنحت الفرصة، وليكون في الوقت نفسه على اتصال دائم بالبلاط.

ومع شروق شمس اليوم التالي بعثني ماكسيمين إلى منزل أونيجيسيوس بهدايا كثيرة مقدمة منه هو شخصياً ومن الإمبراطور أيضاً، وحتى أتلمس إذا ما كانت هناك أي إمكانية في مقابلته في أي وقت، ولدى وصولي إلى المنزل ومعي الهدايا يحملها الخدم، وجدت الأبواب موصدة، فوقفت في انتظار خروج أي أحد ليعلن عن وصولنا، وبينما كنت أسير جيئة وذهاباً أمام السياج المحيط بالبيت، تقدم مني رجل يرتدي ملابس الهون التقليدية وخاطبني بالإغريقية قائلاً:

ـ تحية.

فعجبت من الهوني الذي يتكلم الإغريقية، وذلك لأن أتباع الهون وهم من جنسيات وشعوب مختلفة يتكلم الواحد منهم بالإضافة إلى لغته القومية إما الهونية أو القوطية، ولكن لا أحد منهم يتكلم الإغريقية بسهولة،

اللهم إلا الأسرى من ساحل البحر التراقي ومقاطعة إيلليريا Illyria، وهؤلاء من السهولة معرفتهم لأي غريب بملابسهم الممزقة ورؤوسهم القذرة، وهذا الرجل الذي حياني يشبه ثري من أثرياء الهون، ويرتدي ملابس نظيفة وغالية الثمن، وشعر رأسه مقصوص على شكل دائرة تماماً كما يفعل الهون.

رددت عليه التحية بتحية مثلها، ثم سألته من هو وكيف جاء إلى هذه البلاد النائية، ولماذا يعيش كما يعيش البرابرة، ابتسم وقال ما خلاصته:

هو في الأصل إغريقي وذهب كتاجر إلى مدينة فيميناكيوم Viminacium على نهر الدانوب حيث مكث مدة تزوج خلالها بامرأة واسعة الثراء، وعندما سقطت المدينة في أيدي الهون جرد من كل ما يملك، وفقد بالتالي حياة الرفاهية والازدهار التي كان يعيشها، وبسبب ثراءه وتميزه على غيره من مواطني المدينة وزع ضمن الأسرى، فكان من نصيب أونيجيسيوس، حيث جرت العادة عند الهون بأن يحتفظ كبار القادة ورؤساء الجند لأنفسهم بالأسرى الأثرياء.

وكأسير تابع لأنيجيسيوس شارك في عدة معارك ضد الرومان، وقاتل بشجاعة فائقة عادت على سيده بغنائم كثيرة، فمنحه سيده لإخلاصه وتفانيه في خدمته حريته، ثم تزوج امرأة بربرية ورزق منها أطفال، وله الآن حق مشاركة أونيجيسيوس الطعام على مائدته.

ويعتبر حياته الجديدة مع الهون أفضل من حياته السابقة مع الرومان، ولخص الأسباب التي تحفزه لهذه الحياة بقوله:

- بعد كل معركة أو حرب يعيش الهون في سكون بلا نشاط أو فاعلية، يستمتعون خلالها بما تحصلوا عليه، ولا يرهقون أنفسهم بأي شيء مطلقاً، والرومان على العكس منهم عرضة للهلاك في أول موضع أو الفناء في الحرب.

وبينما نحن منهمكين في هذا الحديث خرج علينا خادم وفتح باب

السياج، فأسرعت إليه مستفسراً عما إذا كان أونيجيسيوس مشغولاً، إذ أنني أحمل معي رسالة من السفير الروماني أرغب في إيصالها إليه، فأجاب بأنني سأقابله إذا ما انتظرت قليلاً، لأن سيده على وشك الخروج.

وبعد برهة قصيرة رأيت النبيل الهوني قادماً، فتوجهت إليه بالكلام قائلاً:

ـ إن السفير الروماني يرسل إليك تحياته، وقد كلفني بأن أعطيك هذه الهدايا منه هو شخصياً، وذهب أرسله لك الإمبراطور، وهو متلهف وتواق لمقابلتك، ويرجوك تحديد مكان وزمان اللقاء.

أخذ أونيجيسيوس الهدايا والذهب وسلمها لخادمه، ثم التفت إليّ وأخبرني أن أنقل للسفير بأن الآن في طريقه إليه، فأسرعت وأوصلت الرسالة للسفير، وبلا تأخير يذكر دخل النبيل الهوني الخيمة.

عبر أونيجيسيوس عن شكره وتقديره لماكسيمين والإمبراطور عن هداياهم القيمة، وسأل لماذا أرسل إليه، فقال له السفير ما خلاصته:

ـ لقد حان الوقت لكي يحظى أونيجيسيوس بشهرة واسعة بين الناس إذ هو ذهب إلى الإمبراطور ونظم بحكمته وسداد رأيه كل الموضوعات التي هي في حاجة إلى بحث ومناقشة بين الهون والرومان، ووضع معاهدة سلام جديدة بين الطرفين، وإذا أنجز ذلك فسيكون هو وأبناءه من أصدقاء الإمبراطور والسلالة الإمبراطورية، فضلاً عن الامتيازات الخاصة والفوائد الجمة التي تعود عليه هو شخصياً.

استفسر أونجيسيوس عما يرضي الإمبراطور، وكيف سيتم تنظيم موضوعات الخلاف، فأجابه ماكسيمين:

ـ سوف تحقق مع الإمبراطور بنفسك في أسباب الخلاف، وعلى ضوء ذلك تضعان أسس لمعاهدة سلام جديدة.

لم يعقب أونيجيسيوس على ما قاله السفير واكتفى بقوله:

ـ سأخبر الإمبراطور برغبات أتيلا وقواده، وليس الرومان في حاجة للاعتقاد بأنني سأخون لهم سيدي وزوجاتي وأبنائي وأهداف الهون العليا، أو سأفضل العز والجاه والثروة مع الرومان على العبودية مع أتيلا، وسأكون أكثر فائدة ونفعاً للرومان ببقائي هنا في أرضي لأبذل قصارى جهدي في تهدئة غضب سيدي إذا كان ناقماً عليكم، بدلاً عن زيارات قد تعرضني للوم إذ لم تأتِ بنتائج ترضي أتيلا.

انهت المقابلة عند هذا الحد على أن أعمل أنا كوسيط في تبادل الرسائل والأفكار بينهما، إذ لا يجوز ولا يتفق مع كرامة السفير ومكانته أن يتردد على النبيل الهوني بصورة متكررة.

وفي اليوم التالي دخلت سياج قصر أتيلا حاملاً معي هدايا لزوجته كريكا Kreka، ولما آذن لي بالدخول وجدتها متكئة على أريكة مريحة وناعمة، ومن حولها يقف الخدم، وأمامها مباشرة، وعلى أرضية مغطاة بحصير صوفي تجلس خادمات صغيرات السن، تقدمت نحوها وحييتها ثم قدمت لها الهدايا.

بعد ذلك خرجت وسرت في اتجاه المنازل الأخرى من القصر قاصداً المبنى الذي اتخذه أتيلا مسكناً له، وذلك لمقابلة أونيجيسيوس الذي أعرف إنه الآن مع أتيلا، لم يعترضني أحد من حراس أتيلا وخدامه لمعرفتهم المسبقة بي.

كان يقف لحظة حضوري جمهرة من البرابرة، جاء أتيلا قادماً من منزله وهو يتبختر في مشيته، ويلقي بنظراته إلى هذا الجانب وذاك، وبرفقته أونيجيسيوس وعدد من البرابرة، وقف أتيلا أمام الباب تحيط به مظاهر العظمة والجبروت، في الوقت الذي اقترب منه عدد من البرابرة ممن لهم قضايا ومنازعات أرادوا من أتيلا الفصل فيها، وكان أتيلا يلقي أحكامه ارتجالاً دون إحالتها إلى قادته أو قضاته، ثم رجع إلى الداخل ليستقبل سفراء البرابرة.

وبينما أنا في انتظار خروج أونيجيسيوس بادرني سفراء روما رومولوس وبروموتوس وورومانوس بالسؤال عما إذا كان هناك قرار من أتيلا يقضي بإكراههم على البقاء في هذا المكان الموحش، أجبتهم بأن هذا ما سوف يخبرني أونيجيسيوس الذي أنا الآن في انتظاره خارج القصر.

وعند استفساري لهم عقب عودتهم من مقابلة أتيلا عما إذا كان العاهل الهوني قد تكلف معهم في الرد على قرار أتيتوس والإمبراطور، وعما إذا كان أجابهم إجابة ودية، قالوا بأنه لم يتخذ قراره النهائي بعد، ولكنه هددهم بالحرب إذا لم يتحلوا عن سلفانوس أو الأواني الذهبية.

في هذه الأثناء خرج علينا أونيجيسيوس فذهبت مستفسراً عما يهمنا، لم يجبني في بادىء الأمر، وإنما وجه حديثه إلى مجموعة من البرابرة، ثم التفت إليّ وطلب مني أن أخبر ماكسيمين عن القنصل الذي سيبعثه الإمبراطور كسفير لأتيلا، فهرعت مسرعاً نحو خيمة ماكسيمين وأخبرته عن فحوى المطلوب، انهمكنا جميعاً في دراسة الموضوع وما ينبغي قوله كإجابة لطلب البربري ورداً على استفساره.

ولدى رجوعي إلى أونيجيسيوس أخبرته بأن الرومان يرغبون في مجيئه إليهم هو شخصياً لتسوية كافة القضايا موضع النزاع، وإلا فإن الإمبراطور سيرسل لأتيلا من يختاره هو من السفراء، حينئذ طلب إحضار ماكسيمين، وبمجرد وصوله قاده فوراً لمقابلة أتيلا.

لم تستغرق المقابلة سوى دقائق معدودة خرج بعدها ليخبرنا بأن أتيلا يرغب في أحد ثلاثة سفراء هم، نوموس Nomos أو أناتوتيوس Anatotius أو عضو في مجلس الشيوخ، ولن يستقبل أحداً غيرهم، وعندما رد عليه السفير بأنه لم يقابله ليحدد له رجال بالاسم يجعلهم عرضة لشك وارتياب الإمبراطور قاطعه قائلاً:

- إذا لم تستجيبوا لرغباتي فكل خلاف بيني وبينكم سيسوى بقوة السلاح».

استمر انتقال السفراء بين أتيلا والقسطنطينية مدة ثلاث سنوات قضاها الطرفان في مفاوضات طويلة ومعقدة انتهت بمعاهدة سلام وضعت حداً للأعمال الحربية، وفيها أجبر الرومان وللمرة الثانية للتخلي عن حزام واسع جنوب الدانوب، وارتفعت الجزية بمعدل غير معروف قنع بها الهون.

وما لبثت العلاقة بين الطرفين أن توترت على أثر اكتشاف الهون عام ٤٤٩ م مؤامرة نسج خيوطها الوزير كريسافيوس Chrysaphius بإيعاز من ثيودوسيوس نفسه من أجل اغتيال أتيلا، ونجح الوزير في استمالة إيديكون Edecon مستشار أتيلا الخصوصي لجانبه مغرياً إياه بالثروة والشهرة في حالة تنفيذ المؤامرة ونجاحها، وبالفعل قبل إيديكون المال مقابل اغتيال أتيلا. وفي اللحظات الأخيرة كشفت المؤامرة بتفاصيلها، وقبض على المشتركين فيها، وعلق أتيلا على المؤامرة والمتآمرين بقوله:

- إن عبده ثيودوسيوس، الذي دأب على دفع الجزية سنوياً، حدثته نفسه بالتآمر على قتل سيده.

وفي صيف عام ٤٥٠ م وبعد أقل من عام على اكتشاف تلك المؤامرة، وبالتحديد في الثاني من يوليو توفي الإمبراطور ثيودوسيوس، وفي السادس والعشرين من أغسطس، أي بعد مضي أربعة أسابيع على الوفاة، انتخب مجلس الشيوخ النبيل مارقيان Marician خلفاً له، ولا يتمتع مارقيان بنفس كفاءة سلفه في إدارة كفة الحكم، وليس لديه إنجازات سياسية أو حربية تؤهله للقيادة، ولكن فيما يظهر وقع عليه الاختيار لتنفيذ سياسة الدولة في المرحلة المقبلة، وفي مقدمتها العمل على إنهاء دفع الجزية الباهظة للهون، والتي عانت منها الطبقة التي يمثلها المجلس وسائر طبقات المجتمع.

وبالطبع حرص مارقيان على تنفيذ السياسة التي حملته للعرش فأرسل أبولونيوس Appollonius سفيراً لأتيلا كي يبلغه بامتناعه عن دفع الجزية المنصوص عليها في المعاهدة الأخيرة، وعدم استعداده لدفع أي إعانة أخرى في المستقبل نصت عليها المعاهدة أو لم تنص، وتظل بقية بنود المعاهدة كما هي عليه.

حمل أبولونيوس معه هدايا كثيرة جرى العرف على تقديمها للعاهل الهوني في مثل هذه السفارات، ولما علم أتيلا بطبيعة مهمة السفير رفض السماح له بمقابلته، ومن جهته رفض السفير تقديم الهدايا، وهو أمر بالغ الخطورة ربما أطاح برأسه، ولكن تقلبات الأحداث في عالم الغرب حولت مجرى تفكير أتيلا في ذلك الاتجاه.

والذريعة التي ساقها المؤرخون لاجتياح الهون في الغرب تتلخص في أن الأميرة هونوريا Honoria ابنة بلاسيديا وكونستانتيوس واخت الإمبراطور فالنتينيان، قد هبطت بمستواها الاجتماعي والأخلاقي هبوطاً مزرياً، فعندما كانت في السادسة عشرة من عمرها وقعت في غرام إنجينيوس Engenieus، أحد كبار موظفي البلاط (ياور) والمسئول عن تدبير شئون قصرها، وانكشفت العلاقة بينهما عند ظهور علامات الحمل على الأميرة، وتفشى خبر العلاقة والفضيحة في البلاط الإمبراطوري وبين العامة، فأمر شقيقها بإعدام العشيق وبنفي هونوريا إلى القسطنطينية.

عاشت هونوريا في القسطنطينية حياة مضجرة ومتزمتة طيلة خمسة عشر سنة، عانت فيها من مضايقات ابن عمها الإمبراطور، واستهجان أميرات البلاط لما أقدمت عليه، ولكي لا تكرر فعلتها مستقبلاً أعلن شقيقها وبغير رضاه خطبتها إلى القنصل هيركولانوس Herculanus، فسعت بكل الطرق الممكنة، ومدفوعة بمرارة النفي والاضطهاد إلى إبطال هذا الزواج، ولما باءت محاولاتها بالفشل، خطت خطوة في غاية التهور والطيش، أدخلتها التاريخ، وقرنت اسمها بخروج يأجوج ومأجوج السادس على العالم.

ففي ربيع عام ٤٥٠ م أوفدت سراً الخصى هياكينثيوس Hyacinthus برسالة إلى أتيلا تناشده فيها إنقاذها مما تعاني منه، وتستجديه انتشالها من العذاب الذي تتعرض له يومياً، وزودت الرسول بخاتمها في إشارة صريحة إلى رغبتها في الزواج منه، ولكي تقنعه بمصداقيتها وأتيلا من جانبه لم يكن بطيئاً في الرد عليها، فمهد لتحقيق رغبتها بالاجتماع بها سراً في مدينة رافينا، وبعد

الاجتماع أرسل الخاتم إلى شقيقها فالنتينيان طالباً يدها ونصف الإمبراطورية الغربية كحقها الشرعي في الميراث.

وقع الأمر على فالنتينيان والبلاط وقوع الصاعقة، إذ فتحت هونوريا بتهورها الباب على مصراعيه للهون كي يتدخلوا تدخلاً مباشراً في شئون الغرب، ووضعت خاتمة لسياسة سلمية ظل ينتهجها أباطرة روما معهم منذ وصولهم إلى أوروبا، ولهذا أمر فوراً بقطع رقبة الخصى، وأوشك أن يفعل الشيء نفسه مع شقيقته لولا توسلات أمهما، وعوضاً عن قتلها أصر على عقد قرانها وبأسرع وقت حتى يضع حداً لمشاكلها من جهة، ولطموحات أتيلا من جهة أخرى.

وهكذا اعتبر أتيلا رفض فالنتينيان وما حدث لهونوريا بمثابة إعلان حرب. ففي أوائل يناير من عام ٤٥١ م تحركت جموعهم من سهول هنغاريا عبر الدانوب متجهة صوب الغرب بعدد يقدره المؤرخون بأكثر من نصف مليون مقاتل، وأثار تحركهم وبهذا الكم الهائل الذعر والرعب في المنطقة، وجعل كل إنسان همه الأوحد النجاة بنفسه، وبعد زحف يقدر بثمانمائة ميل خلّف وراءه الخراب والدمار، وصلت طلائعهم إلى التقاء نهر الراين بنهر نيكار Nekar، حيث التحق بجحافلهم الفرنجة والجرمان المقيمين على الضفة اليمنى لنهر الراين.

عبر الهون نهر الراين واجتاحوا الجزء الروماني من بلاد الغال وفي السادس من أبريل وقبل عيد الفصح بيوم واحد استولوا على مدينة ميتز Metz ودمروها تماماً، وتعرضت مدينة ريمز Rheims إلى المصير نفسه، فحل الرعب بغالة من أقصاها إلى أقصاها، وذلك لأن الجانب الأكبر من مدن الإقليم كان محروماً من التحصينات القوية وخال من الجند المحترفين، فاقتحمت تلك المدن بقسوة بالغة، واندفع فيها الهون يذبحون النساء والأطفال والقساوسة في كنائسهم، وبلغت بهم الرغبة العمياء في القتل إلى حد أنهم كانوا يذبحون الأطفال الذين كان يجري تعميدهم ساعة الخطر، ثم أحرقت المدن لتقضي النيران على ما تبقى فيها من حياة.

ومن الجزء الروماني توغل الهون في قلب بلاد الغال، فعبروا نهر السين عند منطقة أوكسير Auxerre، وفي باريس بلغ الرعب أشده، وشاعت الفوضى في المدينة، وبناءً على نصيحة القديسة جنيفيف Genevieve اعتكف الأهالي في الكنائس واعتصموا بالمنازل متضرعين ومبتهلين لدرء الخطر الزاحف عليهم، ولأمر لم يجد له أحد تفسيراً تجاوز الهون باريس وسارت جموعهم صوب مدينة أورلينز Orliens، وفي نهاية مايو وبعد مسيرة طويلة عسكروا تحت أسوارها ضاربين حولها حصاراً من جميع الجهات.

كانت مدينة أورلينز في وقت حصار لها تحت حماية وحراسة سانجيبان ملك ألاني، وقد رد ومن معه من الجند والمدافعين بقوة على هجمات الهون، وبذل أحد القساوسة غاية ما في وسعه ليبقى على روح الأهالي المعنوية عالية، وليخفف من حدة الخوف والذعر اللذان سيطرا على النفوس لحين وصول النجدة، ولزم من لم يقدر على حمل السلاح من الأهالي الكنائس مرددين الأدعية والصلوات بلا انقطاع.

اهتزت أسوار المدينة أكثر من مرة بعنف من جرّاء ضربات آلات الحصار المتواصلة. وفي كل مرة كان سانجيبان يرسل رسولاً ليرى من خلال الاستحكامات إذا ما كانت هناك علامة على وصول النجدة، لأن المدينة إذ لم تسقط بفعل القوة سقطت من هلع السكان وذعرهم، وفي كل مرة يرجع الرسول دون أن يحمل أي خبر يدخل الأمن والعزاء في نفوس المحاصرين، وفي المرة الأخيرة ذكر الرسول أنه رأى سحابة صغيرة تلمع بخفوت شديد في الأفق البعيد، هنا قال أسقف المدينة بخشوع وفرح: إنها مساعدة الرب.

وفي يوم ١٤ يونيو وبينما السكان يرددون كلمات الأسقف إنها مساعدة الرب، انهارت الاستحكامات الدفاعية، وتدفق الهون في شوارع المدينة كالسيل الجارف، يقتلون وينهبون ويدمرون، وفجأة صدرت الأوامر إلى الفرق المتوغلة في قلب المدينة بالتقهقر والانسحاب الفوري.

يعود انسحاب الهون السريع من المدينة إلى وصول النجدات التي تمكن أتيتوس حاكم إقليم غالة من جمعها، وهي قوات خليط من الفرنجة والأرموريك والبريون والسكسون والبرجنديين والسرماتيين وألاني والربواريان، وانضم إليهم ثيودوريك ملك القوط الغربيين ووالده، كان هذا الخليط هو الجيش الذي قاده أتيتوس لإنقاذ المدينة، ووصلها بعد أن سقطت المدينة بالفعل في أيدي الغزاة.

اجتاز الهون نهر السين بسرعة شديدة، وبتنظيم غاية في الروعة، واستغل الرومان وخلفاؤهم هذا التقهقر السريع والذي يدل على خوفهم من هزيمة توقع بهم في قلب بلاد الغال، وما يترتب عليها من نتائج قاتلة، وواصلوا الضغط على القوات التي وضعها أتيلا في المؤخرة، واشتبكوا معها أحياناً في ظلام الليل، وكان التصادم في أحيان كثيرة يتم من غير قصد وبين الحلفاء أنفسهم.

واصل الهون انسحابهم المنظم إلى الشمال الغربي تجاه إقليم بلجيكا، وعلى مسافة خمسة أميال من مدينة تروي Troyes، وفي رقعة من الأرض تعرف باسم لوكوس مورياكوس Locus Mauriacus، ويشار إليها من الخرائط المعاصرة باسم حقول قطالونيا نصب الهون خيام معسكرهم.

تقع حقول قطالونيا في شمال فرنسا وعلى امتداد سهل رحب يمتد إلى مسافة مائة وخمسين ميلاً في طوله، ومائة ميل في عرضه، وتتناثر على سطح السهل بعض القرى، والمدينة الكبيرة التي يحيط بها السهل هي مدينة شالون.

يتميز سهل مدينة شالون باستواء أرضه وانبساطها مما يتيح لفرسان الهون خاصة أكبر حيز لحركاتهم السريعة، وفي السهل مرتفع له ميزة تكتيكية لها أهمية بالغة في أي معركة مقبلة، وهي أن قمته تقسم الاستواء العام للسهل إلى قسمين يبعث في قلب من يضع يده عليه اطمئناناً كبيراً للنصر، ولذا أدرك كلا الطرفين خطورته وتنازعا للسيطرة عليه، وبعد

حدوث مناوشات عنيفة تمكن توريسموند ابن ملك القوط من احتلال قمته واندفع القوط نحو الهون في أسفله لتأمين الاحتلال، وجاهد الهون لصعود السفح المضاد بلا جدوى، وأخيراً كفوا عن محاولتهم اليائسة معتقدين بأن هذا النصر المحدود ما هو إلا مناوشة بسيطة لا قيمة لها.

وفوق السهل الذي تشغله حقول قطالونيا وعرف فيما بعد بسهل شالون اجتمعت كل الشعوب الأوروبية من نهر الفولجا وجنوب روسيا إلى المحيط الأطلنطي، ووقفت متقابلة وجهاً لوجه إما مع الهون أو ضدهم، آخذة مواقعها القتالية لخوض معركة هي بحق معركة الشعوب، وذلك على النحو التالي:

على جهة الهون وضع أتيلا أقوى وأفضل قواته في قلب الجيش لمواجهة سانجيبان وأتباعه، وفي الجناح الأيسر حشد أتيلا قواته من القوط الشرقيين والجيبيد والذين يعدون من خير حلفائه الجرمان لمواجهة ومجابهة أقربائهم من القوط الغربيين، وفي الجناح الأيمن وضع قوات مشتركة من الروجبان والهريولي والثورينجيان والفرنجة لمواجهة أتيتوس في الجناح الأيسر لجيش الحلفاء الرومان.

أما على جبهة الحلفاء فقد كان تنظيمها وفقاً لمبدأ مختلف يسوده الشك والخوف من الخيانة، وانفراط عقد الحلف في أي لحظة ولأي سببا. ولذلك وُضع سانجيبان ملك ألاني وقواته وبضغط من أتيتوس وثيودوريك في مركز الوسط في محاولة واضحة لمنعه من الاتصال أو الاقتراب من الهون، وكإجراء أمني يمكن من خلال وضعه بين جناحي الجيش من مراقبته مراقبة دقيقة، والقضاء عليه فوراً إذا ما بدرت منه بادرة خيانة، وخصص أتيتوس الجناح الأيمن لثيودوريك ملك القوط الغربيين، بينما أبقى ابنه تورسيموند مسيطراً على المرتفعات الاستراتيجية المطلة على السهل، وكإجراء وقائي وضع أتيتوس نفسه في الجناح الأيسر ليكون على مقربة من تورسيموند، ليحد بموقعه هذا من مخاطر انحياز أبيه إلى الجانب الآخر أو الانسحاب.

إن وضع أتيتوس للآني المشكوك في ولائهم وإخلاصهم في وسط الجيش، ووضع أكثر الوحدات قوة وجسارة على الجانحين قد قصد به إضعاف قلب الجيش عن عمد، على أمل أن يندفع الهون وبأقصى سرعتهم وهم على غير علم بالجناحين القويين، ليقوم الحلفاء بدورهم بتطويقهم من جميع الجهات، وفيما يبدو أن أتيلا قد وقع بالفعل في الفخ، إذ وضع أقوى وأفضل قواته في مواجهة أضعف قوات خصمه.

بدأت المعركة الحاسمة بين الطرفين في وقت متأخر بعد ظهر يوم ٢٠ يونيو لسنة ٥٤١ م، ولم يكن قد بقي على غروب الشمس سوى ثلاث ساعات، وبعد تبادل متقطع لإطلاق القذائف أظهر خلاله رماة السهام من الهون مهارة تفوق مهارة أعدائهم بمراحل التحم الجيشان في قتال شرس وعنيف، بقيت لنا من تفاصيله شذرات مقتضبة نوجزها فيما يلي:

اندفع قلب جيش الهون بقيادة أتيلا تجاه قلب الجيش الروماني حيث يتمركز ألاني، فاخترقوا مركزهم الضعيف والمزعزع. وفصلوا ما بين جناحيه، ثم استداروا إلى اليسار بحركة سريعة ووجهوا كل قوتهم ضد القوط الغربيين، وبذلك يكون أتيلا قد عرض جناحه الأيسر لهجوم مرعب قام به ثيودوريك وفرسان القوط ثقيلو العدة، وأجبروا الكثير من وحداته للقتال رجل لرجل.

وبينما كان ثيودوريك يشق طريقه وسط الصفوف على جواده لتقوية عزيمة جنوده أصيب إصابة قاتلة بسهم رماه به نبيل من أقربائه القوط الشرقيين، وفي ظل ارتباك الجند واختلال نظامهم، وضراوة ضربات العدو سقط من فوق جواده تحت أقدام الخيول الهائجة وزهقت روحه في الحال.

وكنتيجة طبيعية لارتباك صفوف القوط الغربيين اضطر تورسيموند للنزول من فوق المرتفع، وأعاد بالتدريج تنسيق الجند لخوض المعركة، وداروا من جديد على قلب جيش الهون بكل قوتهم، واستبسل الجند للأخذ بثأرهم، هنا أدرك أتيلا خطورة أن يجد نفسه محاصراً بين جناحي

الجيش، فاشتبك مع القوط الغربيين في قتال عنيف وهو يتراجع إلى الخلف، وصد رماته خيالة القوط وحالوا بينهم وبين التقدم لهزيمة الهون هزيمة ساحقة.

وبينما كان قلب الجيش يتراجع إلى الخلف حيث دائرة العربات التي كانت تحصن معسكرهم، وهي من الناحية العملية موقع حصين، كان الجناح الأيسر لا يزال صامداً أمام أتيتوس، ولكن الجناح الأيمن أفناه القوط واستأصلوا شأفته انتقاماً لقتل ملكهم ثيودوريك.

ومع مغيب شمس هذا اليوم الدامي أكمل الهون انسحابهم إلى داخل العربات، وتأهبت فصائلهم المرتجلة، وتلك التي نزلت عن خيولها للدفاع عن أنفسها دفاعاً لا يتفق مع طريقتهم في القتال.

بات الهون ليلتهم تلك مترقبين ما يسفر عنه الصباح، وتوقع أتيلا أن يستغل العدو نصره المشكوك فيه والذي لم تحسمه معركة الأمس فيشن عليهم هجوماً يتعذر صده، فأمر بجمع العربات وجعل منها سوراً نشر عليه رماة النبال، ووضع سروج الخيل والعدة الخشبية في كومة، ووضع فوقها الغنائم والكنوز مع زوجاته وأولاده، موطناً النفس إذا ما اخترق العدو متاريس جيشه أن يضرم النار في تلك الكومة ويلقي بنفسه وأهله في اللهب حتى لا يحرز أحداً الفخر والمجد بقتله أو أخذه أسيراً.

غير أن أعداؤه قضوا الليل في قلق وارتباك لا يدرون ما تمخضت عنه معركة الأمس، وأغرت تورسيموند على المضي قدماً في مطاردتهم، وفجأة وجد نفسه مع ثلة من جنده وسط عربات الهون التي كانت تملأ السهل، وجرى قتال ليلي سريع بين الطرفين وقع فيه تورسيموند من فوق جواده وكاد أن يلحق بوالده لولا جسارة جنده التي أنقذته من موت محقق.

وعلى امتداد خط القتال الأيسر ظل الغموض يحيط بالموقف حيث كان أتيتوس معزولاً عن بقية جبهات القتال لا يعلم عنها شيئاً وساوره القلق

على مصير المعركة، فترك الجناح الأيسر في مواقعه وشق طريقه في ظلمة الليل إلى حيث يعسكر قلب الجيش، وفي الطريق اصطدم ببعض وحدات الهون المنتشرة فوق السهل، ولكنه أفلت منها وبلغ معسكر القوط.

وفي مطلع نهار اليوم التالي للمعركة قام القائد الإمبراطوري بجولة على خطوط القتال متفقداً جنده، ومن خلالها أيقن أن أعداؤه قد تلقوا ضربة قوية أوشكت أن تلحق بهم هزيمة منكرة، وهم وحدهم الذين لحقت بهم الخسارة الكبرى. وأثناء تجواله اكتشفت جثة الملك ثيودوريك مثخنة بالجراح تحت كومة من القتلى، فناح عليه القوط، واختلطت عبراتهم الحزينة بالأناشيد والتهاليل، وأدوا شعائر الدفن كما تليق بملك دفع روحه رخيصة في سبيل أمته، ووسط صليل الأسلحة رفع القوط ابنه الأكبر تورسيموند فوق رؤوسهم ونسبوا إليه الفضل في دحر العدو.

قبع الهون داخل استحكاماتهم وهم عديمو الحركة، وانطلقت فرقهم الانتحارية خارج الحصن تجوب المنطقة للقضاء على أي تسلل للعدو، وظل أتيلا لمدة يومين أو ثلاثة يفكر تفكيراً عميقاً لمعرفة أسباب فشل الحلفاء في استغلال تفوقهم الظاهري في المعركة لإحكام الحصار عليهم، وقطع المؤن عنهم حتى يضطروا إلى قبول معاهدة مذلة، أو الدخول في قتال لا يتفق مع طبيعتهم ينتهي بسحقهم، هذا في الوقت الذي كانت آلات الموسيقى العسكرية تدوي بأنغامها الصاخبة والحماسية، وحين تقدمت كتائب من قوات الرومان الأمامية مخترقة كشافة الهون أمطرتها القوات المحاصرة بوابل من السهام أهلكت الجانب الأكبر منها.

عقد الرومان وحلفاؤهم اجتماعاً كبيراً لمناقشة الوضع العسكري عقب المعركة وتقرير مصير الهون. وإذا ينكشف للجميع خطورة النتائج الناجمة عن اختفاء الهون كقوة لا يستهان بها في أوروبا، فمن ناحية خشي الرومان من بروز القوط كقوة جديدة إذا ما قضى على الهون، وخضوع الإمبراطورية لصلفهم وبربريتهم، ومن ناحية أخرى اتضح للقوط أنه من الأفضل لهم في

ظل تلك الشكوك والمخاوف السماح للهون والقبائل الجرمانية بالاستمرار معاً في منازعة السلطة الرومانية في بلاد الغال.

واتيتوس من جهته لم يكن هو الآخر راغباً ولا ميالاً للقضاء على الهون، رغم الجهود المضنية التي بذلها لإقامة تحالف وطيد ضدهم، إذ كان يطمع - كما كان يفعل في الماضي - في تجنيد فرسان الهون المغاوير لصالح روما، ويشكل منهم قوة مساعدة وعلى جانب كبير من الأهمية في حربه ضد القوط وغيرهم من البرابرة المتربصين بالإمبراطورية، وبدون مساعدة منهم. وتحت ظل التدهور الحالي والنقص المريع في القوة البشرية فلن تتمكن الإمبراطورية الرومانية من الصمود طويلاً.

وإزاء كل هذه الشكوك والمخاوف والآمال المتباينة والنوايا التي تتقاذفها أهواء المصالح والمطامع انسحب القوط الغربيين قوة التحالف الضاربة، وبانسحابهم تقهقرت تدريجياً بقية وحدات الجيش. ووقف الهون خلف متاريسهم وعرباتهم مذهولين من ذلك السكون الغريب الذي أطبق على سهول شالون، وساورهم الشك من أن العدو يعد لجولة جديدة من القتال، وبقوا على هذه الحالة من الترقب والانتظار عدة أيام.

وأخيراً أمر أتيلا رجاله بالعودة عبر نهر الراين إلى عاصمة الإمبراطورية في هنغاريا، ومن خلفه سار ميروفيتش على رأس قوات من الفرنجة، خوفاً من قيامهم بحركة التفاف والعودة من جديد إلى غالة، وحرص قائد الفرنجة على التخلف عنهم مسافة معقولة تتيح له مراقبتهم ولا تضطره للإصطدام بهم، مع أعطائهم دوماً فكرة ثابتة عن كثرتهم وضخامة عددهم بما كانوا يشعلون من نيران كثيفة ومتفرقة أثناء الليل. وظلوا يتعقبونهم هكذا حتى أوصلوهم حدود بلادهم.

أثارت معركة شالون انتباه وعجب المؤرخين بالأعداد الهائلة من القتلى، وباحصائيات مبالغ فيها تقدر في أسوأ الأحوال بـ ١٦٥ ألف قتيل سقطوا خلال ساعات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة. كما أن الصدام

البشري لم يكن صداماً عادياً، بل كان صداماً وحشياً وضارياً وشرساً جرت فيه الدماء انهاراً، واتسم قتال الهون فيه بالتهور الأعمى والرغبة الحقودة في القتل وعلى نحو يتجاوز كل ما تعارفت عليه البشرية في معاركها.

تحقق لجموع الهون بمقتل ثيودوريك ورحيل القوط أهم إنجاز بالنسبة لهم وهو زوال القوة الوحيدة التي تحول بينهم وبين بلوغ تأججهم غايته الطبيعية، ولذلك لم يترتب على نصر الرومان المشكوك فيه ولا على تقهقرهم إلى معسكرهم إضعاف لروحهم المعنوية.

ففي صيف العام التالي مباشرة (٤٥٢ م) تحركوا من جديد عبر بانونيا وجبال الألب إلى عمق إيطاليا، وفي أواخر صيف هذا العام وصلوا إلى مدينة اكويليا Aquileia، ونظراً لاسوارها الضخمة ومتانة دفاعاتها أحكم الهون حولها حصاراً كانوا يفتقرون فيه إلى الإلمام بالفنون الهندسية لاختراق الأسوار العالية، وقلة صبر على الحصار الطويل.

كانت مدينة أكويليا وقت حصار الهون لها من أغنى مدن إيطاليا الواقعة على الشاطىء الأدرياتيكي. ومن أكثرها سكاناً وأعظمها ثروة وكان على حاميتها بالإضافة إلى الجيش الروماني وحدات مساعدة من القوط.

لجأ الهون إلى استغلال مهارة الصناع والمهندسين الرومان في تدمير بلادهم. واستعان هؤلاء وبأمر من اتيلا بالألوف من الأسرى وسكان الأقليم والذين كانوا يضحى بهم في تنفيذ أشق أعمال الحصار وأخطرها بلا شفقة ولا رحمة.

انقضى على حصار أكويليا ثلاثة أشهر هوجمت خلالها أسوار المدينة بعدد ضخم من معدات الهدم والأبراج المتحركة والآت قذف الحجارة والسهام النارية، حتى اضطر أتيلا لنضوب المؤن وتذمر الهون وحلفاؤهم إلى التخلي مؤقتاً عن احتلال المدينة، فأصدر أوامره بالبدء تدريجياً في حل الخيام اعتباراً من صباح الغد.

وفي صباح الغد وبينما هو يتجول على ظهر حصانه حول أسوار المدينة الشاهقة، شاهد طائراً من طيور اللقلق يتأهب لمغادرة عشه في أحد الأبراج والطيران مع صغاره إلى الريف، فلفت أنظار أتباعه إلى هذه الواقعة البسيطة والمتكررة. وقال بصوت مرتفع:

إن مثل هذا الطائر الأليف لا يمكنه التخلي عن مستقره القديم إلا إذا كانت تلك الأبراج صايرة في وقت قريب إلى خرائب موحشة.

بعث هذا الفأل الحسن الأمل في نفوس الهون. فعاودوا الحصار بهمة جديدة، واستطاعوا بعد عمليات شاقة ومضنية وبمساعدة المهندسين الرومان والأسرى من فتح ثغرة كبيرة في ذلك الجزء من السور الذي طار منه طائر اللقلق، تدفق الهون على أثره كالوحوش داخل المدينة يقتلون وينهبون ويحرقون. ومن بقي من الأهالي تسلل فاراً بجلده إلى الجزر الواقعة على رأس البحر الأدرياتيكي، وما بين يوم وليلة دمرت المدينة تدميراً كاملاً.

واصل الهون زحفهم تجاه مدن كونكورديا وباتافيوم والتينوم. وجميعها تعرضت بشكل أو بآخر إلى الخراب والدمار، وتحولت أبنيتها الجميلة إلى كومات من الأحجار والرماد، وعوملت المدن الداخلية مثل فيسنزا وفيرونا بشيء من اللين والرحمة، فلم تدمر ولم يتعرض سكانها للمذابح العامة أو التشريد، ولكنها لم تسلم من أعمال النهب والقسوة.

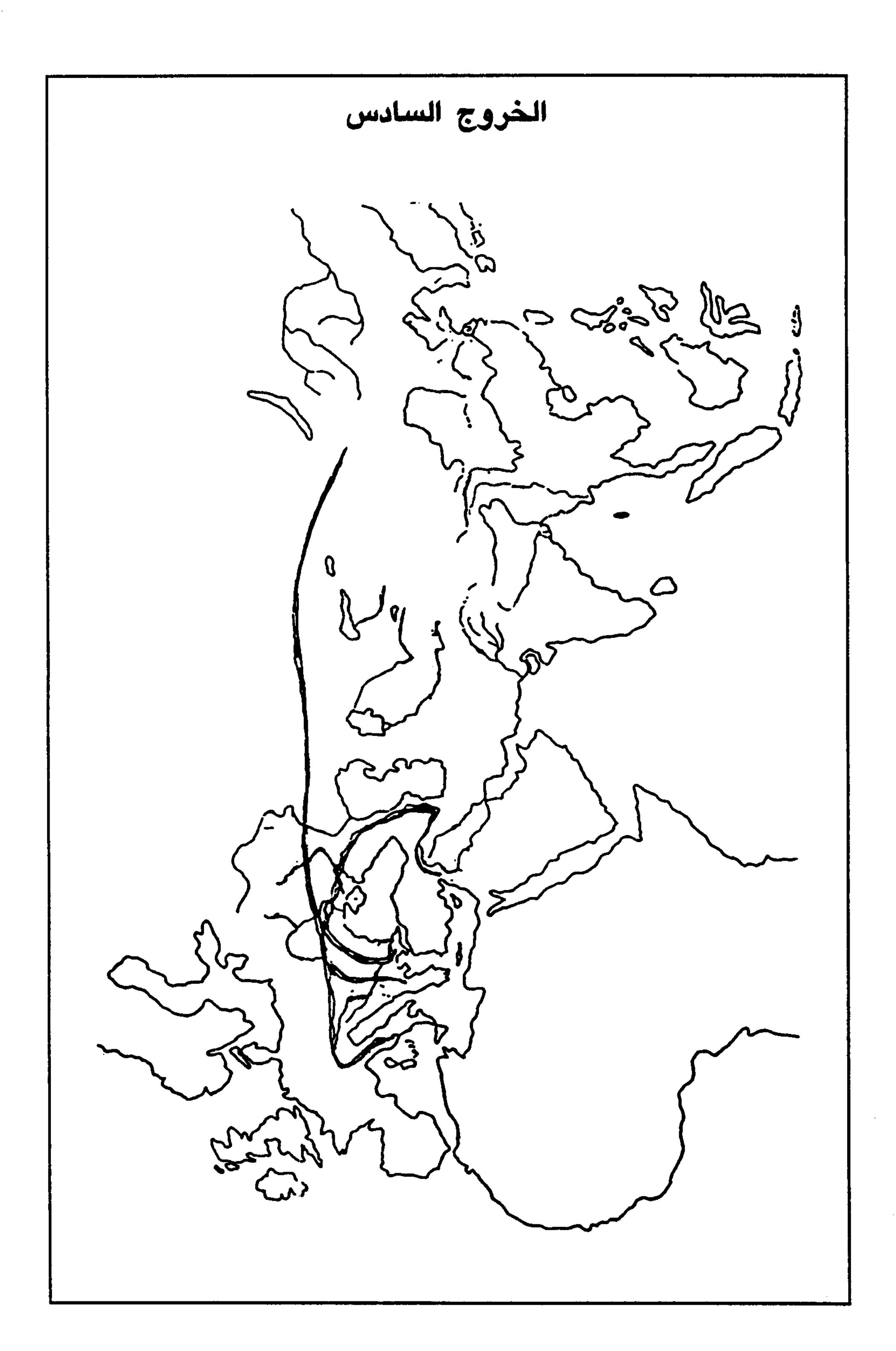
أما مدن برجامو Bergamo وميلان وبريسكيا فقد استسلمت بلا قيد أو شرط، وخضعت جميعها بلا مقاومة، مشترية سلامتها وسلامة أرواح سكانها بتسليم كل ما فيها من ثروة منقولة للغزاة الفاتحين، وبذلك أنقذت المباني الخاصة والعامة من الحريق والتخريب وتحول الجميع إلى أسرى تحت رحمة وجبروت عدو قاسي لا يعبأ بحياة أسراه.

وتحكى إحدى الروايات أن أتيلا عندما زار القصر الملكي في ميلان استاء غاية الاستياء عندما رأى لوحة من اللوحات تمثل أباطرة الرومان جالسين على عروشهم وتبدو عليهم مظاهر العرجفة والغرور، وامراء وملوك

السكيثيين منبطحين أرضاً تحت أقدامهم في ذلة وانكسار ومسكنة. فأمر أحد الرسامين بتغيير مضمون اللوحة وعكس الأشكال والأوضاع. وذلك بأن يصور الأباطرة الرومان وهم يتقدمون في خضوع وخوف لإفراغ أكياس ذهب الجزية المفروضة عليها أما عرش العاهل الهوني العظيم.

وإلى الجنوب من ميلان وعلى مقربة من منيكو Minico كان اتيتوس يعسكر على رأس قواته الوطنية قليلة والعاجزة عن أي مقاومة فضلاً عن مناوشة أو تأخير تقدم العدو نحو روما، وفشلت كل محاولات القادة الرومان بما فيهم أتيتوس من إقناع البرابرة الذين سبق لهم الدفاع عن غالة بالمبادرة إلى إنقاذ روما من دمار محقق، أما وصول نجدات سريعة من إمبراطورية الشرق المنهوكة القوى فأمر بعيد ومشكوك فيه.

وبدلاً من أن يشارك الإمبراطور فالنتنيان أتيتوس في تجنيد كافة إمكانيات الدولة البشرية لتأخير تقدم العود. فر من أمامه وكشف إنسحابه السريع من رافنا إلى روما، أي من حصن منيع إلى مدينة مكشوفة عن نيته المبيتة على مغادرة إيطاليا بمجرد اقتراب الخطر من شخصه.



الخروج السادس

غير أن الهون انشغلوا عن الزحف المباشر إلى روما باجتياح سهول لمبارديا الغنية، وعند نهر البو تباطأ زحفهم قليلاً مما اتاح للامبراطور فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة النظر في أمر هروبه. وفي صيف عام ٤٥٢ م وعلى بعد ستين ميلاً شمال روما وبالقرب من شاطىء بحيرة جاردا Gerda عسكر الهون إستعداداً لاقتحام عاصمة الرومان.

أثناء ذلك عقد مجلس السناتو جلسة تاريخية بحضور الامبراطور لمناقشات ما يجب اتخاذه، وتوصل المجتمعون بعد مناقشات حامية إلى قرار أكثر نفعاً وفائدة لهم ولشعب روما، وهو إرسال وفد رسمي يسترحم أتيلا برئاسة البابا ليو الأول، وعضوية كل من أفينوس Avienus الثري وذو المكانة الرفيعة في مجلس السناتو، وترجيتيوس Trygetius والذي سبق له ممارسة دور الوالي البريتوري لإيطاليا.

دخل وفد روما أمام خيمة أتيلا والمنصوبة بالتحديد في الموضع الذي يتصل فيه نهر منكيوس البطيء السرعة بأمواج بحيرة بيناكوس نهار يوم ٦ يوليو من عام ٤٥٢ م، حيث استمع بكل أدب وكياسة إلى توسلاتهم واستعطافهم مقرونة بوعود مادية مغرية لافتداء المدينة، وتزويجه فوق ذلك من الأميرة هونوريا.

ويعد قبول أتيلا لوعود الوفد وإغراءاته هو البداية الفعلية لخمود روح التأجج في القوم، وفتورها كقوة دافعة ومحركة لهم، وظهر كل ذلك على السطح في انغماسهم الشديد في الأكل وشرب الخمر، وفي ظهور مرض الدوسنتاريا الفتاك، ثم أخيراً فشا فيهم مرض الطاعون فأخمد البقية الباقية من قواهم.

قاد أتيلا جحافل الهون عائداً بهم إلى عاصمتهم، وبعد شهور قليلة من عودته أضاف إلى زوجاته العديدات شابة جرمانية الأصل، صغيرة السن تدعى الديكو Ildico، احتفل بزواجها إحتفالاً مهيباً، أثقلت فيه الموائد بالطعام والشراب، وسط مظاهر أفراح القوم التقليدية، وفي وقت متأخر من

الليل انسحب أتيلا إلى فراش الزوجية، وظل اتباعه يحترمون راحته. طوال الشق الأكبر من اليوم التالي، حتى أثار الصمت غير العادي من مخدع الزوجة الجديدة مخاوف وشكوك ابناؤه وقادته.

ولما فشلت محاولات أونيجيسيوس من إيقاظه إقتحم هو ومن معه المخدع، وهناك وجدوا العروس جالسة في طرف السرير، ويرتسم على محياها الجميل آثار البكاء والسهر، وأتيلا راقداً على ظهره بلا حراك.

يعزى سبب وفاة أتيلا المفاجىء إلى حدوث إنفجار في شرايينه ساعة كان مستلقياً على ظهره، ولم يتمكن الدم من النفاذ إلى خياشيمه، وإنما اندفع إلى رئتييه ومعدته، فاختنق بفعل نزيف الدم المتواصل، وكتم على أنفاسه، ومات على الحال التي كان عليها.

عرض جثمان أتيلا وسط السهل تحت مظلة حريرية، وأخذت كتائب مختارة من جنده تدور حول دورات رتيبة منتظمة وهي تنشد نشيداً جنائزياً لذكرى قائد خروجهم السادس على العالم، وتمشياً مع عادة القدم قطعوا أجزاء من شعورهم، وجرحوا وجوههم بجراح قبيحة المنظر، وانتحبوا على قائدهم نحيباً يستحقه لا بدموع النساء، بل بدموع ودماء الأبطال الصناديد.

وكعادة يأجوج ومأجوج في دفن قادة خروجهم وضعت رفاته داخل ثلاثة توابيت من الذهب ومن الفضة ومن الحديد، ثم دفنت جميعها أثناء الليل، وفي أماكن متفرقة، أما الأسرى الذين حفروا القبور الثلاثة فقد ذبحوا بوحشية وفي نفس الليلة، فضاع بقتلهم كل أثر للقبر.

وبموت أتيلا خمدت تماماً روح التأجج في القوم، وهبطوا إلى المستوى الإنساني العادي، وتلاشت من القلوب كل المهابة والقوة التي تسلطوا بها على الناس حقبة طويلة من الزمان، وصاروا إلى حالة عجزوا فيها حتى على المحافظة على الإمبراطورية الفخمة التي أقاموها بالحديد والنار، وأحست القبائل التابعة لهم بزوال ذلك السلطان الخفي عنهم، فأعلنوا رفضهم الخضوع لأبناء أتيلا، بل وثاروا عليهم مطالبين باستقلالهم، وسيأتي تفصيل كل هذا في موضع آخر.

الخروج السابع:

خرجت جموع يأجوج ومأجوج هذه المرة ومن قلب منغوليا باسم المغول أو التتار، متجهة صوب الجنوب. سالكين الطرق المؤدية مباشرة لعاصمة الصين الشمالية (بكين الحالية).

وكالعادة لم يأخذ الصينيون على حين غرة بهذا الاجتياح، بل أعدوا له العدة، فمنذ قيام وحدة جديدة في منغوليا تجمعت فيها أغلب قبائل يأجوج ومأجوج بقيادة جنكيزخان، وإلى ظهور فرق عسكرية صغيرة العدد كانت تأتي بين الفينة والأخرى لجمع معلومات عن السور ودفاعاتها، حتى أعتاد عليها الجند في نوبات حراستهم، عمد إمبراطور الصين إلى تزويد أبراج المراقبة بقذائف من كل الأنواع، وشيدت أربع حصون ضخمة من الحجارة للأسلحة، وخارج السور حفرت ثلاثة فنادق مائية، ودفعت الأخبار التي جاءت بقرب هجوم المغول إلى إرسال مزيد من الجند والإمدادات العسكرية للسور.

وفي مارس من عام ١٢١١ م اصطدم المغول بجزء من السور الكبير والذي يحمي العاصمة ومداخل الصين الشمالية، واستمر الهجوم على السور لأسابيع عديدة عجزوا خلالها عن إختراق دفاعاته أو زحزحة المدافعين عن مواقعهم الثابتة، وفي أقصى الغرب حيث كانت ترابط قبائل الأنجوت Ongut، حقق المغول أول إنتصار لهم، ليس بالحرب وإنما بالخيانة، فقد سبق لإمبراطور الصين أن عقد معهم معاهدة للدفاع عن الحدود الشمالية وجزء من السور المطل على إقليم شانسي Shansi والذي يقود مباشرة للعاصمة، مقابل الإقامة في الإقليم وتوفير كافة إحتياجات ومستلزمات حياتهم اليومية.

ظلت قبائل الأنجوت حريصة على عهدها، وحراس أمناء ومراقبين حذرين لكل ما هو خارج السور إلى أن ظهر إخوانهم المغول كقوة جديدة في المنطقة، فتخلوا لدى خروجهم على الصين عن اتفاقياتهم ومعاهداتهم

وعقدوا حلفاً مع جنكيزخان سمحوا له بموجبه بالمرور عبر بوابات السور. وما هي إلا أيام قلائل حتى اكتملت حشودهم داخل الصين الشمالية.

إن الطريق الذي اختاره جنكيزخان نحو العاصمة يمر على قصره بمناطق صعبة التضاريس تنحدر بشكل متدرج وتقطعه سلسلة جبال متداخلة ومرتفعات بركانية تشكل هي نفسها حاجزاً يشبه شبكة من القضبان يدعى سد أو حاجز بكين، لا يحمي فقط العاصمة بل أيضاً مدن الشمال وخاصة تاي تونج.

حقق المغول أول انتصاراتهم العسكرية باستيلائهم على جبل (يى هو) ما بين بكين وكالجان. وبذلك يكونوا قد أحكموا سيطرتهم على الطريق الذي يربط ما بين منغوليا الداخلية والسهل العظيم في الصين الشمالية، وفي أغسطس سقطت في أيديهم مدينة هسوان هو أول مدن السور، وأكثرها تحصيناً. وإلى أقصى الجنوب الشرقي وعلى نفس الطريق حوصرت مدينة (باوران) ولما تبين للمغول ضعف الدفاعات تسلق تولوي ابن جنكيزخان المواقع الحصينة وعلى رأس موجات متتالية أوهنت قوى المدافعين، فاضطروا للتخلي عن مواقعهم وانساب المغول داخل المدينة كالسيل، ولاقت مدينة (هواي لاي) المصير نفسه، ولكن بعد مذابح رهيبة ظلت الأرض بعدها ولسنوات عديدة مغطاة بالعظام البشرية البيضاء متناثرة هنا وهناك.

حاول الصينيون على أثر تساقط مدنهم الحدودية وعجز قلاعها عن الصمود، والمقاومة، وقف تقدم العدو نحو العاصمة، فحشدوا جيشاً مؤلف بشكل رئيسي من المشاة تساعدهم فرق لا قيمة لها من الخيالة، واستطاع المغول بضرباتهم السريعة تشتيت الخيالة، وسحق جموع المشاة المتلاحمة بسهامهم التي كانت تطلق من على ظهور الخيل.

وعلى عجل أرسل الإمبراطور جيشاً آخراً لتغطية فشل الجيش الأول، ظل يتحسس طريقه باتجاه الغزاة في متاهات المضائق وتضاريس الجبال

المتعرجة، دون معرفة جيدة بالمنطقة، وكان قائده يستفسر عن طريقه لدى الفلاحين. ولما بلغ جنكيزخان أمر الجيش التائه أرسل قائده جيبي نويان (السهم) للتصدي له وتشتيت شمله.

كان جيبي نويان يعرف مسالك المنطقة وطرقها أفضل من عدوه. فقام بحركة التفاف واسعة حول الجيش مستغلاً ظلام الليل، وفي صباح اليوم التالي فاجأ الجند من وراءهم. فارتاعوا إرتياعاً شديداً. فمنهم من قتل، ومنهم من أسر، ومن تمكن من الهرب ولى وجهه صوب الشرق ناشراً في طريقه الفوضى والخوف.

وإلى الجنوب الغربي من هواي لاي شيد الصينيون قلعة متينة كي تحمي ممر شو يوانغ كوان Chu Yuan Kwan الواقع على الطريق الذي يربط منغوليا بسهل الصين، والممر موحش وطوله حوالي سبعة عشر ميلاً تعلوه مرتفعات شاهقة عليها نظام دفاعي كامل من الحصون، وتسيطر تلك الحصون على المنطقة التي ينحدر منها السور نحو بكين. ونظراً لأهمية الموقع الاستراتيجي عزز الإمبراطور دفاعات القلعة بسدود ترابية وحفر خنادق، إضافة إلى استبدال البوابات التقليدية ببوابات كبيرة من الحديد يستحيل فتحها فضلاً عن إختراقها.

زحف القائد جيبي نويان على رأس قوة ضخمة حتى مدخل الممر فوقفت في طريقهم السدود الترابية المتاريس والخنادق، وجوبهوا فوق ذلك بمتانة دفاعات القلعة، واستحكاماتها، وفشلت كل محاولات فرسانهم في تسلق الأسوار العمودية، ولما رأوا عدم جدوى الهجوم والحصار معاً تظاهروا بالإنسحاب تجاه مدينة هسوان هوا، تاركين خيامهم وأمتعتهم وعرباتهم ومؤونتهم وعلى مرأى من الصينيين، وأخذوا معهم فقط قطعانهم. وبطريقة توحي بصرفهم النظر عن الحصار، أو خشيتهم من جيش صيني قادم لنجدة القلعة، وواصلوا سيرهم مبتعدين بحركة بطيئة طوال يومين كاملين.

وكما هو متوقع لم يعمد الصينيون إلى مطاردتهم خوفاً من كمين معد لهم. ثم فجأة استبدل المغول خيولهم المتعبة من السير بخيول أخرى أخذت قسطاً وافراً من الراحة، وفي غصون ليلة واحدة كانوا في مواقعهم السابقة، ولم يكن لدى الحامية كشافة لتحذر الحراس من عودة المغول، وكان الصينيون في هذه الأثناء خارج القلعة وقد انشغلوا لاهين بنهب الأمتعة ونقلها إلى الداخل.

وهكذا تركت الأبواب مشرعة والسكان يختلطون بالمحاربين لجمع الغنائم، وما أن انبلج نور صباح اليوم التالي حتى انقضى عليهم المغول ودخلوا القلعة خلال البوابات المفتوحة، في الوقت نفسه التفت مفارز حول القلعة وشنت هجوماً مفاجئاً على البوابات المغلقة، وتسبب الضغط غير المتوقع على المدافعين، والمفاجاة الصاعقة من شل قدرتهم، وبذلك أحكم المغول قبضتهم على القلعة، وفتكوا بالأهالي والجند فتكاً تكومت من جراءه جثث القتلى بعضها فوق بعض كجذوع الأشجار.

وعقب سقوط القلعة وصل إلى ممر شو يوانغ كوان جيش المغول الرئيسي بقيادة جنكيزخان لإخضاع حصون الممر وتنظيف المنطقة برمتها من خلال الجند الهاربين، وفي مدخل السهل وعند هضبة (لونغ هو تاي) (التنين والنمور) نصبا جنكيزخان معسكره، وأصبح يسيطر الآن على الأراضي الواقعة داخل السور، وامتد أمامه سهل شرقي الصين من بكين حتى تانتكنج بطول يقدر بحوالي خمسمائة ميل. وعلى بعد لا يزيد على ثمانية عشر ميلاً بجانبه ارتفعت أبراج وقصور عاصمة الصين.

ومن هناك أرسل جنكيزخان قائده جيبي نويان مع كتائب مختار من الجند للاستيلاء على جميع القلاع التي تحمي مدينة تاي تونغ Tai tung والمدينة فوق كونها العاصمة الغربية للصين، هي أيضاً معقلاً حربياً مهماً يقع ما بين خط السور، ويسيطر على مقاطعة شانسي من ارتفاع وقدره ٤٣٠٠ قدم. وفي فترة وجيزة تمكن جيبي نويان من الاستيلاء على تلك الحصون

وتطهيرها من الجند، أما المدينة نفسها فقد احتلها جنكيزخان بعد ذلك بقليل.

إن سقوط سور الصين العظيم والقلاع المحيطة بالمدن الرئيسية قد مهد الطريق لزحف المغول الكبير وهجومهم الشامل على الصين، وأراضي بسعة أراضي الصين تحتاج بلا ريب إلى أكثر من جيش لاجتياحها في وقت واحد، وهو ما فعله جنكيزخان، فقد قسم الجيش إلى ثلاثة أقسام يتولى كل قسم منها مهام محددة.

- الأول وهو الأوسط يشمل القوات الرئيسية تولي قيادته جنكيزخان، يساعده في القيادة تولوي أصغر أبناء. ووجهته أراضي شان تونغ Shan Tung.

- الثاني وهو الجناح الأيمن للجيش فقد تولى قيادته أبناء جنكيزخان الثلاثة جوجي وجفتاي وأوكتاي، وكانت وجهته إقليم شانسي.

- الثالث وهو الجناح الأيسر للجيش تولى قيادته قاسار شقيق جنكيزخان وخط سيره باتجاه الشرق إلى داخل الأراضي المحاذية للبحر الأصفر.

أما العاصمة بكين فقد أكتفى بوضع فرق من الجيش تحيط بها من كل جانب لحين الفراغ من المهام الرئيسية للزحف الكبير.

وفي ربيع عام ١٢١٣ م تحركت الجيوش الثلاثة رفقاً لخطة مسبقة فزحف القسم الأوسط بقيادة جنكيزخان من أمام أسوار بكين عبر السهل العظيم بحقوله الصفراء والسمراء وبقراه المتناثرة هنا وهناك، وفي طريقهم حرقوا المزارع والطواحين وداسوا الغلال واتلفوا المحاصيل ودمروا منازل الفلاحين وقتلوا سكانها ومن سمع بهم وبأفعالهم في الناس فر هارباً لا يلوي على شيء.

وطوال زحفهم التخريبي وعلى امتداد منطقة واسعة وغنية وآهلة بالسكان لم تقاومهم أكثر من عشر مدن محصنة تحصيناً لا يطيق المغول

فيه الصبر على الحصار الطويل، أما المدن الصغيرة ابتداء من باوتنغ جنوب بكين وحتى وي هوي شمال هونان فقد نهبت بمنتهى الوحشية وقتل سكانها بالجملة، وسيقت قطعانهم لتموين الزحف.

قطع الجيش الرئيسي مسافة تزيد على ثلاثمائة ميل من الشمال إلى الجنوب، ولم يتوقفوا إلا عند النهر الأصفر، حيث بلغ ساعة إقتراب المغول منه مبلغاً عظيماً من الإتساع يجعل من عبوره مخاطرة قد تعرقل المهمة كلها.

ومن ضفاف النهر الأصفر توجه الجيش نحو المنطقة الجنوبية حيث سهل شان تونج الخصب، واحتلوا بعد مقاومة يسيرة مدينة فان أهم مدن السهل. وقد نالت شهرة واسعة لما فيها من النوافير الجميلة، والبحيرات الملأى بزهور اللوتس، والجبل لذي يسكنه الف من البوذيين، والمنسوجات الحريرية، وهي أساس تجارتها ومصدر غناءها وثروتها، وما بين يوم وليلة خرب المغول المدينة، وانتقلت تلك الثروات إلى أيدهم، وما عجزوا عن حمله أحرقوه.

ولما وجه المغول هجومهم إلى الجانب الأقصى لحدود إقليم شان تونج في طريقهم إلى مدينة لان شان، أمرت الحكومة الصينية المحاصرة في بكين جميع الفلاحين على طول خط سير الجيش باللجوء إلى المدن الحصينة ذات الأسوار المنيعة، وتسربت تلك الخطة الرامية إلى تعزيز قوة المدافعين إلى قادة المغول فاستخدموا الأسرى للمساهمة في عمليات الحصار، كما أشركوا السكان المحليين في إقتحام الأسوار، وذلك بوضعهم في مقدمة الجيش عند مهاجمة المدن، مما أحرج وضع المدافعين وأعجزهم عن استخدام أسلحتهم، ولهذا السبب تساقطت المدن والقلاع واحدة إثر الأخرى، ما عدا المنيعة منها والتي لا تجدي معها مثل هذه الحيل.

أعجز القسم الأوسط من الجيش مهامه كلها، عاد بعدها إلى حيث ترابط الوحدات المحاصرة لبكين مثقلين بالغنائم من الذهب والفضة

والأقمشة والملابس الحريرية المترفة، وألوف من المواشي والجياد، ورتل لا حصر له من الأسرى رجالاً ونساء وأطفالاً.

أما الجناح الأيمن للجيش فقد توجه إلى القطاع الغربي من هو باي، ومنه شق طريقه إلى الإقليم الواقع قرب هواي كنج في الجزء الأيمن من مقاطعة تنج وسانتو شمال النهر الأصفر، ثم عبروا آخر التلال المنخفضة في إقليم تاي هانج، وبعدها صعدوا الهضبة الترابية الواسعة التي تؤلف إقليم شانسي القديم.

بهذه الطريقة توغل الإخوان الثلاثة داخل إقليم شانسي من الجهة الجنوبية الشرقية. ثم منه إلى حوض نهر (فن) الذي يقسم الإقليم إلى قسمين، وبعد أن صعدوا على طول النهر إستولوا على المدن المتناثرة على ضفتيه، وهي مدن بنج يانج، وفن شن وهسن تسو، ثم توجوا سلسلة إنتصاراتهم المدمرة بالاستيلاء على تاي يوان عاصمة الإقليم رغم تحصيناتها القوية وخنادقها العميقة، وخطوط دفاعها المنيعة، ومنها عادوا إلى حيث يعسكر والدهم.

أما الجيش الأيسر فيبدو من طبيعة المهمة وخط سيرها أنها أيسر المهام وأخفها، إذ انطلق قاسار من قرب بكين متبعاً الطريق الساحلية شمالاً على سفوح جبال يونج، وأخضع في مسيرته كل الأراضي ما بين ممر شو يوانغ كوان وجيهول، ثم اتجه بفرسانه لإخضاع المنطقة التي تعد مسقط رأس أسرة ملوك الصين، أي منطقة منشوريا العليا في الإقليم الواقع بين نهري نوتي وسنجاري وحتى نهر آمور.

أدت الجيوش مهامها وفقاً لخطة واضحة المعالم، وبنجاح تام ففي خلال أشهر قلائل أخضعت جميع أراضي الصين الشمالية ومدنها المهمة باستثناء ما يقارب إثنتي عشر مدينة محصنة تحصيناً لا صبر للمغول وهم في ذروة تأججهم على حصارها. فتركوها على حالها، وبلغت مهابتهم في القلوب حداً جعل الصينيون في معظم الحالات يفتحون لهم أبواب مدنهم، خوفاً من مقاومة عقيمة تجر عليهم الهلاك، ويساق الأحياء منهم إلى ذل الأسر.

تمركزت أقسام الجيش الثلاثة بعد عودتها المظفرة في الجهة الشمالية لبكين، ثم أعيد تقسيمها إلى فرق وزعت على أسوار العاصمة الكبيرة من جميع الجهات، غير أن بكين تختلف عن سائر مدن شمال الصين باتساعها البالغ قدره نحو ٢٦ ميلاً. ويحيط به سور به اثنتي عشر باباً، وفي داخلها أربع مدن صغيرة، وزودت منذ سقوط السور بكل متطلبات حصار طويل، ويدافع عنها حامية عسكرية منتقاة من أكفأ جنود الإمبراطورية وأكثرهم تمرساً بحروب الحصار.

يقابل كل ذلك نقص واضح عند المغول في آلات اختراق الأسوار، ونقبها من أسفل وتسلقها، إلا أن هذا لم يثنهم عن القيام بهجمات يائسة بلغت الثلاث ردوا فيها جميعاً، وعانى جندهم الأمرين من قذائف المدافعين المهلكة، وبمضي الوقت أحس المغول بضرورة دفع الحصار والإكتفاء بما غنموه والعودة إلى بلادهم قبل حلول فصل الشتاء، ولذا وجه جنكيزخان رسالة إلى إمبراطور الصين وان ين سيون (١٢١٤ ـ ١٢٢٣) يقول فيها:

«إن جميع أقاليمك شمال النهر الأصفر أصبحت تحت سلطاني وملكاً لي. ولم يبق لك سوى بكين، فما أنت عليه من ضعف يقابله ما توفر لي من قوة. والسماء وحدها هي التي أنزلتك إلى هذه الحالة، وجعلت لك هذا القدر الضيئل من الأهمية. فأنا إذا تماديت بالضغط عليك فمن يعلم إذا كانت السماء لن تتخلى عنك كلياً.

وعلى أي حال فأنا رجل أقدر، وقد قررت التوقف عن القتال والفتح، ولا يتم ذلك إلا بشرط واحد، وهو أن تبذل لي من الهبات والضيافات ما أستطيع به تهدئة غضب قادتي ورجالي، وأخفف من حنقهم عليك، حتى يخلدون إلى الراحة»[١].

أدرك قادة الجيش من واقع تجربتهم الميدانية مع المغول بما في

---

(١) جنكيزخان قاهر العالم ـ رينية غروسية ص ١٩٨.

رسالة جنكيزخان من عجز واضح على اختراق دفاعات بكين. وحاجتهم إلى وقت طويل يركنون فيه للسكون عقب مجهود مضن استنزف جانباً كبيراً من طاقتهم المتأججة، فأشاروا على الإمبراطور بأخذ زمام المبادرة ومهاجمتهم خارج المدينة. ولكن الإمبراطور كان في حالة نفسية بالغة السوء، لم يقتنع معها بتحليل قادته لموقف العدو، أما فكرة مهاجمتهم فقد أفقدته صوابه، وبطيب خاطر أرسل للمغول خمسمائة فتى وخمسمائة فتاة من الإماء والعبيد، وثلاثة آلاف فرس، وكميات هائلة من الذهب والحرير، وخص جنكيزخان بالأميرة (تشي كوا) الابنة الصغيرة لامبراطور الصين السابق.

قنع المغول بما أغدق عليهم من هدايا، وببطء شديد عبروا السور من خلال ممر تشو يونج كوان، وعند وصولهم إلى حدود صحراء جوبي أمر جنكيزخان بقتل أعداد كبيرة من الأسرى. وأغلبهم من العجزة والمرضى وكبار السن وكل من لا يقوى على السير ويعرقل حركتهم. وبهذا العمل البربري والذي يدل على استهتار بالغ بالحياة البشرية تخلصوا بلا رحمة من الألوف.

وعلى الرغم من انسحاب المغول من بكين إلا أن الإمبراطور كان على قناعة بأن إنسحابهم هذا ما هو إلا هدنة مؤقتة اضطرتهم إليها وطأة العمليات الحربية. سيعودون بعدها لاستكمال ما تبقى لهم من فتح، وزاد من قناعته إنهيار السور كخط دفاع تقليدي مما جعل العاصمة مدينة مكشوفة قد تصمد لفترة ولكنها واقعة في أيديهم لا محالة، لكل هذا وطن النفس على التخلي عن بكين لابنه البكر ين كنغ والمضي قدماً إلى حواجز ما وراء النهر الأصفر للإقامة المؤقتة في مدينة كاي فنغ عاصمة إقليم هونان.

توسل قادة الجيش والوجهاء إلى الإمبراطور كي يبقى في العاصمة ولو لفترة قليلة حتى تستعيد الدولة قواها وترمم حصونها وتصلح ما خربه الغزاة، ولئلا يفسر تخليه عن بكين تفسيراً يعطي ذريعة للأعداء إلى تغيير

خططهم، ولكن الفزع الياجوجي حط بكلكه على قلبه وأعماه عن كل تفكير سوى النجاة بنفسه ومهما كانت النتائج، فنشر بلاغاً هزيلاً لا قيمة له جاء فيه:

- ليعلم رعايانا إننا نقلنا مقرنا إلى عاصمة الجنوب.

عد شعب بكين إنسحاب الإمبراطور رغم تقهقر العدو ضعفاً وخيانة واستسلاماً، وحدث ما توقعه العقلاء، فسرت روح التذمر من أوساط الناس، وكاد عدم إنضباط الجند أن يحطم عرى الجيش، لأجل هذا اجتمع الأمراء والقادة وحكام الأقاليم لدرء خطر تمزيق وحدة الأمة. وأخذوا على أنفسهم عهداً بالولاء للعائلة المالكة والإمبراطور الهارب، وقدروا بالإجماع متابعة الحرب والصمود في وجه الأخطار، وخارج القصر احتشدت الجماهير الغفيرة وجنود الحامية، واقسموا يمين الولاء للعائلة المالكة ولأمير البلاد.

وحدث ما لم يتوقعه أحد، فقد تمردت فجأة إحدى الوحدات العسكرية التي كانت برفقة الإمبراطور في منفاه الاختياري، ورجعوا عائدين نحو الشمال للإلتحاق بالمغول، ووضع أنفسهم تحت تصرفهم، وإزاء هذا الخطر الجديد والتغير المكشوف من ولاء الجند أسرع الإمبراطور باستدعاء ابنه للإنضمام إليه، فاحتج القادة العسكريين والنبلاء على الأمر، وطلبوا من الأمير وبإلحاح شديد ألا يغادر المدينة لما يترتب على ذلك من بلبلة في نفوس الناس قد تقضي على البقية الباقية من روح الوحدة والتماسك، إلا أن إرادة ابن السماء كانت دوماً القانون الأعلى للإمبراطورية، فبارح ولي العهد بكين تاركاً زمام مقاليد الأمور في أيدي المخلصين من القادة.

تواردت على المغول أخبار تلك التحولات السريعة في قمة السلطة السياسية. وما آل إليه حال الناس من فوضى واضطراب بعد هروب الإمبراطور وابنه، فتوقفوا على أطراف صحراء جوبى في انتظار ما تتمخض عنه الأحداث الجارية، ولما تكاملت عندهم حقائق الوضع الداخلي أمر

جنكيزخان قائده موقالي بالزحف على بكين في الحال ومحاصرتها، أما الإمبراطور الهارب فقد أرسل وراءه بأحسن فرق المطاردة للقضاء عليه أينما وجد، مما أجبر العاهل الصيني على تغيير مساره والاتجاه نحو أراضي أعدائه مملكة السونغ Sung في وسط وجنوب الصين، وتبعه فرسان المغول سريعو الحركة آخذين طريقهم بين الجبال المغطاة بالثلوج دون توقف، وتوغلوا في عمق أراضي معادية دون تهيب، ولما التجأ الإمبراطور مستنجداً ببلاط ملك سونغ في عاصمته كفوا عن مطاردته.

أما موقالي فقد زحف على رأس خمس ألف محارب، أضاف إليهم من طريقه عدداً كبيراً من الفارين من الجيش الصيني ومن العصابات الجوالة، وبحلول شهر مارس من عام ١٢١٥ م انتشر جنوده حول أسوار المدينة.

وعلى الرغم من أن عدد المدافعين عن المدينة كان كافياً لصد الأعداء، يساندهم مخزون ضخم من السلاح، وكل ما يلزم الناس لحصار طويل، إلا أن روحهم المعنوية كانت في غاية السوء، وشل الخوف قدرتهم على الثبات في أسطح الحصون والأسوار، وحاولت النساء عبثاً إقناع المقاتلين بالاستمرار حيث هم لإقناع العدو بصلابة المحاصرين.

ولما بدأت العمليات الحربية في الضواحي، بلغت الفوضى بالداخل أوجها، حيث دب الشقاق بين الجند الذين أوكلت إليهم حراسة القلعة المشهورة ببحيرة الملذات، وزاد الطين بلة هروب أحد القادة العسكريين برجاله للإنضواء تحت لواء المغول، وبلغ سوء الحال درجة اضطرت معه نساء القصر الإمبراطوري للهروب من شبح الخوف الذي هيمن على الجميع، وضاع الكثير منهن بين عصابات هائجة ونساء باكيات وجند هاربون، ورجال هائمون على وجوههم، وأخذ الخدم والخصيان والعبيد يذرعون الطرقات وأيديهم ممتلئة بحلى ومجوهرات القصور المهجورة.

وأخيراً اكتملت الفوضى بتفكك الجيش وانفراط عقد الجند الذين

انقلبوا هم أنفسهم إلى لصوص صاروا ينهبون كل ما في المخازن من بضائع، وهجر حراس قاعة الاستقبال الإمبراطوري آخر ما بقي من سلطة في المدينة مواقعهم وانضموا إلى عصابات السلب والنهب، ولم يعد أحد يكترث بعد ذلك لألسنة النيران التي شقت عنان السماء في مناطق متفرقة من العاصمة، وبالتالي لم يشغل أحد نفسه بإخمادها.

ومن داخل القصر الإمبراطوري وقف الجنرال وان بن فونغ يراقب من شرفة غرقت الغوغاء والحرائق، وعلى المنضدة من ورائه آخر مرسوم وقعه الإمبراطور الابن قبل لحاقه بأبيه يتضمن العفو الشامل عن جميع المجرمين في البلاد ووعد للجنود المقاتلين بأثمن الهبات والهدايا.

انسحب القائد الإمبراطوري إلى غرفته وجلس على المنضدة يكتب الرسالة الأخيرة للإمبراطور، وفيها اعترف بتقصيره في المحافظة على وحدة الجيش. واستحقاقه الموت نتيجة عجزه التام عن الدفاع المشرف عن بكين والتي كانت قيادة حاميتها قد أسندت إليه، ثم استدعى من تبقى له من الخدم، وأخذ يوزع عليهم ملابسه وأمواله، ولم انتهى من ذلك أمرهم بمغادرة الحجرة، حتى إذا انفرد بنفسه تجرع كأساً من السم، فمات بكامل ملابسه العسكرية.

وبعد أن خلت المدينة من الجند ومن القيادة وعمتها الفوضى لم يعد هناك أي معنى لحصارها، فدخلها المغول في شهر مايو ليروا الحرائق والنيران مشتعلة في كل مكان، والناس في حالة من الرعب والخوف يرثى لها، وطبيعي ألا يكلّف الفاتحون أنفسهم عناء خراب مدينة سبقهم أهلا إلى خرابها، واكتفوا فقط بإضرام النار في القصر الإمبراطوري ليحترق بما فيه.

كان جنكيزخان لحظة دخول المدينة مقيماً في الإقليم الواقع فيما وراء السور قرب دولون نور، ولم يتعب نفسه في المجيء لمعاينة أعظم إنجازاته الحربية حتى الآن، الشيء الوحيد الذي حرص عليه هو إرسال

قادته الكبار أو نجور وأرقاي قاسار وشيجي قوتوقو لجمع كنوز ملك الصين من ذهب وفضة وحجارة كريمة وحرائر فاخرة، وإحصاء الغنائم والإسلاب التي حصل عليها الجند من السكان، وعزل المتعلمين والحرفيين عن بقية الأسرى، وأوكل تنفيذ كل هذا إلى قادا أحد الضباط الصينيين ممن انضم إليهم عقب هروب الإمبراطور وتفكك الجيش.

دخل القواد الثلاثة بكين ومثل أمامهم قادا، وكي يحوز على رضاهم أهدى لكل منهم كميات هائلة من الملابس والأقمشة الحريرية المزركشة بالذهب، وقبل كل من أونجور وارقاي قاسار ما أهدى إليهم. وأثبت شيجي قوتوقو أنه لا يمكن شراءه ولا إفساده، ورد عليه قائلاً:

- إن جميع هذه الكنوز كانت تخص ملك الصين، أما الآن فقد أصبحت تخص جنكيزخان شأنها شأن بكين نفسها. فكيف تتجاسر بالتصرف في أشياء لا تملكها، وكيف تجرؤ على تقديم هذه الأشياء لنا، أما أنا فلا يمكنني قبول شيء منها.

ورجع الجميع بكل ما جمعوه من ثروات وأسرى إلى جنكيزخان، وهناك عرضوا عليه بجلاء وتفصيل ما فعله قادا، فأنب الرجل تأنيباً قاسياً، واعتبر ما فعله شيجي قوتوقو إخلاصاً منه وغيرة على ما عده ملكاً خالصاً له، وتقديراً لتصرفه النبيل كافأه بقوله:

- ستكون عيني وأذني.

عهد جنكيزخان إلى قائده ساموقا باقور بتنفيذ هجوم مباشر على كاي فنج العاصمة الجنوبية لإمبراطور الصين، بهدف وضع نهاية للإمبراطورية كلها، وكاي فنج شيدت على منعطف مجرى النهر الأصفر كي يكون لها خط دفاعي طبيعي يستحيل تجاوزه، ولذلك مر المغول بجانب النهر وهاجموا هونان من جهة الغرب، أي من جانب مقاطعة شانسي، وقبيل حلول شتاء ١٦ - ١٢١٧م انحدر المغول من شانسي حيث نهبوا مدينة هي نجان، ثم زحفوا للهجوم على قلعة تانج كوان الواقعة على نقطة التقاء نهر

وي بالنهر الأصفر إلى الجنوب من المنعطف الكبير، وبذلك عبروا النهر خلال واد ضيق أشبه بالممر يقع بين نفس النهر وجبال هواشان.

غير أن الوادي كان من المناعة بحيث حال بينهم وبين الوصول إلى المدينة مباشرة. فلم يعط ساموقا أوامره لاقتحام المكان، وفضل الإنتقال بجيشه إلى الجنوب نحو الجبال الواقعة شرقي وادي النهر الأصفر، ومروا في طريقهم على مدينة لويانج دون التعرض لها، وواصلوا السير جنوباً عبر جبال سونج شان بمسالكها الوعرة ومرتفعاتها المنحدرة وهواتها السحيقة، وأخيراً وصلوا إلى السهول الزراعية ذات التربة الخصبة والتي تمتد جنوب العاصمة كاي فنج.

وضع ساموقا خطة الهجوم الشامل على المدينة ومن أضعف موقع ولكنها منيت بالفشل الذريع قبل بدء التنفيذ، وذلك لأن الطريق الذي سلكه المغول أتاح للإمبراطور جمع أعداد غفيرة من الجند، ولما أصبح المغول على بعد لا يتجاوز الميلين ونصف عن كاي فنج، أعطى ساموقا أوامره بالتراجع، ولحسن الحظ فقد حل فصل الشتاء مبكراً وعلى غير المألوف في هذا العام، وبشكل قاس مكنهم من العبور إلى الضفة الأخرى من النهر الأصفر فوق الجليد، ثم الاتجاه شمالاً وبلا عوائق.

ركن المغول عقب عودتهم إلى الشمال إلى الراحة والسكون، وخفت حدة حركتهم، وفترت قواهم، ولم يسعوا حتى إلى بسط نفوذهم على ما انتزعوه سلماً أو حرباً، ما عدا بكين وما حولها. وهجروا باقي المدن بلا رغبة حقيقية في احتلال ما استولوا عليه، واغتنم الإمبراطور فرصة خلودهم للهدوء والراحة، فاسترد أغلب من هجروه، دون تبصر وإدراك واع منه بطبيعة الحالة التي يمرون عليها في ذروة تأججهم.

بقي المغول على هذه الحالة قرابة العام، ومع إطلالة عام ١٢١٨ م كلف جنكيزخان موقالي باسترجاع وإعادة فتح ما سبق فتحه، وتولى قيادة كافة العمليات الحربية في الصين مع منحه لقب كو وانج، أي ملك البلاد، ويوم وداعه وقف يخاطب جنده بقوله:

ـ أوامر موقالي في تلك البقاع تطاع كأوامري.

عكف المغول بقيادة موقالي وبمعاونة الصينيين أنفسهم ولمدة خمس سنوات متتالية في إعادة واسترجاع ما سبق لهم فتحه في مرحلة خروجهم الأولى، وما أن حل شهر أبريل من عام حتى تم طرد الإمبراطور من جديد، ومات موقالي أثناء إنهماكه المتواصل في المعارك الحربية، وخلّف الكثير من المدن والأقاليم وهي لا زالت في يد الإمبراطور، وظلت الإمبراطورية الصينية قائمة في الجنوب وبعض مناطق الشمال إلى ما بعد وفاة جنكيزخان وظهور جبل جديد لقادة الخروج.

تزامنت تلك الأحداث الدامية مع تطورات هامة في دولة القراخطائيين غرب الصين، كانت هي بداية احتكاك المغول بالعالم الإسلامي، أما أسبابها فترجع إلى الزمن الذي شن فيه المغول حربهم لتوحيد جموع وقبائل يأجوج ومأجوج في تكتل قبلى واحد يحمل إسمهم، وخاصة ضد القبائل الكبرى مثل قبيلة التايمان والتي أدت هزيمتها إلى قتل زعيمها تايانك وفرار ابنه كوجلك وريثه في الحكم مع أعداد كبيرة من أتباعه والتجائهم إلى القراخطائيين، فسمح لهم كورخان ملك الدولة بالإقامة في أراضيه، وجعل من كوجلك صهراً له.

لكن كوجلك جازى الإحسان بالإساءة، فانتهز فرصة امتناع السلطان محمد علاء الدين سلطان خوارزم عن دفع الجزية التي كان والده يدفعها للقراخطائيين، وأدخل من روع كورخان أنه يستطيع تجميع إفراد قبيلته المشتتين في نواحي إيميل وقيالغ وبيش باليغ، ويكوّن منهم جيشاً يقف بجانبه للحد من مطامع علاء الدين، وتعهد أمامه بأن يظل جندياً مخلصاً لا يعصي له أمراً، ولا يبرم شيئاً من وراء ظهره، انطلقت الحيلة على كورخان.

تمكن كوجلك من جمع وتنظيم أبناء قبيلته في جيش واحد يدين له بالطاعة، وأغرى أعداداً كبيرة من اتباع كورخان نفسه بالإنضمام إليه، ثم

انضم إليهم توق نفان حاكم قبيلة الحركيت واتباعه بحكم اشتراكهما في أرومة واحدة، وامتناعهم للرضوخ لقيادة المغول والتجائهم إلى دولة القراخطائيين، ومنذ ذلك الوقت ظل يراقب الأحداث ويتحين الفرصة المناسبة ليس فقط للانقضاض على ولي نعمته والقضاء عليه، وإنما أيضاً للاستيلاء على مقاليد الأمور في بلاده.

استغل كوجلك فرصة توتر العلاقات بين القراخطائيين والخوارزميين، فأرسل رسالة سرية إلى السلطان محمد يخبره فيها بأنه من ناحية الشرق، وهو من ناحية الغرب يمكنهما القضاء على مملكة كورخان واقتسام أملاكها، وصادفت الفكرة هوى في نفس السلطان محمد، ووافق على التدخل في الوقت المناسب.

وفي أول نزاع بين الإثنين سارع السلطان محمد إلى محاربة القراخطائيين، واستطاع أن ينتصر عليهم ويأسر كورخان، ثم أعمل السيف فيمن تبقى من جنده، وبذلك شارك مشاركة عملية في تحطيم قوة كانت هي الوحيدة التي تقف حاجزاً بينه وبين جموع يأجوج ومأجوج في الشرق.

وبعد الإستيلاء على دولة القراخطائيين امتدت دولة كوجلك الجديدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية، ولكنه لا يملك من مؤهلات القيادة ما يجعله حاكماً على شعوب متعددة الأجناس والأديان. ولما أحس ببوادر تململ وسط سكان مناطق كاشغر حيث أغلب السكان من المسلمين شن هجوماً كبيراً كي يجبرهم على الإعتراف بسلطته، واختار لهجومه وقت حصاد الغلات، فكان جنوده يستولون على المحاصيل ويحرقون المنازل وينهبون الممتلكات، في الوقت الذي أغدق الهدايا والهبات على السكان البوذيين.

ومن كاشغر قصد المسلمين في مناطق أخرى فأخضعهم بقسوة بالغة ارتكب فيها جنوده الموبقات وساموهم سوء العذاب، وهنا خطرت بذهنه خاطرة غاية في الفساد، وهي إجبار المسلمين على الإرتداد عن دينهم

وإعتناق واحدة من الديانتين البوذية والنصرانية أو إرتداء زي القراخطائيين. فارتضى المسلمون أهون الأمرين وأخف الضررين، ومن هنا حصلت الجفوة بينه وبين غالبية السكان، وظهرت نتائجها بوضوح عندما نشبت الحرب بينه وبين المغول.

أما حربه مع المغول فتعود إلى أنه كان بين أتباع إمبراطورية القراخطائيين زعيمان تركيان هما أرسلان ملك شعب القارلوق وبوزار ملك شعب الماليق، وقد سبق لكلاهما أن قدما ولاءها وطاعتهما لجنكيزخان عقب بروز المغول كقوة جديدة في المنطقة، ولذلك لم يصبر كوجلك على مبادرتهما فشن هجوماً على بوزار، وفاجأه وهو يصطاد وأسره ثم أعدمه، وتصدت أرملته للدفاع عن شعبها، وسارع ابنه بالذهاب إلى جنكيزخان طلباً النجدة والعون.

كان مقتل بوزار حليف المغول القشة التي قصمت ظهر البعير، فبمجرد وصول الخبر إلى جنكيزخان أوكل لجيبي نويان (١٢١٨ م) أسرع قواده مهمة نجدة بلاد الماليق والقضاء على كوجلك، ويبدو أن فرسان المغول شقوا طريقهم إلى عمق أراضي العدو عبر مناطق الأيغور، ومنها ساروا بمحاذاة وادي نهر إيلي حتى بلغوا بلاد جيتي سو، ومن هناك حتى بلاد ساغون عاصمة القراخطائيين والتي فتحت أبوابها دون أية مقاومة.

ومن الطبيعي إلا يدافع كوجلك عن كاشغر ومعظم سكانها من المسلمين، بل قذف بنفسه في سلسلة جبال مستاغ، وهناك أراد أن يختبيء، ولكن فرسان المغول اقتفوا أثره، ثم بدأت مطاردة عنيفة بين الممرات الضيقة والهوات السحيقة، إلى أن بلغ وادي ساري كول حيث أدركته فرقة وأسرته، ثم قطعت رأسه.

توقع سكان المنطقة بعد مقتل كوجلك وانهيار دولته قيام المغول بعمليات قتل ونهب واسعة النطاق، وجاءت أوامر جيبي نويان مخيبة لتوقعاتهم، إذ منع كافة عمليات الإعتداء على الأهالي وممتلكاتهم، ولما

كانت الطاعة المطلقة والنظام الدقيق الصارم من سمات تأججهم، فلم يقم أحد منهم بأي عمل مخالف للأوامر، بل ذهب جيبي إلى أبعد من ذلك فأبطل كل ما اتخذ ضد المسلمين من إجراءات قمعية واضطهاد، وأعلن رسمياً موافقته على أداء المسلمين لشعائرهم الدينية بحرية وأمان.

خضعت جميع الشعوب التي كانت منضوية تحت لواء القراخطائيين للمغول في بضعة أسابيع، وامتد سلطانهم ليشمل إضافة إلى أراضي القراخطائيون ما استولى عليه كوجلك في حروبه التوسعية، وبذلك امتدت دولتهم من الصين حتى أطراف العالم الإسلامي.

وأمام تلك التغيرات الكبيرة في خريطة المنطقة، واتصال المغول وعلى نحو مباشر بعالم المسلمين، رغب السلطان علاء الدين محمد في إقامة علاقات بينهم تنهض على أساس من حسن الجوار والتبادل التجاري، ووجد من جانبهم قبولاً وحماساً لشدة حاجتهم إلى منافذ تجارية تربطهم بالغرب الغني بالحبوب والمزدهر حضارياً، فأبرمت اتفاقيات تجارية بين الطرفين دفعت بالمغول إلى إخضاع جميع القبائل التي اعتادت قطع الطريق على التجار، وتزويد الطرق الرئيسية بحراس دائمين، والقوافل نفسها بحراسة ترافقها في حلها وترحالها.

وتنفيذاً لمجمل ما اتفق عليه الطرفان أعد ثلاثة من التجار الخوارزميين من مواطني بخارى هم أحمد الخجندي وابن الأمير حسين وأحمد بالخج قافلة تجارية مثقلة بشتى أنواع البضائع ومختلف المصنوعات قاصدين منغوليا، وعند وصولهم أطراف قراقورم عاصمة الإمبراطورية قادمهم الحراس إلى بلاط جنكيزخان لما يحملونه من ثياب حريرية موشاة بالذهب تليق بزعميهم، ولا سيما بضائع أحمد بالخج، فعرض أمام الخان بضائعه، وما كان قيمته عشرة دنانير أو عشرين رفعه إلى المئات، مما أغضبه وأثار استنكاره إلى حد أمر فيه اتباعه بمصادرة البضاعة وإيداع التاجر السجن لجشعه وسوء نيته.

أما التاجران الآخران فكانا أكثر حذراً من رفيقهما فرفضا تحديد ثمن معين للبضائع وتركا تقدير الثمن لكرم الخان وحسن ذوقه، فكان له، أطيب الأثر في نفسه، فدفع لهما ثمناً سخياً، ثم استدعى أحمد بالخج من الحبس وعفا عنه ونقده هو الآخر ثمناً مجزياً على ما صودر منه، ولم يقف عند هذا الحد بل نصب لهم خياماً من اللباد الأبيض لاستعمالهم الشخصي، وأكرم وفادتهم وعاملهم أفضل معاملة.

وحرصاً من جنكيزخان على توطيد العلاقة مع العالم الإسلامي، بادر من تلقاء نفسه بإرسال ثلاثة مبعوثين إختارهم من بين اتباعه الخوارزميين هم محمود الخوارزمي وعلي خواجه البخاري ويوسف كنكا الإنزاري وحمّلهم هدايا للسلطان محمد عبارة عن: كتلة صلبة من الذهب الخالص وقطع من الأحجار الكريمة العاج وأقمشة من الصوف المغزول من وبر الجمل الأبيض، وفي ربيع عام ١٢١٨ م استقبلهم السلطان محمد، وبعد تسليمه الهدايا قالوا له.

«إن الخان يسلم عليك ويقول: ليس يخفى عليّ عظيم شأنك وما بلغت من سلطان، ولقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي، وغير خاف عليك أيضاً إنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة، وإن فيها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار من الجهتين سبيل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد»[١].

واضح من رسالة جنكيزخان والطريقة التي خاطب بها السلطان أنها تحمل في مضمونها روح التعالي، واعتبار كل ما سواهم وهم في ذروة تأججهم في حكم الاتباع، وأحس السلطان بكل ذلك، ولم يتعجل في

---

(١) سيرة السلطان جلال الدين ـ النسوي ص ٨٣.

القيام بأي خطوة، فاستدعى ذات ليلة محمود الخوارزمي دون أصحابه لصلته بهم وموالاته لهم، وأهدى إليه سواراً مرصعاً بالأحجار الكريمة ووعده بمزيد من الهدايا إن هو أصدقه القول عن حالة المغول، فأجابه محمود إلى ما سأل رغبة ورهبة، قال له السلطان محمد:

ـ أصدقني فيما يقول جنكيزخان أنه ملك الصين واستولى على شمالها أصادق هو فيما يقول أم كاذب؟

فقال محمود:

ـ بل صادق، ومثل هذا الأمر المعظم ليس بخفي حاله، وعن قريب يتحقق السلطان من ذلك.

فقال السلطان.

ـ أنت تعرف ممالكي وبسطتها وعساكري وكثرتها، فمن هذا اللعين حتى يخاطبني بالولد، ما مقدار معه من العساكر.

ولما تبين محمود الخوارزمي الغضب والغيظ من لهجة السلطان وتحول حديثه الذي بدأ لطيفاً ودوداً يرغب في معرفة حقيقة القوم ويسعى إليها، ثم انتهى إلى ما يشبه الخصام والرفض لما سمعه، خاف وأعرض عن النصح ومال إلى تهدئة السلطان بقوله:

ـ ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا كفارس في خيل أو دخان في جنح الليل.

ورغم شكوك السلطان وعدم اطمئنانه لنوايا المغول فقد رأى من الحكمة والصواب إعادة رسل جنكيزخان ومعهم رسالة عبر له فيها عن صادق رغبته في إقامة سلام دائم بين الدولتين وفتح باب التجارة بين البلدين، الأمر الذي سر له جنكيزخان وأمر بتجهيز قافلة تجارية ضخمة إلى أسواق الإمبراطورية الخوارزمية تتألف من خمسمائة بعير تحمل أصنافاً شتى من جميع الأنواع كالذهب والفضة والحرير الصيني والأقمشة القيمة ووبر

الجمال والمسك. وبلغ عدد أفرادها حوالي ٤٥٠ رجلاً أغلبهم من المسلمين، وأوكلت مسئولية قيادة القافلة لكل من عمر خواجة الأتراري والجمال المراغي وفخر الدين الدنزكي البخاري وأمين الدين الهروي، يرافقهم المغولي أوقوتا كممثل شخصي لجنكيزخان.

وحتى يعطي جنكيزخان للقافلة أهمية تفوق غيرها من القوافل التجارية، فقد طلب من كل أمير من أمراء بيته وقادته الكبار أن يرسل كل واحد منهم وكيلاً عنه من المغول ضمن القافلة يحمل مبالغ نقدية لشراء ما يلزمه وآل بيته، وما تحتاج إليه أسواق المغول من البضائع والمصنوعات الخوارزمية.

سارت القافلة على درب توفر فيه كل سبل الأمن والأمان إلى أن وصلت مدينة أترار على الساحل الغربي لنهر سيحون، وأول محطة تجارية داخلة تحت نفوذ السلطان محمد، وملتقى طرق التجارة بين شرق آسيا وغربها، ومفتاح إقليم ما وراء النهر، وكان ينوب في حكم المدينة عن السلطان ابن خاله ينال خان، وعندما شاهد ما يحمله التجار من كنوز ونفائس وأموال طائلة طمعت نفسه في الاستحواذ عليها، فكاتب السلطان يبدي له شكه وارتيابه في أهداف القافلة قائلاً:

«إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار، وليسوا بتجار بل أصحاب أخبار يكشفون منها ما ليس من وظائفهم، إذا خلوا بواحد من العوام يهددونه ويقولون: إنكم لفي غفلة مما وراءكم وسيأتيكم ما لا قبل لكم به»(١).

أكثر ينال خان من ترديد مثل هذه الأقاويل على مسامع السلطان حتى صدقه، وأذن له في الاحتياط منهم ومراقبة حركاتهم ورصدها لحين بلوغه رأيه النهائي في وجودهم بالمدينة، ولكن الطمع في أموال القافلة وما

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦.

تحمل من بضائع أعماه عن كل شيء وجعله لا يقف عند حدود ما أُمر به بل تعداه بوضع يده على كل ما حملته القافلة من كنوز وأمتعة، ولكي يغطي على جريمته النكراء أعدم من أفرادها قرابة المائة من بينهم أوقوتا الممثل الشخصي لجنكيزخان، وأودع البقية منهم سجن أترار.

غير أن تاجراً واحداً من بين المحبوسين تمكن من اصطناع حيلة ذكية فر بها من السجن إلى منغوليا، حيث قص على جنكيزخان ما فعله فيهم حاكم أترار، فتأثر عظيم التأثر من هذه الأفعال الشنيعة، وهجر النوم، وصار يحدث نفسه ويفكر فيما يفعله، وكان من عاداته قبل الإقدام على أي عمل خطير أن يصعد وحيداً إلى تل مرتفع، وهناك حسر عن رأسه ورمى حزامه على كتفه وسجد تسع مرات لله (مونج كي تنجري)، سائلاً نصره على من بادره بالظلم والعدوان، واستمر على هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها، وفي الليلة الثالثة رأى في منامه راهباً عليه السواد، وبيده عكاز، وهو قائم على بابه يقول له: لا تخف أفعل ما شئت فإنك مؤيد، فانتبه مذعوراً ذعراً مشوباً بالفرح والسرور.

وعلى الرغم من رغبة جنكيزخان في الانتقام للقتلى، إلا أنه تريث قليلاً معتبراً تلك الجناية عملاً فردياً من حاكم أترار لا تعفي السلطان نفسه من تحمل جانباً من التبعة والمسؤولية، لذا أرسل إليه سفارة تتألف من ابن كفرج يغرا المسلم يصحبه اثنان من المغول ليلقي على مسامعه الآتي:

«إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، وألا تتعرض لأحد منهم، فغدرت ونكثت والغدر قبيح ومن السلطان أقبح، فإن كنت تزعم أن الذي أرتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك، فسلم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل، حقناً للدماء وتسكيناً للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح»[1].

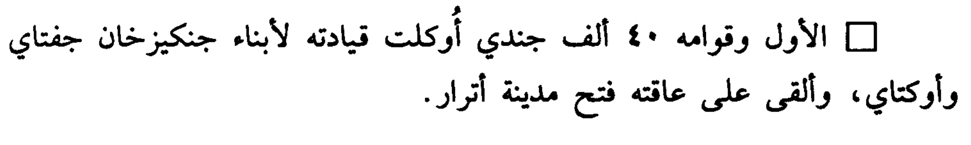
(١) المصدر السابق ص ٨٧.

وإذا قبل السلطان محمد من حيث المبدأ باحتجاج جنكيزخان فليس بوسعه تسليم ابن خاله حقناً لدماء المسلمين، إذ يعتمد في حكمه وإدارته على مؤازرة آل بيته بمختلف انتماءاتهم القبلية وكثر جندهم، ولو استجاب لطلب العاهل المغولي لأطاح بعرشه وأقحم الإمبراطورية في حروب طاحنة، فآثر المحافظة على وحدة الدولة وهيبة الحكم ومظاهر السلطان، وأمر بقتل ابن كفرج (٦١٥ هـ ١٢١٨ م)، وأعاد مرافقيه إلى بلادهما بعد أن حلق شعر رأسيهما، وكان هذه هي بداية إنفتاح المغول على العالم الإسلامي واجتياحهم لأراضيه.

تجمع المغول في أوائل صيف عام ١٢١٩ على المنحدر الجنوبي لجبال التاي قرب منبعي نهر أيرتيش واورنجو عند وادي أصيل، وبالتحديد عند بوابة دزنجاريا الطريق الشمالي لتركستان. ومن هناك اندفعوا إلى داخل سهل سيمرجي أوجيتي سو المنخفض (منطقة الأنهار السبعة) ولدى وصولهم إلى قاياليك وافهم الملك أرسلان من باليغ بخيله ورجاله، ثم انضم إليهم اثنان آخران من أتباعهم هما بارشوق ملك الأيغور وسقناق تكين أمير الماليق، حيث بلغ اجمالي العدد عند زحفهم تجاه نهر سيحون حوالي ١٥٠ ألف مقاتل، فإذا أضيف إليهم الفنيين والمهندسين وخبراء حصار المدن من الصينيين وغيرهم يبلغ المجموع حوالي ٢٠٠ ألف رجل.

وضع جنكيزخان خطة محكمة للاستيلاء دفعة واحدة على أهم مدن وقلاع ما وراء النهر، وهي خطة مستوحاة من خطة السلطان محمد الدفاعية إذ من المعروف أن القسم الأكبر من جيشه قد تركز في القلاع الرئيسية المنتشرة على الحدود الشمالية للبلاد، ووزع باقي الجيش على حاميات منطقة ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند وبلاد خوارزم الأصلية مثل كركانج.

قضت خطة جنكيزخان بتقسيم قوات المغول إلى أربعة جيوش عهد كل واحد منها فتح إقليم بعينه، وذلك على النحو التالي:



☐ الأول وقوامه ٤٠ ألف جندي أُوكلت قيادته لأبناء جنكيزخان جفتاي وأوكتاي، وألقى على عاقته فتح مدينة أترار.

☐ الثاني وقوامه ٢٠ ألف جندي بقيادة ابن جنكيزخان البكر جوجي وكان عليه إخضاع وفتح المدن الواقعة على طول ساحل نهر جيحون وخصوصاً مدنية جند.

☐ الثالث وقوامه ٢٠ ألف جندي بقيادة ثلاثة من أفضل قواد المغول هم ألك نويان وسيكيتو شيربي وتاقاي، وقد عهد إليهم فتح أهم المعاقل والمنافذ على نهر سيحون وخاصة مدينتي بنكت وخجند.

☐ الرابع وقوامه ٦٠ ألف جندي بقيادة جنكيزخان ويشاركه في القيادة ابنه الأصغر تولوي، ومهمته الأساسية التوغل في قلب إقليم ما رواء النهر والاستيلاء على أهم مدن الإقليم بخارى وسمرقند، وقطع الاتصال بين السلطان محمد وبقية جنوده الذين يدافعون عن مدن الإقليم.

وعلى بعد حوالي خمسين ميلاً جنوب مدينة تركستان الحالية تحركت الجيوش الأربعة لتنفيذ المهام المكلفة بها وفقاً للخطة المرسومة، وكان جيش الأخوين هو أول الجيوش وصولاً لهدفه، إذ تقع مدينة أترار على الضفة الشرقية لنهر سيحون، وهي المدينة التي شهدت مقتل تجار القافلة، ولا يزال ينال خان الذي قتل التجار وسلب أموالهم موجوداً داخل حصونها.

كان نصيب المدينة طبقاً لخطة السلطان محمد الدفاعية حوالي ٢٠ ألف جندي، ثم أمدها بعشرة آلاف بقيادة وزيره الخاص قراجة لتعزيز قوة المدافعين وذلك لأن المدينة هي مفتاح إقليم ما وراء النهر، كما أن ينال خان لم يتوان من جهته في إصلاح حصون المدينة وأسوارها وقلعتها الرئيسية، وشحنها بالعدة والعتاد والمؤن الغذائية، وتولى هو بنفسه أمر الدفاع.

استمر حصار المدينة خمسة أشهر قاوم خلالها الأهالي مقاومة تحمد

لهم، واستبسل المدافعون عنها بسالة منقطعة النظير، وردوا على كل محاولات العدو لإختراق دفاعاتهم، ولما لمس أشراف المدينة تردي الأوضاع وتصميم المغول على دخولها عنوة، أظهروا للناس عن سخطهم لمن كان سبباً في هذه المعاناة، وأيقن ينال خان أن المغول لن يتركوه حياً، ولذلك فالمصالحة معهم غير واردة مطلقاً ولا خيار أمامه سوى المقاومة حتى الموت.

أما قراجة وزير السلطان فقد تبين له عقم المقاومة، وأفصح عن رغبته في الدخول مع العدو في مفاوضات تحفظ للمسلمين حياتهم وممتلكاتهم، ولكنه لم يلح على ينال خان بشيء. بل تريث ينتظر ما تتمخض عنه الأحداث المقبلة، ولما تبين له إصرار ينال خان على المقاومة ورفضه التام للتفاوض، فر هارباً في جنح الليل هو وأكثر جنده، وتقاضى المغول عن هروبهم، بل أفسحوا لهم المجال، حتى إذا أكتمل جمعهم هجموا عليهم، وأخذوا الوزير أسيراً إلى الأخوين.

وحين عرض الوزير على أبناء جنكيزخان صبيحة اليوم التالي قرعاه على فعلته تلك، وتركه لمركزه، وأفصحوا له عن شكهم في أمره، وهو الذي لم يتورع عن خيانة سيده وراعيه في خسة ونذالة، ثم أمروا بقتله، فقتل هو وجميع من فر معه.

على أثر فرار قراجة إقتحم المغول المدينة عنوة، واندفعوا في شوارعها يقتلون كل من يعترض طريقهم، ونهبوا كل ما عثروا عليه من ممتلكات السكان، وساقوا الأحياء إلى خارج المدينة حيث ذبحوا ذبح الشياه، وأبقوا فقط على أصحاب الحرف والصناعات، أما ينال خان فقد تقهقر عند سقوط دفاعات المدينة مع عشر ألفاً من جنده واحتموا بالقلعة.

ظل ينال خان وجنده يدافعون عن القلعة قرابة شهر، كانوا أثناء ذلك يداهمون المغول على دفعات قوام كل دفعة خمسون جندياً. وفي كل مرة يوقعون بهم ضربات موجعة، وحين سقط آخر المدافعين صريعاً، وفقد ينال

خان كل أمل في النجاة قذف بنفسه مع اثنين من أخلص جنوده إلى سقف أحد المنازل، وأخذ يدافع عن نفسه بالحجارة، كانت تنتزعها له من السور جارية وتناولها له، وهو يقذف بها مطارديه.

ولما ضيق المغول عليه الخناق، وفرغت الحجارة انتقل هو ورفيقاه إلى سقف آخر، فتبعه جنديان مغوليان، وهو لا يملك ما يدافع به عن حياته وأحاطا به، تقدم أحدهما منه وقيده، وكانت الأوامر تنص على أسره لا قتله، ولذلك قتلا رفيقاه، وحمل هو حياً إلى أوكتاي وشقيقه اللذان أرسلاه بدورهما إلى جنكيزخان حيث كان معسكراً أمام مدينة سمرقند.

مثل ينال خان أمام العاهل المغولي وهو موثوق اليدين وفي حالة يرثى لها، فأمر بصهر الفضة وسكبها في عينيه وأذنيه على مراحل متقاربة تشفياً منه، وجزاءاً وفاقاً على ما اقترفت يداه، واستمر الجند يذيبون الفضة ثم يسكبونها على عينيه وأذنيه إلى أن مات.

أما الجيش الثاني بقيادة جوجي فقد سار محاذياً الضفة اليسرى لنهر سيحون في اتجاه سقناف على مسافة أربعة وعشرين فرسخاً من أترار، وقبل بلوغ ضواحيها بعث إليهم التاجر حسن حاجي يحمل رسالة يحضهم فيها على التسليم وفتح أبواب المدينة، وينصحهم بعدم المقاومة لتبقى لهم حياتهم وأموالهم، ولدى دخوله المدينة هاج فيه بعض الرعاع ودعوا الناس إلى قتله فهجموا عليه وطعنوه طعنات أودت بحياته.

ولما بلغ المغول نبأ مقتل مبعوثهم أصدر جوجي أوامره بمحاصرة المدينة استعداداً للهجوم عليها من كل جانب، وكان الهجوم على شكل موجات. تحل الفرق الجديدة محل تلك التي أدت دورها، وبعد سبعة أيام من الهجوم الضاري الشرس دخل المغول المدينة وقتلوا كل من صادفهم، ثم أعطى جوجي لابن حسن حاجي الحق في قتل من بقي حياً، وتعقب المختفين والقضاء عليهم حيثما وجدوا.

ومن سقناف تابع الجيش مسيرته الدموية نحو هدفه المرسوم، وفي

طريقه استولى على الحصون والمعاقل والمدن الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر سيحون مثل أوركند وبارجليغ كنت، ولعدم حدوث مقاومة تعرقل سير الجيش من قبل السكان أو جنود الحاميات، فلم يرتكب المغول فيها مذابح عامة، ومنها شقوا طريقهم تجاه أشناس، حيث قاومهم السكان مقاومة مستميتة تعرضوا في نهايتها للفناء والاستئصال، ولم يبق بعد هذا من مهام الجيش الثاني إلا الاستيلاء على مدينة جند.

ترامت أنباء اندفاع جوجي نحو جند إلى مسامع قتلغ خان القائد الأعلى للجيش، والذي عينه السلطان محمد للدفاع عنها، فجزع واضطرب وأوقف كافة استعدادات الجند للحصار والحرب، وفي جنح الليل فر هارباً باتجاه خوارزم تاركاً للأهالي أمر الدفاع عن أنفسهم ومدينتهم.

ولما علم جوجي بخلو المدينة من القوات المدافعة أرسل إليهم جنتيمور أحد قواده برسالة دعا فيها السكان للاستسلام وحذرهم من مغبة إظهار العدواة والمقاومة، وأدى خلو المدينة من الجند وافتقارها للقيادة إلى كثرة الآراء وتعدد الاقتراحات، واضطربت العامة اضطراباً شديداً مرده إلى تخوفهم من تنكيل المغول واستهتارهم بالأرواح. ولكن رسول جوجي طمأنهم ووعدهم بألا يحدث لهم ما حدث لسكان سقناف، وعقد معهم اتفاقاً لم يرق في عين جوجي لاختلاف الآراء حوله ولعدم وجود قيادة تتولى أمر تنفيذه، فقرر استخلاص المدينة بالقوة.

وفي الرابع من شهر صفر لسنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) نزل المغول بظاهر المدينة وطوقوا أسوارها، كما أعدت المجانيق، ووضعت السلالم الخشبية على الأسوار العالية الملساء، أما الأهالي فلم يفعلوا شيئاً سوى إغلاق أبواب المدينة وانتظار ما يبادر به المغول، وكأن الأمر لا يعنيهم، وفي اليوم الذي صدرت فيه الأوامر باقتحام المدينة كان السكان يتطلعون بدهشة وإعجاب للجند خفاف الحركة وهم يتسلقون الأسوار بخفة وسرعة، وفي ساعات معدودة فتحت المدينة وأحكم المغول سيطرتهم عليها. .

إن الطريقة الرحيمة التي عامل بها المغول جند ترجع إلى عدم مقاومتهم لهم وتكبيدهم خسائر تدفعهم للثأر، ولهذا لم يقتلوا إلا أولئك الذي تفاوضوا مع جنتيمور وناقشوه في أمر الاستسلام، أما الأهالي فقد أخرجوهم إلى ظاهر المدينة، وأبقوهم في العراء تسعة أيام نهبوا خلالها كل ما امتدت إليه أيديهم، ثم عين جوجي علي خواجة البخاري أميراً عليها، وفوض إليه أمر تدبير المدينة، ومن هناك عبر ومن معه نهر سيحون في طريقهم إلى إقليم خوارزم.

وأما الجيش الثالث بقيادة القواد الثلاثة، فقد سلك القسم العلوي من وادي نهر سيحون تجاه بناكت، وكان يدافع عنها جماعة من الأتراك بقيادة إيلتكو من قبيلة قانفلي، وبعد ثلاثة أيام من القتال الضاري بين الفريقين دون إحراز نصر مبين، طلب الأتراك الأمان والتسليم نظير الحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم، فقبل قواد المغول الشروط بلا تحفظ.

ولما دخلوا المدينة، وسلم لهم الجند سلاحهم، أمروا الجميع بالخروج إلى ظاهر المدينة لحصرهم، حيث عزلوا الجند عن عامة السكان، فمنهم من قتل بالسيف، ومنهم من أطلقت عليه السهام، حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم، ثم اختاروا من الأهالي أصحاب الحرف والصناعات للاستفادة منهم من عمليات الحصار، أما الشباب فساقوهم لتسخيرهم من التغطية على هجومهم على أسوار المدن.

ثم تابع الجيش زحفه صاعداً نحو الجنوب إلى أعلى وادي نهر سيحون حتى وصلوا ضواحي مدينة خجند، وكان عليها تيمور ملك (الملك الحديدي) من أشهر نواب السلطان محمد وأكثرهم جرأة وإقداماً، ويتحلى فوق ذلك بعقلية عسكرية فذة تجلت في إدراكه استحالة الدفاع عن خجند لكونها مدينة مكشوفة يصعب الدفاع عنها، فتركها ولجأ مع ألف من خيرة رجاله إلى حصن المدينة المقام في موضع يتفرع عنده نهر سيحون إلى فرعين.

وكالعادة أحاط المغول بالحصن، ولكنهم من المناوشات الأولى أيقنوا استحالة حصاره حصاراً مثمراً، وذلك لأن حجارة المنجانيق والسهام لا تصل إليه، وسعوا بشتى الطرق الوصول إليه عبر النهر ففشلوا، مما دعاهم لطلب الإمدادات من كافة الوحدات المقاتلة في الإقليم، فوصل إليهم الأسرى من أترار وبخارى وسمرقند وجند وخجند، حتى بلغ عددهم خمسين ألفاً، بالإضافة إلى عشرين ألفاً آخرون كانوا في الأصل معهم.

قسم المغول الأسرى إلى فرق وشراذم صغيرة قوامها ما بين مئة وعشرة أسيراً، وعينوا على رأس كل واحدة منها ضابطاً مغولياً، وأمروهم جميعاً بالذهاب لنقل الحجارة من جبل يبعد حوالي اثني عشر ميلاً من الحصن وإلقاءها في النهر حتى يتكون منها طريقاً يقودهم إلى الحصن المنيع.

ولما علم تيمور بما عزم عليه القوم بنى اثني عشر زورقاً غطاها باللباد والطين المعجون بالخل لئلا تؤثر فيها النيران، وفي كل يوم ليلاً أو نهاراً كانت الزوارق تخرج من الحصن وتتجه نحو الشاطىء ويخوض رجالها معارك طاحنة مع المغول، ولم تكن النبال ولا النار ولا النفط ولا الحجارة تؤثر فيها، ولكثرة ما ألقي في النهر من حجارة ارتفع منسوبه ارتفاعاً ملحوظاً أعاق حركة الزوارق وحد من عملياتها الحربية، فتبين للجميع عدم جدوى المقاومة، والمقاومة وإن طالت لن تجديهم نفعاً، لنضوب الموارد العسكرية، واستحالة تعويض النقص من الجنود.

استغل تيمور الأوقات التي تخف فيها حدة القتال فأخرج سبعين سفينة كانت معدة لهذا اليوم. ومحملة بكل ما يحتاج إليه من مؤن وعتاد، وبسرعة البرق انطلقت فوق الماء يساعدها نهر سيحون بعرضه البالغ ٤٢٠ قدماً، وتبعه المغول على الشاطىء، وحاولوا أكثر من مرة رميهم بالسهام بلا فائدة حتى ابتعدت السفن عن مرمى سهامهم.

ظلت السفن تسير فوق النهر في طريقها إلى مدينة بنكت إلى أن

توقفت لوجود سلسلة حديدية وضعت عمداً لإعاقتها من دخول المدينة، ولكن الجند نزلوا النهر وكسروا السلسلة وتجاوزوا المكان بعزيمة لا تعرف الخور، والمغول على الشاطىء يرشقونهم بالنبال حتى أوصلوهم حدود جند وبارجليغ، حيث حشد جوجي قوات كبيرة، وسد الجسور المائية بسلسلة عائمة من السفن.

وقبيل الاصطدام بأول جسر نزل تيمور ملك وجنوده إلى الضفة اليسرى من النهر، وكان المغول لهم بالمرصاد، فأجبروهم على القتال قتالاً يائساً هلك فيه أغلب الجند، وأتيح لمن بقي منهم حياً التقهقر بعيداً عن الشاطىء، فلحق بهم المغول وافنوهم جميعاً، وبقي تيمور وحده وفي يده ثلاثة نبال أحدها بلا سنان، أراد ثلاثة منهم اللحاق به، رمى أحدهم بالنبل المكسور ففقأ عينه وقال للباقيين:

- بقي لدي نبلات بعددكما، وأرى أن تحافظا على روحيكما فلا تقتربا فتراجع الجنديان، وتركاه يقطع الصحراء وحيداً إلى أن قدر له الوصول إلى خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتي ابن السلطان محمد.

أما أكبر الجيوش بقيادة جنكيزخان فقد اتجه رأساً نحو قلب منطقة ما وراء النهر، وكان أول موقع في طريق مدينة زرنوق، ولم يكن سكانها يتصورون مرور المغول عليهم، فأصابهم الزعر وهم يشاهدون على البعد سحابة سوداء من غبار الخيول تتقدم عبر الوادي، تجاه مدينتهم، وجرياً على العادة المتبعة بعث إليهم جنكيزخان حاجبه الخاص برسالة ينصحهم فيها بالاستسلام والطاعة، ومن خارج الأسوار صاح الحاجب بأعلى صوته:

«أنا مسلم ابن مسلم جئتكم ابتغاء مرضاة الله برسالة من جنكيزخان ذات حكم نافذ، مريداً انقاذكم من الهلاك المحتم ومن سفك دمائكم، فقد جاء جنكيزخان ومعه المغاوير، فإذا لم تخالفوه في أي أمر أُنقدتم من ساعة مذهلة، ومن سيل لدمائكم كالأنهار في الصحراء، وإذا امنحتم

نصيحته وأطعتم أوامره تبق أرواحكم وأموالكم مصونة»[1].

آثر الأهالي السلامة والاستسلام، ورأوا الصلاح في قبول النصح فوافقوا على السمع والطاعة، شريطة ألا يتعرض المغول لأحد منهم، ثم أمر جنكيزخان جميع السكان كائناً من كان بمغادرة المدينة، وبعد أن أحصى عدد الفتيان والشباب، ضم كل قادر منهم على حمل السلاح إلى الجيش ليرافقونه إلى بخارى، وسوى حصن المدينة بالأرض، أما السكان فقد أذن لهم بالعودة إلى منازلهم سالمين، ولهذا السبب أطلق المغول على زرنوق اسم «قتلغ باليغ» أي المدينة السعيدة.

ثاني موضع وصلته طلائع الجيش في طريقهم إلى بخارى هو مدينة (نور) حيث قضوا الليل في إحدى الغابات يعدون سلالم الحصار، لحين وصول الجيش، وحين فرغوا منها حملوها فوق سروج الخيل إلى أسوار نور، وكان الأهالي قد أغلقوا الأبواب واعتصموا داخلها، فأرسل إليهم قائد الطلائع بهادر رسولاً يعلمهم بقرب وصول المغول ويغريهم بالانقياد والطاعة، حفاظاً على أرواحهم.

عم الاضطراب انحاء المدينة، وأبى فريق من السكان تصديق قدوم المغول في حين ظل فريق آخر يأمل في وصول السلطان محمد لنجدتهم، لذلك مال بعضهم إلى الاستسلام، ورأى البعض الآخر ضرورة المقاومة والصمود، ولما تأكد خبر قدوم جنكيزخان بجيشه الجرار سرى الخوف والفزع في الجميع وانهارت قواهم، وفتحوا أبواب المدينة بلا تردد.

وكما هو متبع من معاملة المدن المفتوحة سلماً، وردت الأوامر بإخلاء نور، وألا يحمل أحداً من الأهالي إلا ما يحتاجه في معيشته اليومية كالحبوب والماشية ودواب الحمل، حتى إذا ما أخليت المدينة دخل الجنود ينهبون الدور والقصور دون إحداث تخريب فيها، هذا في الوقت

---

(١) تاريخ فاتح العالم ج (١) الجويني ص ١١٣.

الذي كان فيه جنكيزخان يستقبل وفداً من الأعيان بترحاب بالغ لا يحظى به إلا السعداء، حيث سألهم قائلاً:

- ما مقدار المال الذي كانت تدفعه المدينة للسلطان محمد؟

فلما قالوا: ألف وخمسمائة دينار، طلب إليهم تسليم هذا المبلغ لنوابه، ولم يتعرض لهم أحد بسوء.

وفي غرة المحرم من سنة ٦١٧ هـ الموافق شهر فبراير ١٢٢٠ م حط المغول رحالهم بظاهر بخارى إحدى مدن العالم الإسلامي الكبرى، وكانت تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، القلعة، ثم المدينة الأصلية (شهرستان) ثم الضاحية (الربض)، ويحيط بها سور له سبعة أبواب، ويوجد بالمدينة مساجد ذائعة الشهرة مثل المسجد الجامع ومسجد الجمعة ومسجد الشاميين، أما شوارعها فقد بلطت بالبلاط والحجارة، وتعد هذه ظاهرة فريدة في العالم تشهد لبخارى بما بلغته من حضارة ورقي.

وكان بالمدينة قنوات كثيرة لجلب المياه، تنحدر من منطقة زرنوق لتزود المدينة والضاحية بحاجتها من المياه، ووضع أهالي بخارى نظاماً من الخزانات والأبواب لتوزيع المياه على المدينة، وكانت القنوات تجري في الضواحي بنظام محكم يسمح بري عدداً لا يحصى من الحدائق.

ومرد ثروة بخارى وثراء أهلها إلى الصناعات وأهمها السجاد والنسيج، ويعد مصنع كراجة للمنسوجات القطنية والحريرية من أكبر مصانع العالم الإسلامي، وكان يقع وقت هجوم المغول بين القلعة ومسجد الجمعة، وتصدر منتجاته الى أقصى الغرب.

وبخارى إضافة إلى ذلك درة العالم الإسلامي في العلم والعلماء، أثرت المسلمين بنوابغها من الفقهاء والمجتهدين، وتناقلت الأيدي أعمالهم الفكرية في كل فرع من علوم الإسلام، فلا عجب أن اشتهر أهلها بحب العلم وشغفهم في طلبه وصبرهم عليه، ويعتبر جامعها الكبير جامعة عالمية

يجتمع في صحنه الطلاب من شتى بقاع المسلمين ينهلون المعرفة من علماء هم زينة المدينة وتاج فخرها.

تصدى جند حامية بخارى ومعظمهم من الأتراك لهجمات المغول المتتالية ولمدة ثلاثة أيام، لم يفت من عضدهم دفع المغول بأسرى المسلمين أمامهم لتغطية اقترابهم من الأسوار، وفي اليوم الثالث اتفق قادة الحامية على القيام بهجوم ليلي معاكس يشقون فيه صفوف المحاصرين، ثم يهربون، ولكي يفعلوا ذلك قاتلوا قتالاً ضارياً، حتى تمكنوا من شق صفوفهم وأرغموهم على الارتداد، وفي اللحظات الأخيرة تدارك المغول خطأهم ومضوا في اعقابهم إلى ضفاف نهر سيحون وهناك اشتبكوا معهم في قتال عنيف أودى بحياة أكثرهم.

بهروب حامية المدينة أجمع السكان على الإستسلام، فقدم عدد من أئمة بخارى يرأسهم قاضي المدينة الشيخ بدر الدين قاضيخان على العاهل المغولي عارضين عليه مفاتيح المدينة وطالبين منه الأمان للأهالي، أجابهم جنكيزخان إلى ما طلبوا، وفي الرابع من ذي الحجة فتحت بخارى أبوابها للغزاة يتقدمهم جنكيزخان على ظهر جواده.

وفي طريقه إلى قلب المدينة لفت نظر جنكيزخان المسجد الجامع الضخم، وبدا له في أبهى صورة وأروعها، فدخله وهو لا يزال ممتطياً جواده. ووقف بإزاء المقصورة، في حين صعد ابنه تولوي إلى المنبر، عندئذ سأل جنكيزخان مرافقيه:

ـ أهذا قصر السلطان.

فقالوا له:

ـ هذا بيت الله.

فنزل عن جواده، وصعد بضع درجات من المنبر، ثم صاح صيحة الفاتح المظفر مخاطباً من يقف خلفه:

ـ لقد خلت السهول من المراعي والأعلاف، فافتحوا مخازن البلدة واملؤوا بها بطون جيادكم.

تلقى المغول الإذن بأعمال النهب والسلب بفرح وبهجة، وعلى الفور اجتاحوا بخارى كالوحوش يحملون كل ما يصادفهم من أنواع المتاع، في الوقت الذي أفرغ فيه من كانوا مع جنكيزخان صناديق المصاحف على أرض المسجد، وصنعوا منها أوعية للأعلاف، بعد ذلك جلبوا قنان الخمر والنبيذ إلى الجامع وراحوا يشربون الكأس وراء الكأس، ثم أتوا بمغنيات من دور المدينة وعلموهن أصول غنائهم وألحانهم لتكتمل نشوة الخمر بلذة الطرب، أما العلماء والفقهاء وأعيان بخارى فادخلوهم اصطبلات الخيل لإطعامها والمحافظة عليها.

مضت ساعات على هذه الحالة المؤلمة نهض في نهايتها جنكيزخان وتبعه قادته وهم يرفسون بأقدامهم أوراق المصاحف، وكان من بين المشاهدين لهذا الاستخفاف البالغ بكتاب الله الإمام جلال الدين علي بن الحسن الهندي قدوة سادات ما وراء النهر في الزهد والورع، فنظر إلى الإمام العالم ركن الدين إمام زادة وقال له:

ـ ما هذه الحال يا مولانا، أفي يقظة نحن أم في منام؟

فقال له إمام زادة:

ـ أهدأ ليس هذا وقت الكلام، إن غضب الله هو الذي نزل علينا.

وفي صبيحة عيد الأضحى المبارك دخل جنكيزخان المدينة واتجه مباشرة إلى المسجد. حيث كان المسلمون جالسون في انتظار الخطبة، وعددهم لا يزيد عن مئتين وثمانين شخصاً، مئة وتسعون من أهل المدينة والباقون غرباء، أغلبهم تجار تصادف وجودهم مع تسليم بخارى، صعد جنكيزخان المنبر ووقف فيهم خطيباً، ندد في خطبته بما ارتكبه السلطان محمد من غدر وخيانة، ثم قال:

ـ «يا قوم فاعلموا أنكم قد ارتكبتم جرائم بشعة، واقترفتم آثاماً

كثيرة، ومن جملة تلك الجرائم والآثام ما فعله أمراؤكم، فإن سألتموني عمن أكون الذي أخاطبكم، وعلى أي دليل أقول هذا الكلام، أجبتكم أني سوط الله الذي بعثني إليكم لإنزل بكم عقابه على جرائم اقترفتموها وآثار ارتكبتموها ولو لم تستحقوا ما نزل بكم من عذاب لم أرسلني الله إليكم»[1].

ثم انتقل إلى موضوع آخر ختم به الخطبة فقال:

ـ ليست الأموال التي ستقدمونها هي التي فوق الأرض، فهذه ليست لها أي قيمة، الذي هو قيمة هو ماكمن تحت الأرض»[2].

وأخيراً نزل من المنبر وسألهم: من هم أمناؤكم والقيمون عليكم، فأجابت كل طائفة بمن هو مقدم عندها وتتعلق به، تجنباً من الاحتكاك بالمغول وتهرباً من صلفهم واحتقارهم وإهانتهم للناس، ولما تقدم إليه هؤلاء الأمناء والقيمون طالبهم جنكيزخان بجمع الأموال من الأهالي، وكلما قدم أحدهم شيئاً طالبوه بضعفه، بل كانوا يكلفونهم بما لا يطاق ولا يقدر عليه الأهالي، وفي كل صباح يدخلون على العاهل المغولي كان رده عليهم واحد لا يتغير وهو:

ـ ما دام جيش السلطان لا يزال مرابطاً بالقلعة يحمونها ويدافعون عنها فلن نترك لأحد فرصة للراحة، إلا إذا حاربوهم وأجلوهم عنها.

واضطر سكان بخارى أمام إصرار جنكيزخان وتخلصاً من فداحة ما فرض عليهم للسير نحو القلعة ومن ورائهم المغول، ساعتها بدأ الحصار واتقدت نيران الحرب بين الجانبين، من الخارج أطلق المحاصرون الحجارة والسهام على القلعة، ومن الداخل انطلقت قاذفات اللهب وقارورات النفط، وغدا الفضاء كتنور ينفض شرارة هنا وهناك، وكان جند القلعة يخرجون أحياناً للإغارة، وفي كل مرة يسقط العشرات من المغول صرعى الضربات الخاطفة.

---

(١) (٢) تاريخ فاتح العالم ج (١) الجويني ص ١١٧.

وبعد أحد عشر يوماً ساءت الأحوال، وطمرت خنادق القلعة بجيف الرجال والدواب، وأحدث المغول تحت غطاء الأسرى عدة ثغرات نفذوا من خلالها، وغلبت كثرتهم على ما تبقى من الجند، حينئذ لم يتركوا فيها أحداً على قيد الحياة، ثم أحرقوا القلعة وسووا أسوارها بالأرض.

وجن جنون جنكيزخان عندما انحسرت المعركة عن سقوط أعداد كبيرة من جنده قتلى في المواجهات الحادة مع جند القلعة الذين لم يتجاوز عددهم عن أربعمائة مقاتل، فأمر السكان بإخلاء المدينة وألا يأخذ أحداً منهم شيئاً من أمواله ومقتنياته، ثم دخل المغول وأعملوا القتل في كل من سولت له نفسه الاختباء، وأخيراً أمر بإضرام النار في المباني والمساكن، ولما كانت أكثرها مبني بالخشب فقد احترقت بأسرها، ولم يسلم من النار إلا المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالحجر والطين.

أما السكان فقد قتل منهم أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال، واسترق الباقون، ومن أفلت من عقابهم الرهيب تشرد في الأرض، ويصف ابن الأثير حالة الأهالي في ذلك اليوم الدامي فيقول:

«... وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبأ، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم، فمنهم من لم يرضى بذلك واختار الموت فقاتل حتى قتل، وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الإمام ركن الدين إمام زادة وولده، فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا، وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان»[1].

وما بين يوم وليلة تحوت بخارى إلى أطلال بالية، وانحطت من

---

(١) الكامل ج (١٢) ابن الأثير ص ٣٦٧.

ذرى المجد والحضارة والمدنية إلى حضيض الذل وما دون البداوة والهمجية، ومن هول ما رآه أهلها فقدوا كل رغبة في العلم، وأهملوا مدارسته حتى تفشى فيهم الجهل، ومن اشتغل به وقليل ما هم فبلا عناية ولا تعمق، واستمر الحال هكذا لفترة طويلة، وعندها زارها ابن بطوطة بعد زمن طويل على هذه الكارثة قال عنها:

«ووصلنا إلى مدينة بخارى التي ينسب إليها البخارى، وهذه المدينة كانت عاصمة نهر جيحون من البلاد، وخربها اللعين جنكيزخان، فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل، وأهلها أذلاء وليس بها اليوم من الناس من يشتغل بالعلم، ولا من له عناية به»[1].

وبعد بخارى جاء دور سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر، وتقع سمرقند على بعد أربعة أميال ونصف جنوب زرنوق، وتتألف المدينة من ثلاثة أقسام تتدرج من الجنوب إلى الشمال، في الجنوب تقع القلعة ثم المدينة الأصلية وأخيراً الضاحية، ويحيط بالمدينة سور عريض له أربعة أبواب اشهرها باب الصين في الشرق، وباب كش (الباب الكبير) في الغرب، وكان يحيط بالمدينة وعلى مسافة عدة كيلو مترات بساتين الفاكهة والغياض وحدائق الأزهار وقنوات المياه والينابيع الجارية والأحواض المربعة والبرك المستديرة.

وعلى مقربة من الباب الكبير أقيم حي البازار المشهور بكثرة الحرفيين الذين يعملون في المعادن مثل المزهريات النحاسية وغيرها. ويضم الحي خانات رجال القوافل ومستودعات البضائع، وحي البازار أكثر أحياء المدينة أكتظاظاً بالسكان، إذ يربو عدد سكانه عن خمسمائة ألف نسمة.

واشتهرت سمرقند بصناعة وتصدير المنسوجات الحريرية والقطنية والخيام، وتربية الخيول وتصديرها إلى مناطق عديدة، وكذلك الورق، إذ

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٦٦.

نقل السمرقنديون هذه الصناعة من الصين، وكان لهم فضل إحلاله محل ورق البردي والرقوق والجلود، أما ما برزت فيه سمرقند عن سائر المدن فهو تصديرها للمنتوجات الزراعية. فمثلاً كان البطيخ السمرقندي يوضع في صناديق من الرصاص ويغلف بالثلج ويباع في طول البلاد الإسلامية وعرضها.

كان النظام الدفاعي للمدينة يتألف من حامية تضم عشرة ومائة ألف مقاتل، منهم ستون ألفاً من الترك وخمسون ألفاً من التاجيك، مع عشرين فيلاً تحت قيادة طوغاي خان عم السلطان محمد، تحميهم أسوار ضخمة عليها أبراج عالية وحصون منيعة يحيط بها خندق ممتلئاً بالماء. ومع بداية ظهور المغول رممت الأسوار وزيد فيها.

ولما ترامت إلى مسامع جنكيزخان مناعة أسوار سمرقند واستحالة الوصول إلى قلعتها التزم جانب الحذر، واتخذ كافة الاحتياطات التي تؤمن له الاستيلاء عليها، وعلى رأسها تطهير كافة ما حولها، وترك المدن التي تحتاج إلى حصار إلى فئات قليلة العدد من الجند مثل مدينتي سربل ودبوسية.

وفي شهر مايو من عام ١٢٢٠ م لحق بالجيش الرئيسي المحاصر لسمرقند الأقسام الأخرى جالبة معها أعداد لا تحصى من الأسرى، ولكنهم في هذه الموقعة استخدموا بطريقة غاية في المكر، إذا قسموا إلى فرق صغيرة تتألف كل فرقة من عشرة أشخاص، وأعطوا لكل واحدة منها علماً، وذلك لإيهام الأهالي بكثرة عددهم والتهويل من شأنهم كي يدب الذعر والفزع في نفوسهم ويتسرب اليأس إلى قلوبهم فلا يقوون على الصمود والمقاومة.

اختار جنكيزخان لمركز قيادة العمليات ضاحية المدينة في كوك سراي (القصر الأزرق)، وزار المدينة مع أركان حربه ليتفحص الأسوار ويختبر مناعتها وقوتها الدفاعية، وطوال يومين كاملين منذ معاينته الأولى لميدان

المعركة لم يصدر أي أمر لضباطه، وفي اليوم الثالث أمر بالهجوم الشامل، فزحف المغول وهم يدفعون أمامهم الأسرى، والتحم الجانبان في قتال شرس أبلى فيه جنود الحامية بلاءاً حسناً، أسروا فيه عدداً من المغول أدخلوهم معهم للمدينة، وبمجيء الليل انسحب الفريقان لمواقعهم استعداداً لجولة أخرى من القتال.

وفي صبيحة اليوم التالي شن الأهالي هجوماً عنيفاً تقهقر لضراوته المغول تقهقراً ظاهرياً لاستدراجهم إلى كمين أعدوه مسبقاً، وعندئذ طوقوهم من كل ناحية وحالوا بينهم وبين الرجوع إلى المدينة، فقتلوهم عن آخرهم، ويتراوح عدد القتلى ما بين ٥٠ إلى ٧٠ ألف مواطن.

وللمرة الثانية تفقد جنكيزخان أسوار المدينة، وعاين مواضع الجند على الأسوار وأيقن أنهم على أهبة الاستعداد للقتال، وفي صبيحة اليوم الثالث استؤنفت الحرب. وظلت متفدة الأوار إلى وقت صلاة العشاء، ولكن إطلاق المنجانيق والنبال والحجارة تواصل وبصورة متقطعة طوال الليل، بينما انتشرت وحدات المغول الانتحارية على الأبواب يمنعون الجند من الخروج، ولما سد ميدان المبارزة والمباغتة في وجوههم أنزلوا عليهم الفيلة، إلا أن المغول أزعجوها بصياحهم وسهامهم فهربت لا تلوى على شيء وبعضها قتل.

كان لوقع حصيلة قتال اليوم الثالث رهيباً في نفوس الأهالي زاده سوءاً وصول نبأ المجزرة التي هلك فيها خيرة الأهالي مما تسبب في إنهيار روحهم المعنوية، وفقدوا كل رغبة في المقاومة والصمود، وجاءت الطامة الكبرى حين أحجم الجيش الخوارزمي (جنود الحامية) عن قتال المغول، بل توجه وفد منهم لمقابلة جنكيزخان عارضين عليه تسليم أنفسهم، وكالعادة أجابهم العاهل المغولي إلى طلبهم ووعدهم بإدخالهم في وحدات جيشه، وفي اليوم الرابع للحصار توجه جنود الحامية مع امتعتهم وعائلاتهم على رأسهم طوقان وانضموا إلى معسكر المغول، ولم يجد الأهالي مفراً من طلب التفاوض.

وهكذا خرج قاضي المدينة وشيخ الإسلام يتبعهما عدد كبير من علية القوم للقاء جنكيزخان، وهناك عرضوا عليه تسليم المدينة بشرط تأمين الناس على أرواحهم وممتلكاتهم، ووافق على شرطهم على أن يدخل هو المدينة عقب صلاة الظهر من باب الشمالي الغربي (باب المصلى)، ويدخل المغول من سائر الأبواب.

وفي اليوم العاشر من المحرم لسنة ٦١٧ هـ الموافق ١٧ مايو ١٢٢٠ م فتحت سمرقند أعظم بقاع الأرض تألقاً وازدهاراً أبوابها للمغول الذين عكفوا فور دخولهم على إزالة المتاريس وهدم التحصينات دون التعرض لأحد من الأهالي، ثم بدأوا في إخراج السكان رجالاً ونساء إلى ظاهر المدينة، عدا القاضي وشيخ الإسلام ومن لاذ بهما من أقربائهما المقربين إليهما، وهؤلاء أعفوا من الخروج وأبقوا عليهم بالداخل.

وطوال هذا اليوم لم يتعرضوا للقلعة، وبعد خروج السكان ضربوا حولها حصاراً بدأوه بسد القناة الوحيدة التي توصل إليها المياه، وبدون سابق إنذار أفلح نصف المدافعون تحت وطأة الخوف من الخروج ليلاً، وأخذوا يكيلون الضربات للمغول يميناً وشمالاً في جنون مطبق، وبعد لاي تمكنوا من الخلاص.

وفي صباح اليوم التالي خرج النصف الآخر، وحال بينهم المغول وبين الهروب، واحتدم القتال بين الطرفين، واشتد التراشق بالحجارة والسهام حتى خربت جدران القلعة فلجأوا إلى المسجد الجامع، وهناك خاضوا معركة ضارية أجلوا فيها الغزاة من المسجد واعتصموا بجدرانه عاقدين العزم على المقاومة لآخر رجل، مما اضطر المغول إلى استخدام النفط فاحترق المسجد بمن فيه.

على أثر ذلك فصل المغول الأتراك الذين سلموا أنفسهم عن بقية الأجناس، وكان عددهم حوالي خمسة وثلاثون ألفاً، أمر جنكيزخان بإعدامهم جميعاً، بما فيهم قائدهم طوغان خان، أما من

أسهم ببسالة وشجاعة في الدفاع عن المدينة، وظلوا على ولاءهم وإخلاصهم للسلطان محمد حتى لحظة الإستسلام، فقد أكتفى بقص شعورهم على طريقة المغول.

وأما الأحياء من الأهالي فالبعض منهم وزع على أبناء جنكيزخان وحريمه والأمراء وكبار القادة. وألحق مهرة الصناع ونساج الحرير والقطن بخدمات حريم جنكيزخان، وأُرسل البستانيون إلى الشرق ليزينوا قراقورم بمنتزهات على نمط مغاني سمرقند، وأرغم القادرون من الفتيان على الإنضمام إلى جيش المغول للانتفاع بهم في العمليات الحربية القادمة.

ومنحت البقية الباقية من السكان ويقدر عددهم بخمسين ألفاً حق الحياة والعودة إلى إصلاح أطلال منازلهم، على شرط دفع مبلغ مئتين ألف دينار يتولى جمعها وتحويلها أحد أصحاب المناصب الكبيرة في سمرقند.

وبسقوط سمرقند إنهار آخر خط دفاعي من الخطوط التي اعتمد عليها السلطان محمد لوقف زحف المغول، وأصبحت الإمبراطورية الخوارزمية الآن قاب قوسين أو أدنى من التفكك، الأمر الذي جعل قلب السلطان يمتلىء رعباً وفزعاً من هول الكارثة المحدقة به وبدولته، فعقد العزم على الفرار إلى مناطق بعيدة عن مواطىء أقدام المغول ريثما يجتمع عنده الجند الفارين من جهات القتال، ولكن جنكيزخان بكل ما يحمل له من قلبه من حقد وكراهية منذ أن فتك نائبه بالقافلة من أترار وقتل هو بنفسه مبعوثه الشخصي أقسم بالقضاء عليه أينما حل، ومهما كان الثمن، وقد صرح بهدفه هذا لأحد قضاة المسلمين حيث قال:

ـ حيثما يذهب سوف أطارده وألحق به. ولسوف أحطم واسحق أي بلد تلجؤه إليها[1].

كلّف جنكيزخان كل من جيبي وسوبوتاي أمهر قادته بمطاردة

(1) جنكيزخان قاهر العالم، رينيه غروسية ص ٢٩٨.

السلطان. ووضع تحت تصرفهما عشرين ألف جندي، وأمرهما بالقبض عليه، فإذا عثر عليه على رأس جيش فيتجنبا الاصطدام به لحين وصول المدد، وإذا ركن إلى الفرار فعليهما إقتفاء أثره ومتابعته، وألا يتعرضا للمدن والقلاع في طريقهم.

أما السلطان محمد فقد عمد للسير جنوب نهر سيحون متجهاً صوب مدينة بلخ، ومن بلخ شق طريقه إلى نيسابور حيث استقر هناك لبعض الوقت، وفي شهر ربيع الأول ٦١٧ هـ ١٢٢٠ م عبر جيبي وسوبوتاي النهر في أثره دون إستعمال جسور أو طوافات، بل صنعوا أحواضاً من خشب أقرب في شكلها إلى الحقائب الجلدية وكسوها بجلود البقر لئلا يتسرب إليها الماء، وضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم وشدوها إلى أجسامهم، وقبضوا بشدة على أذناب الخيول، وانزلوا الخيل الماء، فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض، إلى أن وصلوا الضفة الأخرى سباحة.

ومن هناك توغل المغول في منطقة تركستان الأفغانية حتى وصولا مدينة بلخ، ولما سمع وجهاء المدينة بقدومهم أرسلوا إليهم رسلاً ومعهم هدايا، ولكن أوامر جنكيزخان صريحة في ألا يضيعا الوقت بفتح المدن، بل عليهم مطاردة السلطان وأثره، فاندفعوا غرباً إلى إقليم خراسان حيث قيل أنهم سيجدون السلطان هناك، الشيء الذي جعل السلطان يغادر نيسابور ويمم وجهه شطر العراق العجمي، فانطلق المغول في أثره كالسهم حيث قطعوا في بضعة أيام مسافة تزيد على ٤٣٠ ميلاً إلى أن وصلوا نيسابور بعد مغادرة السلطان لها، وفي نيسابور استدعى جيبي وسوبوتاي نواب السلطان وذوي النفوذ في المدينة وسلماهما منشوراً من جنكيزخان نصه:

«أيها القادة، أيها الحكام، يا رجال الشعب إعلموا أن الإله (تنجري) قد وهبني التسلط على العالم بأجمعه من المشرق إلى المغرب، فكل من يخضع لي سوف ينجو، والويل للذين يقاومون، فلسوف يذبحون مع

أزواجهم وأطفالهم وكل من يلوذ بهم»[1].

خضع سكان نيسابور خضوعاً إسمياً للمغول خوفاً من تهديد جنكيزخان فواصل القائدان سيرهما، وكانت محطتهما التالية هي مدينة طوس الواقعة إلى أقصى الشرق قرب مدينة مشهد الحالية، وهنا أيضاً لم يطلبا سوى الاعتراف الإسمي بسلطة المغول، ثم أستأنفا سيرهما مقتفين أثر السلطان. وبناء على المعلومات التي جمعت من الأهالي قاما باتباع الطريق الذي يمر بمدينة سبزاور والدامغان إلى حدود العراق العجمي.

وفي مدينة سامنان افترق القائدان فاتجه سوبوتاي مباشرة نحو الري، بينما قصد جيبي قلعة مازندان فملكها في أسرع وقت مع حصانتها وقوتها، وفي طريقه إلى الري للإلتحاق بزميله عثر صدفة على تركان خاتون والدة السلطان محمد ونساءه وأطفاله وأمواله وذخائره، وكانت قد فارقت خوارزم وقصدت الري في طريقها إلى أصفهان وبلد الجبل لتمتنع فيها، فأخذوها وما معها قبل وصولهم للري، وكان ما معها لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس الجواهر، وسيروا الجميع إلى جنكيزخان بمسرقند.

وصل المغول إلى الري على حين غفلة من أهلها، وكانت الحالة الداخلية خير معين لهم في الاستيلاء عليها، فقد اختلف أصحاب المذاهب الأربعة في تفسير بعض نصوص القرآن، فانضم الأحناف والشافعية إلى بعضهما ووقفوا في وجه المالكية والحنابلة، وأراد قاضي القضاة الشافعي الإنتقام من خصومه ففتح أبواب المدينة للأعداء، فدخلوها وقتلوا أعداء قاضي القضاة من أصحاب المذهبين الآخرين الذين يشكلون نصف السكان، ثم التفتوا إلى أصحاب المذهبين المناصرين لهم فقتلوهم عن أخرهم جزاء على خيانتهم لإخوانهم.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٩.

ثم مضوا مسرعين، إذ وردت أنباء تفيد بأن السلطان يقيم في رشت على شواطىء بحر قزوين، وكانت المعلومات صحيحة، ولكن سقوط الري أصابه بالهلع، فبدلاً من السعي للم شعث الجيش الذي قدمته له الولايات الفارسية ووضعته تحت تصرفه. نراه يخور ويجبن ويهرب من رشت إلى قزوين، حيث كان واحداً من أبنائه على رأس قوة قوامها ثلاثين ألفاً.

غير أن الخوف الذي أشاعه المغول أخذ بلباب الجميع، وغدا كل واحد منهم لا يفكر إلا في النجاة بنفسه، وانصرف كل إنسان يبحث له عن خلاص من وطأة الفزع اليأجوجي والهلاك المحقق على أيديهم، أما السلطان فبعد ما أصاب جيشه استولى عليه اليأس واستقر رأيه على الرحيل إلى بغداد عله يجد له مخرجاً، وتوطئة لذلك ذهب إلى قلعة قرزين الواقعة شرقي همدان.

ولما سمع بقدوم المغول للحاق بهم في همدان عدل عن الفكرة وعاد إلى بحر قزوين، وضلل هذا التحول المفاجىء من خط سيره مطارديه، فابتعدوا عنه مؤقتاً، إذ كانوا يظنون أول الأمر أنه في طريقه إلى بغداد، فاستمروا يتعقبونه عدة أيام مما أتاح له الوقت للوصول جنوب بحر قزوين، يصحبه أخلص اتباعه وهو يكاد يكون معدماً، ولكنه كان دوماً موضع احترام وتقدير أمراء المنطقة وسكانها، وسأل عن قلعة أمينة يمكنه الاحتماء بها، فأشاروا عليه بالالتجاء إلى إحدى جزر بحر قزوين والتي لا تبعد كثيراً عن ساحل مازندان.

عمل السلطان بنصيحة القوم وانتظر عدة أيام في إحدى قرى الساحل، وهي فترة طويلة مكنت مطارديه من معرفة موقعه بالتحديد، وكادت طليعتهم أن تقبض عليه، بل كانوا بالفعل في طريقهم لأسره، لولا أن أسرع وقفز في إحدى القوارب تحت وابل من السهام، وأراد بعض خيالة المغول اللحاق به، فرموه بأنفسهم في الماء لتبتلعهم أمواج البحر العاتية، ورويداً رويداً توارى القارب عن النظر، وبذلك تخلص السلطان نهائياً من خطر المغول.

ويصف النسوي حالة السلطان محمد على ظهر القارب فيقول:

- حدثني غير واحد ممن كانوا مع السلطان في المركب، قالوا: كنا نسوق المركب وبالسلطان من علة ذات الجنب ما أيسه من الحياة، وهو يظهر الاكتئاب ضجراً ويقول: لم يبق لنا مما ملكناه من الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار، ما هي إلا رباط يدخل من باب ويخرج من باب، فاعتبروا يا أولي الأبصار»[1].

استقر المقام بالسلطان محمد في جزيرة أبيسكون الصغيرة واتخذ من إحدى الخيام مسكناً له، وكان الأهالي الذين يقيمون على شاطىء مازندان يأتونه بما يلزمه من ضروريات الحياة. وفي مقابل ذلك كان يوصي بمنحهم إقطاعات وبتزايد الآم ذات بجنب أحس بدنو أجله، فاستدعى ابناءه الكبار جلال الدين منكبرتي وازلاغ شاه وأق شاه، وبمحضرهم خلع ولده قطب الدين ازلاغ شاه من ولاية العهد وأعلن إسناد رئاسة الدولة لابنه جلال الدين، إذ هو الوحيد في تقديره الذي يملك موهبة القيادة، والقادر على حماية ما تبقى للإمبراطورية من أملاك واستعادة ما سُلب منها، ونص القرار أورده النسوي على النحو التالي:

«إن عرى السلطنة قد انفصمت، والدولة قد وهنت قواعدها، وتهدمت. وهذا العدو قد تأكدت أسبابه، وتشبثت بالملك أظافره وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ بثأري منه إلا ولدي منكبرتي، وهاأنذا موليه العهد فعليكما بطاعته والإنخراط في تباعته»[2].

ورغم شدة الإعياء وآلام المرض تحامل على نفسه ووقف على رجليه وشد سيفه بيده على ولده جلال الدين، وبعد شهر كامل قضاه في

(١) سيرة السلطان جلال الدين - النسوي ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٥٥.

الجزيرة مريضاً ومنهوك القوى أسلم الروح في شوال سنة ٦١٧ هـ (١٢٢١ م)، مجرداً من أبهة السلطان، ومعدماً لا يملك شروى نقير، حتى أن أصحابه عجزوا عن إيجاد كفن يسترونه به، فخلع شمس الدين محمود أحد المقربين إليه قميصه وكفنه به.

في هذا الوقت كان جنكيزخان يعد العدة للاستيلاء على مدينة جرجانية (أوركينج) عاصمة خوارزم قرب دلتا نهر جيحون على بحر أرال، وتحيط بالمدينة وقراها المتناثرة أراضي صحراوية لا تشجع الغزاة على تخريبها، ولذلك لم تكن ضمن خطة جنكيزخان للاستيلاء على مدن خوارزم، ولكنها بدت له بعد سقوط الإقليم وخرابه كخيمة تقطعت أوصالها.

كانت جرجانية تضم أعداداً هائلة من السكان وبلا حاكم فعلي يرجعون إليه، وكذلك الجيش الخوارزمي كان بلا ضابط ولا قائد، خاصة بعد ذهاب جلال الدين منكبرتي وإخوانه للحاق بوالدهم، وأكثريته الساحقة من القبائل التركية وهؤلاء لا يهمهم كثيراً الدفاع عن حاضرة الإقليم، وبحكم القرابة التي كانت بين خارتكين من كبار الأعيان وبين تركان خاتون نصب حاكماً على المدينة.

اتخذ جنكيزخان كافة الاحتياطات الكفيلة بالتغلب على صعوبة الموقع وكثافة السكان، فأمر أولاً ابنيه جغتاي وأوكتاي للتحرك بقواتهما من إقليم ما وراء النهر والتوجه إلى جرجانية، واستدعى ابنه جوجي الذي كان مرابطاً بجند.

وحتى هذه اللحظة لم يكن الحاكم الجديد على علم بمجريات الأحداث، وغافلاً بحقيقة البلاء الذي نزل بالدولة، وظل على غفلته تلك حتى دهمته طلائع المغول، واستخف قصار النظر بعدوهم وأذن لهم الحاكم بتعقبهم والقضاء عليهم، وكالعادة تقهقر المغول ليطعموهم فيهم، وما دروا بالخديعة، ولا فطنوا لمغزى انهزامهم السريع أمامهم، بل ساروا

على أثرهم حتى ابتعدوا عن أسوار المدينة، فطوقوهم من كل جانب، واعملوا في قتلهم بلا رحمة ولا شفقة، ومن اخترق الطوق وهرب طورد حتى بوابات المدينة.

وفي صبيحة اليوم التالي وصلت جموع المغول وعلى رأسها أوكتاي وجغتاي إلى مشارف جرجانية، ثم لحق بهم بعد فترة قصيرة جوجي بقواته، حيث بلغ المجموع مائة ألف أو يزيدون، وبناء على أوامر جنكيزخان اسندت القيادة لجوجي يدعمه قادة المغول الكبار أمثال بوآورشو وطولون تشربي وقاداآن.

ومن ساعته بعث جوجي إلى أهالي جرجانية رسالة حاول فيها إقناعهم بالتسليم وعدم المقاومة، وجاء فيها:

«إن جنكيزخان قد أنعم بها علّي وأنا ضنين بتخريبها، حريص على إبقائها على ما هي عليه، ومما يدل على ذلك أن هذا العسكر ما تعرضوا للمدينة مدة مقامهم بالقرب منها. تمييزاً لها عن غيرها بمزيد الرعاية ومزيد العناية وإشفاقاً عليها من تعريضها للإنواء والإتلاف»[1].

مال وجهاء المدينة إلى الصلح والمسالمة، وأصر الأهالي على المقاومة والدفاع عن حاضرة بلادهم فاستعدوا للمقاومة. وجهز المغول بدروهم أنفسهم للحصار والقتال، فنصبوا المنجانيق وآلات الحرب، وأقاموا المتاريس، ولما كانت الأراضي المحيطة بالمدينة مستنقعات ورمال تخلو من الحجارة الضخمة، عمدوا إلى قطع أشجار التوت من ضواحي المدينة، وقطعوا سيقانها قطعاً مستديرة تركوها فترة من الزمن حتى تزداد قوة وصلابة.

وبينما كانت استعدادات المغول على أشدها قدم إليهم الكثير من الأسرى استغلوهم على الفور في ردم الخنادق حول المدينة. واستغرق

(١) المصدر السابق ص ١١٧.

الردم وحده عشرة أيام، أمروهم بعدها بحفر الإنفاق وتدفيم الأسوار، حتى إذا شارفت الاستعدادات على النهاية وجب على المغول فتح المدينة حياً بعد حي، وشارعاً بعد شارع، وهذا نوع جديد من الحرب لم يعرفوه، فهابوه وترددوا في خوض غماره.

ولم يبق أمامهم إلا رمي الأهالي بقوارير النفط الحارقة مما أدى إلى اشتعال النيران في أماكن متفرقة من المدينة، وتحت وابل من قذائف المنجانيق وقوارير النفط قذف ثلاثة آلاف مغولي بأنفسهم على الجسر الذي يقسم المدينة إلى قسمين، وقطعوا الجسر، فردوا على أعقابهم في هجوم عنيف أفناهم عن آخرهم.

وترجع أسباب هذه الهزيمة القاسية في المقام الأول إلى الفوضى التي حلت بالمغول من جراء سوء العلاقات والخلافات الحادة بين الأخوين جوجي وجغتاي. إذ كان كلاهما يكن للآخر كرهاً شديداً، وذلك لأن جوجي كان يعلم أن المدينة ستكون من نصيبه وقسماً من أملاكه، الشيء الذي جعله يبذل قصارى جهده لإبقاءها سالمة من الخراب، مما أثار حفيظة أخيه، ولم يوافقه على أي تصرف يشتم منه رائحة الشفقة أو الرحمة بالمدينة وسكانها، وتأثر المحاربون على جبهة القتال بالخلاف، بل أخر اقتحام المدينة لفترة امتدت لستة أشهر.

وأخيراً قرر الأخوان نقل خلافاتهما إلى أبيهما، وكان إذ ذاك أمام أبواب مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون، وبينا له ما أدى إليه خلافهما من إفساد وفوضى وسط صفوف المقاتلين، استاء الوالد لما سمع، ورداً على شكواهما أسند القيادة لأخيهما أوكتاي، ووضعهما تحت أمرته، وسعى أوكتاي بمرونته ولطفه وكياسته إلى إعادة الوئام بين الأخوين، ثم استعمل منتهى الشدة والصرامة لإشاعة روح النظام والإنضباط بين الجند.

ولم أطمأن أوكتاي إلى سلامة جبهته أمر باستئناف الهجوم على المدينة، وعلت صرخات المغول المرعبة، واستمات السكان في الدفاع عن

أسوار مدينتهم ببسالة فائقة، وأخذت قذائف التوت والنبال تتساقط عليهم كالبرد، وواصل المغول قذفهم للمنازل والحصون بقوارير النفط الملتهبة بلا توقف، إلى أن غلبوا المدافعين وتمكنوا من اختراق الأسوار حيث رفعوا راية النصر عالية على أبواب المدينة.

ثم اندفعوا إلى الداخل ليشهدوا أعنف قتال مر بهم حتى الآن، إذ قاتلهم السكان من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى منزل، ودفع الرجال والنساء والشيوخ والأطفال بأنفسهم في أتون المعركة بلا تهيب ولا خوف دفاعاً عن أنفسهم موقنين بلا رحمة ولا شفقة تنتظرهم بعد ما أبدوه من ضروب الشجاعة والبسالة.

ظلت الحرب مشتعلة هكذا طلية سبعة أيام بلياليها، وجد الأهالي البواسل في نهايتها أنفسهم وقد حشروا في ثلاثة أحياء هي آخر ما تبقى لهم، وقد اعيتهم الحيل، وضاقت بهم سبل النجاة والقتال، عندئذ أرسلوا الفقيه عالي الدين الخياطي محتسب جرجانية إلى جوجي يلتمس منه الرحمة ويستشفعه فيهم، ولما أذن له بمقابلته ومثل بين يديه قال له:

ـ إننا قد شاهدنا من هيبة الخان، وآن لنا أن نشاهد من مرحمته..
فاستشاط جوجي غضباً ورد عليه قائلاً:

ـ ماذا رأوا من هيبتي وقد أفنوا الرجال، وطاولوا القتال، فأنا الذي شاهدت هيبتهم، وها أنا الآن أريهم هيبتي[(١)].

أمر القائد المغولي الأهالي بإخلاء المدينة والمجتمع في الصحراء، بحيث ينفرد أصحاب المهن والحرف والصناعات بمعزل عن الغير، فمنهم من فعل ونجا، ومنهم من اعتقد أن أرباب الحرف يساقون إلى بلاد المغول ويترك ما عداهم في أرض الوطن فيقيم في مسكنه. فلم ينفرد، ثم قسموا الرجال على الجنود ليقتلوهم، وكان على كل جندي قتل أربعة

---

(١) الكامل في التاريخ ج (١٢) ـ ابن الأثير ص ٣٩٤.

وعشرين رجلاً، فقتلوهم جميعاً ضرباً بالسيوف والمعاول، ورمياً بالسهام، وهكذا لم يبق من سكان جرجانية إلا النساء والأطفال والفتيات الصغيرات، وهؤلاء أخذوا عبيداً وخدماً لدى أمراء المغول وقادتهم.

انشغل المغول بعد هذه المذبحة في عمليات واسعة النطاق لنهب وسلب، وتهديم ما تبقى من المنازل، ثم توجوا أعمالهم التخريبية بفتح سدود نهر جيحون، ففاضت المياه وتدفقت بعنف على المدينة حتى أغرقتها برمتها.

يروي ابن الأثير المعاصر لتلك الأحداث خاتمة أعمالهم في المدينة فيقول:

«ثم إنهم فتحوا السدود التي تمنع ماء جيحون عن البلد، فدخله الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الأبنية، وبقي موضعه ماء، لم يسلم من أهله أحد البتة، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله، منهم من يختفي ومنهم من يهرب، ومنهم من يخرج ثم يسلم، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو، وأما أهل خوارزم (جرجانية) فمن اختفى من التتار غرّقه الماء، أو قتله الهدم، فأصبحت خراباً يباباً، وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه، نعوذ بالله من الخذلان بعد النصر، فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام وأهله، فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها، لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرين، مضى الجميع تحت السيف»[1].

وبزوال جرجانية أحكم المغول سيطرتهم على ما وراء النهر وخوارزم، كما تمكنوا في الوقت نفسه من الإحاطة التامة بإقليم خراسان. ولم يحل بينهم وبين الإستيلاء عليه إلا حلول أشهر الصيف الخانقة، وفي خريف العام نفسه تقدمت جموعهم تجاه نهر جيحون قاصدة مدينة ترمذ

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٥.

الواقعة على الضفة الشمالية للنهر، وحين دنوا منها بعثوا يأمرون الأهالي بالطاعة وتخريب القلعة والأسوار، ولكنهم رفضوا الاستماع واحتموا وراء أسوارهم واستعدوا للحرب.

وهكذا بدأت القذائف تنهال من الطرفين بكافة أنواعها وبلا توقف ليلاً ونهاراً طيلة عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر فتحت ترمذ قسراً، وكالعادة أُمر الأهالي بإخلاء المدينة، وساقوهم جميعاً إلى السهول، ثم وزعوا على الفرق المغولية لقتلهم وذبحهم، وحين انتهوا لمح أحدهم امرأة فهم بقتلها إلا أنها صاحت فيه بمسمع من رفقاءه:

- ابقوا عليّ حتى أخرج لؤلؤتي الكبيرة وأعطيكم إياها.

فلما طالبوها بها، قالت: لقد بلعتها، فشقوا بطنها وأخرجوا من أحشائها حبات اللؤلؤ، وانتشر الخبر سريعاً بين المغول فظنوا أن السكان جميعاً قد خبأوا الجواهر في بطونهم، مما دفع جنكيزخان لإصدار أوامره بشق بطون القتلى للبحث عما إذا كان هناك آخرين قد ابتلعوا شيئاً من اللآلىء وهم أحياء.

قضى جنكيزخان شتاء عام ١٢٢٠ - ١٢٢١ م في أعالي جيحون، وفي ربيع عام ١٢٢١ م عبر النهر على رأس جيشه قرب بلخ، وكانت بلخ إذ ذاك عبارة عن واحة وفيرة المياه وسط السهول الصحراوية، وتعد من أكبر مدن خراسان فضلاً عن قيمتها التجارية بسبب وقوعها على إحدى الممرات التجارية الهامة في وسط آسيا. وكانت المدينة عامرة بمبانيها آهلة بسكانها حتى قيل أنه كان بها ألف ومئتان من المساجد الكبيرة، ومثلها من المساجد الصغيرة، كما كان بها حمامات عديدة خاصة بالأجانب والتجار الذين يفدون إليها.

وأسوار المدينة وحصونها واستحكاماتها الدفاعية ليست بالقوة التي تكفل لها رد العدو أو الصمود في وجهه، ولهذا السبب خضعت خضوعاً إسمياً للمغول أثناء مطادرتهم للسلطان محمد، وعند وصول جنكيزخان

لمشارفها أبدى أهاليها استعدادهم للخضوع والإستسلام مقابل الحياة، وخرج وجهاء المدينة لاستقباله وتقديم فروض الطاعة، ولكن جنكيزخان لم يطمئن إليهم لا سيما بعد ظهور جلال الدين منكبرتي في الإقليم والتفاف الخراسانيون حوله وتأييدهم له، فخشى أن تكون المدينة حصناً يلجأ إليه أعداؤه، ولذا رفض قبول العرض، وأمرهم بالخروج إلى ظاهر البلد بغرض الإحصاء.

وكالعادة قُسم المسلمون إلى جماعات صغيرة بعضهم قتل بالسيف والآخر بالنبال والفؤوس، ثم دخلوا المدينة وأحرقوا الأخضر واليابس من حقولها ومنازلها وقصورها وحدائقها العامة، بعد ذلك توجه العاهل المغولي وجنده حتى بلغوا بشاور، وفجأة كروا عائدين إلى بلخ بلا سبب معلوم حيث أمر بقتل كل من خرج من مخبئه في الآبار والمجاري والخزائن، فاعملوا فيهم السيف، ولم يتركوا جداراً إلا وهدموه، وهكذا خربت بلخ تخريباً كاملاً.

يصف الجويني ملخصاً ما فعله المغول في المسلمين فيقول:

«وما فعلوه من تلاعب وابتكارات في القتل والذبح، وما أجروه من كوارث، لا يصدقه عقل بشري على مدار الأيام، ومن فعلهم هذا زلزلت خراسان، وولول أهلها لما سمعوه أو شاهدوه»[(١)].

ومن هناك قصد المغول مدينة الطالقان في محاولة واضحة من جنكيزخان لتأمين أملاكه وحماية ظهر قواته والقضاء على ما بقي من قوى الإمبراطورية الخوارزمية، وكان التغيير الواضح في خط سيره له ما يسوغه. فإن المنطقة على ما أُحدث فيه من دمار وخراب لم تسلم تماماً، لذلك ترك مهمة فتح إقليم خراسان ومدنه لابنه تولوي وتوجه هو إلى مدينة الطالقان.

---

(١) تاريخ فاتح العالم ج (١) الجويني ص ١٤٦.

ومدينة الطالقان من المدن ذات التحصينات القوية، وعليها كثير من الرجال يحرسونها، لذلك رفضوا كل عروض الرسل، معلنين الحرب على الغزاة، ورغم حدة القتال الضاري ووقوع المئات من القتلى في الجانبين، إلا أن المدينة لم تسقط إلا بعد أن أتم تولوي فتح خراسان وانضم إلى جيش والده، ساعتها فحت قسراً وقهراً، فلا عجب ألا يتركوا فيها حياة، ولا حجراً على حجر.

كانت أول مدينة من مدن خراسان أنزل عليها المغول سيف غضبهم هي مدينة نسا، ونسا مثلها مثل أغلب مدن الإقليم عبارة عن واحة وفيرة المياه غنية بالحدائق الغناء، وكانت الأزهار والنباتات تغطي أبواب المدينة العشرة، مما جعلها تزهو على تلك الرمال والجبال من حولها، ويبدو الفرق بين المدينة والصحراء واضحاً جلياً وكأنه معجزة لا تصدق.

أرسل تولوي قوة مؤلفة من عشرة آلاف جندي تحت قيادة توقو تشار زوج ابنة جنكيزخان. وزحف هذا القائد صوب نسا تصحبه بطارية مؤلفة من عشرين منجانيقاً يعمل عليها الأسرى والمسخرين لعمليات الحصار والهجوم، وباقتراب إحدى الكتائب وجه المسلمون سهامهم على جنودها فقتلوا عدداً كبيراً منهم، من بينهم بلجوش قائد الكتيبة، فجن جنون المغول، وفي الحال أجبروا الأسرى على التقدم أمام الأكباش التي تستعمل لدك وكسر الأبواب وفتحها، وكل من يتأخر يذبح على الفور.

وبعد هجوم استمر خمسة عشر يوماً أحدثت آلات الحصار ثغرة واسعة في السور اندفع خلالها المغول ليلاً وبكثافة شديدة وسيطروا على السور وانتشروا عليه، عندئذ لجأ الناس إلى منازلهم خوفاً ورعباً مما يسفر عنه النهار، ومع ضوء النهار أحكم المغول قبضتهم على نسا وأمروا السكان بالخروج.

أما ما حدث بعد ذلك فيرويه النسائي الذي كان شاهداً على هذا اليوم الأسود حيث قال:

«... فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين كأنهم قطعان من الضأن تسوقها الرعاة، ولم يمد المغول أيديهم إلى سلب ونهب إلى ما حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسع صغاراً ونساءاً، والضجيج يشق عنان السماء، والصياح يسد منافذ الهواء، ثم أمروا الناس بأن يكتف بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلاناً وإلا فلو تفرقوا وطلبوا الخلاص عدواً من غير قتال والجبل قريب لنجا أكثرهم، فحين كتفوا جاءوا إليهم بالفؤوس وأضجعوهم على العراء وأطعموهم سباع الأرض وطيور السماء، فمن دماء مسفوكة، وستور مهتوكة، وصغار على ثدي أمهاتها مقتولة، وكان عدة من قتل من أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعون ألفاً»[1].

والنسوي نفسه من الذين فروا من المذبحة والتجأ إلى قلعة مرح سائغ التي كانت ملكاً له ولآبائه، والقلعة محصنة تحصيناً جيداً، وأقيمت على أحد الجبال الشاهقة، وقد حاصرها المغول، ولما عجزوا عن الاستيلاء عليها عرضوا على أهلها في مقابل رفع الحصار عنهم مائة ألف لباس من القطن وبعض أشياء أخرى ووافق النسوي على إرسال ما طلبوه، وانحصرت المشكلة فيمن يقبل مهمة توصيل هذه الأشياء خوفاً من غدر المغول، وأخيراً تطوع رجلان مسنان للقيام بالمهمة على خطورتها، فودعا أولادهما وأهلهما، وبعد أن سلما ما أُتفق عليه حدث ما كان يخشاه الناس، إذ قتل المسنان علي أيديهما.

انتقل توقو تشار إلى نيسابور عاصمة إقليم خراسان، وكانت إذ ذاك في أوج ازدهارها، تأتيها المياه عبر أقنية يبلغ عددها إثنتا عشر قناة لتسقي ليس فقط الحدائق وإنما البيوت أيضاً، والمدينة من ضمن المدن التي فتحت أبوابها لجيبي وسوبوتاي، وخضعت لهم خضوعاً إسمياً، أما توقو تشار فأراد الاستيلاء عليها عنوة، ولما وصل مشارفها في أواسط شهر

---

(١) سيرة السلطان جلال الدين ـ النسوي ص ١١٤، ١١٥.

رمضان (٦١٧ هـ ١٢٢٠ م) على رأس قوة تقدر بعشرة ألف رجل، خرج إليه الأهالي يحاربونه حرب أقرب إلى المناوشة، وظل الحال هكذا قرابة عشر أيام. وفي اليوم الثلاثين اشتد أوار المعركة على غير العادة، وكانت النبال تتقاذف من على الاستحكامات والمتاريس والأسوار سقط أحدها على توقو تشار فأراده قتيلاً، ولم يعلم الناس بمصرعه، فعاد المقاتلون إلى داخل المدينة وبصحبتهم أسيرين هما اللذان أخبراهما بمقتل قائدهم، فعمت البهجة أرجاء نيسابور.

وجد نوركاي نوين نائب توقوتشار نفسه يفتقر إلى القوة الكافية لفتح المدينة، فرفع الحصار ليتفرغ للاستيلاء على الحصون والمدن الصغيرة، مؤجلاً الانتقام إلى حين.

أما تولوي الذي لم يشترك حتى الآن إشتراكاً فعلياً في الحرب الدائرة في خراسان، فقد تحرك مع بداية السنة الجديدة (١٢٢١ م) بجيش ضخم للسيطرة على مرو. والتي اتخذها السلطان بعد ضياع ما وراء النهر حاضرة له، ونقل المصالح العامة للدولة إلى إحدى قلاعها الحصينة، ووضع حامية للدفاع عنها، ولكن الاضطراب الذي لازم السلطان وتفكك الجيش إنتقل إلى قواده وكبار رجال الدولة؛ فبدلاً من الاتحاد والتكاتف لدمر العدو، انشغلوا بالتنازع على السلطة لاهين عن الخطر المحدق بالجميع.

عسكر تولوي أمام أسوار مرو بجيش قوامه سبعون ألف مقاتل يؤلف الأسرى المقهورين قسماً كبيراً منه، وفي أول المحرم لسنة ٦١٨ هـ (٢٥/٢/١٢٢١ م) امتطى جواده يرافقه خمسمائة من الفرسان لاختبار الحصون. ثم طاف حول المدينة، وظل يراقب ما يحيط بها مدة ستة أيام، قام خلالها المدافعون بهجومين متتالين من منافذ لم يفطن إليها المغول، ولما انتبهوا إليها لم يعد أحد يجرؤ على الخروج، فسدت في وجوههم السبل إلا سبل الطاعة والإنقياد.

أرسل حاكم المدينة مجير الملك الإمام جمال الدين من كبار أئمة مرو برسالة إلى تولوي يطلب فيها الأمان، فأمنهم، حتى أن مجير الملك

خرج بنفسه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوي، ولما مثل بين يديه قال له:

- أريد أن تعرض عليّ أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه، وأعطيناه إقطاعاً ويكون معنا.

وفعل مجير الملك ما طلب منه، ولما حضروا عند تولوي وتمكن منهم قبض عليهم وعلى مجير الملك وكتفوهم، ثم قال لهم:

- اكتبوا إلى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الأموال في جريدة، واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى، وأعرضوا ذلك علينا.

فلما وقف تولوي على النسخ أمر بإخراج الأهالي إلى الصحراء، ومعهم ما خف حمله وغلا ثمنه، واستمر خروجهم أربعة أيام بلياليها، ثم فصلوا الرجال عن النساء، وبعد إخلاء مرو جلس تولوي على مقعد في أحد السهول المحيطة بالمدينة، وأمر بإحضار الجند فأحضروا، وأمر بضرب أعناقهم، فضربت والناس ينظرون إليهم ويبكون، أما ما جرى للأهالي فيرويه ابن الأثير قائلاً:

«وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء والأطفال والأموال، فكان يوماً مشهوداً من كثرة البكاء والصراخ والعويل، وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال، فربما مات أحدهم من شدة الضرب، ولم يكن بقي ما يفتدي به نفسه، ثم أنهم أحرقوا البلد، وأحرقوا تربة السلطان ونبشوا القبر طلباً للمال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أمر تولوي بقتل أهل البلد كافة، وقال هؤلاء عصوا علينا، فقتلوهم أجمعين وأمر بإحصاء القتلى فكانوا سبعمائة ألف قتيل، فإن لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم»[1].

(١) الكامل في التاريخ ج (١٢) ابن الأثير ص ٣٩٢، ٣٩٣.

ومن مرو أسرع تولي نحو نيسابور وهو يحترق شوقاً للانتقام من أهلها لقتلهم صهره توقوتشار، وأدرك الأهالي من جانبهم أنهم لن يلقوا أي رحمة أو شفقة من أعدائهم، فاتخذوا أهبتهم للدفاع عن أنفسهم حتى الموت، فأدخلوا الحبوب والمحاصيل بكميات كبيرة، وعملوا جهدهم لتقوية الأسوار، كما جددوا الدفاعات وذلك بوضع ثلاث آلاف آلة حربية لقذف الحراب وثلاثمائة منجانيق حملوا إليها الحجارة من مسافات بعيدة، وخمسمائة آلة الرمي النفط الملتهب.

وما أعده المغول من استعداد ليوم الانتقام الكبير لم يكن أقل من استعداد المسلمين، ففضلاً عن تخريبهم الأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة، فقد أنزلوا إلى ميدان المعركة ثلاثة آلاف آلة حربية لقذف السهام وثلاثمائة منجانيق وسبعمائة آلة لقذف النفط، وأربعة آلاف سلم، وألفين وخمسمائة حمل من الأحجار والقذائف والآلاف الأسرى لتغطية الإقتحام.

وحين رأى السكان وقواد الحامية ضخامة ما أعده العدو لحربهم، وكثافة جنده، دب الرعب في قلوبهم، وفقدوا رباطة جأشهم، ونسوا عزمهم وإصرارهم على المقاومة، فأرسلوا قاضي قضاة خراسان ركن الدين علي بن إبراهيم المغيثي إلى تولوي عارضاً مطالب القوم والمنحصرة في الأمان ودفع الجزية، ولكن تولوي مدفوعاً بعامل الحقد والضغينة لمقتل صهره أعرض عن كل حديث عن التسليم.

وفي يوم الأربعاء الثاني عشر من صفر لسنة ٦١٨ هـ ٧ أبريل ١٢٢١ م هاجم المغول نيسابور من كل ناحية، واستمرت المعركة مشتعلة على الأسوار والخنادق طوال الليل والنهار، وازدادت حدة وشراسة على الأبواب، وتسلق حوالي عشرة آلاف مقاتل الأسوار، في الوقت الذي أحدث فيها المنقبون سبعون ثغرة مكنتهم من الإندفاع داخل المدينة، فتحولت الشوارع والحواري والمنازل إلى ميدان معركة، وبحلول يوم السبت خفت حدة القتال إيذاناً ببسط المغول سيطرتهم عليها.

ثم آن أوان الثأر والانتقام فدخلت أرملة توقوتشار دخول الظافرين

يصحبها عشرة ألف مغولي، وبتوجيه منها أخذوا يقتلون كل ما يصادفهم في بشاعة منقطعة النظير، لا يفرقون بين إنسان وحيوان، واستمرت المذبحة أربعة أيام لم يتركوا في المدينة أثراً من آثار الحياة.

وبلغت ذروة التشفي بالمسلمين عندما أمر تولوي بقطع رؤوس القتلى وفصلها عن أجسامهم. ورميها في موضع هرمي واحد للرجال والثاني للنساء والثالث للأطفال، وذلك لكي لا يترك لأحد فرصة للنجاة بادعائه الموت وارتمائه بين جثث القتلى.

ولما قضوا على السكان التفتوا نحو المدينة، فأمر تولوي بهدمها وعلى نحو يمكن زراعة أراضيها، أي تتحول إلى سهل لا يبقى فيه حجر على حجر، وقد استغرق هذا العمل وحده قرابة خمسة عشر يوماً زالت فيه معالم المدينة تماماً، وقبل مغادرة نيسابور إلى هراة ولكي يطمئن تولوي على عدم نجاة أحد من الأهالي ترك أربعمائة جندي من التابعين للمغول للبحث والتنقيب في أطلالها وخرائبها وفي ضواحيها ممن بقي حياً ليلحقوه بالآخرين، وقد ظهر بالفعل عدداً من الناجين أجهز عليهم في الحال.

وقدر عدد القتلى بمليون وسبعمائة وسبعة وأربعون ألفاً.

وبعد خراب نيسابور لم يبق لهم من مدن خراسان الهامة إلا هراة الواقعة إلى الجنوب الشرقي منها. وقد أرسل تولوي رسلاً يدعون الأهالي للتسليم، ولكن حاكم المدينة أعدم الرسل، فحوصرت هراة. وظلت تقاوم ثمانية أيام قتل خلالها الحاكم، فعرض الأهالي التسليم شرط الإبقاء على حياتهم. وتظاهر تولوي بقبول العرض، وبمجرد دخوله المدينة أمر بقتل جنود الحامية الأتراك من أتباع جلال الدين منكبرتي وكذلك جانباً كبيراً من السكان.

في هذه الأثناء تلقى تولوي أمراً من أبيه للحاق به عند مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون حيث كان معسكراً لقضاء فصل الشتاء وفيما بعد انضم إليهم جغتاي وأوكتاي، أما جوجي فبعد عزله من القيادة آثر قضاء فصل الشتاء في الإقليم الواقع شمال نهر سيحون.

وفي مشتاهم وردت أنباء تفيد بأن السلطان جلال الدين يرابط في إقليم غزنة على رأس جيش كبير، فوطد جنكيزخان العزم على المسير إليه والقضاء عليه قبل استفحال أمره. ولذلك كان لا بد من الاستيلاء على قلعة باميان ذات الموقع الاستراتيجي الهام على أحد فروع نهر جيحون.

وما من موقع في العالم الإسلامي أصاب العاهل المغولي في صميم قلبه كما فعلت هذه القلعة، ففي أثناء الحصار صوب جندي خوارزمي سهماً على موتوجين ابن جفتاي وأحب أحفاد جنكيزخان إلى قلبه فأرداه قتيلاً، وكاد جنكيزخان أن يفقد صوابه، وقاد بنفسه الهجوم على القلعة وهو حاسر الرأس والتهبت حماسة المغول عندما شاهدوا بأنفسهم شدة غضب زعيمهم وتصميمه على الانتقام، وبخفتهم المعهودة تسلقوا الأسوار، واستولوا على القلعة.

أصدر جنكيزخان أوامر بقتل كل إنسان فيها، وألا يتركوا فيها أحداً على قيد الحياة، كما أمر ألا تؤخذ أية غنائم، بل يجب إستئصال كل شيء فيها من الوجود كل لا تصلح بعد ذلك سكناً لإنسان أو حيوان إلى الأبد، ونفذت أوامره حرفياً. فأزيلت الحياة فيها، وسويت أسوار القلعة بالأرض، ثم أقيم نصب على أطلالها كتب عليه «هنا كانت القلعة الملعونة».

ولم يكن جفتاي موجوداً لحظة قتل ابنه، ولدى عودته أمر جنكيزخان بكتم خبر الوفاة عنه، ثم عمد إلى إيصال الخبر إليه بطريقة تخفف من فداحة المصاب، فبعد أيام كان الأب وأولاده الثلاثة جفتاي وأوكتاي وتولوي على مائدة الطعام، وإذا بالأب تثور ثائرته بلا سبب ظاهر، ويتهمهم بعدم الطاعة والعقوق، وأثناء كلامه كان يوجه نظراته إلى جفتاي بصورة خاصة، فأصابه بالهلع وركع على قدميه أمام والده وهو يقول له أنه يفضل الموت على أن يتهم بعصيان وعقوق والده، لكن والده أصر على اتهامه بنفس الطريقة عدة مرات، ثم سأله أخيراً:

ـ هل تتكلم الصدق وتحافظ على كلمتك.

فأجاب جفتاي:

- إذا لم أتكلم الصدق فإني أرضى بالموت.

هنا قال له والده:

- حسناً لقد قتل ابنك موتوجين، وأنا أمنعك من أن تظهر أي إشارة حزن أو غضب.

صعق جفتاي من هول ما سمع، لكنه وانقياداً لأمر والده كبح جماح حزنه وغضبه، وواصل مشاركتهم الطعام بهدوء، استسلم بعدها لأحزانه.

وزاد من آلام العاهل المغولي تلقيه خبراً بانتصار السلطان جلال الدين على إحدى الفرق المغولية، واتخاذه من غزنة الواقعة شرقي باحيان ملاذاً ونقطة تتجمع عندها الجنود الخوارزمية، فتوفر له قوة عسكرية قوامها ما بين ستين إلى سبعين ألف من الخيالة.

أرسل جنكيزخان أخيه بالتبني شيجي قوتوقو على رأس فرقة عسكرية يبلغ عددها ثلاثون ألف مقاتل، ولم ينتظرهم السلطان في غزنة بل خرج إليهم في ربيع عام ٦١٨ هـ ١٢٢١ م، وفي السهول المحيطة بمدينة بيروان في الشمال الشرقي من غزنة حصل الصدام بين الفريقين، واستمر القتال محتدماً طوال اليوم دون نتيجة حاسمة، وعند هبوط الليل تراجع كل منهما إلى مضاربه.

وفي الليل أمر شيجي قوتوقو جنوده بوضع قلانسهم على رؤوس الخيل والوقوف خلفها، وفي الصباح شاهد الخوارزميون فرسان المغول يقفون بشكل مزدوج، فظنوا أن بعض الكتائب قد انضمت للجيش المغولي ليلاً. وكادت الحيلة أن تنطلي على قيادتهم، وهم البعض منهم فعلاً بالانسحاب، ولكن السلطان جلال الدين وقف موقفاً حاسماً أبى فيه الإذعان لرغبتهم، وأعلن عن عزمه في مواصلة الحرب، عندئذ ربط كل فارس زمام حصانه في حزامه، ووقف على أهبة الاستعداد في إنتظار هجوم المغول.

هجم فرسان المغول على ميسرة الجيش الخوارزمي، لكنهم قوبلوا بوابل من السهام أجبرتهم على الإرتداد ليعيدوا تشكيلهم من جديد، وفي الهجوم الثاني كاد المغول أن يفتحوا ثغرة في صفوفهم، حينئذ تبدلت خطة السلطان جلال الدين من الدفاع إلى الهجوم، فنفخ في البوق إعلاناً ببدء الهجوم، وعند سماع البوق امتطى الفرسان ظهور خيلهم وقذفوا بأنفسهم على العدو على شكل حدوة حصان بقصد تطويق المغول. فلاذ المغول بالفرار من غير نظام، زادته فوضى واضطراب طبيعة الأرض المحيطة بمدينة بيروان والتي تخللها الوهاد والوديان، فلم يتمكن الكثير منهم من المقاومة أو الفرار، مما أوقع الكثير منهم أسرى وقتلى.

وانتقم السلطان جلال الدين والخوارزميون من أسرى المغول انتقاماً اتسم بالشراسة والوحشية، روى جانباً منه النسوي بقوله:

«وكثر الأسرى حتى كان الفراشون يحضرون الأساري الذين يأسرونهم إلى بين يديه، فيدقون الأوتاد في أذانهم تشفياً منهم، وجلال الدين يتفرج ووجهه بالبشاشة يتبلج»[1].

أظهر جنكيزخان قدراً كبيراً من ضبط النفس لدى سماعه خبر الكارثة التي ألمت بجيشه، وعلى الفور بادر بالتوجه نحو غزنة وبسرعة شديدة تعذر على الجنود في أثنائها الوقوف لإعداد طعامهم، وعند وصوله إلى ميدان المعركة طلب من أخيه شيجي قوتوقو أن يشرح له ملابسات الهزيمة، وطريقة الهجوم، وكيفية اندحارهم من قبل خيالة السلطان جلال الدين، ومن الشرح المسهب تبين له الأخطاء التي وقع فيها قائده، واكتفى فقط بانتقاد إختياره لميدان المعركة والذي لا يساعد خيالة المغول كثيراً على الحركة.

في هذا الوقت حدث نزاع بين قائدين من قواد السلطان جلال الدين

---

(١) سيرة السلطان جلال الدين ـ النسوي ص ١٥٥.

على حصان عربي كل منهما يريده لنفسه، وبلغ الخلاف بينهما حداً ضرب فيه أحدهما الآخر بسوط على رأسه، ولم يرضى السلطان هذه الإهانة لقائده، ولم يقبل القائد المعتدي الإعتذار، وكانت النتيجة انسحاب القائد الذي أهين بجنوده، وقتها أيقن جلال الدين عدم استطاعته مواجهة المغول ولا الدفاع عن غزنة، ولذلك اتخذ قراره بالانسحاب إلى الهند.

ولما علم جنكيزخان بوصول السلطان ضفاف نهر السند واستعداده وجنوده للعبور أسرع للحاق به مشحوناً بالرغبة في الانتقام، وتمكن بالفعل من أسر مؤخرة جيشه، وفي ٢٤ نوفمبر ١٢٢١ م طوقت قواته جلال الدين من جميع الجوانب وأكرهتهم على التجمع على شكل نصف دائرة ترتكز على نهر السند، وفي فجر اليوم التالي شن المغول هجوماً كاسحاً على جناحي الجيش، وبقي جلال الدين في القلب، وثبت الجميع أمام اندفاع المغول العاتي، وقاتلوهم قتالاً شرساً تحول لضراوته وشدته إلى هجوم يائس تراجع من عنفه المغول، يقول عنه النسوي:

«حمل السلطان بنفسه على قلب جيش جنكيزخان فمزقه بدداً، وولى اللعين بنفسه هزيماً، وكادت الدائرة تدور على الكفار، والهزيمة تلحق بأهل النار، لولا أن اللعين أفرد قبل اللقاء كمين فيه عشرة آلاف فارس من نخب رجاله، فخرجوا من على ميمنة جلال الدين فكسروها، فتبدد نظامه وتزعزعت عن الثبات أقدامه»[١].

وما لبثت ميسرة الجيش أن تلقت هي الأخرى ضربة أودت بزهرة رجالها، وثبت جلال الدين في القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون قتالاً مستميتاً من الصباح حتى منتصف الليل، وصفه الجويني بقوله:

«كان السلطان يجول ويصول يمنة ويسرة، وكان في كل جولة يقتل عدة جنود، واستمر جيش جنكيزخان يتقدم ويضيق على السلطان دائرة

---

(١) المصدر السابق ص ٨٣.

تحركه، ويتوافد الجنود عليه ساعة فساعة، ولما رأى السلطان تأزم الوضع، وضاق الخناق عليه جمد بصره وجفت شفته، وكان أجاش ملك خاله قريباً منه، فأخذ عنان جواده وأرجعه إلى الخلف، وودع السلطان أكباده وأولاده بفؤاد محترق، وعين دامعة، فأمر أن يسحبوا جواده، ثم عاد يكر ثانية على بر البلاء»(١).

ولما تأكد للسلطان اختلال ميزان القوة وتراجع جيشه لوى عنانه وخلع درعه ورماه إلى الخلف واستدار مولياً وجهه شطر النهر، وكانت المسافة بين الشاطىء والنهر تقدر بعشرة أذرع أو تزيد، وعلى علو يبلغ عشرين قدماً قذف بنفسه إلى النهر والراية بيده، وأخذ يسبح نحو الضفة الأخرى.

ركض جنكيزخان إلى ضفة النهر بعدما رأى شجاعة جلال الدين واستبساله، وكان ماء النهر مصبوغاً بالدم من كثرة القتلى بالنبال، ووضع المغول أيديهم في أفواههم مذهولين لما يجري أمامهم، واتجه العاهل المغولي بعد ذلك إلى أولاده وقال لهم:

«كان يجب أن يكون الأب (السلطان محمد) مثل ابنه، فها هو ذا هرب من ماءين مغرقين ونار، ووصل إلى الساحل سالماً، فسوف تتولد عنه أعمال كثيرة وفتن لا تعد ولا تحصى، ومتاعب لا حصر لها، فكيف يستطيع الرجل أن يغفل عنه»(٢).

ورغم ما أبداه جنكيزخان من إعجاب بجسارة السلطان وشجاعته، ووقوفه أمامه غير هياب ولا وجل، إلا أن قسوته ووحشيته لم تفارقه لحظة. فجيء إليه بولدي جلال الدين فذبحا بين يديه، ووزعت نساؤه وبناته على الأمراء والقادة، وأطلقت السهام على جميع الأسرى.

(١) تاريخ فاتح العالم ج (٢) الجويني ص ٤٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٤٢.

خشي جنكيزخان من عودة جلال الدين بجيش يصعب التغلب عليه ويكلف المغول الكثير من الدماء، لذلك أرسل في أثره قائدين من قواده هما بلا وتورتاي. وعبر هذان القائدان نهر السند، ولكنهما لم يستطيعا اللحاق به، وتخوفا من التوغل في الأراضي الهندية، لا سيما وأن عدد رجال الفرقة قليل. ورغم ذلك فقد استولوا على بعض مدن الصغيرة مثل مولتان، وتجنبوا قدر الإمكان المدن ذات الحاميات الكبيرة، ولذلك اكتفوا بتخريب ضواحي بعضها مثل لاهور، ثم عادوا عبر نهر السند حيث انضموا إلى قيادة الجيش الرئيسية.

انتقل المغول عقب تلك المطاردة الفاشلة إلى الإنتقام من سكان المدن الذين اشتركوا في الهجوم المعاكس للسلطان جلال الدين، ففي ربيع عام ١٢٢٢ زحف إلى غزنة، ولدى دخوله المدينة جمع الأهالي بادعاء إحصاءهم، ثم قتلهم جميعاً ما عدا ذوي الخبرة من الحرفيين والمهندسين. وفي الوقت نفسه توجه جيش بقيادة إيلجيلجداي يقدر عدده بخمسين ألف محارب معظمهم من أتباع المغول ومن يصلح للخدمة العسكرية من المسلمين إلى هراة، حيث أظهر سكانها منتهى الشجاعة في الدفاع عن أنفسهم، فصدوا الهجوم الأول، وردوا المغول على أعقابهم، وفي الهجوم الثاني دب الخلاف بينهم مما مكن العدو من فتح المدينة. كان ذلك في يوم ١٤ يونيو ١٢٢٢ م، وطوال أسبوع كامل لم يشغلوا أنفسهم بشيء سوى القتل والسلب والنهب.

أما أهالي مرو فقد رفع انتصار السلطان جلال الدين من روحهم المعنوية، وأظهروا سرورهم وارتياحهم، وظنوا أن ساعة القضاء على المغول قد أزفت، فاتصلوا ببعض الأمراء وتلقوا منهم مساعدات كبيرة مكنتهم من إصلاح شأن سد نهر المرغاب والذي يمد المدينة بحاجتها من المياه، ثم قتلوا حاكم المدينة من قبل المغول، ولكن سرعان ما قدمت قوة من المغول قتلت السكان عن بكرة أبيهم، وسوت مرو بالأرض.

ولما شارفت موجة الانتقام والتي شملت مدن كثيرة من خراسان على نهايتها، خفت حدة تأجج القوم إلى درجة ملحوظة، حتى اقتصرت حركتهم على عمليات محدودة أغلبها ردود فعل لما يحدثه الأهالي من أمور تثير حنق المغول وغضبهم الناري مثلما فعل سكان بلخ الذين عادوا لإصلاح مدينتهم المخربة والسكن فيها، مما أثار ثائرة جنكيزخان، فأمر بقتل كل من وجد على أطلالها.

قضى جنكيزخان طيلة الربيع وحتى صيف ١٢٢٢ م متجولاً بين مدن ومراعي وغابات خوارزم وخراسان، طلباً للراحة والاستجمام والاستمتاع بمتعة الصيد والقنص، وفي ربيع عام ١٢٢٣ شرع في التحرك في مسيرة طويلة نحو منغوليا، وفي الطريق استقبله إثنان من أحفاده هما قوبيلاي وهولاكو ابناء تولوي، وبالقرب من نهر سيحون لحق به ابنيه جفتاي وأوكتاي وتخلف عنهم جوجي وقبل اجتيازهم حدود الإمبراطورية المحطمة أمر جنكيزخان تركان خاتون أم السلطان محمد وزوجاته وبناته أن يلقين آخر نظرة على تراب الوطن.

استغرقت رحلة العاهل المغولي إلى أرض الوطن عاماً كاملاً، وقدر له وبعد غياب ست سنوات أن يقضي عاماً واحد فقط على ضفاف نهر تولا، استعد بعدها لخوض معارك دامية، إما تأميناً لما فتحه أو تأديباً لمن رفع راية العصيان، فلا زالت الصين الجنوبية تحت حكم أباطرة سونج، وأعلنت قبائل التانجوت تمردها وخروجها عن سلطان المغول.

وفي الحال أسند مهمة إخضاع الصين لقائده سوبوتاي، أما هو فقد توجه في ربيع عام ١٢٢٦ م في حملة ضخمة ضد التانجوت شمال التبت يصحبه أوكتاي وتولوي، وبعد معارك طاحنة تمكن فرسان المغول من إحكام سيطرتهم على المنطقة، وأعلن المتمردون إعترافهم بسيادة العاهل المغولي.

ولما شارفت المهمة التأديبية على نهايتها. وبدأت جموعهم تعد العدة

للعودة فاجأهم شتاء المنطقة ببرودته القارسة وعواصفه الشديدة الهبوب إلى درجة عجزوا فيها عن التقدم، فاضطروا للبقاء لحين انحسار درجة البرودة، ومرت الساعات الواحدة بعد الأخرى على جنكيزخان وهو جالس على خيمته في هدوء يتأمل النار المتقدة بجواره، ثم رويداً رويداً خفت حدة العاصفة الثلجية وتقدمت جموعهم حتى وصلت إلى غابة تصلح للاحتماء من قسوة البرد، هنا أصدر العاهل المغولي أوامره بالتوقف، وأرسل في طلب ابنه تولوي.

حضر تولوي ليجد أباه راقداً إلى جوار نار الخيمة متدثراً في قماش رمادي وفراء أسود، وتبدو على محياه آثار الإرهاق والتعب، وتتراءى من خلالها إضمحلاح القوة في بدنه، فقال لابنه:

- لقد اتضح لي الآن أنه يجب أن أترك كل شيء.

مكث جنكيزخان مريضاً لبعض الوقت وفي يوم ٢٨ أغسطس ١٢٢٧ م (رمضان ٦٢٤ هـ) أسلم روحه لبارئها عن عمر يقدر بستين عاماً، ولم يعلن في الحال خبر الوفاة، بل ظل سراً مكتوماً حتى على أقرب المقربين إليه، وبقي العلم مرفوعاً في مكانه كالمعتاد، وأمام مدخل الخيمة رشق رمح على الأرض، وأبعد الحراس العاديين عن الخيمة بحجة أنها إرادة القائد.

وطوال الرحلة عبر الأراضي الصينية كان المغول يقتلون كل من تقع عيناه على العربة التي تنقل الجثمان، ولدى وصولهم إلى منابع نهر كيرولين أعلن نبأ الوفاة على جموع يأجوج ومأجوج، وظل جثمانه ينتقل بالدور في القصور الملكية عند زوجاته حيث تقاطر الأمراء والأميرات والقادة العسكريين وزعماء القبائل من كل حدب وصوب لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة على الزعيم الذي خرج بهم على العالم.

وبانتهاء مراسم الحداد اصطفت كتائب مختارة من الجند حول تابوت العاهل المغولي لتحمله إلى مثواه الأخير، وفي مكان ما وعلى

سفح واحد من مرتفعات جبال برقان قالدون (جبال كنني) دفن الجثمان في قبر أحكم إخفاءه وبطريقة يصعب الاهتداء إليه، مهما تحرى الباحث الدقة في البحث.

خلدت جموع يأجوج ومأجوج على أثر وفاة قائد الخروج إلى فترة من الهدوء والسكون استمرت عامين كاملين ظلت خلالها بلا قيادة ولا زعيم، وهي التي وصف المؤرخون فيها أمورهم بعدم الاستقرار والاضطراب، في إشارة صريحة إلى خفة حدة التأجج في القوم، وأخيراً رأى الأمراء والقادة العسكريين ضرورة التعجيل باختيار زعيم جديد، فأوفدوا لاستدعاء القادة المنتشرون في الأراضي البعيدة للحضور فوراً إلى قراقورم حاضرة انطلاقهم الأولى.

وفي ربيع عام ١٢٢٩ م ٦٢٦ هـ التأم مجلس القوريلتاي (المجلس الأعلى لأمراء المغول) على ضفاف نهر كيرولين، وشرعوا في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار قائد جديد، وفي النهاية أجمعوا على اختيار أوكتاي ابن جنكيزخان خاقاناً أعظم (رئيس الروساء)، وطبقاً للمراسيم والعادات المغولية أَمر بتقديم الأطعمة لمدة ثلاثة أيام متتالية صدقة على روح الفقيد، وما أن حل فصل الصيف حتى حج الزعيم الجديد إلى قبر قائد الخروج، وهناك أقام حفلة تكريم لذكراه قدم فيها أربعين فتاة من نسل الأمراء الذين كانوا يلازمونه على جياد مطهمة أصيلة إلى روحه.

وقد أدى ظهور قيادة جديدة لدورة الخروج إلى ارتفاع حدة التأجج في القوم، وبرزت في أوضح صورها في زحفهم على العالم الإسلامي، وهو الزحف الذي أعده أوكتاي بنفسه، وأسند قيادته إلى جرماغون نويان، ووضع تحت يديه ما يزيد عن الخمسين ألفاً من المقاتلين الأشداء، ليس فقط بغرض تكملة الفتوح، وإنما أيضاً للقضاء على القوة الجديدة والتي بدأت بالفعل تتصدى لمن كان موجوداً منهم فيما وراء النهر بقيادة جلال الدين الوريث الشرعي للإمبراطورية الخوارزمية.

ولما بلغ الجيش خوارزم طلب جرماغون المدد من أمراء المغول وحكامهم في الإقليم، فأمدوه بقوات كبيرة تقدر بحوالي مائة ألف جندي، وبسرعة فائقة عبر الجيش خراسان، ومنها إلى الأقاليم الغربية حيث تمكنوا من استعادة الري وهمدان وما بينهما، ثم قصدوا أذربيجان، وطوال عبثهم في أراضي الإمبراطورية لم يقوى السلطان جلال الدين على الحركة بل وقف عاجزاً إزاءهم. وزادت حالته سوءاً اختلاف جنده وتمردهم عليه، وخروج أحد وزرائه عن طاعته في أعداد كبيرة من المقاتلين.

والسبب الذي أوقع السلطان جلال الدين في كل هذا غاية في الغرابة. وفي منتهى السقوط الأخلاقي أورده ابن الأثير على النحو التالي:

«كان لجلال الدين خادم خصي اسمه قلج. وكان يهواه، فاتفق أن الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، ولا لمجنون ليلى، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجالة، وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ، فمشى الناس رجالة، ومشى جلال الدين بعض الوقت راجلاً، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا، ولكنه أنكر عليهم عدم إظهارهم من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم.

ثم لم يدفن ذلك الخصي، وإنما كان يستحصبه معه حيث ثار وهو يلطم ويبكي فامتنع عن الأكل والشرب، وكان إذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا إلى قلج ولا يتجاسر أحد أن يقول له أنه مات، فإنه قيل له مرة أنه مات، فقتل القائل له ذلك، إنما كانوا يحملون إليه الطعام ويعودون فيقولون: إنه يقبل الأرض ويقول أنني الآن أصلح مما كنت، فلحق امراؤه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع ولا سيما بعد خروج المغول، فحينئذ دفن الغلام الخصي، وراسل الوزير واستماله

وخدعه إلى أن حضر، فلما وصل إليه بقي إياماً وقتله، وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها»[1].

ومهما يكن من أمر فقد عبر المغول بقيادة جورماغون في أوائل ٦٢٨ هـ ١٢٣١ م نهر آموية في طريقهم للقبض على جلال الدين، فلما علم بنية العدو عين وزيره شمس الدين القميري على قلعة كيران وعهد إليه بحريمه ورحل إلى تبريز عاصمة إقليم أذربيجان، ظناً منه أن المغول سيقضون شتاء هذا العام في العراق العجمي، فإذا بهم يحاصرون مراغة، وبعد امتناع من أهلها أذعنوا بالطاعة على أمان طلبوه، بذله لهم المغول، وتسلموا البلد فقتلوا من أبدى مقاومة في البداية، ثم انطلقوا في أثر السلطان.

وبغته حل المغول في سراب، فأسرع السلطان ناحية بشكين، وفي الليلة التي وصل فيها سقط سقف القصر فتطير من ذلك وأيقن أن أمر دولته يؤذن بالأفول، ويصف الجويني آثار هذا الحادث العارض في نفسه فيقول:

«فأظهر تجلده فبان كالطير المذبوح، أو كحيوان متوحش وقع في الشبكة، وقد وضع الصياد في عنقه الرسن، حتى يدعه نشيطاً ذا حركة، حتى إذا وصل الحبل إلى غايته شده عليه، وهكذا فعلت به الأيام»[2].

وفي اليوم التالي توجه إلى سهل موغان المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين، وبعد خمسة أيام من إقامته هناك لحق به المغول فترك قصره ليلاً ورحل إلى قبان، وحين رأى المغول قصره خالياً عادوا أدراجهم إلى جورماغون وكفوا عن مطاردته، وقد لامهم جورماغون وعنفهم عن فشلهم بقوله:

- كيف تهملون خصماً يتوارى وقد بلغ به الضعف مبلغه ولا تلاحقونه.

---

(١) الكامل في التاريخ ج (١٢) - ابن الأثير ص ٤٩٦، ٤٩٧.

(٢) تاريخ فاتح العالم ج (٢) الجويني ص ٨٧.

ثم كلف نايماس وبعض الأعيان من الأمراء مع جماعة من الترك بإقتفاء أثر السلطان والوصول إليه في أي مكان.

أمضى السلطان شتاء عام ٨٢٨ هـ في أورمية وأشنو وهو في غاية الضعف، حاول خلالها الاستنجاد بامراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسي وعزم على السير إليهم جميعاً وإخبارهم بما آل إليه حال المسلمين، وتحذيرهم من عاقبة تباطئهم وإهمالهم لنجدته، وطلب منهم المساعدة العاجلة لدرء خطر المغول قبل أن يتوغلوا في قلب العالم الإسلامي وتهديد عاصمة الخلافة الإسلامية، ففارق أذربيجان إلى خلاط، وأرسل إلى نائب الملك الأشرف يقول له:

- وما جئنا للحرب ولا للأذى، إنما الخوف من هذا العدو هو الذي حملنا على قصد بلادكم.

وفي خلاط بلغه أن المغول في أثره وهم عازمون على قصده ومجدون في اللحاق به، فاتجه مسرعاً نحو آمد في أعالي نهر دجلة، حيث أعد له واليها عدة أماكن للإقامة تمويهاً لمقر بياته، وفي آمد بلغ اليأس بالسلطان مداه، وأظلمت الدنيا في عينيه، فأقبل على الملاهي والملاذ ليخفف بشيء من الفرح والسرور ما يعانيه من هموم الدنيا وقرب زوالها.

يحكي الجويني عن حالة السلطان ومن معه فيقول:

«... والخلاصة أن أركان الدولة والأعيان غرقوا مع السلطان في معاطاة الكؤس المذهلة للنفوس. وانغمسوا في السماع من غير استماع إلى أي عمل، وأبدوا استعداداً لضرب الدف والوتر وليس للضربات في الوعى، وفضلوا بطون الإناث على متون الفحول، ومالوا إلى العبلاوات والرقاق، وعزفوا عن المرهفات العتاق.

هذا هو الملك الذي جعل الصهوة عرشه والسرج فراشه، والدرع

قميصه، فغدا بطل الأبكار ربات الحجال، خالف ما عهد عنه، فبدل الطرب بالحرب، والمدام بجراح الأيام، نسي الطعن وأقبل على عسل المحبة»[١].

ومضت أيام وليالي والسلطان على هذه الحالة. وفي منتصف إحدى الليالي تسلل المغول إليه خلسة بعيداً عن أعين الحراس، وهم يدبون دبيب النمل دون أن يهتدوا إلى مقره، وأحس بحركتهم القائد الخوارزمي أورخان فأسرع نحو فراش السلطان وكان قد غفا غفوته الأولى وهو في حالة سكر شديد، ونادى عليه كثيراً فلم يستيقظ، فصب على وجهه ماءاً بارداً. ولما عاد إلى وعيه وتكشفت له حقيقة ما يجري، أدرك استحالة التدبير، وركبه العجز وأحس بالخطر يداهمه من كل ناحية. فكلّف أورخان بأن يقاوم المغول قدر المستطاع حتى يتقدم هو ويرحل، وهكذا ولى السلطان هارباً.

قاوم أورخان قليلاً، ثم لاذ هو الآخر بالفرار، فتعقبه المغول ظناً منهم أنه السلطان، فعاد منهم خمسة عشر من الفرسان لتعقب السلطان أدركه اثنان قتلهما جلال الدين وعاد الباقون بعد أن يئسوا من الظفر به ليشتركوا مع إخوانهم في قتال شرس مع جنوده. انتهى بقتل الكثيرين وتفرق من مضى منهزماً على وجهه، فمنهم من قصد حران فأوقع بهم أميرها وجنده، فأخذوا ما معهم من الدواب، وقصدت طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار وأربل وغيرها فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي، واختار البعض منهم العمل كجنود مرتزقة في خدمة سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم، وكانوا لفترات طويلة سبباً في إثارة كثير من المتاعب في البلاد التي يعملون بها.

أما النهاية المأساوية للسلطان جلال الدين بعد هروبه بمفرده فيرويها النسوي بعد تدقيق طويل بقوله:

---

(١) المصدر السابق ص ٨٩.

«وأيس الباقون (يقصد الخمسة عشر مغولياً) من الظفر به فرجعوا ثم صعد الجبل. وكان الأكراد يحفظون الطرق لسحت يجمعونه، فأخذوه وسلبوه كعادتهم بسائر من ظفروا به، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سراً:

ـ أنني أنا السلطان فلا تستعجل في أمري ولك الخيار في إحضاري عند الملك شهاب الدين فيغنيك، أو إيصالي إلى بعض بلادي فتصير ملكاً.

فرغب الرجل في إيصاله إلى بلاده، ومشى به إلى عشيرته وحلته، فتركه عند امراته ومضى إلى الجبل لإحضار خيله، فبينا الرجل غائب إذا وافى شخص كردي من السفلة والأراذل وبيده حربة فقال للمرأة:

ـ ما هذا الخوارزمي وهلا تقتلونه؟

فقالت:

ـ لا سبيل إلى ذلك وقد أمنه زوجي. وعرف أنه السلطان.

فقال الكردي:

ـ فكيف تصدقون بأنه السلطان؛ وقد قتل لي بخلاط أخ خير منه.

فضربه بالحربة ضربة أغنت عن الثانية، وألحقته بالنفوس الفانية (١٥/٨/١٢٣١ م منتصف شوال ٦٢٨ هـ).

وبعث الملك المظفر إلى ذلك الجبل بعد مدة، وجمع سلب السلطان والفرس الذي كان تحته، والسرج والسيف المشهور. والعودة التي كان يشدها وسط شعره، فلما أحضرت شهد كل من حضر من خواصه الذين كانوا معه في تلك الأيام مثل أورخان وطلسب أمير آخور، وجماعة أخرى بأن هذا سلبه، وبعث فاحضرت عظامه ودفنت»[١].

---

(١) سيرة السلطان جلال الدين ـ النسوي ص ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣.

لم يعرف المغول بالتحديد أين هرب السلطان جلال الدين، ولا إلى أي بلد قصد، وحتى المسلمين أنفسهم لم يعرفوا مصيره مما أحدث بلبلة واضطراب في المناطق التي كان يسيطرَ عليها، ولكن الشيء المؤكد الذي اطمأن إليه المغول هو تشتت جنده وتفرقهم أيدي سبأ، مما ساعدهم كثيراً في المضي قدماً في وضع أيديهم على كافة ممتلكاته، ومن ثم انفتح الطريق أمامهم نحو الخلافة الإسلامية في بغداد.

ولأجل هذا قسموا قواتهم الرئيسية إلى ثلاث أقسام:

ـ هبط الأول منها نواحي آمد ومدن أزرت وصيّا فارين، ثم قصدوا مدينة أسعرد، فتصدى لهم المسلمون ببسالة وقاتلوهم حتى بلغوا اليأس من النصر، فبذل لهم المغول الأمان فوثقوا بوعودهم واستسلموا لهم، ولما فتحت المدينة أبوابها وتمكنوا من أهلها وضعوا فيهم السيف حتى كادوا يأتون عليهم، ولم يسلم إلا من اختفى وقليل ما هم.

ثم ساروا إلى مدينة طنزة ففعلوا فيها مثلما ما فعلوا في مثيلاتها ومنها شقوا طريقهم إلى وادي القريشية، وهو وادي غني فيه مياه وبساتين والطريق إليه ضيق، فتصدى لهم أهل القريشية فمنعوهم وامتنعوا عليهم، وقتل الكثير بين الطرفين، مما أجبر المغول على العودة دون بلوغ غرضهم، وساروا في البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف في طريقهم، فبلغوا ماردين فنهبوا ما وجدوا فيها، واحتمى واليها ومن جاورهم بقلعة ماردين، فلم يتعرض لهم المغول، وساروا حتى وصلوا نصيبين الجزيرة فوجودها مغلقة الأبواب، فأقاموا عليها بعض من نهار، ونهبوا سوادها وقتلوا ما ظفروا به. فغادروها ومضوا إلى سنجار، فنهبوا وقتلوا ما وسعتهم حركتهم ثم عادوا إلى قواعدهم.

أما القسم الثاني منهم فقد مضى على طريق الموصل حتى وصل إلى قرية تسمى المؤنسة على مقربة من نصيبين، فنهبوا واحتمى أهلها وغيرهم بخان فكبسوا عليهم وقتلوا كل من فيه. وحكى رجل من أهالي القرية جانباً مما شاهده من أفعال المغول فقال:

«اختفيت منهم ببيت فيه تبن، فلم يظفروا بي وكنت أرآهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان يقول لهم: لا بالله، فيقتلونه، فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول: لا بالله»[1].

أما الجيش الثالث فقد قصد نصيبين الروم على نهر الفرات وكانت تابعة إدراياً لآمد، فنهبوها وقتلوا من فيها، ثم عادوا إلى آمد، ومنها ولوا وجهتهم نحو بدليس فتحصن أهلها بالقلعة والجبال فقتلوا منهم يسيراً واحرقوا المدينة ثم ساروا إلى باكري وهي من أحصن المدن، فملكوها عنوة، وقتل كل من فيها، ثم قصدوا مدينة آرجيش فلقيت نفس مصير الأخرى.

أدخلت هذه العمليات الفزع في قلوب المسلمين، وبلغ بهم الرعب الياجوجي مبلغاً أذهل المؤرخين وأقعدهم عن العثور لتفسير له، والقصص التي رواها ابن الأثير خير شاهد على هذا الرعب الذي لا نظير له، فيقول حاكياً ما تناقله الناس:

«ولقد حكى لي عن الأهالي حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله تعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كبير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد الأخر لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس.

ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع المغولي ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض. ومضى المغولي فأحضر سيفاً وقتله به.

وحكى لي رجلاً فقال: كنت أنا ومعي سبعة عشر رجلاً في طريق فجاءنا فارس من المغول وأمرنا أن نكتف بعضنا بعضاً، فشرع أصحابي

(١) الكامل في التاريخ ج (١٢) ابن الأثير ص ٥٠٠.

يفعلون ما أمرهم فقلت لهم، هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب، فقالوا نخاف، فقلت هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذ سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا»[1].

تجمعت الجيوش الثلاث في ذي الحجة ٦٢٩ هـ وتحركت من أذربيجان قاصدة إقليم أربل، وفي طريقهم قتلوا كل من تصادف وجوده في طريقهم من التركمان والأكراد وغيرهم إلى أن دخلوا إربل، فنهبوا القرى وقتلوا سكانها، وبرز لهم مظفر الذين حاكم أربل في حشد من الجند، وطلب مدداً عاجلاً من الموصل سار بهم جميعاً نحو المغول، ولما بلغه خبر عودتهم إلى أذربيجان أقام في منطقة نفوذه ولم يتبعهم.

وفي أواخر هذه السنة استسلمت أغلب مدن أذربيجان الكبرى ودخل أهلها في طاعة المغول، وتفرق جنده حتى تخطفهم الناس، وأمعن المغول في تخريب ديار بكر والجزيرة وأربل وخلاط لم يمنعهم مانع، ولا وقف في وجوههم واقف، وانضاف إلى ذلك كله إنقطاع أخبار جلال الدين، سقط في أيديهم وأذعنوا بالطاعة للمغول وحملوا إليهم كل ما طلبوه من الأموال والثياب.

فعلى سبيل المثال لما اقتربوا من تبريز عاصمة إقليم أذربيجان أرسل إليهم القائد المغولي يدعوهم إلى الطاعة. ويتهددهم بقتل الأنفس وخراب الديار إن امتنعوا عليه، فأرسلوا إليه المال الكثير، والتحف من أنواع الثياب إلا برسيم وغيرها، وكل شيء حتى الخمر، فأعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدموهم عنده، فقصده قاضي البلد ورئيسه وجماعة من الأعيان، فلما حضروا عنده طلب منهم اختيار المهرة من صناع الثياب الخطائي وغيرها ليستعملهم فيما يريده منهم، فأجابوه لطلبه.

ولأول مرة ومنذ دخولهم العالم الإسلامي ينقل المغول عملياتهم

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠٠، ٥٠١.

الحربية إلى العراق العربي، ففي عام ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) زحفت فرقة منهم حتى بلغت سامراء عندها أحس الخليفة بالخطر يهدد عاصمة الخلافة الإسلامية فاتخذ خطة دفاعية، ودعا علماء المسلمين وجعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله، وبذلك تجمع له جيش كبير أسند قيادته لمجاهد الدين الدويدار.

واصطدم جيش الإسلامية بالفرقة المغولية في موقعة جرت وقائعها بالقرب من تكريت ما بين حمرين وجبلة على نهر دجلة، حيث تمكن من هزيمة المغول وفك أسر عدد كبير من المسلمين، ممن وقعوا في أيديهم أثناء اجتياحهم لإقليم أربل.

ولم يمض وقت طويل على هزيمة المغول حتى عاودوا الكرة مرة أخرى انتقاماً لقتلاهم. وقصدوا هذه المرة بغداد مباشرة في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، حيث استطاعوا استدراج جيش الخلفية إلى كمين نصبوه له في الخانقين، فقتلوا منهم عدداً كبيراً، عادوا بعدها من حيث جاءوا.

أما القوات المغولية التي واصلت زحفها شمالاً خارج العالم الإسلامي فقد حققت هي الأخرى انتصارات ليست بأقل مما حققه إخوانهم في الجنوب، ففي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) دخلوا دون مقاومة تذكر مدينة كنجة في إقليم أران، حيث قتلوا غالبية أهلها، وخربوا المدينة بأسرها، وفي السنة الثانية هاجموا جورجيا ونتيجة لمقاومة ملكتها (روسودان) استعملوا مع الأهالي أفظع أساليب البطش والقتل والتخريب، وأجبرت الملكة في النهاية على الفرار.

وسقطت في أيديهم أغلب مدن جورجيا المهمة وفي مقدمتها تفليس العاصمة.

ثم امتد زحفهم نحو أرمينيا الكبرى، وخربوا عاصمتها آمن بعد حصار طويل عاد بالويل على سكانها ومبانيها وقصورها، كما تعرضت

(قرس) إحدى مدن الإقليم إلى نفس المعاملة رغم مسارعة أهلها بالتسليم.

وفي الوقت الذي كان فيه المغول يخربون آخر ما تبقى من الإمبراطورية الخوارزمية ومنها زحفوا على الخلافة العباسية، تحرك أوكتاي بنفسه يصحبه أخويه جغتاي وتولوي في حملة كبيرة نحو الصين، فبعد عبورهم سهل هوانغ هو استولوا على أغلب المدن الواقعة على حوض نهر (واي)، ثم انتقلوا على أثر ما حققوه من انتصارات خاطفة إلى المرحلة الثانية من الزحف والتي تقتضي تكتيكاً مختلفاً، عدلوا فيه بصفة رئيسية على سرعة حركتها والاستغلال الجيد لأراضي العدو، ولذا تجنبوا الطريق المباشر المؤدي إلى توانج كوان، وقاموا بحركة التفاف رائعة أربكت خطوط الدفاع الصينية، ومن ثم قسموا أنفسهم إلى جيشين:

الأول: بقيادة أوكتاي وضم تقريباً معظم القوات المقاتلة، فاستولى على مدينة هو تشونغ، واجتاز النهر الأصفر دون صعوبة تذكر للإغارة على هونان من جهة الشمال، وذلك في فبراير ١٢٣٢ م.

الثاني: بقيادة تولوي وضم جيشه حوالي ٣٠ ألف جندي توجه صوب الجنوب الغربي وأغار على هونان حيث بلغها في يناير ١٢٣٢ م.

ثم التقى الجيشان بعد إداء مهامهما عند كيون تشو وسط هونان. حيث عهد إلى القائد ذو الخبرة الطويلة في الحرب سوبوتاي بفتح (كاي فونغ فو) عاصمة أسرة شين (الصين الشمالية) ذات الحصون المنيعة والحامية الضخمة. فحاصرها حصاراً استمر زمناً طويلاً أبدى فيه المدافعون شجاعة فائقة. ولكن العاصمة سقطت في النهاية، وأعمل المغول السيف في السكان، ولم ينقذ المدينة نفسها من الدمار والخراب إلا الالتماس الذي تقدم به الحكيم الصيني يى ليو جوتساي، إلى أوكتاي بألا يأمر بتدميرها ويلحقها بأملاكه. فاستجاب العاهل المغولي لطلبه.

أعد إمبراطور أسرة شين (نن كياسو) قبيل سقوط عاصمته مائة ألف جندي أنفذهم للقاء المغول، وحين علم بسقوط العاصمة إرتاع وانتابه

اليأس فجمع أبناءه ونساءه وكل من يعز عليه ويخشى وقوعه ضحية عنف المغول وغضبهم، ودخلوا جميعاً في بيت من بيوت الخشب، وأمر بإضرام النار فيه، فاحترقوا جميعاً.

وتصادف أثناء ذلك أن مرض أوكتاي مرضاً شديداً وساءت حالته حتى بلغ حد الاحتضار، وجرياً على عادة المغول اجتمع السحرة وأخذوا يقرؤون له الرقى والتمائم، ثم أعدوا تعويذة غسلوا بها موضع مرضه بالماء في قدح خشبي. في هذا الوقت جاء أخوه تولوي لعيادته، ولفرط حبه له تناول القدح واتجه نحو السماء بتضرع قائلاً:

«أيها الإله العظيم الأزلي، إذا كنت تعاقب الخان على ذنوبه فإني أكثر منه ذنوباً، إذ أنني في المعارك قتلت أناساً أكثر مما قتل، وسبيت نساءهم وأبناءهم، وأبكيت آباء الأسرى وأمهاتهم، وإذا كنت تريد أن تنقل عبدك إلى جوارك لجمال منظره وشموخ قدره وسمو فضله، فأنا أجدر منه وانسب فخذني بدلاً من أوكتاي، واشفه من هذا الداء، وحملني آلامه ومتاعبه»[1].

تفوه تولوي بهذه الكلمات في خشوع تام، وببطء شديد قرب القدح من شفتيه وتجرع ماءه، وبعد أيام تحسنت صحة أوكتاي وشفي تماماً، ثم استأذن تولوي في الإنصراف لاستئناف فتوحاته، وبعد عدة أيام مرض ومات (٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م) وكانت سيور قوقتيتي بيكي زوجته تقول دائماً:

«لقد رحل الذي كان فيه دلالي ومناي ضحية لأوكتاي وفداه بنفسه»[2].

وعلى أي حال فبعد حروب طاحنة استراد المغول أغلب ما أخذوه عنوة في المرحلة الأولى لخروجهم، وللمرة الثانية امتد سلطانهم حتى حدود أسرة سونج في الصين الجنوبية، حيث توقفوا لا عجزاً منهم، وإنما

(١) (٢) جامع التواريخ ـ خلفاء جنكيزخان ـ رشيد الدين ص ٣٧ و ١٦٩.

نظير لمساعدات قدمتها لهم الأسرة في معاركهم الأخيرة ضد إخوانهم في الشمال، وزادوا على ذلك بأن تنازلوا لهم عن بعض المناطق الواقعة إلى الجنوب الشرقي من هونان.

غير أن امبراطور الصين الجنوبية لي تسونغ لم يقتنع بما قدم له بل طمع في الحصول على هونان بأكملها، فبادر بمهاجمة المغول هجوماً مفاجئاً نتج عنه الاستيلاء على كاي فونج ولويانج، ونهض المغول للانتقام والرد على هذا العدوان السافر، وفي الاجتماع الذي عقد في قراقورم وضم الأمراء والقادة العسكريين عام ١٢٣٥ م، قرر المجتمعون تحطيم أسرة سونج والاستيلاء على أملاكها.

تشكلت ثلاثة جيوش لأداء مهام مختلفة تتركز كلها حول طرد أسرة سونغ مما استولت عليه، وتدمير امبراطوريتهم، واستطاعت تحقيق انتصارات متعددة، ولكن الحرب مع الأسرة ظلت متقدة لفترة قاربت الأربعين عاماً (١٢٣٥ ـ ١٢٧٩) لم يشهد أوكتاي إلا مراحلها الأولى، ولم ينجح المغول في تدمير أسرة سونج والاستحواذ على أملاكهم إلا عام ١٢٧٩ في عهد قوبيلاي حفيد جنكيزخان.

ومما تقرر في القوريلتاي المعقود عام ١٢٣٥ أيضاً القيام بحملة على أوروبا، ولكن أوكتاي لم يعط أوامره بالإعداد لها إلا بعد عودته مظفراً من الصين، حينها أشرق بنفسه على إعداد جيش يوازي في العدد الجيش الذي أعده جنكيزخان في خروجهم على العالم الإسلامي.

أسند أوكتاي قيادة الحملة للأمير باتو ابن شقيقه جوجي ويساعده في القيادة نخبة من امراء الجيل الجديد، أمثال منكو وأخوه بوجك أبناء تولوي، وكيوك وأخوه قدان ابناء أوكتاي، وبوري وأخوه بايدار أبناء جغتاي واورده وشيبان وتنكقون أبناء جوجي، وتولى قيادة العمليات الحربية القائد المحنك سوبوتاي، وقد بلغ وقتذاك الستين من عمره.

بدأت عمليات المغول الحربية في أوروبا مع تباشير خريف عام

١٢٣٦ تدعمها خبرة الشيوخ وحماس الشباب، وذلك لتحطيم قوات القبجاق والبلغار معاً كخطوة تمهدية لتأمين سلامة مواصلاتهم وظهرهم على طول نهر الفولجا والدون، فتحرك سوبوتاي على رأس قوة لمهاجمة مملكة البلغار على نهر قاما، حيث انتهت المعارك بتدمير المملكة وتشريد أهلها، في الوقت نفسه زحف منكو على رأس قوة أخرى لكسر شوكة الترك القبجاق المنتشرون في براري روسيا الجنوبية، فأعلن قسم منهم الخضوع والإذعان، وآثر القسم الآخر الإرتحال صوب أوروبا واللجوء إلى المجر.

فتح تطهير براري روسيا الجنوبية من القوى المناوئة الطريق واسعاً أمام المغول نحو الإمارات الروسية، فصبرت جحافلهم نهر الفولجا في شتاء عام ١٢٣٧ م وهو وقت لن يجرؤ غيرهم على السير فيه، وكان مقصدهم الأول أقوى نقطة في روسيا (أمارة ريهنان) وهي مدينة فلاديمير ذات التحصينات المنيعة والدفاعات الكثيفة، وكانت حاميتها بقيادة الأمير يوري.

تجنب المغول منذ البداية مهاجمة المدينة مباشرة وقاموا بحركة التفاف واسعة حولها أوقعت المدافعين في حيرة وقلق وترقب وحذر، وفي طريقهم هاجموا بلدة ريازان في وسط نهر أوكا، وبعد خمسة أيام من القصف المتواصل بالمنجانيق سقطت البلدة، وكان ذلك في ٢١ ديسمبر ١٢٣٧ م، أما ما فعلوه في أهلها فيرويه أحد المؤرخين بقوله:

«لم تبق في البلدة عين مفتوحة لتبكي على الأموات، لقد صلب البعض وخوزق البعض الأخر، وأحرق الرهبان، واغتصبت الراهبات والعذارى في الكنيسة وعلى مرأى من أنسبائهن»[١].

ثم واصل المغول حركتهم الإلتفافية وقصدوا بلدة موسكو، ولم تكن وقتها بذات أهمية، ولكنها تعرضت في فبراير ١٢٣٨ للنهب

---

(١) جنكيزخان ـ محمد أسد الله ص ٢٩١.

والتدمير، وكذلك الحال مع بلدة سوزدال، وبخرابها اكتملت دورة الإلتفاف حول فلاديمير مما أدخل الرعب في قلوب الأهالي، وارتبك الأمير يوري وأحس بنفس الخوف الغريب الذي أحس به الكثير ممن ابتلو بيأجوج ومأجوج، فترك المدينة في جنح الليل ليتخذ من سيت أحد روافد نهر مولوقا مركزاً لعملياته العسكرية المقبلة تاركاً مهمة الدفاع لحامية مضطربة وأهالي خائفون.

ولما علم سوبوتاي بفرار الأمير أرسل في أثره مفرزة عسكرية لرصد تركحاته وإحباط أي محاولة لنجدة المدينة. وشرع هو في ضرب حصار حول المدينة. ولمدة ستة أيام بكاملها أصلى مبانيها بنيران النفط وحجارة المجانيق بصورة كثيفة أوهنت دفاعاتها ومدافعيها، وفي يوم ١٤ فبراير ١٢٣٨ م أخذت فلاديمير عنوة ووسط لهيب النار دارت في شوارعها مذابح رهيبة إمتدت حتى إلى أولئك الذين احتموا بالكنائس.

أما المعركة الفاصلة فقد جرت وقائعها في مارس من نفس العام على نهر سيت لتحل الهزيمة بما تبقى من جيش الإمارة، وليسقط الأمير يوري صريعاً تحت سنابك خيل المغول. وعلى بعد مسافة مئة كيلومتر من مدينة نوفجورود توقف المغول نتيجة لذوبان الجليد وحلول فصل الربيع، إذ تحولت الأرض إلى مستنقعات من المياه يتعذر اجتيازها. الأمر الذي رفع بالمغول للتحرك جنوباً نحو نهر الدون للاستراحة قليلاً قبل بدء المرحلة الثانية من الحملة على روسيا.

ومضى عام ١٢٣٩ م كله دون تحركات ملحوظة للمغول، غير أن تواجدهم الكثيف في المنطقة، وما أحدثوه من خراب للبلاد وقتل للعباد بغير تمييز أحدث اضطراباً واسعاً بين الشعوب أجبر الكثير منها على الهجرة الجماعية غرباً طلباً للأمن وخوفاً من المذابح العامة.

وبحلول عام ١٢٤٠ عاد المغول إلى سابق عهدهم، حيث شقوا طريقهم هذه المرة نحو أوكرانيا مفتتحين العمليات التخريبية بمدينة

تشيرنيكون ومنها انحدروا نحو كييف، وكانت وقتئذ من أكثر مدن الإقليم فخامة وازدهاراً، حتى أن باتو وقف مدهوشاً من عظمتها وجمالها وفخامتها.

وكالعادة أرسل باتو وفداً لإقناع السكان بالاستسلام والخضوع ولكنهم قتلوا أعضاء الوفد مما أثار حفيظة المغول، وبعد هجوم كاسح وعنيف سقطت المدينة، واندفع الغزاة في شوارعها فلم يرحموا أحداً، وقتلوا عدداً من أهلها لم يجد من بقي منهم حياً القدرة على دفنهم، وظلت الجثث منتشرة في المدينة وضواحيها بعد ست سنوات من تدميرها، حيث رأى جماجمها وعظامها الراهب كاربينى أثناء مروره إلى بلاد الخان في قراقورم.

انتهت بخراب كييف الحملة على روسيا، انتقل المغول بعدها إلى المجر (هنغاريا)، وذلك لأن المجر بسهولها الواسعة والتي تحميها من جهة الشمال الشرقي جبال الكربات تشكل قاعدة عظيمة للهجوم على أوروبا الغربية، وقد وضع الداهية سوبوتاي لهجومه المرتقب خطة غاية في الدقة والبراعة وعلى مستوى ندر مثيله.

فعقب انتهاء الحملة على روسيا حشد سوبوتاي كل قواته في منطقة لامبرغ في غاليسيا الروسية، وكان هدفه الأول توجيه الطعنة القاتلة إلى المجريين مستغلاً فصل الشتاء القارس للزحف مباشرة لعاصمة المجر كران، وسوبوتاي رغم تركيزه على القوى الرئيسية في المنطقة لم يغفل عن القوى الأخرى التي لن تقف مكتوفة الأيدي إن هو تقدم نحو المجر، مثل البولنديين والألمان، الأمر الذي جعله يولي اهتماماً خاصاً لسحق مصادر التهديد أولاً والاحتراس ثانياً من أي تدخل من جانب النمسا أو بوهيميا.

وبناء على خطة سوبوتاي فقد احتشد المغول بين منابع نهر الفيستولا وبلدة هاليكس كنقطة انطلاق نحو أوروبا، وهنا قسم سوبوتاي مقاتليه إلى قسمين وجه أقواهما نحو الهدف الثاني وهو إزاحة الأخطار التي قد تنجم من إنقضاض القوى الأوروبية عليه، أما الجيش الأضعف فقد ظل في نقطة الإنطلاق وهدفه عاصمة المجر.

أسند سوبوتاي قيادة الجيش الأقوى للأميرين كيوك وبايدار، ووفقاً للخطة المتفق عليها اجتازا نهر الفيستولا واقتحما مدينة سندومير، ومنها انقضا بسرعة الإعصار على الجيوش البولندية في سيزدلو بقيادة بولسلاس فهزموها هزيمة تبعثر من شدتها جندها في اتجاهات متباعدة، وفر بولسلاس قاصداً كراكاو، فمضى المغول في أثره، فهرب منهم ولجأ إلى مورافيا، ثم أوغلوا في داخل سيليزيا بسرعة متناهية حتى وصلوا نهر الأدور للقاء الدوق البولندي هنري عند مدينة لينيبتز.

يبلغ عدد الجيش الذي يقوده الدوق حوالي ٣٠ الف مقاتل معظمهم من الألمان والبولونيين، ومعهم عدد كبير من فرسان المعبد وفرسان التيوتون وحطام القوات البولندية، وكان الجيش البوهيمي بقيادة الملك ونسلاس بعيداً عن تجمع القوات الأوروبية بعداً لا يمكنه من اللحاق بهم إذا حمى الوطيس إلا في مسيرة يوم بكامله وبسرعة شديدة.

كان المغول أقل عدداً من القوات المتحالفة، ولذلك لم ينتظروا حتى يكتمل عقدهم بل بادروا إلى مهاجمتهم، فأوقع بهم المغول هزيمة هي بمثابة كارثة تمزقت فيها القوات الألمانية والبولندية وأبيدت كلها تقريباً، وقتل الدوق هنري ونبلاؤه جميعاً، وكذلك فرسان المعبد وغيرهم، واضطر المدافعون عن مدينة لينيبتز إلى إحراقها وتركها، وفي اليوم التالي عسكر الجيش البوهيمي على بعد ٨٠ كيلومتر من المدينة المحترقة وجهاً لوجه أمام المغول.

تميز جيش الملك ونسلاس ببطء الحركة كنتيجة طبيعية لثقل تشكيلاته، ولكنه كان رغم هذا العيب جيشاً قوياً يصعب على المغول مواجهته وتمزيقه، فلجأوا إلى الخديعة والمراوغة وذلك بحملهم للسير شمالاً باتجاه كلانس لحماية أراضيهم، وظن ونسلاس في البداية أن الغزاة قد وقعوا في شرك ومصائد كلانس، بيد أن الطلائع المغولية اكتشفت الشرك، فتراجعوا ببطء وهم يمنعون من تخريب سيليزيا ومورافيا وبعد أن

أنجز الجيش الغرض الرئيسي من الخطة اتجه جنوباً للإلتحاق بسوبوتاي.

إن التدابير التي اتخذها سوبوتاي لنجاح خطته وسلامة جيشه قد أتت أكلها وظهرت نتائجها، مما مكنه من الزحف على المجر بأربع جيوش على شكل نصف دائرة، وضع سوبوتاي نفسه في القلب، ليكون على إتصال قريب ومأمون ببقية جيوشه، مع تحقيق اقتصاد حقيقي في القوى والوقت، وحركت الجيوش الثلاث بحيث تتلاقى في وقت واحد عند نهر الدانوب قرب العاصمة المجرية، إذ كان يتوقع لقاء العدو عند هذه النطقة، ونُفذت الخطة بدقة متناهية.

انطلق الجيش الأول بقيادة شيبان صوب الناحية الشمالية من جبال الكاربات، ثم عبر بسرعة الجبال حتى ممر جبلونيكا والممرات المجاورة هابطاً على ضفاف نهر مارش وناك، وهكذا كانت حركة الجيش من جهة الشمال ما بين بولونيا ومورافيا ترمي إلى حماية الجيوش الأخرى من أي تدخل محتمل من جانب النمسا وفي الوقت نفسه على أهبة الاستعداد للفتك بأي قوى تسعى لعرقلة الخطة الرئيسية، واستمر الجيش في تحركه الحذر إلى أن اجتمع بسوبوتاي وجيشه.

وبتزامن دقيق وكأنه محسوب بدقات الساعة أكمل الجيش الثاني بقيادة باتو حركة مسيرته الدائرية غرباً وشرقاً عبر ترانسلفانيا منزلاً هزيمة مرة بالكونت المجري بلاتين، والذي حاول الدفاع عن ممرات جبال الكربات إلى إن اجتمع هو الآخر بسوبوتاي.

وأما الجيش الثالث والذي أسندت قيادته إلى قدان، فقد شق طريقه عبر ممر روسكا، ليدمر في طريقه مدينتي فارادين وزاناد ويقتل ساكنهما، وأخذ يتقدم بطريق وادي تيتيس حتى نهر الدانوب على مقربة من مدينة كران.

تمركزت جيوش المغول في المواقع التي حددت لها، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه كيوك يخوض معركة لينييتز، ولم يعرف

سوبوتاي حينها نتائجها ولكنه كان غاية في الاطمئنان لمسارها، وذلك استناداً على ما سبقها من عمليات جاءت كلها محققة لأهداف الحملة، الأمر الذي جعله يتأنى قليلاً معطياً لكيوك الوقت الكافي لإنجاز آخر مهامهه.

ولما تبين لسوبوتاي من واقع تحركات الجيوش الأوروبية سلامة خطته وصلابة موقفهم على جبهة القتال، أعطى أوامره للجند بالتراجع شرق نهر الدانوب وبطريقة بطيئة استغرقت ستة أيام تراءت للمجريين وكأنهم يتراجعون هرباً من شيء ما تجاه قواعد انطلاقهم الأولى، فعبروا الدانوب في أعقابهم حتى نهر ساجو، متخلين ليس فقط عن حماية النهر كخط دفاع، بل أيضاً عن احتمال تلقي التعزيزات من الحلفاء الأوروبيين.

عبر المغول نهر ساجو جهة الشرق على جسر قرب قرية موهى وضربوا خيامهم على طول النهر وفي مرتفعاته الجبلية في الخلف وبين الغابات، وموهوا على عدوهم مخيهم تمويهاً جيداً بحيث لا يظهر إلا ما لا يستفاد منه، وجاء الجيش المجري في أثرهم وضرب خيامه غرب النهر وبطريقة متلاصقة لا يفصل بينها إلا الحبال المشدودة بها، بحيث تعوق حركة الراجل ناهيك عن الفارس، وفي الضفة الثانية لاحظ باتو هذا الخطأ المميت فشبه مخيمهم بقوله:

- زريبة بقر في إسطبل ضيق[1].

بدأت المعركة الفاصلة ليلة ١٩ أبريل ١٤٤١ م بهجومين كاسحين للمغول ومن جبهتين مختلفتين، قاد الأول منها باتو وهاجم الجسر الذي كان تحت حراسة ألف جندي، وتحت ضغط المجانيق والنبال المنهمرة كالمطر اضطر قائدهم للذهاب إلى المعسكر لاستجلاب المزيد من التعزيزات، واستمر القتال بين الطرفين عنيفاً تساقط من ضراوته العشرات

(١) جنكيزخان - محمد أسد الله ص ٢٩٦.

من الجانبين، وعندما جرح القائد تراجع تاركاً قوة من فرسان المعبد لمتابعة القتال.

وبتزامن دقيق مع الهجوم الأول قاد سوبوتاي الهجوم الثاني، فعبر مخاضة بعيدة نوعاً ما ليفاجىء من الجنوب المجر وهم نيام، مما أشاع الفوضى في معسكرهم، زادها سوءاً تعثر الجنود والفرسان بحبال الخيام في إندفاعهم خارجها، أو للابتعاد خارج المعسكر الذي تحول إلى شرك، وانتهز المغول فرصة الإرتباك وأفسحوا لهم منافذ للهرب، ليطاردوهم على أرض مكشوفة بخيلهم السريعة وسهامهم التي تحمل الموت الزؤوم.

وبحلول منتصف نهار هذا اليوم تحول الجيش المجري إلى أشلاء ممزقة وتكومت جثث القتلى على طول الجبهة، هذا غير الذين تناثرت جثثهم على طول جبهة القتال. وكتب أحد المؤرخين يصف هذه الكارثة بقوله:

«لم يكن المرء ليرى على طول الطرق وطوال مسيرة يومين سوى المقاتلين الأموات وقد تساقطت جثثهم على الأرض كحجارة في محجرة، وكانت نهاية المطاردة أن جيشاً من حوالي ٥٠ إلى ٦٠ ألفاً قد أبيد فعلاً بكليته»[١].

إن معركة موهي في الواقع ليست معركة عسكرية بقدر ما هي مذبحة جماعية قتل فيها مع المجريين الألمان والكروات ومتطوعين من فرنسا وفرسان المعبد، وعلى أثرها انهارت مملكة المجر ودخل المغول عاصمتها دخول الظافرين، وفر الملك بيلا الرابع ناجياً بنفسه وأسرته، وأدار المغول في حاضرة المملكة مجزرة تقشعر منها الأبدان، ثم أحرقوا المدينة ودرسوها بالأرض.

بقيت بعض القلاع الصغيرة تقاوم مقاومة يائسة لم تلبث إلا قليلاً ثم

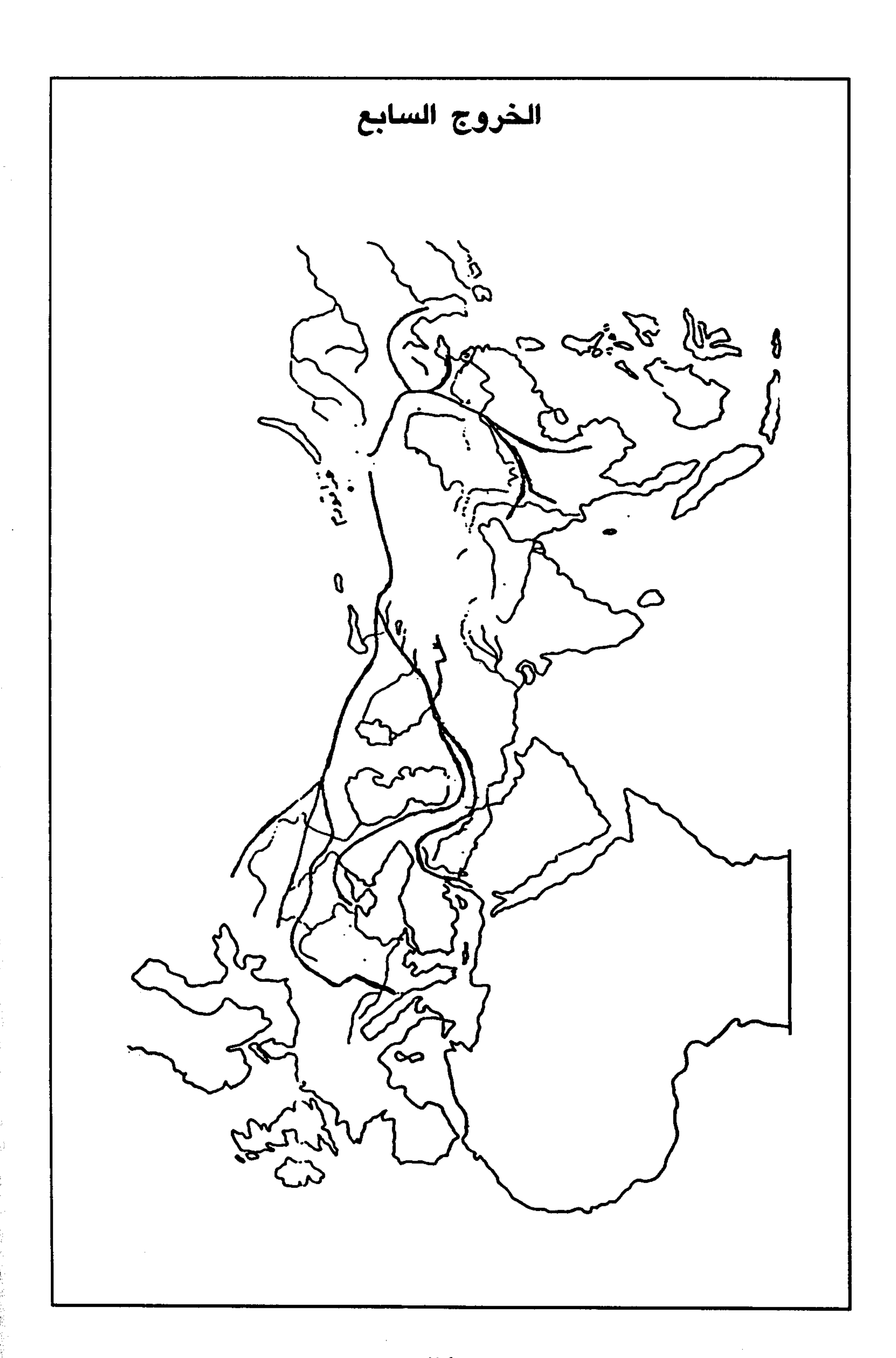
---

(١) المصدر السابق ص ١٥١.

أنهارت جميعها واستسلمت للمغول، وطوال صيف وخريف عام ١٢٤١ لم يجر قتال حقيقي، وفي مستهل عام ١٢٤٢ م قاد كيوك قوة عسكرية لمطاردة الملك بيلا الذي لجأ إلى كرواتيا. وفي طريقهم أنزلوا الخراب والدمار بمدينتي سبالاتو وكتارو على بحر الأدرياتاتيك، ثم كروا عائدين إلى مقر قيادتهم في المجر في مارس ١٢٤٢ م.

وأياً ما كان الأمر فإن معركة موهي قد وضعت أوروبا الغربية كلها في متناول أيدي المغول، فليس هناك مدينة أو قرية بعيدة عن فرسانهم أو آمنة منهم، ووقعت الشعوب برمتها فريسة للهلع والخوف من ظهورهم المفاجىء. وفي الكنائس أقيمت الصلوات والإبتهالات ليل نهار ليقيهم الله نقمة وغضب جموع المغول، إذ هم كما يعتقدون ابتلاء من الله، ولا راد له إلا الدعاء والتضرع.

الخروج السابع



وفي ١١ ديسمبر ١٢٤١ م توفى أوكتاي خان، وعلى جناح السرعة استدعى الأمراء وقادة الجند للعودة حالاً لحضور مجلس القوريلتاي في قراقورم، وذلك لانتخاب قائد جديد خلفاً للمتوفي، وهكذا أسهمت تقاليد القوم في أوج إنتصاراتهم وذورة تأججهم في وقف الزحف المميت وإنقاذ ما تبقى من أوروبا.

حفلت السنوات العشرة التي تلت وفاة أوكتاي خان بالخلاف والتنازع على السلطة بين أحفاد جنكيزخان، كانت القيادة خلالها موزعة بين أبناء أوكتاي وجفتاي، ثم تلت تلك السنوات فترة هدوء نسبي آلت فيه القيادة ولمدة سنتين (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨) إلى كيوك ابن أوكتاي، ثم انتقل الحكم أخيراً ليستقر عند منكو ابن تولوي.

لم يتفرغ منكوخان تفرغاً كلياً لمواصلة ما توقف عنده آباءه إلا في السنة الثانية لتوليه قيادة الجموع، انشغل خلالها في معالجة وإصلاح ما خلفته سنوات النزاع في قمة القيادة، ووجه عناية خاصة لضبط وترتيب الممالك التي آلت إليه، وإرسال الجيوش لتعزيز الحدود وأطراف الدولة، واستقبال الوفود وأرباب الحاجات والراغبين في شغل الوظائف، ثم التفت أخيراً إلى توجيه قوى المغول نحو تحقيق ما توقف عند سلفه، حيث جهز حملتين كبيرتين:

ـ الأولى أسند قيادتها لشقيقه الأوسط قوبيلاي، وذلك لإتمام فتح إمبراطورية سونج، ثم إعادة إخضاع ممالك الخطا وقراجانك وتنكوت والتبت وبعض أجزاء من الهند المتصلة بالخطا والماجين، وبعد ذلك تنتقل الحملة للاستيلاء على الهند الصينية وجاوة واليابان وغيرها من مناطق الشرق الأقصى.

ـ الثانية أسند قيادتها لشقيقه الأصغر هولاكو، وتنحصر مهمتها في القضاء على حصون الإسماعيلية، ثم الزحف غرباً للاستيلاء على بغداد حاضرة الخلافة الإسلامية، وغرب إيران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن.

ونظراً لأن الغالب على الحملة الأولى هو تأمين الفتوح الأولى وإعادة إخضاع ما استقل منها إبان فترة التنازع على السلطة، وفشلهم في تثبيت أقدامهم في الشرق الأقصى واليابان. واكتفاءهم بتوحيد الصين، فسوف نستعرض فقط خط سير الحملة الثانية، وهي آخر حملاتهم في تاريخ خروجهم للعالم.

أولى منكوخان حملة هولاكو عناية خاصة، فأمده بكثير من الأمراء والقادة والجنود الذين نبغوا من الحروب وخبروا العالم الإسلامي، كما بعث لبلاد الخطا لاستجلاب ألف أسرة من المدربين على استعمال أدوات القتال من المنجانيق وقاذفات النفط.

وقبيل تحرك الحملة أرسل المرشدين لاختيار الطريق الذي سيمر به الجند من قراقورم حتى شاطىء نهر جيحون، وأصدر مرسوماً نص فيه على أن جميع المزارع والمراعي على امتداد خط سير الجيش مناطق محرمة، واستخدامها قاصر فقط على قادة الحملة. كما أقام الجسور على الأنهار العميقة، وعلى مجاري المياه السريعة.

وفي ربيع عام ٦٥١ هـ ١٢٥٣ م أقام امراء المغول ولائم فاخرة جعلوها حافلة بالفرح والسرور، وبكل أنواع الملذات لوداع إخوانهم، تقدم في نهايتها منكوخان نحو شقيقه وقال له ناصحاً ومبيناً أهداف الحملة:

«إنك الآن على رأس جيش كبير، وقوات لا حصر لها، فينبغي أن نسير من توران إلى إيران، حافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه في الكليات والجزئيات، وخص كل من يطيع أوامرك ويتجنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصى بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وأنعامك، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، وابدأ بإقليم قهستان في خراسان فخرب القلاع والحصون، فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها، وإذا بادر خليفة

بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين.

كذلك ينبغي أن يكون رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن وإن ترفه عنهم، وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال، وثق أنك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة»[١].

غادر هولاكو ثكنات الجيش في شهر ذي الحجة من نفس العام، وفي الطريق أعد له أمراء المناطق وحكامها المآكل والمشارب، كما حرصوا على تنظيف الطرق من كل ما يمكن أن يعرقل الحملة عن مهمتها، وبعد عامين وصل المغول سمرقند (شعبان ٦٥٢ هـ ـ ١٢٥٥ م) وهناك نزل هولاكو بمراعي (كان كل) حيث أقام له مسعود بيك حاكم ما وراء النهر وتركستان خيمة أمضى فيها ما يقرب من أربعين يوماً وهو منهمك في الشراب، ومن كان كل رحل إلى كش الواقعة في الجنوب الشرقي من سمرقند حيث وفد عليه الأمير أرغون حاكم المغول في بلاد فارس ومعه كافة الأعيان وأكابر خراسان، وقدموا له ولاءهم وخضوعهم وهداياهم، ومن كش أرسل عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران وإلى الخليفة العباسي في بغداد نصها:

«بناء على أمر الخان قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة، فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم، أما إذا تهاونتم في إمتثال الأوامر فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة، فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم»[٢].

---

(١) جامع التواريخ مجلد (٢) ج (١) رشيد الدين ص ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٠.

سارع السلاطين والملوك في كل مملكة من ممالك إيران وغيرها ساعة استلامهم تلك الرسالة إلى التوجه حيث يقيم هولاكو لتقديم فروض الطاعة، وأقبل من بلاد الروم السلطانان عز الدين وركن الدين، ومن فارس سعد بن الأتابك مظفر الدين، ومن العراق وخراسان وأذربيجان وجورجيا الملوك والأعيان، وكانوا جميعاً يحملون الهدايا اللائقة خوفاً وطمعاً.

أما المستعصم الخليفة العباسي فلم يجد ساعة قراءته الرسالة مانعاً يحول بينه وبين إرسال جيش يعاون هولاكو في القضاء على الملاحدة ولكنه عندما استشار وزراءه ونوابه عن عدد الجنود الذين سيرسلهم أدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الحجة إخلاء بغداد من الجند، حتى إذا دخلها المغول لا يجدون رادعاً يردعهم، فوافقهم الخليفة وأحجم عن إرسال الجند.

عبرت القوات المغولية في غرة ذي الحجة لعام ٦٥٣ هـ نهر جيحون في طريقها لقلاع الإسماعيلية، حيث عسكروا في مرعى شبورقان بالقرب من بلخ، ولم يكن في نية هولاكو الإقامة فيه طويلاً، ولكن في يوم عيد الأضحى أخذ الثلج فجأة يتساقط من السماء بكميات كبيرة، واستمر في السقوط طيلة سبعة أيام متتالية هلك فيها كثير من الحيوانات مما اضطرهم لقضاء فصل الشتاء كله حيث استقر بهم المقام.

كان جماعة الملاحدة تتخذ من الجبال المنتشرة في ولاية طالقان مستقراً لها، وقد توزعوا على سلسلة عديدة من الحصون والقلاع شيد أغلبها على رؤوس الجبال أشهرها وأكثرها قوة ثلاث هي: الموت وميمون ولمسر، واتخذوا من قلعة الموت عاصمة لهم وقاعدة لملكهم، ولهم إضافة إلى هذه قلاع أخرى أقرب إلى المدن تقارب المائة بعضها قوى التحصين والآخر ضعيف، بنيت مع توسع فكرتهم وازدياد أعدادهم موزعة بين ولايتي قومس (سمنان) وقهستان (دامغان)، يشرف على إدراتها نائب عن شيخ الموت يقال له «محتشم».

تحرك المغول بقيادة كيتو بوقا نويان في أوائل شهر المحرم ٦٥٤ هـ نحو ولاية قهمستان حيث استولوا على بعض أجزائها، ثم سار على رأس خمسة آلاف فارس وخمسة آلاف من المشاة لفتح قلعة (كرده كوه) ولما وجدها حصينة لا يطالها جنده ولا يقدرون على تسلق أسوارها الشاهقة أمر بحفر خندق حولها أحيط بسور محكم عسكر خلفه الجيش، ثم ترك قائده يورى لمواصلة عمليات الحصار بينما ذهب هو إلى قلعة مهرين لحصارها. وفي اليوم الثامن من شهر جمادى الثانية دخل مدينة شاه، وقتل عدداً كبيراً من السكان، ثم قفل راجعاً إلى كرد كو.

وبناء على أوامر كيتوبوقا ذهب القائد هركتاي على رأس جيش إلى ولايتي طارم ورودبار وأحدث فيهما من التخريب والدمار ما جعلهما عظة وعبرة للملاحدة، ثم قصد وجنده المنصورية وإله بشهين وأجروا فيهما مذبحة مروعة دامت ثمانية عشر يوماً.

شنت حامية كردكوة في ليلة التاسع من شوال غارة عنيفة دمروا خلالها معسكراً للمغول حول القلعة، وقتلوا منهم مئة شخص من بينهم يوري، فما كان من كيتوبوقا إلا أن شن هجوماً على كافة القلاع والحصون في ولاية قهستان لإدخال الرعب في نفوس الملاحدة، وطارد المغول جميع قواتهم الموجودة في نواحي قون ورترشيز وزيركوه، وأباحوا فيها القتل وأسروا الكثير منهم.

وطوال تلك الغارات المكثفة بقيت قلعة كرد كوه صامدة، ونتيجة لندرة المياه وقلة الطعام تفشى بين المحاصرين وباء غريب مات بسببه الكثير، ولدى ورود الأنباء السيئة إلى علاء الدين شيخ الطائفة بوفاة أكثر المحاربين وقرب سقوط القلعة، أسرع بإرسال نجدة قوامها عشرة ومائة من الفدائيين لتعزيز قوى المدافعين.

لوحظ أثناء الحصار أمر غريب وهو أن ابنة أحد الأمراء تزوجت من أمير، وكالعادة خضبوا يديها وقدميها بالحناء ثم غسلوها، ولما كان الماء

شيئاً نادراً وعزيز المنال، فقد شربت جماعة منهم ذلك الماء الملوث بمادة الحناء، فلم يمت واحد منهم في حين سقط صريعاً من اشمأز من شربه. ففطن الناس إلى فائدة الحناء في دفع الوباء، ومن ساعتها طلبوا من علاء الدين إرسال المزيد منه، وذلك قبل مغادرة القوة قلعة الموت.

تمكن الفدائيون من اختراق صفوف المغول، وكل واحد منهم يحمل منين من الحناء وثلاث أمنان من الملح لنفاده عندهم، ومروا جميعاً دون أن يصاب أحد منهم بأذى، اللهم إلا واحد منهم سقط في الخندق وكسرت ساقه، فحمله رفقاؤه على أكتفاهم ودخلوا به القلعة. وبهؤلاء تقوت الحامية.

وفي ليلة الأربعاء الأخيرة من ذي القعدة قتل علاء الدين شيخ الملاحدة ببلطة في مكان يدعى سركوه، بينما كان غارقاً في نومه وهو في حالة سكر شديد، والذي قتله هو حاجبه حسن المازنداني، وأخص خواصه، وموضع أسراره، ولا يكاد يفارقه ليلاً ولا نهاراً، وذلك بالإتفاق مع ركن الدين خورشاه ابن علاء الدين بسبب سوء معاملته له، ولخلعه من ولاية العهد، ونُصب خورشاه شيخاً للملاحدة مكان أبيه.

وأدت الشبهات حول عدة أشخاص من بينهم طبعاً حسن المازنداني وخشى خورشاه أن تمتد يد الاتهام إلى حسن فيفشي السر وتنكشف المؤامرة فكتب إليه رسالة وأعطاها فدائياً من أتباعه، وفي لحظة انشغاله بالقراءة، هجم عليه الفدائي وقتله، ثم أعلن خورشاه أنه قتل حسناً لأنه هو الذي قتل والده، ثم أمر بحرق جثته، وحرق أبناءه الثلاثة (ولد وطفلتين) في ميدان القلعة.

أدرك المغول من واقع تعاملهم مع قلاع الملاحدة أن القوة وحدها لا تكفي في التغلب عليها، نظراً لمناعتها وعلوها وصعوبة الوصول إلى أبوابها وأسوارها العالية، واستبسال الفدائيين واستماتتهم في الدفاع عنها، كما أدرك المغول من جهة ثانية أن جوانب الضعف في القلاع يمكن في

استحالة صمودها لحصار طويل، وذلك لعدم ترابطها الترابط الذي يسهل تموينها ونجدتها.

لأجل ذلك قرر هولاكو اتخاذ سياسة جديدة تقوم على اللين وعلى الشدة والوعد والوعيد، وقد نجحت تلك السياسة نجاحاً محدوداً يكفي للاستمرار فيها، فعلى سبيل المثال أرسل رسالة إلى ناصر الدين أبو الفتح عبد الرحيم محتشم قلعة سرتخت يدعوه للدخول في طاعته ويمينه بوعود خلابة إذا ما استجاب له، وكان ناصر الدين شيخاً هرماً، ضعيف البدن، فامتثل للأمر، وقصد هولاكو، وقدم له أنواعاً كثيرة من التحف والهدايا، وبعد أن قبل الأرض بين يديه قال له هولاكو:

- إنك نزلت من القلعة وقبلت الخضوع لإنقاذ حياة زوجتك وأبنائك، فلماذا لم تنزل معك سكان القلعة وتحثهم على التسليم.

فأجاب ناصر الدين:

- إن لهم ملكاً يدعى خورشاه يأتمرون بأمره[١].

انتقل هولاكو بعد فراغه من أولى مراحل سياسته الجديدة إلى مكان آخر حتى إذا ما بلغ حدود زاوه وخوان في خراسان اعتلت صحته قليلاً، فترك إدارة العمليات إلى كيتو بوقا وإيلكا، وذهب هو للاستشفاء، حيث استقر به المقام في مدينة طوس، وبعد مدة انتقل إلى مدينة المنصورية التي أعيد تعميرها، وفي اليوم التالي انتقل الجميع إلى مراعي رادكان حيث أقاموا عدة أيام لجمال المكان وصفاء هوائه، بعدها ذهبوا إلى مدينة خبوشان، ومن هناك أوفد كلاً من بكتيمور قورجي وظهير الدين سبلار البيتكجي وشاه أمير برسالة إلى ركن الدين خورشاه.

ولما كان هولاكو على علم بمماطلة خورشاه وتسويفه ومراوغته وتأخيره في حسم الأمور لم ينتظر بل سار إليه على رأس جيش استولى

---

(١) المصدر السابق ٢٤٦.

على عدد كبير من قلاع الملاحدة وخرب معظمها واستعصت عليه قلعتا ميمون والموت، وفي العاشر من شعبان ٦٥٤ هـ يناير ١٢٥٨ م أرسل رسالة ثانية إلى شيخ الطائفة حيث كان يقيم في قلعة الموت حفلت بالتخويف والتهديد ليسارع إلى التسليم والطاعة.

كان يقيم في قلعة الموت وقت وصول رسل هولاكو نصر الدين الطوسي وجماعة آخرون من الأطباء إقامة جبرية، رأوا خلالها أفعال خورشاه السيئة، وتبين لهم تأصل الظلم في نفسه، وشاهدوا مخايل الجور بادية على أحوالهم، فملوا ملازمته ونفروا منه ومن جماعته، ومالوا إلى جانب المغول، وتشاوروا سراً كي يقنعوا خورشاه بالخضوع لهولاكو على الوجه الأحسن والطريق الأسهل. وانضم إليهم كثير من الغرباء والمسلمين، واتفقوا على تحقيق هذا الهدف، ولهذا السبب لم يدخروا وسعاً في حث خورشاه على الخضوع والطاعة، كما خوفوه من جهة ثانية مغبة المقاومة وعدم التسليم، فاستجاب لنصحهم.

أكرم خورشاه رسل هولاكو، ومن جانبه أوفد أخاه الأصغر شاهنشاه والخواجة أصيل الدين الزوزني مع طائفة من أعيان الملاحدة إظهاراً للخضوع والطاعة، فأمر هولاكو بإعزازهم، وأرسل إليه مرة أخرى رسالة تنص على أنه إذا كان قد قبل الخضوع والتسليم حقاً فعليه تخريب جميع القلاع والمثول بنفسه بين يدي هولاكو. فأجاب خورشاه بقوله:

ـ إذا كان أبي قد أظهر التمرد والعصيان فإني أظهر الخضوع والطاعة.

وقد بر فعلاً بما وعد، وعلى استحياء، خرب بعض أجزاء من القلاع فحطم أبراجها ورمى أبوابها وأسوارها وحصونها، ولكنه طلب مهلة سنة يغادر بعدها قلعة الموت. فأدرك هولاكو أن خورشاه يراوغ ويداور عن خوف وضعف لا عن قوة، وإن وقت نكبته ونكبة طائفته قد حل، ولا داعي لتردد الرسل بينهما.

أمر هولاكو بأن تجتمع كل قوات المغول الموجودة في المنطقة وخاصة في العراق والأطراف الأخرى، فتشكل منها جيشاً عرمرماً كان على الميمنة بوقا تيمور وكوكا إيكا، وقد أخذ طريق مازندان، وعلى الميسرة تكودر أوغول وكيتو بوقا نويان اللذين قدما من طريق خوار وسمنان، أما هولاكو فقد اتخذ موضعه في قلب الجيش على رأس عشرة آلاف من المحاربين الأشاوس.

ومرة أخرى أرسل هولاكو مع طلائع الجيش رسولاً لخورشاه قالوا له على لسانه:

ـ لقد عقدنا العزم أنه إذا ما جاء خورشاه بنفسه لاستقبالنا فإننا سنعفو عنه رغم جرائمه العديدة[1].

وعاد الرسل بصحبة وزيره كيقباد وتعهدوا لهولاكو بتخريب جميع القلاع والتمسوا منه أن يرجىء رحيل خورشاه مدة عام، وإن يستثني من الترخيب قلعتا الموت ولمبسر المقر الأصلي والقديم للطائفة، على أن يسلم خورشاه بقية القلاع، ويطيع كل ما يصدر إليه من أوامر، وكتب خورشاه إلى محتشم كرد كوه وقهستان يأمرهم بالمسير طائعين إلى هولاكو.

بعد ذلك توجه هولاكو إلى فران وحاصر في طريقه قلعة شاه وفتحها في يومين، ثم أرسل الرسل ليحثوا خورشاه على التسليم، فقبل أن يخرب جميع القلاع، وفي مدينة عباس أباد الري توقف هولاكو وصار يترقب تنفيذ الوعود، وفي السابع عشر من رمضان ٦٥٤ هـ أرسل خورشاه ابنه البالغ ثمانية أعوام بصحبة طائفة من الأكابر والأعيان أكرم هولاكو وفادتهم وأعزهم، وأذن للطفل الصغير بالعودة ثم قال للرسل:

ـ إذا لم يستطع ركن الدين أن يحضر سريعاً، فإن عليه أن يرسل

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥١.

أخاه الآخر حتى يعود شاهنشاه الذي بقي ملازماً لنا فترة طويلة[1].

أطاع ركن الدين الأمر، وأوفد إلى هولاكو في الخامس من شوال أخاه الأصغر شروانشاه وأصيل الدين الزوزني مع ثلاثمائة من كبار الشخصيات، فقابلوا هولاكو في ضواحي الري، وفي التاسع من شوال عاد الوفد إلى قلعة الموت وهو يحمل معه منشوراً من هولاكو نصه:

«نظراً لما أظهره ركن الدين من طاعة، وخضوع فقد عفوت عما ارتكبه أبوه وأتباعه من جرائم وأخطاء، وحيث أنه لم يصدر أي جرم من ركن الدين نفسه خلال المدة التي حل فيها مكان أبيه، فإنه إذا خرب القلاع فسوف يأمن بأسنا من جميع الوجوه»[2].

ومع إشراقة شمس الثامن عشر من شوال ٦٥٤ هـ كان هولاكو يطوف حول قلعة ميمون متفحصاً مداخلها ومخارجها والمواضع الصالحة للاقتحام. وفي اليوم التالي وصلت بقية الجيوش بكثرة تجل عن الوصف، وأحاطت بالقلعة من جميع جوانبها. ورغم ذلك فقد تعذر عليهم فتحها، فاستشار هولاكو الأمراء وكبار القادة فيما يتعلق باستمرار أو العدول عنه حتى السنة المقبلة فأجابه البعض بقولهم:

- إننا في وقت الشتاء وحيواناتنا نحيلة عجفاء، والعلف معدوم، ويجب المبادرة بنقل العلف من ناحية بلاد الأرمن أو حدود كرمان فمن الأفضل أن نعود إلى قواعدنا[3].

وأصر كل من بوقاتيمور وكيتو بوقا على مواصلة الحصار مهما كانت النتائج، فمال هولاكو إلى رأيهما، وبعث رسولاً لخورشاه برسالة شديدة اللهجة يعرض عليه النزول من القلعة وترك المقاومة، وإذا لم يقدم نفسه

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤.

خلال خمسة أيام فإن عليه أن يستحكم في قلعته ويستعد لحرب لا تبقى ولا تذر.

ولمدة خمسة أيام متتالية لم يصدر عن القلعة ما ينبيء برغبة خورشاه في النزول، وفي اليوم السادس أمر هولاكو مهندسيه بدراسة مداخل ومخارج القلعة، ومراقيها ومعارجها، ولما اكتملت الدراسة وتبين لهم نقاط القوة والضعف فيها باشروا بقذف الحجارة والنبال، فتساقط المدافعون صرعى من كثافتها وقوتها، واستمر الحال هكذا أربعة أيام ظلت الحرب محتدمة بين الطرفين كان وقع السهام عليهم شديداً، وهي سهام من نوع خاص ابتكرها الخطائيون ومداها ألفين وخمسمائة خطوة، وكانت الحجارة من جهة أخرى تنهال على رؤوسهم كالمطر.

استشار خورشاه الأمراء وأركان دولته فيما ينبغي عمله إزاء تساقط المدافعون بالعشرات والمئات، وأدلى كل منهم بما يميله عليه تدهور الموقف داخل القلعة واليأس الذي شل قدرتهم، وفقدانهم كل أمل في صمود طويل يجبر عدوهم بالانسحاب، وأخيراً استقر الرأي على الإستسلام.

وفي يوم الأحد غرة ذي القعدة ٦٥٤ هـ نزل ركن الدين خورشاه من قلعة ميمون وتوجه إلى هولاكو، وحين وقع نظر هولاكو عليه تبين له أنه غلام غر غير مجرب يعوزه الرأي والتدبير، فأعزه وأكرمه ووعد بمساعدته، وأوفد من قبله من يتسلم القلعة وجميع الخزائن والدفائن الموروثة والمكتسبة على مدى أجيال مما لم يكن معروفاً، فوزعها على قواد جيشه، وأرسل من قبله من تسلم جميع الحصون التي كانت مشحونة بالآلات والذخائر ما عدا الموت ولمبسر.

وفي اليوم الثاني دخل المغول القلعة لهدم أبنيتها وأسوارها، وفي طريقهم صادفوا جماعة من غلاة الفدائيين رفضوا الاستسلام وصعدوا أعلى قبة لقصر خورشاه، فوجه إليهم الجنود المنجانيق، فطارت نحوهم الحجارة

والنبال الحادة. وظلت المقاومة من جانبهم مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع صعد إليهم المغول وأبادوهم عن آخرهم.

انتقل المغول بعد ذلك إلى قلعة الموت ومعهم رسول من ركن الدين يحث المدافعين على التسليم، ولكن قائد القلعة تمرد وعصى. فكلّف هولاكو قائده بلغاي بمحاصرة القلعة، ثم شن المغول عليها الهجوم مرتين وثلاث دون فائدة، فأرسل إليهم من يؤمنهم على حياتهم، وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة نزل قائد القلعة وسلمها للمغول، فصعدوا إليها وكسروا المجانيق، وخلعوا الأبواب، أما السكان فطلبوا مهلة ثلاثة أيام لنقل أمتعتهم.

دخل هولاكو القلعة يرافقه جماعة من أتباعه، فهالهم ما رأوه يقول الجويني، وهو من كان برفقة هولاكو ـ يصف القلعة من الداخل:

«لقد كان البناء الداخلي للقلعة أكثر مما يتصوره العقل، فقد بنيت بناءاً محكماً من داخلها وخارجها، ومن مراقيها ومعارجها، وجصصت جدرانها ورصصت بناياتها حتى قيل أن الحديد لم يكن ليؤثر فيها حين شرعوا بتهديمها، ولم يحفر قيد سن واحد فيها، فقد نقروا الأحواض ليملؤوا بها الخمور والخل والعسل وكثيراً من المائعات والجامدات، وفي أثناء نهب الخزائن وجمعها غطس أحدهم في حوض العسل ولم يبلغ قاعه. وقد ساقوا جدول ماء من نهر باهرو إلى سفح القلعة، ومن هناك وعلى مدار نصف القلعة نقروا جدولاً للماء، كما أنهم صنعوا من الحجارة أحواضاً واسعة أشبه بالبحر، كانت تملأ بالمياه وهي مستمرة الجريان»[1].

وهناك استأذن عطا ملك الجويني من هولاكو السماح له بالإطلاع على المكتبة التي صرفت الطائفة السنوات الطوال في إعدادها وجمعها حتى طبقت شهرتها الآفاق. يحكى الجويني عن هذه الواقعة وما فعله بعد حصوله على الإذن فيقول:

---

(١) تاريخ فاتح العالم ج (٢) ـ الجويني ص ٣٥٥.

«دفعني الهوى إلى مطالعة مكتبتهم الزائعة الصيت، فذكرت للملك (هولاكو) أن مثل هذه المكتبة لا ينبغي أن تضيع، فقبل الملك هذا الكلام وسمح لي بالإطلاع عليها، فانتقيت منها المصاحف والنفائس خوف عدمها. كما أخذت آلات الرصد من ذات الكرسي والاصطرابات مما كان موجوداً، أما باقي الكتب والآلات مما يتعلق بضلالتهم وغوايتهم فقد أحرقته. مما هو منقول أو معقول، وأفرغت من الخزائن كل ثمين من أجناس الذهبيات والفضيات الكثيرة حتى تركت الخزائن خاوية ثم وزعتها»[1].

وبعد خروج السكان اقتحم المغول القلعة فحملوا ما عجز عنه الأهالي، ثم اعملوا فيها يد التخريب والتدمير، وفي أول الأمر لم يقدروا عليها لمتانة مبانيها. فاضطروا إلى حرق سقوف الأبنية، ثم باشروا الهدم، وانشلغوا بالهدم مدة طويلة لم يغادروها ألا وهي أكواماً من الحجارة والصخور.

على أثر سقوط الموت واستسلام أهلها تقاطر على هولاكو تباعاً محتشمو القلاع الأخرى من جوانب الديلم وأشكور وطارم وخركام معلنين له عن ولاءهم وخضوعهم، وذلك بعد أن خربوا قلاعهم كي يحظو بالعفو.

أمضى هولاكو عدة أيام حول قلعة لمبسر، وهناك ترك القائد طاير بوقا على رأس جيش لمحاصرتها، ثم قفل راجعاً إلى معسكره الكبير على بعد سبعة أميال من بحر قزوين للاحتفال برأس السنة، وفي داخل القلعة اعتصم أقارب خورشاه واتباعه وظلوا يقاومون لمدة عام، انتشر بينهم في نهايته وباء أهلك الكثير منهم، ونزل الباقون وسلموا أنفسهم.

عامل هولاكو ركن الدين معاملة كريمة ووهبه فتاة مغولية ليتزوج بها، واختار له مدينة قزوين لإقامته وإقامة حاشيته ولحفظ متاعه، ويفسر رشيد الدين مؤرخ المغول هذه المعاملة لعدوهم بقوله:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٣.

«كان هولاكو يعرف جيداً أنه ما زالت هناك قلاع كثيرة تخص الملاحدة موجودة في هذه الديار وفي ديار الشام، يمكن استخلاصها بتوجيه خورشاه ونفوذه، وإلا فإن عليه أن يقضي سنوات عديدة حتى يتيسر له فتحها، وعلى هذا صار هولاكو يعز خورشاه ويكرمه مدة من الزمن»[1].

التمس خورشاه بعد إتمام مراسيم زواجه بالمغولية الإذن من هولاكو للسماح له بالمثول بين يدي منكوخان. فوافق هولاكو على التماسه شريطة المرور على قلعة كردكوة. وإقناع أتباعه بالاستسلام، وتحت حراسة المغول شق موكبه طريقه، ولما بلغ سفح القلعة صعد إليهم بمفرده لإقناعهم بالنزول، ولكنه في واقع الأمر ألمح إليهم بالرفض، وقرب بخاري علم منكوخان بخبر قدومه فكتب لهولاكو يقول:

- لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبئاً على الدابة التي يركبها، عجلوا بالخلاص من الداعية، وأريقوا دماء تلك الطائفة[2].

وبناء على ذلك قتل خورشاه، وذهب القائد قراقاي بينكجي إلى قزوين فقتل أفراد أسرته من البنين والبنات والإخوة والأخوات وأقاربه من الرجال والنساء وكل من لاذ به أو كان من صلبه، ثم صدر الأمر إلى قادة الكتائب بقتل كل من يحتفظ بجماعة منهم، بحيث بلغ مجموع ما قتل اثني عشر ألفاً.

وعلى الرغم مما لاقاه المسلمون على يد المغول من قتل وتشريد وتخريب للبلاد، إلا أن الفرحة كانت عامة باندحارهم وقتلهم، وذلك بسبب ما أحدثوه في العالم الإسلامي من فساد وقتل لعلماء الإسلام، حتى لم يعد أحد آمناً على نفسه من شرهم. ويصف الجويني حالة المسلمين وفرحتهم بعد إستئصالهم وهدم قلاعهم فيقول:

---

(١) جامع التواريخ مجلد (٢) ج (١) - رشيد الدين ص ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

«وهكذا تطهر العالم الملوث بخبثهم، وعاش الناس بأمن وهدوء بلا خلاف أو عناء، وهم يلجون بالثناء على الملك السعيد الذي أشاد لهم هذا الخير بإفناء هذه الفئة، وكذلك كان هذا العمل مرهم جراحات المسلمين وتدارك خللها الديني، والذين سيأتون بعدنا سيدركون مدى آذى هذه الجماعة ومدى ما كانوا يغرسونه من الفوضى ويبثون من الرعب منذ أول ظهورهم حتى أخرهم، وكيف كان الناس في ضيق ليلاً ونهاراً خوف أفعالهم، وهكذا انتهى أمرهم ذلك ذكرى للذاكرين، وكذلك يفعل الله بالظالمين»[1].

وبعد الفراغ من القضاء على طائفة الملاحدة وقلاعهم توجه هولاكو في ربيع الأول من عام ٦٥٥ هـ إلى همدان، وهناك إستقبل قائده بايجو نويان، وكان متضايقاً منه بسبب فشله في الزحف على العراق، فصاح فيه قائلاً:

ـ لقد ذهبت في نفس الوقت الذي ذهب جرماغون، فماذا فعلت عندما حللت محله في إيران، وكم جيش قهرت، وما العدد الذي أخضعته، إنك لم تفعل شيئاً سوى إنك رحت تخوف القوات المغولية بالمبالغة فيما عليه الخليفة من قوة وعظمة»[2].

جثا بايجو نويان على ركبتيه لدى سماعه هذا الكلام وأجابه قائلاً:

ـ إنني لم أقصر، وإنما بذلت كل ما في مقدوري، فلقد أخضعت الأقاليم الممتدة ما بين الري حتى حدود الشام ما عدا بغداد، فإنها بسبب كثرة سكانها ووفرة جيوشها، وبسبب كثرة ما فيها من الأسلحة، وبسبب الطرق الضيقة الصعبة التي يجب سلوكها قبل الوصول إليها، بسبب كل هذه العوامل صار تقدم الجيوش إلى تلك النواحي وقيامها بعمليات الهجوم أمراً

---

(١) تاريخ فاتح العالم ـ ج (٢) الجويني ص ٣٥٨.

(٢) جامع التواريخ ـ المجلد الثاني ج (١) ـ رشيد الدين ص ٢٦٠، ٢٦١.

متعذراً، وما يبقى بعد ذلك أتركه لحكم الملك العادل، فإنا بكل ما يأمر به عبد مطيع ومنفذ لأوامره[1].

أسكنت تلك العبارة ثائرة هولاكو، فقال له:

- يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الدولة (آسيا الصغرى) حتى شاطىء البحر من يد أبناء الفرنج ومن الكفار (الأرمن والإغريق)[2].

عاد بايجو وقاد الجيش المغولي إلى آسيا الصغرى. وكان غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين هو سلطان الروم في ذلك الوقت، فالتحم مع المغول في معركة كبيرة دارت رحاها في (كوسة داغ) هُزم فيها الروم، واستولى بايجو على جميع بلادهم، بعد أن أعمل فيها يد القتل والتخريب. ومنذ ذلك الوقت انشغل هولاكو في ترتيب الجيش وتجهيزه للزحف على عاصمة الخلافة العباسية.

وفي العاشر من رمضان أرسل إلى الخليفة العباسي رسالة طويلة حافلة بالتهديد والوعيد جاء فيها:

«لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مدداً من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند، وكانت آية الطاعة أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة، فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر.

ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم، والذي حاق باسر الخوارزمية، وملوك الديالمة وغيرهم، ممن كانوا ذو عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقاً من وجه آية طائفة من تلك الطوائف واتخذوا منها قاعدة ملك لهم، فكيف

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٣.

يغلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان، ولقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك: أحذر الحقد والخصام ولا تضرب المخصف بقبضة يدك ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب.

ومع هذا فقد مضى ما مضى، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لأبنه ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلاً من الوزير وسليمان شاه والدوتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد، وسنبقى له على دولته وجيشه ورعيته، أما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدال فليعبىء الجند وليعين ساحة القتال فإننا متأهبون لمحاربته، وواقفون له على استعداد. فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك، فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله»[1].

وبعدما سمع المستعصم الخليفة العباسي نص الرسالة من سفراء المغول أوفد بصحبتهم إلى هولاكو كل من شرف الدين بن الجوزي وبدر الدين محمود النخجواني برسالة نصها:

«أيها الشاب الحدث المتمنى طول العمر، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً بيومين من الإقبال، متوهماً أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي.

ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي، إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٧، ٢٦٨.

غير إني لا أريد الحقد والخصام، ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم، كما أنني لا أبغى من وراء تردد الجيوش أن تلهج السنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولاكو قلب واحد ولسان واحد، وإذا كنت تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا استقر رأيك على الحرب، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة وهم متأهبون للقتال»[1].

غضب هولاكو من رسالة الخليفة وعباراته غير اللائقة فقال معلقاً على ما سمع:

- إن إرادة الله مع هؤلاء القوم أمر آخر، إذا ألقى في روعهم مثل هذه الأوهام[2].

ثم أرسل إليه يقول:

«إن الله الأزلي رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه تبقى له أمواله ونساؤه وابناؤه ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء.

لقد فتنك حب المال والجاه والغرور بالدولة الفانية بحيث إنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وإن في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى فتلك هي مشيئة الله العظيم»[3].

إستشار الخليفة العباسي رجال الدولة وكبار القادة، فكان من رأي

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧١.

الوزير مؤيد الدين بن العلقمي أن تدفع لهم الأموال والتحف والهدايا والألبسة الفاخرة والخيل الفارهة والبغال والغلمان والجواري في صحبة الرسل الكفاة الدهاة مع تقديم الإعتذار له، وجعل الخطبة والنقود باسمه.

أعجب الخليفة برأي وزيره وأشار إليه بتنفيذ ذلك وإنجازه على وجه السرعة، واختار اثنين أو ثلاثة من خواصه لنقل الأموال والهدايا، فاعترض مجاهد الدين الدوتدار وبعض الأعيان بحجة أن العلقمي له في هذا الرأي غرضاً. وهو يد واحدة مع المغول، وهو ما دبر هذه الحيلة إلا زلفى إلى هولاكو، ويلقى بهم والجنود في البلاء والمحنة. وبكل بساطة عدل الخليفة عما إقتنع به، فأيقن الجميع أن دولة بني العباس صائرة إلى زوال لا محالة.

ثم أرسل الخليفة هدية صغيرة وقليل من التحف مع رسالة إلى هولاكو يقول فيها:

ـ لو غاب عن الملك، فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل من قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة ومهما قصدهم ذوو السلطان من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين. فإن بناء هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى إلى يوم القيامة»[1].

أعاد هولاكو رسل الخليفة ليقولوا له:

ـ إذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار، وارفع من الفولاذ الأبراج وأجمع جيشاً من المردة والشياطين، ثم تقدم نحوي للحصار والنزاع. فسأنزلك ولو كنت في السماء، وسأدفع بك غصباً إلى أفواه السباع[2].

لم يستنفد هولاكو بعد ذلك وقته في رسائل عقيمة لا تجدي. وإنما

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق ٢٧٦.

تحرك قاعداً النية على فتح بغداد، فأمر أولاً بانتقال جيوش جرماغون وبايجو نويان من معاقلهما في آسيا الصغرى، وإن تسير على ميمنة الجيوش الزاحفة على بغداد إلى الموصل عن طريق أربل، ثم تعبر جسر الموصل وتعسكر في الجانب الغربي من بغداد، حتى إذا جاءت الجيوش من المشرق تخرج إليها من هذه الناحية، ويزحف على رأس الجناح الأيسر كل من كيتوبوقا وقدسون وترك إيلكا من حدود إيران باتجاه بغداد مباشرة.

أما هولاكو على رأس قلب الجيش فقد تحرك في أوائل المحرم لسنة ٦٥٥ هـ ١٨ يناير ١٢٥٨ نحو دجلة، يصحبه من المغول كوكا أيلكا وارقتو من الكتاب سيف الدين البيتكجي مدبر شئون مملكة هولاكو ونصير الطوسي وعلاء الدين عطا ملك الجويني.

مر قلب الجيش بمدينة كرمنشاه فدمرها على طريقة المغول التقليدية، وتعمد هولاكو بهذا التدمير البربري إلقاء الرعب في النفوس، ورسالة إنذار للبغداديين بسوء المصير المنتظر.

عسكر قلب الجيش على شاطىء نهر حلوان في التاسع من شهر ذي الحجة، وأقاموا هناك حتى الثاني والعشرين منه. وذلك كي يتمكن جيش كيتو بوقا من إنجاز مهامه والوصول إلى مواقعه المتفق عليها في الوقت المحدد، كما تمكن بايجو نويان وبوقا تيمور وسونجاق من عبور نهر دجلة عن طريق نهر دجيل في الوقت المقرر، ووصلوا إلى نواحي نهر عيسى.

كان مجاهد الدواتدار القائد العام لجيش الخليفة معسكراً بجنوده بين بعقوبة وباجسري، ولما سمعوا بقدوم المغول إلى الضفة الأخرى عبروا نهر دجلة واشتبكوا في قتال شرس مع المغول في حدود الأنبار على باب قصر المنصور في أعلى المرزقة على بعد تسعة أميال من بغداد.

وفي تلك النواحي كان يوجد نهر عليه سد كبير فتحه المغول فغمرت المياه كل الصحراء الواقعة خلف جيش الخليفة، وفي فجر يوم الخميس من المحرم دهم المغول الجيش المحاصر بين مائين، وأوقعوا به هزيمة

منكرة، بلغ عدد القتلى فيها اثني عشر ألف مسلم، فضلاً عمن غرق أو قضى نحبه في الوحل.

وفر قائد الجيش مع نفر قليل من جنده وعاد إلى بغداد، كما هرب البعض إلى المدن الأخرى مثل الحلة والكوفة، وفي يوم الثلاثاء منتصف المحرم تقدم بوقا تيمور وبايجو وسونجاق إلى بغداد واستولوا على الجانب الغربي، ونزلوا في ضواحي المدينة على شاطىء نهر دجلة، وفي الوقت نفسه وصل بوقا نويان من ناحية صرصر، وتحرك هولاكو من خانقين حيث كان معسكراً، وواصل مسيرة نحو بغداد حتى نزل في الجهة الشرقية منها، ثم تدفقت بعد ذلك باقي الجيوش كالنمل والجراد من كل جهة وناحية، فحاصروها من جميع أطرافها حتى غدوا حولها سوراً آخر.

وفي صبيحة يوم **٢٢** من المحرم سنة **٦٥٦ هـ ٣٠/١٢/١٢٥٨** أعطيت الأوامر لقادة الميدان باقتحام المدينة من جميع الجهات، حيث شن المغول هجوماً كاسحاً على أسوار بغداد، استخدموا فيه المنجانيق على نطاق واسع، وأحدث ثقل الحجارة وقوة اندفاعها ثغرات كبيرة خاصة في برج العجمي. ورافق الهجوم الضاري قرع الطبول وصراخ المغول المرعب وصيحاتهم الحادة، فانهارت أعصاب الخليفة، عندئذ أرسل إلى هولاكو يعلمه بموافقته على جميع شروطه، فرد عليه بهدوء قائلاً:

ـ إن هذا الشرط طلبته وأنا على باب همدان، أما الآن فنحن على باب بغداد، وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة[١].

وفي يوم الجمعة السادس والعشرين من المحرم إنهار برج العجمي، فانطلق المغول كالأعصار يجرفون كل حي في طريقهم، وفي يوم الإثنين الثامن والعشرين تسلق بعضهم السور عنوة وطهروا الأسوار من جند الخليفة، وفي مساء نفس اليوم تسلم المغول جميع الأسوار الشرقية.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٨.

على أثر ذلك أمر هولاكو بإقامة جسر في أعلى بغداد وفي أسفلها، وإعداد السفن ونصب المنجانيق. وكان بوقا تيمور قد رابط مع عشرة آلاف جندي على طريق المدائن والبصرة ليصد كل من يحاول الهرب بالسفن، ولما حمى وطيس القتال داخل بغداد وضاق الحال بالمسلمين، أراد الدواتدار أن يركب سفينة ويهرب إلى ناحية سيب. وبعد اجتيازه قرية العقاب أطلق جند بوقا حجارة المنجانيق والسهام وقوارير النفط واستولوا على ثلاث سفن اهلكوا من فيها، وعاد الدواتدار منهزماً.

ولما وقف الخليفة بنفسه على تلك الحال، وأصبحت المدينة تحت رحمة المغول يئس نهائياً من الاحتفاظ ببغداد، ولم ير مهرباً سوى الاستسلام والطاعة، لذا أرسل فخر الدين الدامغاني وابن درنوش مع قليل من التحف إلى هولاكو. فأهملهما بازدراء، ولم يلتفت إلى هداياهم.

وفي ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من المحرم خرج من بغداد للقاء هولاكو أبو الفضل عبد الرحمن ابن الخليفة، وكان صاحب الديوان يرافقه جماعة من العظماء، وقد حملوا معهم أموالاً طائلة لم تقبل منهم، وفي صبيحة الغد خرج ابن الخليفة الأكبر وجماعة من المقربين للشفاعة. فلم يجدوا آذاناً صاغية.

وأخيراً بعث هولاكو الخواجة نصير الدين الطوسي برسالة موجزة للخليفة يقول له فيها:

«إن الرأي للخلفية فله أن يخرج أو لا يخرج، وسيكون جيش المغول مقيماً على الأسوار إلى أن يخرج سليمان شاه والدواتدار»[1].

وفي يوم الخميس غرة صفر خرج الرجلان لمقابلة هولاكو، ولكنه أعادهما مرة أخرى ليخرجا اتباعهما وكل ما يخصهما بحجة أنهم سينفون

---

(١) المصدر لسابق ص ٢٨٩.

إلى مصر والشام، وخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان، وكانوا خلقاً لا يحصى مؤملين أن يجدوا طريقاً للخلاص، بيد أن أملهم قد خاب، إذ قسمهم المغول وقتلوهم جميعاً.

وفي يوم الجمعة الثامن من صفر قتل الدواتدار وسليمان شاه وسائر اتباعهم واشياعهم، كما قتل الأمير تاج الدين ابن الدواتدار، وأرسلت رؤوس الثلاثة على يد الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل. وكان بدر الدين صديقاً لسليمان شاه فبكى، ولكنه علق رؤوسهم خوفاً على حياته.

وحلت الفاجعة الكبرى يوم الأحد الرابع عشر من صفر ٦٥٦ هـ (١٠/٢/١٢٥٨ م)، إذ خرج الخليفة المستعصم من بغداد ومعه أبناؤه الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبوالعباس أحمد وأبو المناقب مبارك، يرافقهم ثلاثة ألف من السادات والأئمة والقضاة والأكابر والأعيان لتسليم أنفسهم وعاصمة الخلافة الإسلامية بلا قيد ولا شرط، ورافق هذا الخروج الجماعي ندب وبكاء وصراخ صدر عن الحريم والنساء، وارتفعت دفعة واحدة أكف ألوف المسلمين وفي جو قاتم من الرعب والدماء والدموع بالتضرع لله تعالى كي يدفع عنهم هذا البلاء ويخفف من وقع المصيبة.

استقبل هولاكو الخليفة استقبالاً لا يدل مظهره العام على غضبه، بل استفسر في تهذيب بالغ عن صحته وكلمه بالحسنى قائلاً:

- مر حتى يضع سكان المدينة أسلحتهم ويخرجوا لكي نحصيهم[1].

أذعن الخليفة للأمر وأرسل المنادين إلى مختلف أحياء بغداد ليعلنوا على المسلمين أن كل من يود إنقاذ حياته وصيانة ماله وعرضه فليخرج من المدينة ويسلم ما في حوزته من سلاح للمغول، ووقع الناس في بلبلة

(١) المصدر السابق ص ٢٩١.

عظيمة فمنهم من صدق وسلم سلاحه، ومنهم من إرتاب من سلامة الأوامر وصحتها فاحتفظ بسلاحه واعتصم بداره وبقي بجانب عائلته.

ونصب المغول خياماً على مجرى دجلة خصيصاً لاستلام السلاح، فجاء المسلمون زمراً زمراً. ولم يدخل واحد منهم خيمة إلا وخرج منها ميتاً، فأدركوا أن المغول يذبحونهم بعد استلام سلاحهم كالقطعان، ويرمونهم في المجاري المتفرعة من نهر دجلة، وعلى الفور انتشر الخبر وصبت اللعنات على رؤوس الغزاة، واختبأوا في منازلهم.

وفي يوم الأربعاء السابع عشر من صفر ٦٥٦ هـ (١٣/٢/١٢٥٨ م) أعطيت الأوامر بإباحة المدينة بالكامل، وتم توزيع قادة المغول والضباط وفرق الجيش على جميع أحياء ودروب بغداد يفعلون فيها ما يشاؤون، فاجتاح المغول المدينة بلا ضابط، وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض، وقتلوا كل حي لا فرق عندهم بين رجل وامرأة وطفل. ولم يسلم منهم إلا من أختفى في باطن الأرض.

كما خربوا أبرز مباني المدينة ومعاملها مثل جامع الخليفة ومشهد الإمام موسى الكاظم وقبور الخلفاء في الرصافة، وحطموا المساجد بقصد الحصول على قبابها الذهبية. وهدموا القصور بعد أن استولوا على كل ما فيها من تحف نادرة ومجوهرات، ثم اندلعت ألسنة النيران لتلتهم أثناء الفوضى الشاملة الأخضر واليابس.

والرواية الدقيقة التي تركها لنا عبد المؤمن مغني الخليفة المستعصم ونديمه تعكس لنا جانباً من وقائع يوم استباحة بغداد، يقول المغني:

«طلب هولاكو من رؤساء البلد وعرفاءه أن يقسموا دروب بغداد ومحالها وبيوت ذوي يسارها على أمراء دولته فقسموها، وجعلوا كل محلة أو محلتين أو سوقين باسم أمير كبير. فوقع الدرب الذي أسكنه في حصة أمير مقدم عشر آلاف فارس اسمه (بانوا نوين)، وكان هولاكو قد رسم لبعض الأمراء أن يقتل ويأسر وينهب مدة ثلاثة أيام ولبعضهم يوم حسب طبقاتهم.

فلما دخل الأمراء إلى بغداد فأول درب جاء إليه الدرب الذي أنا ساكنه، وكان قد اجتمع عندي كثير من ذوي اليسار، واجتمع عندي نحو خمسين جوقة من أعيان المغاني من ذوي المال والجمال، فوقف بانوا نوين على باب الدرب، وهو مدبس بالأخشاب والتراب، فطوقوا الباب وقالوا:

ـ افتحوا لنا الباب وأدخلوا في الطاعة ولكم الأمان وإلا حرقنا الباب وقتلناكم.

قلت:

ـ السمع والطاعة وأنا أخرج إليه.

ففتحت الباب وخرجت إليه وحدي وعلّي ثياب وسخة وأنا انتظر الموت، فقبلت الأرض بين يديه فقال للترجمان.

ـ قل له من أنت. كبير القوم الذي في الدرب.

فقلت:

ـ نعم.

فقال:

ـ إذا أردتم السلامة من الموت فاحملوا لنا كذا وكذا.

وطلب شيئاً كثيرا، فقبلت الأرض مرة ثانية، وقلت:

ـ كل ما طلب الأمير يحضر. وقد صار كل ما في الدرب بحكمك فمر جيوشك ينهبون باقي الدروب المعينة، وأنزل حتى أضيفك ومن تريد من خواصك، فأجمع لك ما طلبت.

فشاور أصحابه ونزل في نحو ثلاثين رجلاً، فأتيت به إلى داري وفرشت له الفرش الخليفية الفاخرة، والستور المطرزة بالزركش، وأحضرت له في الحال أطعمة قلايا وشوايا وحلو، وأكلت ما بين يديه ششني، فلما

فرغ من الأكل عملت له مجلساً ملوكياً، وأحضرت له الأواني المذهبة من الزجاج وأواني فضة فيها شراب مروق. فلما دارت الأقداح وسكر قليلاً، اخترت عشر جوق كلهم نساء، كل جوقة تغني بملهاة غير ملهاة أختها، وأمرتهم فغنوا كلهم، فارتج المجلس وطرب. وانبسطت نفسه، وضم واحدة من المغنيات أعجبته فواقعها في المجلس ونحن نشاهده.

وتم يومه في غاية الحسن، فلما كان وقت العصر حضر أصحابه بالنهب والسبايا قدمت له ولأصحابه الذين كانوا معه تحفاً جليلة من أواني الذهب والفضة ومن النقد والذهب، ومن الأقمشة الفاخرة شيئاً كثيراً واعتذرت له عن التقصير، وقلت جاء الأمير على غفلة لكن غداً أعمل للأمير دعوة أحسن من هذه، فركب وقبلت ركابه ورجعت فجمعت أهل الدرب من أهل اليسار وقلت لهم أنظروا لأنفسكم هذا الرجل غداً عندي وبعد غد وكل يوم أريد أضعاف المتقدم، فجمعوا لي من بينهم ما يساوي خمسين ألف دينار من أنواع الذهب والأقمشة الفاخرة والسلاح.

فما طلعت الشمس إلا وقد جاءني ومعه نساؤه فرأى ما أذهله وقدمت إليه ولنسائه من الذخائر والنقد ما قيمته عشرون ألف دينار، وقدمت له في اليوم الثالث لآلىء نفيسة وجواهر ثمينة وبغلة جميلة، وقدمت لجميع من معه، وقلت هذا الدرب قد صار بحكمك فإن تصدقت على أهله بأرواحهم، فقال عرفت ذلك، ومن أول يوم وهبتهم أرواحهم وما حدثتني نفسي بقتلهم ولا سبيهم، لكن أنت تجهز معي قبل كل شيء إلى حضرة الخان فقد ذكرتك عنده، وقدمت له شيئاً من المستظرفات التي قدمتها لي، فأعجبته فرسم بحضورك»[1].

ودخل هولاكو بغداد لمشاهدة قصر الخليفة، فأعجب ببنائه وهندسته والسجاد العجمي الذي يكسو جدرانه، ثم أشار بإحضار الخليفة المستعصم

(١) الموسيقى العراقية ـ عباس العزاوي ٢٨، ٢٩.

الذي جيء مكبلاً بالسلاسل شاحب اللون حزين، قال له هولاكو ساخراً:

- إنك الآن مضيف ونحن الضيوف، فهيا أحضر ما يليق بنا.

ومن فرط الخوف صدق الخليفة هذا الكلام، وبلغ من الدهشة درجة لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح الخزائن، فأمر بكسر الأقفال وأخرج منها ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار ونفائس ومرصعات وعدداً من الجواهر قدمها جميعاً إلى هولاكو الذي لم يعد تلك الأشياء التفاتاً، ومنحها كلها للأمراء والحاضرين، ثم قال للخليفة:

- إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة، وهي ملك عبيدنا، لكن أذكر ما تملكه من الدفائن وأين توجد؟

عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر، فخفروا الأرض حتى وجوده، وكان بالفعل مملوءاً بالجواهر المؤلفة من الأبريز والذهب والفضة والألماس والأحجار الكريمة، مما أدخره العباسيون من خزائن قصر بغداد وجمعوها خلال خمسة قرون، وكانت كل قطعة منها تزن مائة مثقال.

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من صفر أصدر هولاكو أوامره بإحصاء نساء الخليفة، فعدوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة، فلما أطلع الخليفة على تعداد نسائه جاء إلى هولاكو متضرعاً وقال له:

- مُنّ علي بأهلي حرمي اللائي لم تطلع عليهن الشمس والقمر.

فأخرج الخليفة مائة امرأة من أقاربه والمحببات إليه، وألحق هولاكو مما استرعين نظره بحريمه، ثم وزع الباقيات على امراء وقادة المغول.

وعلى أي حال فإن الفترة التي أبيحت فيها بغداد ليست بالقصيرة إذا ما نظرنا إلى عدد القتلى (حوالي ٨٠٠ ألف)، ومقدار ما خرب من المباني وقصور لا تدخل تحت الحصر، صدر في نهايتها الأمر بالكف عن القتل والتخريب، ونودي بالأمان فخرج من تحت الأرض من كان مختبئاً كأنهم

الموتى، حتى أنكر بعضهم بعضاً ليجدوا أرض بغداد مخضبة بالدم مليئة بجثث القتلى، وهواءاً فاسداً عفناً من رائحة جثث لم تجد من يدفنها.

غادر هولاكو بغداد صبيحة الأربعاء الرابع والعشرون من صفر بسبب عفونة الهواء ونزل بقرية وقف، وهناك استدعى الخليفة العباسي الذي يئس من إنقاذ حياته، ولذلك استأذن هولاكو بالذهاب إلى الحمام ليجدد اغتساله، فأمر هولاكو بأن يصحبه خمسة من المغول، ولكن الخليفة رفض قائلاً:

ـ أنا لا أريد أن أذهب بصحبة خمسة من الزبانية.

وفي مساء نفس اليوم ٢٤ صفر ٦٥٦ هـ (٢٠ فبراير ١٢٥٨ م) قتل الخليفة وابنه الأكبر وخمسة من الخدم كانوا في معيته، وكذلك قتلوا من وجوده حياً من العباسيين، اللهم إلا أفراداً قلائل لم يأبهوا بهم كثيراً.

وفي اليوم الذي قتل فيه الخليفة عين مؤيد الدين بن العلقمي ليقوم بأمر الوزارة، وفخر الدين الدامغاني ليكون صاحب الديوان، كما عين المحتسبين لمراقبة المقاييس والأوزان، ونصب عماد الدين القزويني نائباً للأمير قراتاي، ثم بادر كل شخص بدفن قتلاه، وطهرت الطرق من الجثث، وعمرت الأسواق.

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين مع ربيع أول رحل هولاكو من بغداد ونزل بقبة شيخ المكارم، ومن هناك كان يسير مرحلة بعد مرحلة إلى أن بلغ معسكره في خانقين، حيث أرسل لأخيه منكوخان كثيراً من الغنائم والأموال التي نُهبت من بغداد وقلاع الملاحدة وبلاد الروم، وهي تحمل بشرى الفتح المبين والانتصار الباهر، كما تحمل أيضاً العزم والتصميم على المضي قدماً في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه في قراقورم.

وقع سقوط بغداد وخرابها على العالم الإسلامي وقوع الصاعقة، وأدخل الرعب والفزع والرهبة في قلوب المسلمين، وهرع الحكام ومن

بيدهم مقاليد الأمور إلى هولاكو ليس فقط لتقديم فروض الطاعة وإعلان خضوعهم وولاءهم، وإنما أيضاً لتهنئته بالنصر المؤزر على حاضرة الخلافة الإسلامية، لئلا يفسر صمتهم بما يثير غضبه، ومن أبرز هؤلاء بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل الذي عجل بالقدوم (٢٩ رجب ٦٥٦ هـ)، وكان قد تجاوز التسعين من عمره، فلقي هولاكو في قرية الدركاه إحدى ضواحي مراغة، وقد شمله بالإعزاز والتكريم.

كذلك جاءه في ضواحي تبريز إثنان من سلاطين سلاجقة الروم هما السلطان عز الدين ليكاوس والسلطان ركن الدين قلج أرسلان، وكان هولاكو ممتعضاً من السلطان عز الدين بسبب وقوفه في وجه قائده بايجو نويان ودحره في (أقسرا)، فلما فتحت بغداد وضعف مركزه الدفاعي أحس بحرج موقفه وخاف خوفاً شديداً، ولم يجد ما يخرجه من هذه الورطة إلا حيلة مبتكرة تحمل طابع الخضوع والذلة ترضى هولاكو وتنفس من غضبه عليه، فأمر أن يصنع له حذاء ملكي غاية في الجودة، ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء. وحين قدم للتهنئة وأثناء معاتبة هولاكو له قدم له الحذاء، فوقعت عيناه على الصورة عندها قبل عز الدين الأرض وهو يقول:

ـ إن أملي أن يشرق الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليه[1].

كانت زوجة هولاكو دوتوز خاتون من ضمن من شاهد ذلك التضرع المخزي والتوسل المشين، وانحدار الرجل إلى الدرك الأسفل في الاستذلال والمهانة، فشفعت له ورفعت من قدره، عندها رق له قلب زوجها وعفا عنه.

وفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من رمضان ٦٥٧ هـ ١٢٥٩ م

(١) جامع التواريخ المجلد الثاني ج (١) ـ رشيد الدين ص ٣١٣.

تحرك المغول لتنفيذ الشق الثاني من مهمة الحملة، ووفقاً لخطة متكاملة قسم هولاكو المغول إلى جيوش تندفع جميعها وفي وقت واحد نحو الشام ومصر، انطلق في مقدمتها جيش بقيادة كيتوبوقا، ثم جعل كل من بايجو ومكنقور يقودان الميمنة، وسونجاق يقود الميسرة، ووضع نفسه في قلب الجيش، أما الجيش الذي يقوده ابنه يشموت بمعاونة إيلكا نويان وسونتاي فقد عهد إليهم القضاء على إمارة ميافارين، وأرسل الملك الصالح بدر الدين لؤلؤ على رأس جيش لفتح آمد.

تعد إمارة ميافارين أول منطقة في سوريا وصلها المغول، وكانت وقتذاك واقعة ضمن سلطة الأمراء الأيوبيين، وعليها الملك الكامل أحد أمراء البيت الأيوبي، وبمجرد وصول يشموت إلى حدود الإمارة أرسل داعياً إياه للطاعة والخضوع وتخريب أسوار ميافارين، ولكن الملك الكامل أجابه بقوله:

«ينبغي ألا يضرب الأمير في حديد بارد، ولا يتوقع الشيء المستحيل إذ لا يوثق بوعدكم، وإنني لن انخدع بكلامكم المعسول ولن أخشى جيش المغول وسأضرب بالسيف ما دمت حياً، إذ كيف أثق بابن رجل نكث العهد والميثاق مع خورشاه والخليفة وحسام الدين عكة وتاج الدين أربل، وقد جاء الملك ناصر الدين خصيصاً بإمانكم فرأى في نهاية الأمر ما رأى، وسوف أرى أنا أيضاً ما سبق أن رأوه»[1].

وقف الملك الكامل بعد إجابته تلك أمام الأهالي مشجعاً لهم على الصمود ومقوياً عن عزيمتهم، وحاثاً لهم للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم وممتلكاتهم، وكان مما قاله لهم يومئذ:

- سوف لن أبخل عليكم بالذهب والفضة والغلال الموجودة في المخازن، وسأوثر بها كل المحتاجين، فإني بحمد الله لست كالمستعصم

(١) المصدر السابق ص ٣١٩.

عبداً للدرهم والدينار الذي طوح برأسه وبملك بغداد[1].

ألهبت كلمات الملك الكامل حماس الأهالي، واتحدوا جميعاً معه، وصاروا طوع أمره ورهن إشارته، وفي اليوم التالي مباشرة خرج الملك مع كوكبة من الفرسان واقتحموا بجرأة فائقة المغول من معسكرهم، مما أدى إلى مقتل عدد كبير منهم. وكان مع الملك الكامل فارسان مغواران دوخا المغول وأوقعا بهم خسائر كانت مبعث حيرتهم واستغرابهم، فقد قتلا وحدهما عدة أشخاص دون أين يجرؤ أحد على المساس بهما.

وخرج الفارسان في اليوم الثاني وقتلا ما يقرب من عشرة جنود من فرسان المغول، وكذلك حدث الشيء نفسه في اليوم الثالث، وفي اليوم الرابع تصدى لهما الفارس ناورى الذي كان يهزم جيشاً بمفرده فحاربهما برهة ثم قتل، ولقتله هاج فرسان المغول وماجوا وأطلقوا صرخاتهم المرعبة مهددين بالانتقام.

ومع بسالة هذان الفارسان قيض الله تعالى للمحاصرين منجانيقي غاية في دقة التصويب أقام على أحد مرتفعات المدينة، وهلك من جراء دقته وكمية الحجارة التي يقذفها عدد كبير من المغول. وكان لبدر الدين لؤلؤ منجانيقي ماهر جداً أقامه في مرتفع من مواجهة منجانيقي المدينة، وأخذ كلاهما يطلق الحجارة من جهته في وقت واحد. فكان الحجران يصطدمان ببعضهما البعض في الهواء فيتفتتان، وفي النهاية أحرق منجانيق المغول، وبسبب إحراقه عجزوا عن إقتحام المدينة.

وبعد إطلاع هولاكو في زحفه على الشام عن حالة العجز المذري الذي ألم بالمغول في مواجهة الملك الكامل أرسل قائده ارقتو على رأس قوة لمساعدتهم، وكانت نصيحته له تقضي بأن يثبتوا في مكانهم حتى لا يبقى في المدينة ما يقتات به، وما كاد ارقتو ينتهي من نقل النصيحة حتى خرج الفارسان أثناء الحديث وشتتا جند المغول.

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٩، ٣٢٠.

ومضى عام بأكمله على الحصار حتى لم يبق في المدينة ما يقتات به وهلكت الدواب وبدأ الناس يأكلون الميتة، وأكلوا القطط والكلاب والفئران، ثم أكلوا الآدميين، فالأب يأكل ابنه والأم تأكل ولدها، وكل واحد منهم يأكل الآخر، وطبيعي ألا يبقى لدى الفارسين تبن ولا شعير فقتلا جواديهما وأكلاهما، وأرادا الخروج مشاة ويقاتلا حتى يقتلا، ولكن الملك الكامل منعهما.

ولما تأكد للملك الكامل أنه لم يبق أحد في المدينة له قدرة على القتال أو الصمود ما عدا أفراد قلائل أحياء بأرواحهم أموات بأجسادهم، فتح أبواب المدينة للمغول، فدخلوها ليجدوا سكانها موتى وقد تراكمت جثثهم بعضها فوق بعض ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء، فقبضوا على الكامل وجاءوا به إلى يشموت، ثم انشغلوا بالسلب والنهب.

أما الفارسان المغواران فقد صعدا فوق سطح أحد المنازل وعكفا يرميان بسهامهما كل مغولي يمر مما أزعج يشموت، فكلّف نفراً من شجعانهم للقضاء عليهما، عندئذ نزل الفارسان من السطح وتقذفا بالدروع، وظل يقاتلان بعنف وضراوة على ضعفهما حتى قتلا.

أقتيد الملك الكامل للمثول بين يدي هولاكو في تل باشر على الضفة الأخرى من الفرات، وهناك وبأمر من العاهل المغولي قطع الكامل قطعة قطعة ثم حشرت كل قطعة مضرجة بالدم في فمه حتى اختنق ومات، ثم حزوا رأسه ووضعوه على رمح وطافوا به سائر المدن الكبيرة بالشام يتقدمهم موكب من المغنيين والمزمرين وأخيراً علق بسور باب الفراديس بدمشق.

بعد ذلك أشار هولاكو على ابنه وقادته بالسير لفتح ماردين تنفيذاً لخطة الحملة على سوريا، وعند محاصرة القلعة تعجب المغول من ارتفاعها وقوة استحكاماتها الدفاعية. وكالعادة أرسل أرقتو نويان إلى الملك السعيد صاحب ماردين ناصحاً له بالهبوط من القلعة وتقديم فروض الطاعة

والولاء لملك العالم، نظير الإبقاء على حياته وماله ونسائه وابنائه، وقرن تلك الوعود بالفناء وسبي النساء وقتل الأبناء، ولكن الملك السعيد لم يطمئن إلى وعودهم ولم يرهب تهديدهم ووعيدهم فبعث إليهم يقول:

ـ كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك، ولكن حيث إنكم قد عاهدتم الآخرين ثم قتلتموها بعد أن أطمأنوا إلى عهدكم وأمانكم، فإني الآن لا أثق بكم، وإن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والأسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد[1].

استمرت الحرب بين الطرفين على أشدها مدة ثمانية أشهر أبدى خلالها المدافعون ضروباً من الشجاعة والبسالة أعجزت المغول عن اقتحامها والاستيلاء عليها. مما اضطرهم إلى صب نيران غضبهم على المدن القريبة منها مثال دنيسر وأرزن تعويضاً عن فشلهم في حاضرة الدويلة، ولكنهم أبقوا الحصار مضروباً حولها، إلى أن ظهر الغلاء والقحط والوباء فكان يموت من جراءه عدداً كبيراً من المسلمين كل يوم، وأصيب السعيد نفسه ضمن من أصيب، فجاءه ولده الكبير مظفر الدين أثناء مرضه لكي يثنيه عن المضي في المقاومة. وينصحه بالتسليم حقناً للدماء، فلم يصغ إليه، فسقاه دواءاً ساماً مات على أثره، وسلم الابن القلعة للمغول.

في هذا الوقت إستولى هولاكو على الإمارات الإسلامية من كردستان حتى الجزيرة، كما استولى عنوة على نصيبين وحران واستسلمت له الرها بلا مقاومة. وأزعج زحف المغول السريع الحكام الأيوبيين، فاستعدوا للتصدي لهم في بلدة سروج، واشتبكوا معهم في قتال أظهروا فيه بطولات فذة، ولما انهارت مقاومة الأيوبيين، احتلوا البيرة وعبروا الفرات، وفي طريقهم دمروا منبج، ومنها زحفوا رأساً باتجاه حلب مفتاح البلاد السورية.

وجرياً على مألوف ما يتبعه المغول أرسل هولاكو رسالة إلى الملك

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٤ و ٣٢٥.

المعظم تورانشاه نائب السلطان الناصر على حلب يطالبه بالخضوع وتسليم المدينة في مقابل وعد منه بالأمان، فلم يكترث توارنشاه إلى طلبه، وعزم على المقاومة، وقوى من موقفه رفض الأهالي أنفسهم لأي خضوع أو تسليم لهؤلاء الغزاة، أما السلطان الناصر وإلى حلب فأظهر جنباً وتخاذلاً لا يليق بمكانته، فآثر الفرار إلى دمشق تاركاً عبء الدفاع لنائبه.

وزع هولاكو قواته على أبواب حلب الرئيسية، فكان أرقتو على بوابة اليهود، وكيتو بوقا على باب الروم، وسونجاق على باب دمشق، ونزل هو على باب إنطاكية، ثم قاموا استحكاماتهم الدفاعية حول المدينة، ونصبوا حوالي عشرين منجانيقاً، واستعد الطرفان للقتال.

وبعد قتال عنيف استمر لمدة أسبوع سقط فيه خمسون ألفاً من المدافعين تمكن المغول من اختراق أسوار المدينة في ذي الحجة لسنة ٦٥٧ هـ ١٢٥٩ م. وبسقوط حلب أباح هولاكو فيها القتل والسلب سبعة أيام، ذبح خلالها المسلمين كما تذبح الشياه، واعتبرت النساء والأطفال جزءاً من الغنائم ووزعت على المنتصرين.

أما قلعة حلب فصمدت أمامهم مدة أربعين يوماً كانت المنجانيق والسهام تتساقط على الجانبين بلا توقف، وفي القتال الضارى جرح قادة المغول الكبار في عدة مواضع من أجسامهم أمثال قورجيان ولوجو سوكورجي وقورجي، وكان هولاكو يواسيهم ويشجعهم بقوله.

ـ كما أن اللون الأحمر يكون زينة النساء، فكذلك الرجال تكون الدماء الحمراء على وجوههم ولحاهم زينة لهم[١].

وأخيراً سقطت القلعة في أيديهم فلم يبقوا فيها أحداً على قيد الحياة.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٨.

ومن حلب اتجه المغول إلى حصار قلعة حارم بجوار انطاكية والتي طلب أهلها الأمان، ولكنهم اشترطوا تسليمها لفخر الدين المعروف بالساقي لاطمئنانهم إلى صدق كلمته ووعده، مما أثار غضب هولاكو، غير أنه تظاهر بالنزول إلى ما أراده، حتى إذا سلمت إليه القلعة أمر بقتل أهلها دفعة واحدة مع نسائهم وأطفالهم.

فتتابعت بعد ذلك انتصارات المغول، فسقطت في أيديهم حماة وحمص والمعرة بلا قتال، كما سارع كثير من الأمراء بتقديم فروض الطاعة لهولاكو قبل الوصول إليهم، أما المسلمون في بلاد سوريا الإسلامية فقد سيطر عليهم الرعب والخوف وبدأت جموعهم الهاربة تشق طريقها باتجاه الديار المصرية والجزيرة العربية.

وما أن علم أهل دمشق بأن السلطان الناصر قد تخلى عنهم وفر هارباً، وخلت المدينة من المدافعين، ودخلت جميع أطراف الشام ونواحيها في حوزة المغول، وإن الكارثة وشيكة الوقوع على رؤوسهم حتى بعثوا وفداً من أكابر المدينة وأعيانها لملاقاة هولاكو ومعهم أنواع التحف والهدايا، وفي معسكره أعربوا له عن ولائهم وطاعتهم وخضوعهم، وسلموا له مفاتيح المدينة.

ونتيجة لذلك اتجه المغول نحو دمشق، وعندما بلغوا ضواحيها قرعت طبولهم وارتفعت صيحاتهم الوحشية تشق عنان السماء. وكان دخولهم في أول مارس ١٢٦٠ م، أما القلعة فظلت تقاوم لفترة ثم استسلمت حاميتها، في هذا الوقت كان الناصر قد بلغ حدود مصر، فأرسل إليه السلطان قطز من يرده ويثير المتاعب في وجهه حتى لا يدخل البلاد، فعلم أنه غير مرغوب فيه، فعاد أدراجه باتجاه الصحراء، وبلغ شرق الأردن حيث اعتقلته إحدى فرق المغول.

وفي خلال الأسابيع التي عقبت استسلام دمشق أتم المغول فتح سوريا، وكان الساحل والجبل اللبناني بيد الصليبيين، وأكملوا زحفهم على

فلسطين فاستولوا على السامرة ونابلس وغيرها، وتقدموا غرباً حتى غزة دون عقبات تذكر، وعلى أثر ذلك سقطت في أيديهم حامية عجلون، ولكنهم لم يصلوا إلى بيت المقدس مطلقاً.

وهكذا بدأ للجميع أن اندفاع المغول لا نهاية له، ووقف ما تبقى من العالم الإسلامي يترقب وجهتهم التالية، وفجأة وقع حادث لم يكن في الحسبان، فقد أقبل رسل من الشرق على عجل يحملون إلى هولاكو نبأ وفاة شقيقة منكوخان في الصين، وتنازع أخويه قوبيلاي وأريق بوقا على القيادة، فامتعض وتألم كثيراً.

وقبيل مبارحة هولاكو لأرض الشام أسند القيادة إلى كيتو بوقا للمحافظة على الشام وتنفيذ ما تبقى من أهداف الحملة. كما بعث برسول يصحبه أربعون مغولياً إلى السلطان قطز في مصر يطالبه بالخضوع وإلا فالحرب واقعة بينهما لا محالة، يقول في رسالته:

«إن الله قد رفع شأن جنكيزخان وأسرته، ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرد علينا ويعصي أمرنا يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به، وبلاده ورعاياه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع، أما جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار، فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا، فأرسل إلينا الجزية وأقدم بنفسك واطلب الشحنة، وإلا فكن مستعداً للقتال»[(١)].

يتراوح جيش كيتو بوقا ما بين عشرة إلى عشرين ألف مقاتل أُعد إعداداً جيداً تمهيداً للإنطلاق نحو آخر أهداف الحملة، إلا أن الخلاف الذي شجر بين المغول والصليبيين وأدى إلى نشوب معركتين خربت في إحداها صيدا وهزم في الآخر جيش الفرنجة، أنهت التحالف الصريح والضمني بينهما ضد العالم الإسلامي، وشجعت بالتالي المماليك على الوقوف في وجه المغول.

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٠.

ولما وصل رسل هولاكو إلى القاهرة استدعى السلطان قطز الأمراء وقادة الجيش وأعيان البلد، وتلى عليهم الرسالة، ثم عقب عليها بقوله:

ـ لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته، واستولى على جميع البلاد، ثم جاء إلى دمشق، ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى. ومع هذا ترك في هذه النواحي كيتو بوقا الذي هو كالأسد الهصور والتنين القوي في الكمين. وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته، فيجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة»[1].

فقال الأمير ناصر الدين قميري:

«إن هولاكو خان فضلاً على أنه حفيد جنكيزخان وابن تولوي وأخو منكوخان فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان، وإن البلاد الممتدة من بلاد الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، وقد اختص بالتأييد السماوي، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل، إنه ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن إجتزاز الرؤوس، وهو لا يعني بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكة وصاحب أربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل»[2].

قال قطز:

«والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباًوقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأزواج والأبقار والبذور، فلو

---

(١) المصدر السابق ص ٣١١.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٢.

أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم، فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد، وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة، الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفراً إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة»[1].

هنا قال ناصر الدين قميري:

- وليس لنا مصلحة أيضاً في مصالحتهم، إذ أنه لا يوثق بعهودهم. أما سائر الأمراء والقادة فقالوا:

- ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم، فمر بما يقتضيه رأيك عندئذ حسم السلطان قطز الآراء في المجلس بقوله:

- إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الشعب.

بعد ذلك أخذ السلطان قطز الظاهر بيبرس أمير الأمراء واختلى به جانباً وشاوره في الأمر، فقال له الظاهر:

- إني أرى أن نقتل الرسل، ونقصد كيتو بوقا متضامنين، فإذا انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين[2].

استصوب قطز هذا الرأي وأمر بقتل الرسل وصلبهم على باب زويلة، وفي الصباح تأهب الجيش للقتال، ولما حانت ساعة الخروج نكص بعض الأمراء على أعقابهم، وأبدوا خنوعاً وتكاسلاً أشاعه في نفوسهم الخوف من مجرد ملاقاة المغول، فما كان من قطز إلا أن توجه إليهم بهذه الكلمات اللاذعة، ومما قاله لهم:

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٢.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٢، ٣١٣.

ـ يا أمراء المسلمين لكم تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[1].

تقدمت طلائع جيش المماليك بقيادة الظاهر بيبرس البندقداري يوم ١٥ شعبان ٦٥٨ هـ ١٢٦٠ م لجمع المعلومات عن تجمعات العدو، فأسرع بايدر الذي كان في طليعة المغول بغزة بإرسال رسالة إلى كيتو بوقا بالقرب من بعلبك يخبره بتحرك الجيش الإسلامي، فرد عليه قائلاً:

ـ قف مكانك وانتظر.

وقبل وصول النجدات إلى طليعة المغول اشتبك معهم الظاهر بيبرس بمن معه من الفرسان خفيفو الحركة في قتال عنيف وغير متكافىء أجبرهم على التخلي عن غزة وجنوب فلسطين بأجمعه، وظلوا يطاردون فلولهم المنسحبة حتى نهر العاصي، وبعد فترة وجيزة على هذا الانتصار وصل السلطان قطز على رأس الجيش إلى عكا، حيث رحب بهم الصليبيون، وسهلوا لهم المرور بأراضيهم وأمدوهم بالعتاد الحربي.

ولما علم كيتو بوقا بهزيمة طليعة الجيش المغولي تحول إلى بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب، وشرع من ساعته في السير على رأس جيشه لملاقاة المماليك، معتمداً إلى أقصى حد على قوته وسطوته وثقته في النصر، وفي الوقت نفسه تحرك جيش المماليك مخترقاً أراضي الفرنجة نحو نهر الأردن، وتقدم الظاهر بيبرس في المقدمة إلى أن واجه طليعة المغول، فكتب إلى قطز يعلمه بظهور الأعداء.

وهكذا احتشد الجيشان كل منهما في مواجهة الآخر عند قرية عين جالوت بين بيسان ونابلس، وذلك في يوم ١٥ رمضان ٦٥٨ هـ (٩١٣/ ١٢٦٠ م) ودوي نفير الحرب في ميدان القتال، وقرعت الطبول ونفخت الأبواب استعداداً للمعركة الفاصلة.

---

(١) المغول ـ فؤاد عبد المعطي الصياد ص ٣٠٦ نقلاً عن المقريزي ـ السلوك ج (١) ص ٤٢٩.

انهمك السلطان قطز وقادته في وضع الخطة الحربية، واضعين نصب أعينهم أن هزيمتهم واقعة لا محالة إذا ما اتخذ القتال الطابع المتحرك والذي يتوقف النصر فيه على خفة الحركة وسرعتها، وتفوق عنصر الفرسان، والمغول كما هو حال أسلافهم في كل خروج لهم بارعون في فن القتال السريع والضربات الخاطفة من على ظهور الخيل. وهي الطريقة التي حققوا بها معظم انتصاراتهم، وهو أمر اتضح للمماليك عجزهم عن مجاراته. لذلك اتفقوا على أن تتخذ المعركة طريقة القتال الثابت والذي يجرد الفرسان من مقدرتهم على المناورة، ويكرههم على القتال رجلاً إزاء رجل. ويلعب فيه المشاة دوراً أساسياً.

وعلى ضوء ذلك رتب السلطان قطز جيشه بحيث تبدو خطته للمغول كما لو كانت نفس الخطة التي ألفوا التعامل معها، وخبروا نواحي ضعفها وقوتها، ولمزيد من التمويه والخداع طمعها قطز ببعض فرق من الفرسان، بينما وضع الفرسان وهم قوة الجيش الرئيسية في كمين أعد إعداداً جيداً أسند قيادته للظاهر بيبرس.

واضح من خطة قطز أنه يهدف إلى جر فرسان المغول إلى اصطدام المباشر بصفوف المشاة المتراصة والثابتة في مواقعها القتالية. ويجبرهم على قتال متلاحم وقريب، وبذلك يخفف من حركتهم الشديدة، ويجردهم من عنصري الخفة والسرعة، وهما العنصران اللذان أذهلا بهما المقاتلين في أغلب معاركهم، وبمجرد أن تشيع الفوضى والإرتباك في صفوفهم يفسح المشاة المجال لفرسان المماليك في الخلف للإندفاع بقوة نحو الصفوف المرتكبة والقضاء عليها بنفس سرعة تعاملهم مع أعدائهم.

أما إذا فطن المغول للخدعة وأحسوا بعجزهم عن الحركة وأرادوا تغيير خطتهم الحربية، أو إذا اشتد ضغطهم على المشاة بحيث يمكنهم استعادة ما فقدوه، هنا يلجأ المماليك إلى حيلة المغول التقليدية والتي طالما خدعوا بها الناس وأنزلوا بهم الهزائم المميتة، وهي التظاهر بالتقهقر

والفرار وإيهامهم بهزيمتهم، وترك ثغرة في الجيش تخفف الضغط على المشاة من جهة، وعلى فرسان المغول من جهة أخرى، ليندفع خلالها فرسان المغول اندفاعهم العاتي، وبعد أن يمعنوا في مطاردة الفارين حتى الكمين المعد مسبقاً، يطبق عليهم الفرسان من ثلاث جهات، ويلتحم معهم في قتال متشابك.

وفي صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨ هـ (١٣/٩/١٢٦٠ م) بدأت المعركة كما خطط لها بهجوم عنيف من فرسان المغول اصطدموا فيه اصطداماً مروعاً بالمشاة خفف من حدة حركتهم والجأهم إلى نوع من قتال لم يعهدوه من قبل، وبعد لأي إخترقوا قوات القلب وزحزحوا قوات الفرسان التي يقودها قطز. وذلك إيذان بفشل خطة القتال المتلاحم، وآن الآوان لتنفيذ الشق الثاني منها، فتظاهر الجيش بالإنكسار والهزيمة ولجأ إلى الفرار، هنا انفرجت الثغرة واندفع منها المغول كما يندفع البخار المضغوط لمطاردة الفارين الذين أسلموهم بدورهم إلى الكمين، عندئذ ألقى السلطان قطز بخوذته على الأرض وصاح بصوت كالرعد:

- واإسلاماه اللهم انصر عبدك قطز على التتار.

وكر عائداً وهو يقود بقايا قوات القلب، في الوقت الذي انشق فرسان الكمين من ثلاث جهات وانقضوا على المغول كالصاعقة وسط قرع الطبول القاصف، واشتبك الجميع في قتال فقد فيه المغول مهارتهم كفرسان وأفقدتهم المفاجأة كل قدرة لهم على الضربات الخاطفة والسريعة، ولو مرة في تاريخ خروجهم هذا يضيع من بين أيديهم العنصر الذي هو سبب لكل إنتصاراتهم.

استمرت المعركة من الصباح وحتى منتصف النهار تعذرت فيه على المغول كل مقاومة، وفشلت جميع ضرباتهم في اختراق الحصار المضروب حولهم، وعندما شعر كيتو بوقا بمظاهر الهزيمة في ميدان القتال، وأيقن

برجمات كفة المماليك. ورأى بعينه عجز جنوده وتخبطهم وزوال تلك الهالة المرعبة من على وجوههم، وضآلة ضرباتهم وضعفها، صار يضرب يميناً وشمالاً غيرة وحمية، ويكر على أعدائه كالأسد الجريح، فرغبه جماعة من أتباعه من الهرب ولكنه لم يستمع إليهم بل قال لهم:

ـ لا مفر من الموت هنا، فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان، وسيصل رجل واحد صغيراً أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلاً: إن كيتو بوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه، ينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول، وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً، وأن جياد قطعانه لم تلد المهود، فليدم إقبال الملك ما دامت نفسه الشريفة آمنة وسالمة، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير[(١)].

ظل كيتو باقا رغم انصراف جنوده عنه يكافح ألف رجل إلى أن كبا به جواده، وسقط أرضاً، وفقد من شدة السقوط سيفه، فاجتمع عليه الجند ووثقوا يديه ثم أخذوه أسيراً. في هذا الوقت التجأ من بقي معه حتى النهاية من جنده إلى مزرعة قصب بالقرب من ساحة القتال، فأمر السلطان بإضرام النار فيها فاحترقوا عن آخرهم.

قتل في معركة عين جالوت معظم قادة المغول والجزء الأعظم من مقاتليهم، ونجت فئة قليلة تمكنت من الهروب حيث تفرقوا شراذم قليلة في كل إتجاه، وبمجيء عصر يوم الجمعة المجيد خلت أرض المعركة تماماً من المغول، ونزل السلطان قطز من على ظهر جواده وسجد لله شاكراً على ما أولاه من نصر.

حمل كيتو بوقا مكبلاً إلى السلطان قطز فقال له:

---

(١) جامع التواريخ ـ المجلد الثاني ج (١) رشيد الدين ص ٣١٤.

- أيها الرجل الناكث العهد، ها أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البريئة وقضيت على الأبطال والعظماء بالوعود الكاذبة، وهدمت البيوت قد وقعت أخيراً في الشرك[1].

فأجاب كيتو بوقا قائلاً:

- أيها الرجل الفخور المغتر لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا فأنا إذا قتلت على يدك فإني أعلم أن ذلك من الله لا منك فلا تخدع بهذه المصادفة العاجلة، ولا بهذا الغرور العابر، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو نبأ وفاتي، سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنابك خيل المغول من آذربيجان حتى ديار مصر، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك، إن لهولاكو ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتو بوقا، فافرض أنه نقص واحد منهم[2].

عقب السلطان على كلامه بقوله:

- لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخداع لا بالرجولة والشهامة[3].

ولما انتهى هذا الحوار القصير والموجز بين الغالب والمغلوب، أمر قطز بقتل كيتو بوقا، ففصلوا رأسه عن جسده، ثم أرسل فرق من الفرسان لمطاردة فلول المغول من الشام وحتى شاطىء الفرات. فمزقوهم شر ممزق. ومن استطاع النجاة من فرسان المماليك لم ينج من أهالي البلاد الموتورين، واستمرت المطاردة فترة قصيرة من الزمن تطهرت منهم أراضي الشام وفلسطين.

بلغ هولاكو نعي كيتو بوقا، والمذبحة التي فنى فيها معظم جنده،

(١) المصدر السابق ص ٣١٥.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٥.
(٣) المصدر السابق ص ٣١٥.

كما نقل إليه حرفياً نص حديثه مع قطز وهو مكبل اليدين، فأسف أسفاً شديداً، واشتعلت نيران غضبه، وأراد أن يعد حملة جديدة إلى الشام ومصر لينتقم لقتل قائده وفخر الجيل الجديد من قادة يأجوج ومأجوج في خروجهم هذا، ولكن الخلاف الذي ظهر بينه وبين أقاربه جعله يعدل عن الفكرة برمتها.

وعدول هولاكو في واقع الأمر ما هو إلا مظهر من مظاهر خمود التأجج فيهم، وزوال تلك الخاصة الفريدة والقوة الخفية التي مكنتهم من التسلط على الناس ردحاً من الزمن، ولم يمض عامان على موقعة عين جالوت حتى تلاشت مهابتهم من القلوب، وبدأت روابط الوحدة بينهم تخف تدريجياً ودائرة الخلاف تتسع يوماً بعد يوم، وما أن حل عام ٦٦٠ هـ ١٢٦٠ م حتى أصبح من المستحيل عليهم الإلتقاء فيما بينهم.

في هذا الوقت إعتنق بركاي ابن جوجي وابن عم هولاكو الإسلام متصلاً بروحه وثقافته بل وانتمائه إلى أمة الإسلام. وصار يدافع عن المسلمين كواحد منهم، وتقرب إلى المماليك الذين كانوا يمثلون في زمانه عنصر المقاومة الحقيقية للوجود المغولي، وربط مصيره نهائياً بالمسلمين في منطقة القوقاز والقبجاق والتي آلت إليه بالفتح والغزو، وبالتالي أصبح يشجب أفعال المغول، مما تحتم عليه الإصطدام بإخوانه في معركتين هزم في إحداها وانتصر في الأخرى.

وبعد وفاة هولاكو باثني عشر سنة لم يعد في المغول ما يميزهم عن سائر سكان المنطقة، ففي عام ٦٧٥ هـ اشتبك آباقا بن هولاكو في عدة معارك مع جيوش السلطان الظاهر بيبرس أسفرت جميعها عن اندحارهم. من أبرزها معركة ابلستين Abulustyan، حيث فقد المغول فيها دفعة واحدة ما يقارب سبعة آلاف قتيل، ولما زار آباقا أرض المعركة وشاهد جثث القتلى بعضها فوق بعض انفجر باكياً، ولم يغضب أو يفكر في الانتقام لعلمه أن منافذ الغضب والانتقام قد سدت في وجوههم.

الخروج في الحاضر والمستقبل:

حكم قبلاي خان (١٢٥٩ ـ ١٢٩٤ م) مساحة من الأرض لم يحكمها أحد قبله امتدت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ولكن فترة حكمه تعد بالفعل بداية النهاية لخمود تأججهم وزوال سلطانهم القهري على الناس فهو على سبيل المثال أول من تخلى عن العادات والتقاليد المعيشية لقومه. وآثر العيش على النمط الصيني، وقلد الصينيون في عاداتهم وتقاليدهم، بل ونقل عاصمة الإمبراطورية نفسها من قراقورم إلى بكين.

وأعقب موت قبلاي خان سلسلة طويلة من الحروب كرست روح التفرق والإنفصال فيما بينهم، وأدت تدريجياً إلى تفكك الإمبراطورية لتتحول في النهاية إلى ممالك ودولة مستقلة اصطبغت جميعها بصبغة الشعوب المحكومة، واندمجوا هم أنفسهم في محيط حياة محكوميهم وتشبعوا بتقاليدهم وعاداتهم إلى حد التلاشي والذوبان.

أما أولئك الذين بقوا في موطنهم وأولئك الذين رجعوا إليه بعد زوال سلطانهم على الناس وذوبان إخوانهم من الشعوب المغلوبة فقد عادوا إلى سابق ما كانوا عليه قبل خروجهم الكبير، وخير من عبر عن واقعهم هذا هو ماركو بولو، إذ يقول واصفاً لهم ولحياتهم بعد خمود تأججهم:

«لا يقيم المغول بأرض واحدة أبداً، ولكن متى اقترب الشتاء انتقلوا إلى سهول منطقة أخرى، لكي يجدوا مراعي كافية لماشيتهم، وعادة ما يستقرون خلف الجبال والتلال لتدرأ عنهم ريح الشمال الشديدة الزمهرير بتلك الأصقاع، ويزودهم الثلج بالماء، أما في الصيف فينتجعون المواقع الباردة في الجبال، أو الأماكن المكشوفة قرب الأنهار، أبو بعض البرك، فإن لم يجدوا فإلى جوار بعض الآبار حيث يتوفر فيها جميع الماء والخضرة، ولا يزالون أثناء شهرين أو ثلاثة يصعدون بأطراد أرضاً أعلى فأعلى، وينتجعون مراعي جديدة، وذلك لأن العشب لا يكون كافياً في محل بعينه لإطعام الجموع الغفيرة التي تتألف منها عائلاتهم وقطعانهم.

وأكواخهم أو خيامهم مصنوعة من قضبان مغطاة باللباد ونظراً لأنها مستديرة تماماً وتوضع مع بعضها البعض على صورة لطيفة فإنهم يستطيعون حملها في حزمة واحدة. ويحولونها ربطات يحملونها معهم أثناء هجراتهم على ضرب من العربة له أربع عجلات، ومتى آن أوان إقامتهم مرة ثانية جعلوا واجهة المدخل متجهة إلى الجنوب.

وفضلاً عن هذه العربات فلديهم نوع ممتاز من المركبات ذات العجلتين، وهي مغطاة كذلك باللباد الأسود وبطريقة فعالة جداً بحيث أنها تحمي من يستغلونها من البلل أثناء يوم كامل من المطر، وهذه كلها تجرها الثيران وتستخدم في حمل زوجاتهم وجميع ما لديهم من مواعين وما يلزمهم من مؤن.

وهم يقتصرون تماماً في طعامهم على اللبن واللحم وحيوان معين صغير وقريب الشبه من الأرنب يسمى فار فرعون، يوجد بوفرة عظيمة في فصل الصيف في منطقة السهول، ولكنهم يأكلون أيضاً اللحم بكل أصنافه وأوصافه الخيل والجمل بل وحتى الكلاب، شريطة أن تكون سمينة، وهم يشربون لبن الأفراس الذي يعالجونه بطريقة تجعل فيه صفات النبيذ الأبيض ونكهته، وهم يسمونه في لغتهم (كيموس).

والنساء هن اللاتي يتولين شئون التجارة، فهن اللائي يشترين ويبعن ويزودن أزواجهن وخدمهن بكل ما يلزمهم من الضروريات وذلك لأن وقت الرجل موجه بأكمله للصيد، وكل ما يتعلق بالحرب وحياتها من أمور، ولديهم خير ما في العالم من صقور وكلاب»[1].

وخلال الخمسمائة عام التي تلت وفاة قبلاي خان خضع المغول للشعوب التي أذعنت لهم ردحاً من الزمن من آسيا والعالم الإسلامي، ولكن بقي الخوف منهم شيء تتوارثه الأجيال على إمتداد ما وصل إليه

---

(١) رحلات ماركو بولو ص ١٠٦.

مدهم التسلطي، حتى أصبح للخوف ذيولاً نفسية، دفع بالصينيين أقرب الشعوب إليهم للسيطرة المبكرة على ما يعرف اليوم من أراضيهم باسم منغوليا الداخلية، وفي آواخر القرن السابع عشر الميلادي أحكموا سيطرتهم على منغوليا الخارجية، ليكتمل لهم بذلك السيطرة على موطنهم بأكمله.

ومع بداية القرن العشرين (١٩٢١) استقلت منغوليا الخارجية عن الصين لتشكل ما يعرف اليوم بالجمهورية الشعبية المنغولية، وبقيت منغوليا الداخلية تحت حكم الصنيين، وبعد الحرب العالمية الثانية أعيد من جديد تشكيل مواطنهم، أو بتعبير آخر أعيد النظر في إحكام السيطرة عليهم، تفتيتاً لكيانهم ووحدتهم، وتخفيفاً عن وطأة الخوف منهم، فقسمت منغوليا إلى قسمين:

- الأول إستولى فيه الصينيون على مساحات شاسعة من أراضيهم، ضمت المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية باستثناء منطقة قانو توفا المعتبرة مغولية منذ القدم، فهذه ضمت إلى الاتحاد السوفيتي السابق، وتعرف هذه المناطق اليوم بمنغوليا الداخلية.

- الثاني إستولى فيه الروس على جميع أراضي الوطن الأم لأجدادهم. وهي المناطق الواقعة بين نهري أنون وكيرولين وبحيرة بايكال وما يحيط بها من مساحات كبيرة، ولم يستثنى من ذلك إلا أراضي قليلة تحيط بالأجزاء العلوية من نهر كيرولين، وتعرف هذه المنطقة اليوم بمقاطعة شيتا.

وبقيت لهم اليوم من أراضي أسلافهم الأصلية منطقة صغيرة هي جمهورية منغوليا الشعبية الواقعة بين الدولتين الصينية وما كان يعرف سابقاً. بجمهوريات الاتحاد السوفيتي، وكانت إلى ما قبل إنهيار الحكم الشيوعي تدور في فلك الإتحاد السوفيتي، بل ويعتمد المغول بشكل أساسي في كافة احتياجاتهم على مساعدات الروس، إذ تضم أراضيهم إضافة إلى صحراء جوبي مناطق جبلية عالية تكسوها الثلوج وتصعب فيها الحياة.

وتفرض علينا طبيعة الموضوع سؤال وهو هل من الممكن خروج جموع يأجوج ومأجوج للعالم في الحاضر القريب أو المستقبل البعيد خروجاً يضاف إلى ما مضى، أم يقف الأمر عند هذا الحد، ويبقى لهم فقط خروجهم الأخير قبل قيام الساعة؟

لا نريد هنا التنبؤ بخروج ثامن أو تاسع يتدفقون فيه على إخوانهم وأبناء عمومتهم في حاضر الزمان أو مستقبله، فعلم ذلك عند الله وحده، ولكننا نريد فقط بيان آن إمكانية الخروج مخبوءة في حناياهم، وكامنة في الخواص المميزة لهم عن سائر بني آدم، وتلك قد تنزوي وتتوارى ولكنها لا تضمحل أبداً مهما تعاقبت عليهم الدهور، ومتى ما إذن لها بالظهور خرجت ببطء إلى سطح الحياة كما تخرج الشجرة الباسقة من البذرة الصغيرة في باطن الأرض، لتتخذ لها مظاهر وسمات تتمحور كلها حول هذا الاسم الفريد: يأجوج ومأجوج.

وهذا الاسم على غرابته هو وحده الذي سماهم به الله تعالى مرتين مرة في ماضيهم ومرة أخرى في مستقبلهم البعيد، وحفظه لهم وحدهم على كثرة ما أطلق عليهم من مسميات. وذلك لأن الاسم - كما قلنا - منتزع من التأجج أخص ما يميزهم عن سائر إخوانهم وأبناء عمومتهم، وليس هو من قبيل النعت أو الحلية، وخاصية التأجج كافية وحدها لأن تستدعي في الذهن كل ما عرفوا في الماضي والحاضر وما سيعرفون به مستقبلاً.

الخروج الأخير:

ومع دنو الساعة وقرب القيامة تخرج جموع يأجوج ومأجوج في آخر خروج لهم على ما تبقى من سلالة نوح في الأرض فيعيدون ما فعله إسلافهم، ومصادرنا الوحيدة لهذا الخروج هي الوحي الإلهي ونبوءات الأنبياء، ولعل أول إشارة وردت في ميراث النبوة عند أهل الكتاب، وتطابق ما جاء به الإسلام هي الرؤيا التي رآها يوحنا اللاهوتي وأوردها ضمن الكثير من مكاشفاته حيث قال:

«ثم متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه، ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة، فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب، وسيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين»(١).

واضح من سياق الرؤيا أن خروج يأجوج ومأجوج يجيء في زمن سابق على يوم القيامة، وفيه يندفعون بكثرة لا تحصى، حيث ينزلون على المعمور من الأرض كالجراد، ويواصلون مسيرتهم حتى يبلغون بلاد المسلمين (القديسين)، فيحيطون بهم وببيت المقدس (المدينة المحبوبة) عندئذ ينزل الله عليهم ناراً من السماء تقضي عليهم جميعاً لا تذر منهم أحداً، أما إبليس الذي أضلهم والدجال (النبي الكذاب) فيطرحون ومن معهم من نار جهنم خالدين فيها أبداً.

ثم ختم يوحنا نبوته بمجيء القيامة والبعث والنشور والحساب والعقاب فقال:

«ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء ولم يوجد لهما موضع، ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة، ودين الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم، وسلم البحر الأموات الذين فيه، وسلم الموت والهاوية الأموات الذين فيهما ودينوا كل واحد بحسب أعماله، وطرح الموت والهاوية في بحيرة النار، هذا هو الموت الثاني، وكل من لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة طرح في بحيرة النار»(٢).

---

(١) رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٠: ٧ ـ ١٠.

(٢) رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٠: ١١ ـ ١٥.

وقد أجمل القرآن الكريم كلام الله ووحيه الصادق والأخير للناس أجمعين خروجهم هذا وما يقترن به في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[١].

وكما هو بين من منطوق الآية ومفهومها العام تخرج جموع يأجوج ومأجوج على الناس، فينتشرون على رقعة واسعة من الأرض، بنفس خفتهم المعهودة وسرعتهم المميزة وبأعداد كثيرة حتى يخيل لمن يراهم أنهم يقبلون من كل ناحية ومن كل جهة، كأنهم جراد منتشر.

ويتزامن خروجهم هذا بقرب الساعة ودنو يوم القيامة، فمتى خرجوا بجموعهم الهائلة أزفت الساعة واقتربت القيامة (الوعد الحق)، فإذا قامت القيامة ثبتت أعين الكافرين فلا تكاد تطرف ذهولاً وهلعاً، فيأخذون في العويل والندم، إذ غفلوا ولم يحسبوا حساباً لهذا اليوم الرهيب.

ووصف القرآن الكريم لحالة الكافرين كما هو ظاهر وجلي متفرع عن أمرين يأتي أحدهما بعد الآخر، خروج يأجوج ومأجوج، واقتراب الوعد الحق، وبتتابع بنبيء بوقوعهما الثاني في أثر الأول، وبسرعة أذهلت أهل الغفلة فشخصت أبصارهم من شدة أهوال هذا اليوم.

أما السنة النبوية فقد فصلت ما أجمله القرآن ليس فقط عن هذين الأمرين، بل أيضاً عن كل ما يخص أيام الإنسان الأخيرة في الأرض، فقبيل تدفق جموع يأجوج ومأجوج الهادرة يخرج على المسلمين الدجال اليهودي[٢] من بلدة يهودية أصبهان[٣] في إيران الحالية، وهو يومئذ عن

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٩٥ ـ ٩٧.

(٢) صحيح مسلم: ١٨: ٥٠.

(٣) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ٧: ٣٣٨ ومسند الإمام أحمد ٦: ٧٥.

عنفوان شبابه، قصير القامة متناهي في القصر. عظيم الجثة متباعد ما بين الساقين، أسمر شديد السمرة شدة تقربه إلى السواد، كثيف شعر الرأس ومتفرق، عينه اليمنى عوراء جاحظة غليظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص ولا يبصر بها وعينه اليسرى كأنها كوكب دريٌّ من شدة اتقادها، عريض المنخر، ومكتوب بين عينيه كافر يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب، ولا يقرؤها الكافر.

وينتقل الدجال بين الناس على ظهر حمار يدعو الناس في مفتتح دعوته إلى الإيمان والصلاح والخير، وأخيراً يدعى لنفسه الألوهية. وذلك على امتداد الجزء المعمور بالمسلمين يومئذ. ما بين مشرق العالم الإسلامي في أصبهان وخراسان مروراً بالعراق وحتى الشام غرباً، وبصحبته دوماً رجلان ينذران ويبشران بما يزعمه لنفسه، ويفتتن به الناس فتنة تزلزل كيانهم النفسي والروحي، وصفها الرسول ﷺ بقوله:

«لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وأنه لم يبعث نبياً إلا حذر أمته منه، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، وأن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم»[(١)].

ومن فتنته أنه يدعو المسلمين إلى ألوهيته، فمن استجاب له ولم يرده، أمر السماء فتمطر حتى تجري الأنهار، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى تروح أنعامه وترجع بعد زوال الشمس أسمن ما كانت عليه وأملأ خواصر وادره ضروعاً، ومن رده ولم يقبل مزاعمه أنزل عليه الجدب والقحط، وعمه الجوع والعطش وهلكت مواشيه.

ومن فتنته أن معه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء واحد منهما عن

---

(١) صحيح البخاري (٦) ٣٥٨، ٤٥٠ و (١٣) ٨٤، ٨٧ وسنن أبو داود ٤: ١١٧.

يمينه والآخر عن شماله، فيقول الدجال للمسلمين: ألست بربكم ألست أحيي وأميت، فيقول أحد الملكين: كذبت ما يسمعه إلا صاحبه، فيقول له: صدقت، فيسمعه الناس، فيظنون إنما يصدق الدجال.

ومن فتنته أنه يطلب شاباً فيضربه بالسيف ويشقه إلى قطعتين ثم يقول انظروا إلى عبدي هذا فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيري. فيدعو القتيل فيقبل، ويقول له من ربك، فيقول ربي الله وأنت عدو الله، أنت الدجال والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم.

ومن فتنته أنه يقول لأحد الأعراب: أرأيت أن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان يا بني اتبعه فإنه ربك.

وعلى الرغم من قسوة تلك الفتن وشدتها على المسلمين في دينهم ودنياهم، إلا أن من يتبعه منهم قليل، وأكثر من يتبعه اليهود، ولا تبقى رقعة من بلاد المسلمين إلا وقد وطأتها أقدامه ونشر فيها فساده، إلا المدينة ومكة وبيت المقدس فقد حرمها الله تعالى عليه، وقامت الملائكة في مداخلها تحميها وتدافع عنها، فيرتد هو وأعوانه خائبين.

ويعتصم المسلمين يومئذ بجبال الشام، فيحاصرهم الدجال بمن معه من اليهود، ويشتد عليهم الحصار ويطول، ويبلغ بهم الجهد أشده والجوع غايته، حتى أن الواحد يحرق وتر قوسه ويأكله، وفي إحدى الليالي يقول رجل من المسلمين لإخوانه:

«يا معشر المسلمين حتى متى أنتم هكذا وعدوكم نازل بأهل جبلكم هذا، ما تنظرون أن تلحقوا بإخوانكم من مرضاة ربكم، هل أنتم إلا بين الحسنيين، بين أن يستشهدكم الله أو يظهركم عليه، صلوا حينما ينفجر الفجر، وعجلوا بالصلاة، ثم أقبلوا على عدوكم»(١).

---

(١) صحيح مسلم ١٨: ٦١ ومسند الإمام أحمد ٤: ٢١٦، ٢١٧.

فيتبايع الجميع على القتال بيعة يعلم الله تعالى إنها الصدق من أنفسهم، ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر أحدهم فيها كفه، في هذا الوقت يبعث الله تعالى عيسى عليه السلام، فينزل عند منارة بيضاء شرقي دمشق تحمله الملائكة، وقد وصفه الرسول ﷺ يومئذ بقوله:

«رجل آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، سبط الشعر له لمة كأحسن ما أنت راء من اللحم تضرب عنه بين منكبيه، يقطر رأسه ماء، ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس»[(١)].

وبينهما المسلمون يسوون صفوفهم للصلاة، يظهر عيسى عليه السلام في المسجد، فيعرفه كل من فيه، فيقول له أميرهم وإمام صلاتهم:

- يا روح الله تقدم صل بالناس.

فيقول عيسى عليه السلام:

- لا، أن بعضكم على بعض أمراء، تقدم أنت فإنها لك أقيمت.

ويتقدم أميرهم ويصلي بالناس، ويصلي عيسى عليه السلام مقتدياً بإمام المسلمين، فإذا قضيت الصلاة يخرجون جميعاً لملاقاة الدجال الأعور، فحين يرى عيسى يتوارى خوفاً وفزعاً. ويسري خوفه وفزعه في أتباعه، فتتلاشى قوتهم، ولا تثبت السيوف في أيديهم، فيهربون لا يلوون على شيء، ويتبعهم عيسى والمسلمون حتى يدركونهم بباب لد الشرقي[(٢)] على مقربة من بيت المقدس.

وعند باب لد الشرقي يقتل عيسى عليه السلام الدجال الأعور، وينهزم بمقتله جنده من اليهود، ويتفرقون في المنطقة آحاداً وجماعات طلباً للنجاة، ويتوارون خلف جبال المنطقة وأحجارها وأشجارها، وشاء الله

---

(١) صحيح البخاري (٦) ص ٣٤٩، ٣٥٠ و (١٣) ص ٨٥.

(٢) سنن الترمذي ج ٩: ص ٩٨ ومسند الإمام أحمد ج (٣) ص ٤٢٠.

تعالى ألا يبقي شيء من خلق الله لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة يتوارى خلفه اليهود إلا أنطقه وقال:

- يا عبد الله يا مسلم هذا يهودي خلفي فتعال واقتله.

إلا شجر الفرقد، فإنها من شجر اليهود[(١)].

وبعد زوال فتنة الدجال تصل جموع يأجوج ومأجوج إلى المنطقة، فيوحي الله إلى عيسى عليه السلام: إني قد أخرجت خلقاً من خلقي لا طاقة لأحد بمقاتلتهم أو التصدي لهم، فمر من معك من الناس بالابتعاد عن طريقهم والاعتصام بجبل الطور في سيناء، فيجتمع يومئذ في جبل الطور كل من حارب اليهود مع عيسى عليه السلام، وينحاز من لم يدرك عيسى من المسلمين إلى حصونهم ومدنهم ويضمون إليهم مواشيهم، ولا يبقى أحد من الناس إلا كان في حصن أو جبل شامخ.

ولا تمر جموع يأجوج ومأجوج في زحفهم الطويل على حي إلا قتلوه، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، حتى إن أوائلهم تصل بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، فيأتي أواخرهم فيقول قائلهم:

- لقد كان بهذا المكان مرة ماء.

ثم يسيرون حتى ينتهوا عند جبل في بيت المقدس، فيقول كبيرهم:

- لقد قتلنا من في الأرض فلنقتل من في السماء.

فيرمون حرابهم وسهامهم نحو السماء فترجع إليهم مخضوبة بالدم فيصيحون فرحين:

- قد قتلنا من في السماء.

---

(١) صحيح مسلم ج (٦) ص ٤٤٩ و ج (١٨) ص ٤٢.

وتحاصر جموعهم عيسى عليه السلام ومن معه في جبل الطور، كما تحاصر المسلمين في مدنهم وحصونهم. ويطول على الجميع أمد الحصار حتى تتناقض المؤن وتقل الأقوات، وترتفع قيمة الضروريات حتى يكون رأس البهيمة يومئذ لأحدهم خير من الدنيا وما فيها، فيتضرع عيسى إلى الله تعالى ليهلك القوم المفسدين وينجيهم من مكايدة الآلام، فيقول:

ـ اللهم لا طاقة ولا يدين لنا بهم، فاكفناهم شرهم.

ويستجيب الله تعالى لدعاء عيسى، ففي جنح الليل يسلط الله عليهم دوداً يدخل في آذانهم ومناخرهم وأعناقهم يتساقطون منه صرعى كموت نفس واحدة، وببزوغ فجر اليوم التالي، وعلى امتداد تجمعات المسلمين لا يسمع لهم أحد مس ولا حركة، فيتحيرون من الهدوء المفاجىء والسكون الذي أطبق على المنطقة، فيقول أحدهم:

ـ هل من رجل يشتري نفسه وينظر ما فعل هؤلاء.

فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد وطنها على الموت، فينزل ليجدهم موتى يركب بعضهم فوق بعض كالجراد، فينادي بأعلى صوته:

ـ يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله قد كفاكم عدوكم.

وينزل عيسى عليه السلام ومن معه من جبل الطور، ويخرج المسلمون من مدنهم وحصونهم فلا يجدون موضعاً من الأرض إلا وقد ملأته دماؤهم، وتنتشر في الهواء رائحة جثثهم، حتى يتأذى المسلمون منها أضعاف تأذيهم منهم وهم أحياء، فيستغيثون بالله تعالى، فيرسل الحق عز وجل إليهم طيوراً كبيرة الحجم قوية البنية، تحملهم جميعاً وتطرحهم حيث يشاء الله، ثم ينزل الله تعالى مطراً يغسل الأرض ويطهرها حتى يتركها على حالة أفضل مما كانت عليه قبل موتهم.

ثم يقيم عيسى عليه السلام في أمة الإسلام إماماً وحاكماً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيبطل دين النصرانية ويقضي على مزاعم النصارى في

حقيقته عليه السلام، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويحمل أهل الكتاب على الإسلام ولا يقبل منهم منه غيره، بحيث لا يبقى أحد منهم ليؤدي الجزية، ويصير الإسلام دين الجميع، ويكثر المال ويفيض بين أيدي الناس، وتخرج الأرض كنوزها، في هذا الوقت تقل الرغبات، ويزهد الناس في الدنيا، لعلمهم بقرب قيام الساعة. ويتجه الكل إلى العبادة والذكر حتى تكون السجدة الواحدة والركعة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

وبزوال حب الدنيا من القلوب تزول أمراض النفس مثل التباغض والحسد والغيرة والشحناء، ويعم الخير أرجاء الأرض، حتى يجتمع النفر على العنقود من العنب أو الرمانة فتشبعهم، ويبارك الله في اللبن حتى أن الناقة الحلوبة من الأبل لتكفي الجماعة الكبيرة من الناس، ويعم الأمن والسلام الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات ولا تضرهم.

ويمكث الناس يتفيئون ظلال الأمن والدعة والخصب طوال فترة حكم عيسى عليه السلام، ورويداً رويداً ينحسر الدين من نفوس المسلمين، فلا يتمسك به إلا القليل، فبينما هم على هذه الحالة يبعث الله ريحاً طيبة تقبض روح كل مؤمن، ويبقى من لا يعرف ديناً ولا أمانة، فتنتشر الفواحش وتسود المنكرات إلى درجة يجامع فيها الرجال النساء علانية لا يكترثون مما يفعلون مثلما تفعل الكلاب، وخيرهم من يقول لهم يومئذ:

- لو تنحيتم قليلاً عن الطريق.

وعليهم تقوم الساعة، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس.

الفصل الرابع

مظـــاهر الخـــروج

تميز خروج جموع يأجوج ومأجوج بمظاهر ثابتة وواحدة على الرغم من التباعد الزماني والمكاني ما بين كل خروج وآخر، إلى حد يكاد المرء يجذم فيه بأنه لو قدر لهم الخروج في أي وقت قبل خروجهم الأخير في حاضر الزمان أو مستقبله لبرزت نفس المظاهر التي واكبت واقترنت دوماً بكل خروج لأسلافهم في الماضي.

وفيما يلي استعراض لأبرز تلك المظاهر.

١ ـ الفتح:

إن النمط السائد لتجمعات يأجوج ومأجوج الحياتية قبل الخروج يتميز بشدة الاضطراب والفوضى، والخصومة والبغضاء، والمشاكسة والصراع والتنازع والتعطش للدماء، والهجرة من مكان إلى آخر بسبب وبغير سبب، بحيث حازوا في ذلك كله سمعة فاقت سائر الناس، الأمر الذي يجد معه الباحث صعوبة في تنسيق وترتيب وتنظيم تاريخ لهم متسلسل الأحداث ومضبوط الوقائع. حتى شبهوا في حالتهم تلك بخلية النحل لشدة حركتهم وعدم ثباتهم واستقرارهم، وحتى ما أذن لهم بالخروج خرجوا خروجاً يشبه اندفاع الشيء المحبوس والمضغوط إذا انفجر.

ومهما يكن من أمر فإن خروجهم تحكمه ظروف معينة واعتبارات خاصة بحيث يأخذ طابع الانفتاح وشكله وروحه وغايته، ويختلف كلياً عن اندفاع الناس وخروجهم على بعضهم البعض، حينئذ يتغير نمط حياتهم

برمته، وتنحو منحى يأخذ طابع التنظيم والنظام والتنسيق والانضباط، وتتجمع قبائلهم تحت لواء زعيم واحد وقبيلة واحدة تتسمى كلها بإسمها، ويزول ما بينهم وبين الناس من قيود وسدود، فتنطلق جموعهم الهادرة انطلاقاً يشبه الإعصار المدمر والعاصفة الهوجاء والسيل الجارف.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك الانفتاح الرهيب كظاهرة بارزة من ظواهر خروجهم فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

ونبه إليه الرسول ﷺ فيما روته عنه زينب بنت جحش حين استيقظ ذات يوم من نومه وهو يقول:

«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وعقد بيده عشرة»[2].

ونسبة الفتح في الحالتين ليأجوج ومأجوج نسبة مجازية، ويراد بها إنهيار ما بينهم وبين الناس من عوائق وعقبات، أو بعبارة أخرى بلوغ تأججهم درجة تتوفر لهم فيه العناصر المحركة والدافعة للخروج، عندئذ تنطلق قواهم المحبوسة كما تنطلق سائر القوى الطبيعية من محابسها، وبُني الفتح في الحالتين للمجهول في إشارة جلية إلى أن خروجهم بيد الله تعالى، إن شاء، أبقاهم على حالتهم الأولى، وإن شاء أطلقهم ذلك الإطلاق الذي يتخذ عند الناس مظهر الفتح والإنفتاح.

السد:

تجابه جموع يأجوج ومأجوج في كل خروج لهم على العالم بموانع تخفف من حدة اندفاعهم وتدفقهم، منها ما يكون على شكل جدار أو سد تقيمه الأمم كحاجز يقف في وجه انفتاحهم، ومنها ما يكون على شكل

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٥.

(٢) سنن الترمذي ج (٤) ص ٤٨٠.

قوة بشرية تعادلهم في القوة والبأس تتصدى لهم، ولكنها في كل الأحوال لا تحول بينهم وبين بلوغ خروجهم غايته ومقصده.

ولا نكاد نعثر في مراحل خروجهم الأول على أثر لمثل هذه الموانع، إلا أن هذا لا يعني عدم وجودها، وذلك إستناداً على دورات خروجهم المعروفة، حيث جوبهوا فيها بدفاعات صناعية وبشرية أفلحت إلى حد كبير في كسر حدة اندفاعهم وخففت من قوة انسيابهم، حتى اقترن المانع (السد) بخروجهم إقتراناً أصبح يضرب به المثل.

وأول مانع صناعي أقيم للحيلولة بينهم وبين الناس، وأمن من وراءه شرورهم لحقب متطاولة من الزمان هو السد الذي بناه ذو القرنين نزولاً عند رغبة أولئك القوم الذين كانوا يقيمون في حدود مملكته الشمالية (جنوب القوقاز). وقد كانوا عرضة لغاراتهم المتكررة بعد استقرارهم شمال جبال القوقاز، وذلك عبر الممر الوحيد الذي يربط شمال المنطقة بجنوبها.

فمن المعروف أن سلسلة جبال القوقاز كانت في ذلك الوقت سلسلة شاهقة وصعبة الاجتياز ومعدومة المعابر، وتمتد من البحر الأسود غرباً وبارتفاع ١٢٠٠ كيلو حتى بحر قزوين، ثم تمتد من بحر قزوين حتى تتصل بهضبة الهملايا، وكانت هذه السلسلة تشكل سداً طبيعياً يفصل ما بين شمال المنطقة وجنوبها، وفيها ممر واحد فقط يوصل ما بين المنطقتين هو الذي كانت تعبره جموعهم، وتنفذ منه إلى شمال آسيا وغربها.

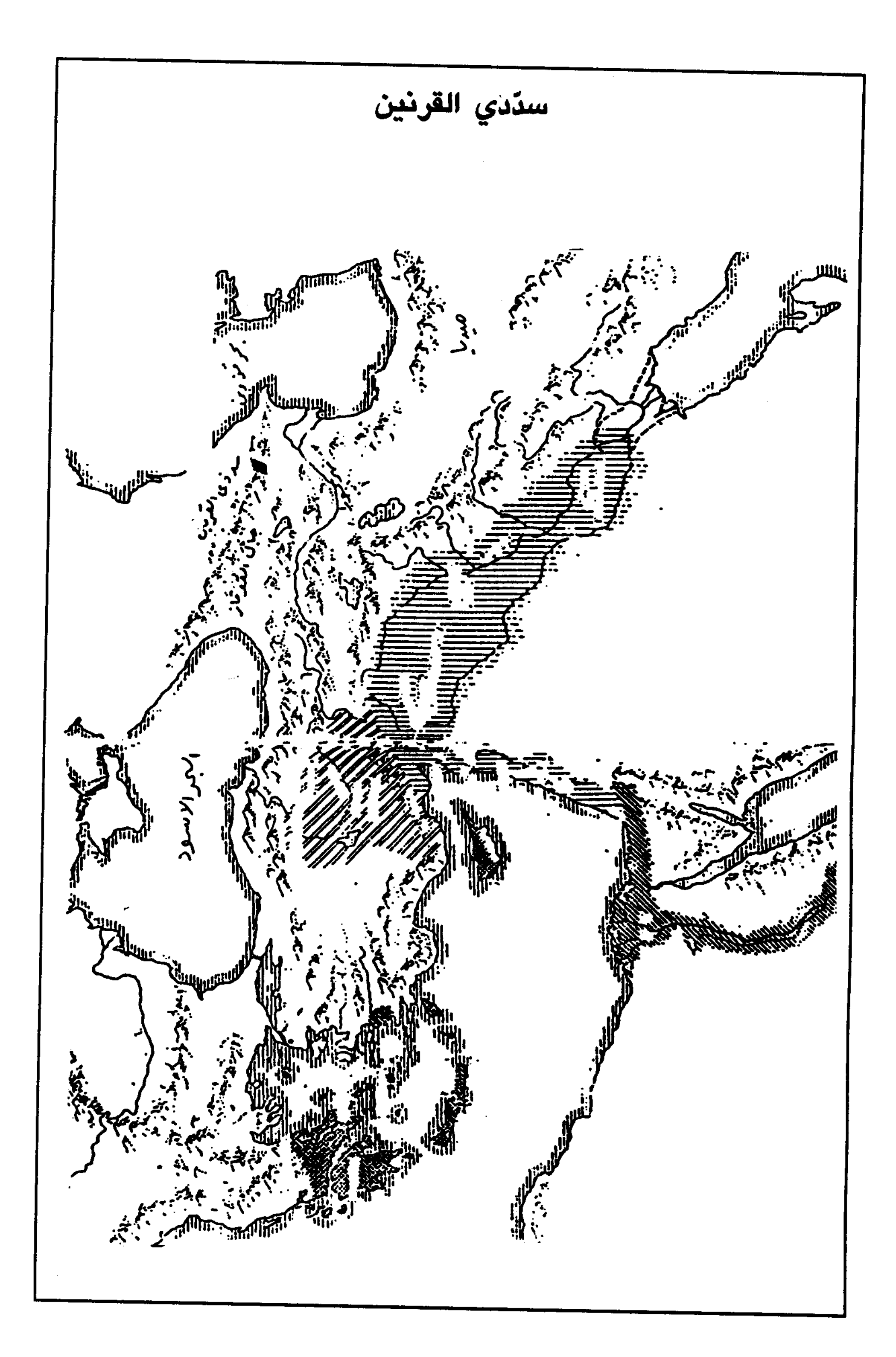
وأدرك ذو القرنين ـ كما عرفنا ـ أنه لا سبيل للحيلولة بينهم وبين هؤلاء القوم الضعاف إلا بإقامة سد أو حاجز يحكم إغلاق هذا الممر الوحيد، وبطريقة يستحيل على يأجوج ومأجوج اختراقه مهما بلغت قوتهم وتضافرت جهودهم. وهي التي حكاها القرآن الكريم على لسان ذو القرنين فقال:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾[١].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٩٦.

فأول ما فعله ذو القرنين - كما عرفنا من قبل - أن طلب من القوم ردم الممر بقطع الحديد الكبيرة توضع بعضها فوق بعض، حتى إذا بلغ الحديد ما بين الجبلين (الصدفين) إلى أعلاهما، وحاذى رؤوس الجبال طولاً وعرضاً، أمر بجلب أكواماً هائلة من الحطب والخشب وضعت بكاملها على قطع الحديد، عندئذ أمرهم بإشعال النار في الحطب والخشب فاشتعلت، ثم أمر بالنفخ من النار بالمنافخ (الكيران) للمحافظة على النار متأججة وليشتد سعيرها، حتى إذا صار الحديد ناراً أو كالنار اشتعالاً وتوهجاً، أي بلغ درجة الإنصهار، حينئذ أمرهم بإحضار النحاس المذاب (القطر)، فأفرغه على الحديد المنصهر، وذلك حتى تنسد الثقب التي فيه، ويتصلق بعضه ببعض، ويزداد تماسكاً، وبذلك يصبح مع السلسلة الجبلية المتجانسة جداراً صلباً، حجارته الحديد وطينه النحاس المذاب.


سدّي القرنين
البحر الاسود

وقد أدى السد دوره بالكامل منذ بنائه وحتى ميلاد المسيح عليه السلام. وبعد ذلك بدأت تغيرات المناخ وتقلبات الطقس تؤثر في المنطقة وفي جبالها حديثة التكوين، كما تناقصت مياه بحر قزوين وتراجعت كاشفة على شريط ساحلي فصل ما بين مياه البحر وسلسلة جبال القوقاز، منه ـ كما قلنا ـ تدفقت جموع يأجوج ومأجوج (الهون) على المنطقة في خروجهم السادس على العالم، ومن ثم فقد السد وظيفته، وعادت المخاوف من جديد، خصوصاً بين الفرس والقبائل الخاضعة لهم جنوب السد. ولذلك بنى الفرس حائطاً حجرياً ضخماً عند الممر الجديد، وبعرض الشريط الساحلي المكشوف. بدءاً من مياه البحر حتى التحم بسلسلة جبال القوقاز، وحُصن بالأبراج، مما أعاد لسد ذو القرنين أهميته، وفي القرن السادس الميلادي أجرى كسرا انو شروان على السور عدة ترميمات وإصلاحات محافظة عليه من التلف.

أما سد ذو القرنين فقد ظل باقياً على حاله رغم كل الإضافات التي أريد بها إكمال عمله ووظيفته، ولما فتح المسلمون هذه المناطق وأدخلوها ضمن سيادتهم سموه (باب الأبواب)، كما سماه الفرس من قبلهم (دورباند) أي الحاجز بين جورجيا وبين ولاية شيروان الفارسية، وسماه الأتراك (دمبركابي) أي باب الحديد، وعرفه الأرمن من تاريخهم وبلغتهم المحلية باسم بهاك غورائي أو كابان غورائي، ومعنى الكلمتين واحد وهو مضيق غورش أو ممر غورش، وأطلق عيه سكان جورجيا في عهودهم الغابرة الباب الحديدي، ويسمى في أيامنا هذه بمضيق داريال وموقعه بين فلادي وكوكس وتفليس.

لم تؤثر التغييرات الطبيعية وظروف الطقس والمناخ في السد أو تنل منه شيئاً. في حين تآكلت الصخور الجبلية التي التصق بها جسم السد بفعل عوامل التعرية، وظهر على كل الجانبين فراغ يفرق فيه المرء من الوهلة الأولى بين الكتل الصخرية الجبلية، وبين كتلة الحديد والنحاس

التي يتكون منها السد، وفي الوقت الذي يستطيع فيه الإنسان تسلق الكتل الصخرية يقف السد شامخاً لا يستطيع مهما أوتي من خبرة وشدة مراس على تسلقه.

ويعي ذو القرنين مثله مثل سائر المؤمنين أن كل حادث صائر إلى زوال لا محالة، وإن لكل شيء أجل ينتهي عنده لذلك قال لأولئك القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾[1].

أي إذا دنا الأجل الذي ينتهي إليه ذلك السد سواه الله تعالى بالأرض، وعاد ممراً وطريقاً كما كان عليه أول مرة، وكل ذلك في علم الله، وكل ما وعد به الحق عز وجل هو حق ثابت لا يتخلف، وكائن لا محالة.

وفكرة السد كقوة كابحة لحدة اندفاعهم أو لصد غاراتهم محدودة التأثير عرفها الصينيون قبل ذو القرنين بقرون ثلاثة، ففي القرن الثامن قبل الميلاد دخلت الصين في حقبة طويلة من الحروب الأهلية والصراع الدامي والمؤامرات والمكائد بين مختلف الولايات، وفي الوقت نفسه كانت تعمل في جهد مشترك للوقوف في وجه أي اعتداء من قبل برابرة الشمال، وفي إقامة الأسوار الدفاعية.

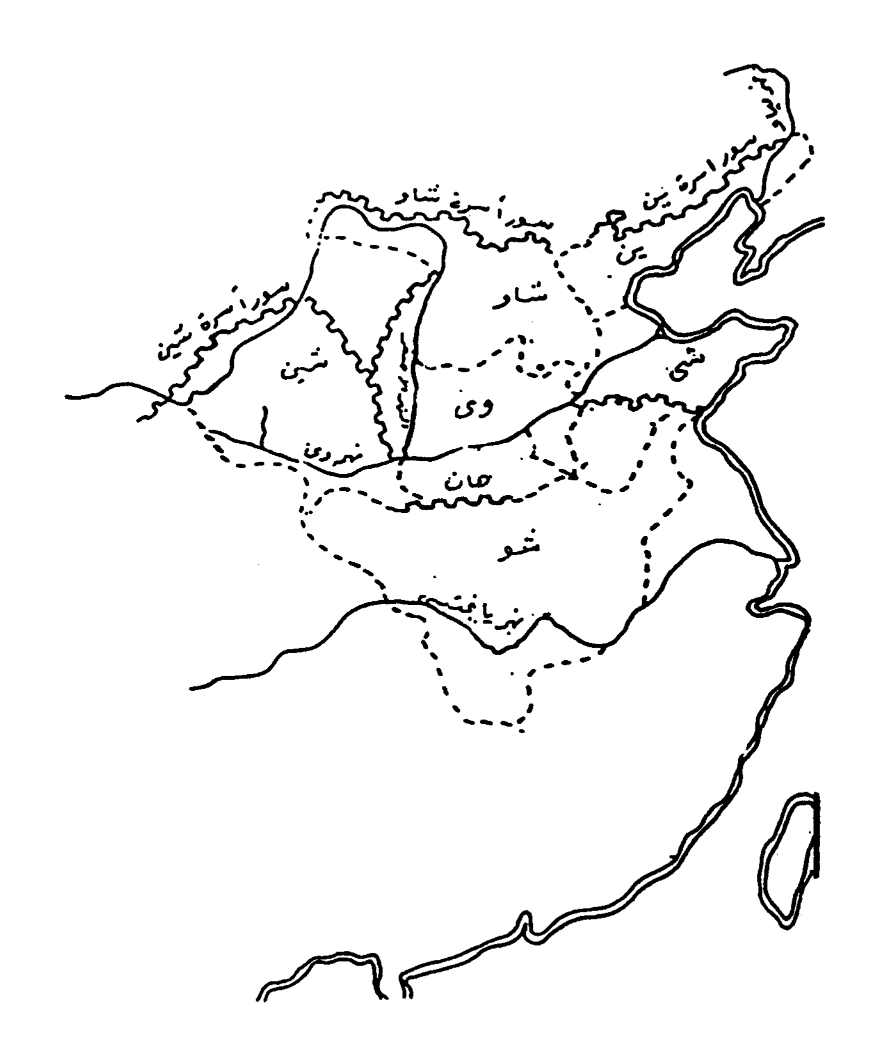
فعلى سبيل المثال شيدت أسرة شو Chou وفي مراحل مبكرة من حكمها لشمال الصين سلسلة من الأبراج والحصون للمراقبة على الحدود الشمالية والشمالية الغربية، وكخط دفاع وكوسيلة اتصال سريعة بالعاصمة، في حالة ظهور لأي أثر ينبىء عن زحف للبرابرة، ولذلك كانت الأبراج قريبة من بعضها البعض لتبادل الرسائل بإشعال وميض خاطف من وقت لآخر، وبطريقة متفق عليها مسبقاً.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٩٨.

وفي منتصف القرن السابع قبل الميلاد أولت كل من أسرة شي سنغ Chi sung وشاو Shao وهان Han ووي Wei وشو نفسها عناية خاصة لنظام دفاعي مثل هذا ليس فقط لصد البرابرة وإنما أيضاً لإعاقة حركة جيوش الأسرات الأخرى، كما فعلت أسرة هان والتي بنت سور على طول حدودها الجنوبية لتمتنع جيوش وقوات شين Chin، وفعلت شين الشيء نفسه فشيدت سور طوله حوالي ٣٠٠ ميل كحاجز على طول حدودها الجنوبية، وكخط دفاع ضد دويلة شو Chou.

خريطة شمال الصين



الأسوار الدفاعية للولايات الشمالية
خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد

أما أسرة وي Wei فقد شيدت عام ٣٥٣ ق. م سور طويل للغاية إذا ما قورن بما كان قبله يمتد على طول حدودها الشمالية الجنوبية في شانسي، وعلى طول ضفاف نهر لو Lo إلى الشمال الشرقي، وينحني عند النهر الأصفر، ليحول بين قوات شين، وليمنع في الوقت نفسه قبائل الشمال من اختراق أراضيهم.

وكل الأسوار التي بنيت قبل عام ٣٠٠ ق. م قد شكلت الحد الأدنى لدفاع مؤثر وفعال ضد غزوات جموع يأجوج ومأجوج، والذين كانوا يجدون صعوبة في الإلتفاف حولها أو تجاوزها، وهي من حيث تركيبها وبنيتها الدفاعية عبارة عن نظام من حصون الحدود شيد على نسق الحدود الثابتة والفاصلة بين عالم الصين وعالم البرابرة في الشمال.

وعندما نجح الإمبراطور شين شيه هوانج تي Chin Shih Hwangti ولأول مرة في تاريخ الصين من توحيد وجمع الكيانات الصغيرة والمبعثرة في دولة واحدة، وضع يده ليس فقط على أسوار أسرة وي الطويلة والمنيعة، بل استحوذ أيضاً على السور الذي بناه الإمبراطور وولنج Wu ling من أسرة شاو، وهو يعد بالقياس إلى غيره أقوى حصن أقيم على نسق السور، حيث وضعت فيه حاميات عسكرية دائمة ووسائل اتصال سريعة.

والإمبراطور شين شيه هوانج تي مثله في ذلك مثل سائر أباطرة الصين أدرك أن مصلحة الدولة الجديدة تقتضي الحفاظ على تلك الأسوار وتقويتها وترميم وإصلاح ما تهدم منها، وإرسال جيش ليقيم ويرابط بصورة دائمة على الأسوار، ثم ضم الحصون والأسوار المبعثرة على طول الحدود في نظام دفاعي جديد أحدث من النظام القديم وأكثر فاعلية، ومن هنا انبثقت في ذهنه صورة لسد عظيم يمتد على طول حدود دولته الشمالية مع قبائل يأجوج ومأجوج، وراقت الصورة للإمبراطور وللقادة العسكريين وأمراء البلاط. فاستحسنوها كخط دفاع، وأفضل وسيلة يمكن بها الحد من سطوتهم.

إن تصور شين شيه هوانغ تي لسور بمثل هذا الطول لم يرد به في واقع الأمر صد غارات محدودة الأثر لا تتخطى الإمارات الشمالية، إذ كانوا وقتها يعانون كعادتهم من انقسامات قبلية حادة واضطرابات شديدة وحروب داخلية تشغلهم عن أي تفكير جدي في الغزو على نطاق واسع أو محدود، مما يعني أن تصور الإمبراطور برمته لم يكن سوى حلم ظل يراود الصينيين وحكامهم لحقب طويلة من الزمان، ورأى هو فيه التأمين الكافي لصد أي عدوان أو غزو محتمل.

يؤرخ كتاب الحوليات الصينية البداية الفعلية لتنفيذ المشروع بعام ٢١٤ ق. م. وعين للأشراف على تنفيذ المشروع الجنرال منغ تيان Meng Tien، حيث وضعت الدولة تحت قيادته حوالي ٣٠٠ ألف رجل ما بين جندي نظامي وعامل في الجيش يصحبهم ألوف من المهندسين، ومئات الألوف من العمال المهرة وغير المهرة لمختلف الأعمال، وكانت أول خطوة في بناء السور هي تأمين المنطقة وتطهيرها من قبائل يأجوج ومأجوج، فشن الجنرال منغ تيان غارات مكثفة عليهم في مناطقهم المتاخمة لخط السور المقترح وأجلاهم بعيداً عنها.

ولما أطمأن إلى خلو المنطقة مما يشكل تهديداً مباشراً للمهندسين والعمال شرع في إقامة قواعد ثابتة بلغ عددها حوالي ٣٤ قاعدة على طول الخط مهمتها تغذية قوة العمل في المناطق الجبلية القاحلة وفي المناطق الزراعية حيث لا تتوفر الأعداد الكافية من الفلاحين لتأمين احتياجات العمال، ولذلك وضع نظاماً معقداً وصارماً يربط المناطق الخصبة في جميع أنحاء الصين وما بين هذه القواعد على خط السور تنساب فيه القوافل المحملة بالطعام والملابس والمواد الأساسية.

وتعد السنوات الأربع الأولى من أقسى وأشد سنوات العمل على المهندسين والعمال والجند، حيث كان العمل فيها كثيفاً ومرهقاً، ويتركز أغلبه على تشكيل كتل الجرانيت الضخمة وحفر الخنادق وشق أساسيات

السور على أطراف الجبال الصلبة والتلال شديدة الإنحدار، ويجري العمل على قدم وساق في ظروف جوية متطرفة. ففي الشتاء تتساقط الأمطار محملة بزخات من البرد تنهال عليهم بضرباتها اللاسعة فتدمي أطرافهم. وفي الصيف تشتد درجة الحرارة إلى حد تنعدم فيه نسمة الهواء. وهبوب الرياح العاتية صيفاً وشتاءً، كل هذا مع عدم انتظام الأكل وقلته في بعض الأحيان ورداءته في أحيان كثيرة، ويلجأون في فترات الراحة وهم منهوكو القوى ومكدودون إلى خيام لا يجدون فيها راحة ولا هدوء.

وطبيعي أن أعداداً هائلة من أعمال قد استنزفت طاقتهم بالكامل في العمل، وانهكت قواهم نتيجة الجهد المتواصل ورداءة الطقس وسوء التغذية، فلا عجب أن ارتفعت معدلات الوفيات بينهم إلى حد لا يصدق، حتى لم يجد إخوانهم الوقت الكافي لدفنهم، فيضعون جثثهم في أساسيات السور مثل الحجارة، وبعضهم مثل الطوب داخل السور، مما أدى في النهاية إلى سوء سمعة السور بين الصينيين، وإلى العنف بين العمال والمشرفين على العمل لأتفه الأسباب.

ونتيجة للتناقص اليومي في قوة العمل كان الجنرال منغ تيان يرسل للامبراطور هوانغ تي باستمرار طالباً المزيد من العمال، ولا سبيل أمام الإمبراطور مع ما شاع بين الناس عن السور، وما وصف به من صفات شنيعة إلا اللجوء إلى القوة لجمع القادرين من بيوتهم، ولذلك كانت واحدة من أكثر هموم الأسر الصينية هي وصول الضباط المجندين رسمياً لاستدعاء المواطنين من منازلهم وطرق أبوابهم وأخذ كل قادر في الأسرة لمشروع الدولة العملاق.

كما كان الجنود يذهبون للقرى لتجنيد العمال وسوقهم بالقوة نحو الشمال، أما المتمردين على السلطة والمجرمين فكانوا يجبرون على لبس السلاسل والعوائق الأخرى أثناء تحركهم، فمنهم من يسقط في الطريق، ومنهم من يصل وهو ضعيف البنية عاجز عن العمل.

لم يزد مهندسو منغ تيان كثيراً على أسوار الصين الأولى. اللهم إلا ما لا يتفق مع خطة البناء الجديدة وعلى ما استحدث من مواد تزيد من قوة السور الدفاعية، ولكنهم وبصورة عامة استخدموا في بناء السور الحجر والطوب المصنوع من نوع خاص من الطين المحروق والذي يتحول بفعل الحرارة إلى اللون الأحمر، ويصل طول الواحدة على واجهة الجدار الأمامية إلى أقل من متر، ويرتبط الطوب والحجارة بخلطة (ملاط) بيضاء بلغت من الصلابة درجة لا يمكن لأي مسمار أن يخترقها، ولا يعرف إلى يومنا هذا سر هذه الخلطة العجيبة.

وكانت المسافة ما بين حائطي السور تملأ في الماضي بالحجارة أو التراب وقطع الخشب الضخمة، كما استخدمت في البعض منها أشجار البامبو الرفيعة والتي كانت توضع بين كل طبقة ترابية وأخرى، أما في سور هوانغ تي فقد استخدم التراب وحده، وكان يدك جيداً ولفترات طويلة حتى يصبح صلباً. ثم يغطى بطبقة من الطوب أو الحجارة ليستخدم كممر يتراوح عرضه ما بين ١٠ و ١٣ قدماً (٣ ـ ٥ متر) بحيث يمكن لستة فرسان على ظهور الخيل السير عليه جنباً إلى جنب، وتعلو في كلا الجانبين سواتر دفاعية تتخللها فتحات تمكن من اتخاذ موقف قتالي سليم، ولمراقبة القادمين من كلا الجانبين.

وارتفاع السور يختلف في الجزء الشرقي عنه في الجزء الغربي. ولكنه يحتفظ في الغالب بارتفاع يتراوح ما بين ٥ إلى ١٠ أمتار، وفي المناطق التي يمر فيها على التلال حفرت خنادق متوارية في الصخور وبعمق ٢٥ قدماً، ووضعت فيها كتل ضخمة من الجرانيت كأساس لها، وسدت الفجوات بالتراب، وتبلغ مساحة كل منها خمسة أمتار مربعة وارتفاعها ثلاثة عشرة متراً.

وعلى طول السور صممت أبراج مربعة الشكل بلغ عددها حوالي ٢٥ ألف برج، بنيت على مسافات متساوية، حتى تكون كل المناطق متداخلة

وتحت المراقبة المباشرة، وبعض هذه الأبراج يعود تاريخ بنائها إلى أسرة شو، واستخدمت فقط للتحذير بالنيران، أما مهندسو منغ تيان فقد طوروا نظامها بحيث يتمكن الرماة من إشعال النيران وتخزين المؤن، والصمود لحصار يمتد إلى أربعة أشهر متواصلة.

وبنيت الأبراج من الطوب وغطيت بغلاف من الجبس وماء الكلس، ويحتوي البعض منها على عدة غرف، وبها أبواب مزودة بأقفال لحماية الخصوصيات، إضافة إلى الأسلحة والأقواس، وبعضها يبلغ ارتفاعه من ٥ إلى ١٠ أمتار، وفي البعض منها سلالم تسهل الصعود إلى سطحه، والسطح نفسه مرصوف، مسور بسور به شرفات تعطي أقصى حماية للمدافعين، وتمكنهم من إصطياد المهاجمين.

وخارج السور شيدت أبراج أخرى بعيداً في الشمال فوق قمم التلال وعلى رؤوس الجبال ومداخل الأودية، لاستخدامها كمخافر أمامية للإنذار بالدخان والرايات نهاراً، وبالنيران ليلاً، بحيث يمكن الإبلاغ عن اقتراب أي كائن من المنطقة ليس فقط للأبراج الرئيسية، وإنما لكل السور وعلى طول منطقة الخطر.

وتتخلل السور عدداً من البوابات الضخمة وفي مواقع متباعدة ومعينة. يرابط على كل واحد منها حامية من الجند لتفتيش القادمين من الشمال والمغادرين الصين إلى الشمال، وهذه البوابات هي الممر الوحيد والمدخل الرئيسي للصين بعالم البرابرة في الشمال.

وفي شمال بكين يتبع السور قمم جبال بالغة الإنحدار ولا يمكن حتى للجداء أن تتسلقها، وإلى الغرب الأقصى يخترق السور أراضي خصبة تغطيها طبقة رسوبية من الطمى الأصفر عالية المسام وناعمة جداً وتحتفظ بالرطوبة لفترات طويلة، وتمتد لمئات الأميال شمال غرب الصين، وأراضي كهذه لا تساعد على إقامة سور بالمواصفات الدفاعية المنيعة، لذلك لجأ مهندسو منغ تيان إلى أشكال مختلفة من الطين، حيث صنعوا قوالب خشبية

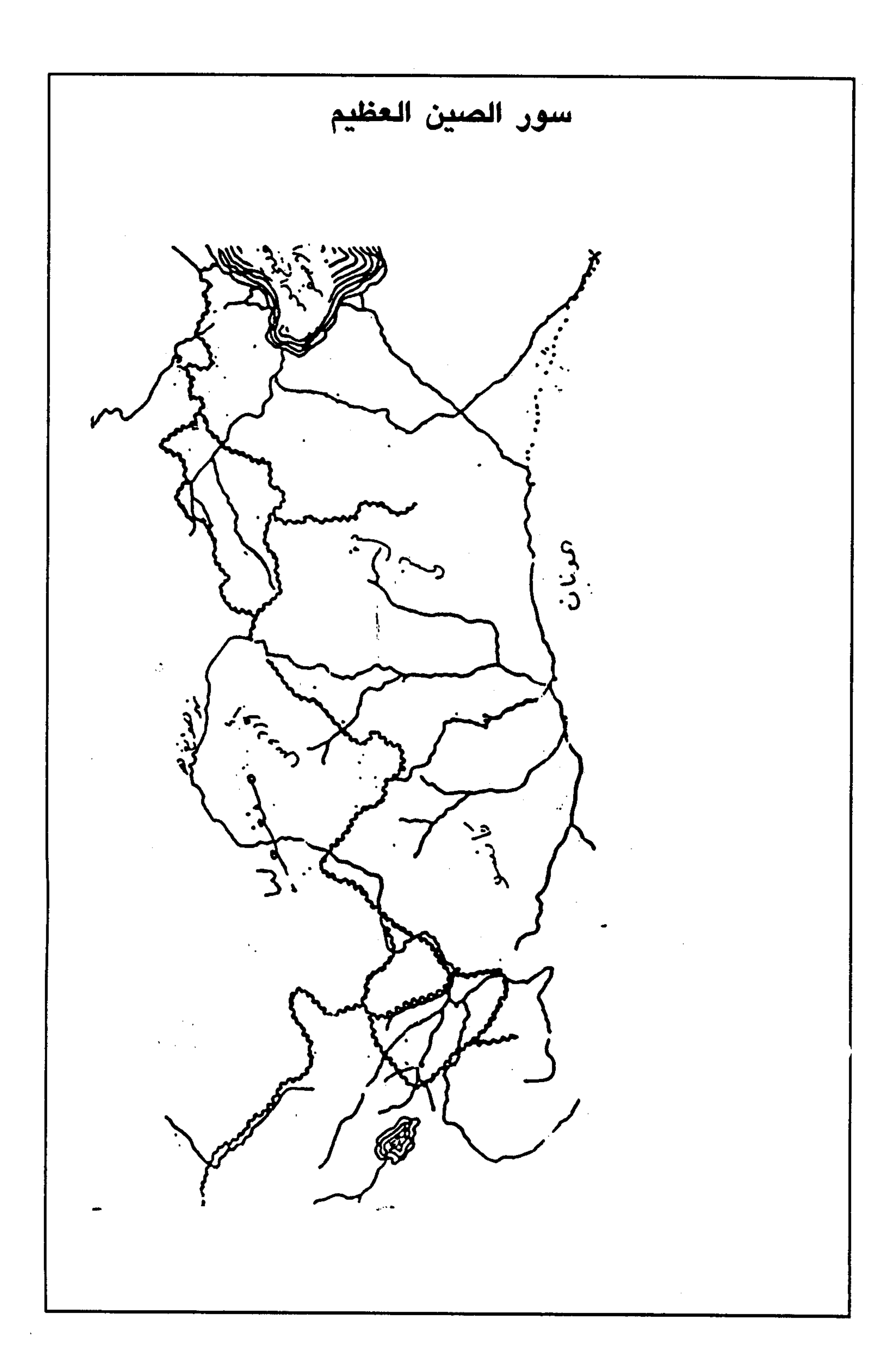
مزج فيها الطين الرسوبي بالماء ثم ترك ليجف، يدك بعدها في تركيبة صلبة. وفي بعض الأحيان يحفرون خنادق على جانبي السور ليصبح السور أكثر تحملاً، والمحصلة النهائية لكل هذه المحاولات سور ضعيف وأكثر انخفاضاً، ولا يمكنه إعاقة أي زحف للجند.

ولما تحرك فريق البناء باتجاه الغرب ساءت ظروف العمل إلى أقصى حد. واستنفد الجنرال منغ تيان وقتاً طويلاً في طرد قبائل يأجوج ومأجوج من المنطقة، ثم شق السور طريقه على طول طرف صحراء تركستان الصينية، ولكن الخط الذي اتخذه لا يعرف بالتحديد إذ اختفت معظم معالم السور، وتقطعت أجزاءه، أو ربما دفن في رمال الصحراء المتحركة.

استغرق بناء السور من البحر وحتى أطراف صحراء تركستان الصينية قرابة عشرة أعوام، أرغم خلالها شين هوانغ تي ثلث القادرين على العمل فيه، وعاقب كل من نأووه من الساسة والعلماء والمثقفين وبالمشاركة في بناءه، وطبقاً للرواية الصينية فهناك ما يزيد عن المليون فرد ماتوا في هذا العمل، ودفنت جثثهم على امتداد السور الطويل، ولأجل هذا أُطلق عليه اسم «أطول مقبرة على الأرض».

ورغم كل هذا فلم يكتمل السور كما تصوره هوانغ إلا في عهد أسرة هان (٢٠٧ ق. م - ٢٢٠ م) حيث قام الإمبراطور ووتي Wu Ti (١٤٠ - ٨٦ ق. م) بمده مسافة ٣٠٠ ميل ليلحتم بجبال التاي. فبلغ طوله على خط مستقيم ٢٤٠٠ كيلو، أي ما يزيد قليلاً عن ١/ ٢٠ من محيط الكرة الأرضية، مبتدئاً من الساحل المواجه لشبه جزيرة لياوتونغ على خليج البحر الأصفر ليتجه غرباً في مسار يلتوي تارة ويلتف تارة أخرى متابعاً سلاسل الجبال وقممها وحوافها، ومنحدراً خلال الوديان العميقة ليغطي ما يزيد عن ٣٢٠٠ كيلو. وعلى طول الحافة الجنوبية لسهول منغوليا. مطوقاً بذلك الصين من الشرق حيث البحر إلى الغرب حيث جبال التاي، وعازلاً إياها عن عالم يأجوج ومأجوج في الشمال.

سور الصين العظيم



وإلى أسرة هان أيضاً يرجع الفضل في وضع أسس سليمة لإدارة السور من الناحيتين العسكرية والمدنية، وتولى الجيش مهمة تنظيم العمل فيه، حيث وضع تنظيماً جديداً لإدارته يختلف كلياً عما كان عليه في عهد أسرة شين، كفانوا يخطرون الجنود الإلزاميين مسبقاً - وهم عادة من أقاليم الصين المتحضرة وسهولها الغنية - عن صعوبة الحياة ومشقاتها من منطقة السور، فكانوا يحذرونهم من ظروف الطقس المتطرفة والتي تختلف تماماً عما ألفوه، ولذلك كان هؤلاء من النادر أن يصلوا إلى السور دون استعداد كاف، كما كان يفعل زملاءهم من مجندي أسرة شين.

ومعظم المجندين الجدد والذين يحلون محل أولئك الذين انتهت خدمتهم يرسلون إلى أبراج المراقبة الخارجية والداخلية لرصد أي تحركات مشكوك فيها، ويرسل البعض منهم للعمل في المزارع داخل السور أو خارجه، للتقليل من حاجات الجند، وقد وجد هؤلاء ظروف عمل زراعية أفضل من تلك التي عرفوها في سهول الصين الخصبة، فقد بنيت لهم أسوار لحماية المحاصيل من الرياح والعواصف الرملية، وأقيمت للمزروعات التي تتطلب مراقبة دائمة تحصينات خاصة لحماية المشتغلين فيها.

وعند الحصاد تنقل الحبوب إلى مراكز تخزين المؤن والتي يعمل بها ضباط يحتفظون بسجلات دقيقة بالكميات الموردة، كما يشرفون على توزيع الحصص المقررة على الجنود طبقاً للرتبة والعمل والعمر وعدد التابعين له، ويخصص للجنود والضباط الذين لهم أسر حصص إضافية، أما المدنيين الذين يؤدون أعمالاً كتابية في الجيش وعملوا لفترات طويلة في السور فيخصص لكل منهم قطعة أرض زراعية ومنزل يتولى الإشراف عليهما بنفسه.

ويسلح الجند على السور تسليحاً يختلف قليلاً عن سائر وحدات الجيش وذلك لطبيعة العمل الدفاعية المحضة. فيزود كل مجند بدرع

وخوذة، وكميات ثابتة من الشحم والزيت والصمغ لنظافة الأسلحة والمحافظة عليها، وفي كل موضع دفاعي أقيم عمود ترفع فيه الإشارات والرايات وفقاً لنظام متفق عليه. كما يحتفظ كل برج بأعلام ومشاعل خاصة للغرض نفسه، وللاحتياجات اليومية للجند خصصت جرار ضخمة للمياه تكفي لأيام عديدة، وأعد جزع نحاسي ضخم يوضع فيه الروث لإعداد الطعام، وزودت كل وحدة بأدوية للصدر وأمراض البرد.

ويعمل الجنود في الأبراج بنظام عمل ثابت، فهم يشيرون لزملائهم في فترات منتظمة بأي أخبار عن أي تحركات مشكوك فيها على الأرض، لكي تأخذ كل وحدة من الوحدات حذرها، وفي الليل تستخدم النيران والمشاعل للإتصالات العادية أو للتحذير، أما إذا قلّبت الرمال وطرحت خارج السور فهذا يعني أن آثار بعض المتطفلين قد شوهدت بوضوح أسفل السور صباح اليوم التالي.

وبعض المجندين يعملون مكان الشرطة والخدمات الجمركية والتي أقيمت لها مراكز على طول السور وفي البوابات الرئيسية، والجزء الأكبر من عملهم ينحصر في فحص المسافرين الذين يرغبون في عبور السور، وتفتيشهم وتفتيش أمتعتهم للتأكد من أنهم لا يهربون سلعاً محظورة، كما لدى قسم الشرطة قوائم بالأشخاص المحظور خروجهم والمجرمين المطلوب القبض عليهم، وأولئك الذين لا ترغب الحكومة الصينية في دخولهم البلاد، ويطلب من كل صيني أو أجنبي وثيقة رسمية للدخول أو الخروج، كما تحتفظ الشرطة بسجلات كاملة من كل من عبر السور شمالاً أو دخل الصين جنوباً.

وأثناء حكم وانغ منغ Wang Meng في بداية القرن الأول الميلادي، وما صاحبه من حروب أهلية، فقدت أسرة هان معظم أقاليم الغرب الأقصى، وتخلى الجيش تدريجياً عن إدارة ٣٠٠ كيلو هي امتداد الإمبراطور ووتي للسور، فراحت ضحية الإهمال والعواصف الصحراوية القاسية، وبانهيار وحدة

الهسيونغ نو (٥٨ م) وتقلص وجودهم شمال السور واندماج أغلبهم في الحياة الصينية، فقد السور أهميته كخط دفاع ثابت، ولم تعد إدارته أو الإنفاق عليه يشكل أي هاجس للحكومات الصينية المتعاقبة، بل أهمل تماماً، وامتد هذا الإهمال حتى ظهور أسرة منغ Meng في القرن الرابع عشر الميلادي.

وأسرة منغ تأسست بعد القضاء على الحكم المغولي ومغادرة الإمبراطور يوان Yuan عام ١٣٨٦ م بكين العاصمة عابراً السور إلى داخل منغوليا، وحكام هذه الأسرة (١٣٨٦ ـ ١٦٤٤ م) هم أكثر الحكام الذين تعاقبوا على الصين إهتماماً بالسور، وقد قاموا بأعمال فيه أكثر مما قام به أي حاكم آخر، فهم وحدهم الذين أصلحوا فيه وأضافوا إليه ما يمكن اعتباره إعادة جديدة لبنائه، كما شيدوا أسواراً جديدة غرب النهر الأصفر، إلى حد يمكن معه القول بأن السور القائم اليوم يرجع عهده إلى أسرة منغ، إلا أن أسسه وهندسة بناءه ترجع كلها إلى بناته الأوائل من أسرة شين.

دام حكم أسرة منغ قرابة ٣٠٠ عاماً لم يتوانوا خلالها من صيانته وترميمه، وأولوه من الرعاية والاهتمام ما فاق رعايتهم واهتمامهم بالجيش، ووصل عندهم إلى منزلة عدوه فيها بديلاً للجيش، إلى أن اعترى الضعف الأسرة في النصف الأول من القرن السابع عشر، وحلت محلها أسرة المانشو Manchu عام ١٦٤٤ م.

حكم أباطرة المانشو الصين حتى عام ١٩١٢ وفي عهدهم أصبح السور أثر من آثار الماضي، ومعلم من المعالم السياحية البارزة في البلاد، ومحط إعجاب الناس جميعاً، بوصفه أضخم بناء أقامه الإنسان على الأرض، يفوق في ضخامته الهرم الأكبر وحدائق بابل المعلقة، بل إن هذه وغيرها إذا قيست إليه لا تخرج عن كونها لعبة من ألعاب الأطفال لا قيمة لها.

وبعد ميلاد المسيح اتجهت جموع يأجوج ومأجوج نحو أراضي واسعة سهُلت عليهم فيها الحركة والانتشار، وقلت الموانع الطبيعية التي

يمكن التحكم فيها واستغلالها، فقيض الله تعالى للناس من يقف في وجوههم ويخفف من حدة اندفاعهم، أبرز هؤلاء القوط الذين تصدوا لهم بجسارة أبان خروجهم السادس على العالم، وطوال فترة تدفقهم على أوروبا وحتى معركة شالون، وكانوا لمن وراءهم بمثابة السد المنيع والدرع الواقي.

ويعتبر القوط آنئذ من أقوى العناصر الجرمانية وأكثرها عدداً، نزحوا - كما يقول مؤرخهم جوردانيس - من جزيرة شانداز Shandaz، ونزلوا على السواحل الأوروبية الشمالية، ومنها انتشروا جنوباً. وقبيل نهاية القرن الثاني استقروا شمال البحر الأسود وجنوب آسيا، وفرضوا سلطانهم بالسيف على قبائل المنطقة، وأسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف.

والقوط باعتراف الجميع أمة مقاتلة وشديد البأس، ظلت مصدر خطر على شعوب المنطقة بما فيهم الرومان، واشتهروا بطاعتهم المطلقة لملوكهم وبتماسكهم ووحدتهم، وبراعتهم في امتطاء صهوات الخيل والقتال من على ظهورها، وعلى نحو يبرز ما هو معهود في زمانهم، ولا أحد باستثناء الهون يتفوق عليهم في الضربات السريعة القاتلة ولا الصبر على القتال.

وقد تنبه الرومان منذ ظهور خطر الهون إلى أن الضغط الذي مارسه القوط على الهون وتصديهم لهم هي التي مكنتهم من أخذ أهبتهم واستعدادهم. وبانهيار إمبراطورية القوط سمح لهم الرومان باجتياز الحدود والاستئطان في الأقاليم الواقعة بين الدانوب والبلقان، أي المواجهة تماماً لدولة الهون الجديدة، فعبر نهر الدانوب ما يقرب من المليون ومائة ألف قوطي أغلبهم من المحاربين الأشداء.

ومنحهم الإمبراطور فالينز الجنسية الرومانية، وأغدق عليهم الرتب الحكومية الرفيعة والمنح والهبات والخدمات نظير دخولهم في خدمة الدولة، والاستفادة من رجالهم الأشداء كحراس للحدود، وكقوة كابحة لزحف الهون، وقد برهن القوط بالفعل أنهم وحدهم القوة ذات الشوكة والبأس التي يمكنها التصدي بحزم وصلابة للهون في ذروة تأججهم.

وهناك شواهد حية تبين لنا الأهمية التي كان يلويها الرومان للقوط والآمال المعقودة عليهم، فعند عبور القائد الروماني أتيتوس جبال الألب ووصوله إلى مدينة ليون بلغته أنباء تفيد بأن القوط قد رفضوا الدفاع عن بلاد الغال، وأنهم تخلوا عن وعدهم له بالوقوف إلى جانبهم في حربهم ضد الهون، إذ ليسوا هم هدف الغزاة، وبالتالي قرروا لقاء أتيلا، والوقوف على الحياد في أي حرب مقبلة، فانزعج أتيتوس وأحس بأن الحلف الذي أقامه في وجه الهون على وشك الإنهيار، لذا أوفد إليهم على الفور عضو السيناتو أفيتوس لإقناعهم بالعدول على ما هم مقدمين عليه.

كان أفيتوس خطيباً مفوهاً، ومفاوضاً لبقاً، فصور لثيودوريك ملك القوط أن الهون بجموعهم الضخمة لا يمكن صدهم إلا بتحالف جماعي بين الشعوب التي يسعون للسيطرة عليهم واستعبادها وخراب ديارها، ثم وصف له الأضرار التي لحقت بهم وبآبائهم، وأخيراً ختم حديثه بالإشارة إلى المزايا الكثيرة التي يتمتعون بها كمواطنين في دولة الروم، وبإثارة عواطفهم الدينية المتقدة فقال:

«من واجب كل مسيحي مخلص إنقاذ كنائس الله وعظام القديسيين من أن تدنسها أقدام الهون، ومن مصلحة كل فرد إستوطن بلاد الغال الزود بشرف عن الحقول ومزارع الكروم التي زرعها لنفسه ضد الخراب المنتظر على يد هؤلاء الوحوش»[1].

ألهبت فصاحة أفيتوس وقوة حججه صدور القوط، وأزكت نيران الغضب في نفوسهم ملاحقة الهون لهم بلا مسوغ معقول، فاقتنعوا في النهاية بارتباط مصيرهم بمصير الرومان، وخضع ثيودوريك من جهته لأدلة الحق والصواب. وأعلن عقب حديث أفيتوس بأنهم على استعداد لبذل حياتهم في سبيل بلاد الغال التي يتقاسمون العيش فيها جميعاً.

(١) إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج (٢) جيبون ص ٢٧٣.

ومن واقع تجربة الهون الطويلة مع فرسان القوط ومحاربيهم أيقنوا بأنهم القوة الوحيدة التي تنكسر عندها هجماتهم، وهم وحدهم العقبة الكئود في معظم معاركهم، وكان أتيلا منذ أن آلت إليه قيادة الهون يأمل في لزوم القوط جانب الحياد في صراعه مع الرومان، وقبيل معركة شالون بساعات أشار في خطبته الحماسية لجنوده إلى دور القوط في تحديد مصير المعركة المقبلة فقال:

«إن القوط وحدهم هم الذين يشكلون قوة جيش العدو الحقيقية، وبمقدورنا قهر الرومان المنحلين والذين يدل تلاصق قواتهم على ما يساورهم من مخاوف، ولولا القوط لما تحمل العدو أخطار ومصاعب ومعركة تدوم يوماً واحداً»[1].

أسهم القوط كما هو معروف بالنصيب الأكبر من معركة شالون، وإليهم وحدهم يرجع الفضل في ترجيح كفة الحلفاء، وأدى انسحابهم المفاجيء من أرض المعركة إلى تصدع الحلف برمته، ولكن بعد كبح جماح قوة الهون، وأجبرتهم الضربة التي تلقوها للتقهقر والجلاء، حيث أمكنهم في العام التالي، أي بعد غياب القوط، من غزو إيطاليا وتخريب مدنها، حتى وصلوا مشارف روما كآخر نقطة بلغتها قوة اندفاعهم المدمر.

وخرج المغول للعالم بعد اختفاء إخوانهم الهون بما يزيد عن سبعة قرون ليتصدى لهم القراخطائيين، والذين أقاموا لهم دولة مترامية الأطراف تمتد من حدود منغوليا إلى دولة خوارزم الإسلامية. وتفصل ما بين العالم الإسلامي في الغرب وسائر قبائل يأجوج ومأجوج في الشرق.

والقراخطائيون خليط من المغول والتانجوت، وقد نزحوا للمنطقة التي شيدوا عليها إمبراطوريتهم من شمال الصين بعد تفكك قبائل الهسيونغ نو، فراراً من عنف الصراع وشدة التنافس وضيق الأرض وقلة

(١) المصدر السابق ص ٢٧٤.

مواردها، ولفظ قرا Kara صفة بمعنى أسود أضافه المغول إلى اسمهم لعنف العداوة والكراهية بينهم، وذلك قبل ظهور المغول كقوة جديدة في المنطقة

وكان القراخطائيون في مجاورتهم للعالم الإسلامي بمثابة السد بين جموع المغول في الشرق والمسلمين في الغرب، ومنذ فترة مبكرة تنبه لأهميتهم وخطورة تواجدهم السلطان علاء الدين تكش سلطان خوارزم، فكان على صلة وطيدة وعلاقة متينة مع سلاطينهم، وشديد الحرص على وجودهم ودولتهم، بل كان يدين بالسلطة لهم، وتعهد لهم بدفع جزية سنوية مقابل ذلك، لإدراكه العميق بأنهم بوابة العالم الإسلامي الشرقية، وبمثابة الحاجز الذي يفصل بينهم وبين تجمع القبائل في الشرق بقيادة المغول، وأسدى النصح لابنه السلطان محمد قبيل وفاته باتباع نفس السياسة تجاه هذه الدولة والمحافظة عليها، وألا يألوا جهداً في الوقوف إلى جانبهم في وجه الأخطار المحدقة بالمنطقة.

غير أن السلطان محمد وجد في تبعية والده للقراخطائيين، وفي دفع الجزية لهم عاراً لا بد من إزالته، فامتنع أولاً عن دفع الجزية، وسعى سعياً حثيثاً للتخلص من تبعيتهم واقتطاع ما أمكنه من أراضيهم، وظل يتحين الفرصة المناسبة، ويقوي جيشه، ويستعد لليوم الفاصل، وعندما وفد عليه سفير سلطان الخطا في طلب الجزية قتله ومثل بجثته، معلناً بذلك الحرب عليهم، حينها قصده كبار رجال الدولة والساسة من ذوي الخبرة الطويلة والمعرفة الواسعة، يصحبهم خانات تركستان أقرب الناس للخطا والمغول وحذروه من مغبة هذه البادرة العدائية قائلين:

- إن جيش الخطا لم يحركه أحد قط، ولقد سمعنا من آبائنا أن وراء جيش الخطا توجد خلية نحل حيث ترابط جيوش يأجوج ومأجوج، فلا تحرك هذه الخلية[1].

---

(١) المغول - فؤاد عبد المعطي الصياد ص ٦٨.

أصم السلطان أذنيه عن الاستماع لنصيحة أولي العلم في دولته، وسار بجيوشه الجرارة والتحم مع الخطا في معركة هزم فيها، ثم أعاد الكرة وهزمهم هزيمة شنيعة، ثم اتفق ـ كما عرفنا ـ مع كوجلك للقضاء نهائياً على القراخطائيين واقتسام دولتهم، وتحقق لهم ما أرادوا فأزيلت الإمبراطورية من الوجود وتشتت شعبها.

وهكذا انهار السد المحكم والحاجز المنيع بين المسلمين وبين المغول، وانتصب الخوارزميون وحدهم في ميدان المعركة لمواجهة تلك القوة العاتية، وكانوا بالفعل لمن خلفهم من المسلمين بمثابة السور الفولاذي الذي يكسر حدة تدفق ويخفف من قوة اندفاعهم، ولما شعر جلال الدين منكبرتي بعجزهم عن مواجهة المغول بعد الهزائم المتكررة التي منيت الجيوش الخوارزمية، كتب لأمراء المسلمين في بلاد الروم والعراق العربي والشام يبصرهم بالأخطار المحدقة بهم وببلادهم، وداعياً للوقوف معه في وجه الأعداء، جاء في كتابه:

«إن المغول كثرة هائلة، وجيشاً جراراً كأنهم النحل والثعابين من حيث الكثرة والقوة، وقد تحركوا نحونا، فإذا تركوا وشأنهم فسوف لن تصمد أمامهم القلاع والأمصار، وجنود هذه النواحي مستوحشون منهم، وتمكن الرعب في قلوب الناس، فإنا لكم بمثابة سد ذي القرنين، فليبادر كل منكم بإمدادي بفوج من الجنود ومعهم علمهم، وذلك من أجل الدفاع عن النفس والأولاد والمسلمين، حتى إذا بلغهم نبأ اتفاقنا واتحادنا ارتدعوا وانزجروا، وعندئذ تقوى عزائم جنودنا، أما إذا تهاونتم في هذا الأمر، وخلا مكاني فلن تستطيعوا مقاومة هذا العدو، وسترون بأنفسكم ما تؤول إليه الأمور»[1].

ولم يبادر أحد من سلاطين المسلمين بمد يد العون للجيوش

---

(١) جامع التواريخ ج (١) تاريخ خلفاء جنكيزخان ـ رشيد الدين ص ٤٤.

الخوارزمية، وبقيت وحدها في الميدان تتصدى للمغول في عنفوان قوتهم، وما فتىء السلطان جلال الدين ينتقل من مكان إلى آخر يجمع الجنود ويخوض المعارك، ومطارداً في الوقت نفسه من المغول الذين رأوا في بطولته وصموده العقبة التي تعرقل مسيرتهم وتحد من قوة انسيابهم في المنطقة.

ولما قدم جماعة من خواص الأشرف موسى سلطان دمشق يهنئونه باختفاء خصمه جلال الدين منكبرتي، وتشتت جنده في البلاد، قال لهم قولة رجل أدرك ببصيرة نافذة ما ينطوي عليه هذا الخبر من أحداث جسام ستحل بهم جميعاً:

«تهنئوني به وتفرحون، سوف ترون غبه، والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول المغول إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج»[1].

وهو ما حدث بالفعل، فبعد الدمار الشامل الذي حل بالخوارزميين اجتاح المغول ما بقي من بلاد المسلمين، ولم تقوَ دولة أو إمارة للوقوف في مواجهتهم أو التصدي لهم.

الفســاد:

يخرج الناس في العادة من ديارهم التي ورثوها عن الآباء والأجداد لأسباب قهرية وغير قهرية، ولا يخل خروجهم في الأحوال بما استقام عليه الناس إلا في القليل، ويتخذ الخروج في الغالب طابع الهجرة الجماعية وفي حدود قد تضيق وتتسع وفقاً لدوافع الهجرة ومسبباتها، أما خروج يأجوج ومأجوج على الناس فيختلف في مجمله وتفصيله عن خروج سائر البشر، وبدوافع من قوى قد يجد لها المتأمل في دورات خروجهم أسباباً وعللاً وجيهة، ولكنها ليست بأي حال من الأحوال هي الأصل ولا

---

(١) الدولة الخوارزمية والمغول ـ حافظ أحمد حمدي ص ٢٣٥.

الدافع الحقيقي للخروج، وخروجهم لا يؤثر تأثيراً سلبياً عن بعض جوانب الحياة دون غيرها، وإنما هو اجتياح يخرج الحياة برمتها عن حد الاستقامة والاعتدال ويقلبها رأساً على عقب، وهذا عين الفساد.

ولا مقارنة بين فسادهم في الأرض بفساد غيرهم من الشعوب الهمجية والبربرية لا في الأسلوب، ولا في الآثار الناجمة عنه، بل ولا حتى في بواعثه ودوافعه، فهم وفي لمح البصر يقوضون منشآت حضارية ممتدة في الماضي لآلاف السنين، وتتهاوى تحت ضرباتهم الحقودة مدنيات عريقة، ويحيلون مدناً عامرة وآهلة بالسكان ما بين يوم وليلة إلى أكوام من الحجارة والطين.

أما استهتارهم بقيمة الحياة الإنسانية فقد بلغ عن حد الفظاعة، فهم وبمنتهى البساطة يجتثون شعوباً وأمماً بأكملها من أساسها، ويقتلعونها من جذورها، ومن ينجو بجلده من قبضتهم يفر هائماً في بقاع الأرض، ولا تقوم له ولا لأمته قائمة بعد ذلك، وما يزرعونه من خوف في قلوب من لم تمتد إليهم أيديهم بتغلغل في الدم واللحم، ويظل الجميع يرتعد فزعاً ورعباً من مجرد التفكير في قدومهم، فمنهم من يولّي هارباً، ومنهم يبقى مترقباً ظهورهم ما بين لحظة وأخرى.

إن الأسباب والدوافع التي استندت عليها جموع يأجوج ومأجوج مهما كانت لا تسوغ لهم كل ما فعلوه، ولذلك وقف أكثر المؤرخين حيارى إزاء قسوتهم البالغة بأبناء عمومتهم وإخوانهم في الإنسانية، واستهتارهم البالغ بحياتهم وأسس تمدنهم وميراثهم العلمي والثقافي، وأصدقهم من فسر ذلك كله بالشهوة العمياء التي لا تشبع ولا ترتوي إلا بالقتل والخراب، وهم محقين في تفسيرهم إذ يجعل من تلك الشهوة متنفساً طبيعياً لشحنة التأجج في أوجها وذروتها، وتفريغاً ذاتياً لقوة غريبة هذا طريقها الوحيد.

ويكفي للتدليل على هذه الشهوة المجردة من العقل أن نلقي نظرة

متأنية على مبلغ ما أحدثوه من قتل وإبادة وتخريب في دورات خروجهم على العالم.

فمن المعروف أن القتل الجماعي ظل نظاماً ثابتاً لهم في جميع دورات خروجهم لم يتخلوا عنه قط. فعلى سبيل المثال قتل على أيدي المغول في الفترة الواقعة ما بين عام ١٢١١ - ١٢٢٣ م ٦٠٨ - ٦٢٠ هـ وهي الفترة التي غزو فيها الصين والعالم الإسلامي عدد من الخلق يقدر بأكثر من ثمانية عشر مليوناً من الأنفس.

وفي عمليات محدودة المكان وضيقة الرقعة كالتي حدثت في أوروبا وخاصة المجر (هنغاريا)، جمع المغول آذان قتلاهم فبلغ مجموعها ٢٧٠ ألف أذن، يعني أن عدد القتلى في هذا الإقليم وحده بلغ ١٣٥ ألف شخص، ويمكن مقارنة هذا بما حدث في غيرها من مناطق أوروبا.

ولقد وقف أكثر المؤرخين مذهولاً أمام الأعداد المهولة التي راحت ضحية الغضب المغولي، فها هو مؤرخهم الجويني يعبر عن تلك الحالة لما رآه وعايشه بقوله:

«وحين احتل (جنكيز خان) بخارى وسمرقند أحس بأنه ارتوى من السفك والإغارة فأحجم عن القتل العام، وما فتحه من البلاد بعد كان عبارة عن بلاد يكثر فيها ساكنو الخيام، ولم يتعرض لهم كثيراً. أما ما خلفه من بلاد فإنه أمر بإعمارها، وما جاءت الشهور الأخيرة من سنة ثمان وخمسين وستمئة حتى عادت البلاد إلى استقرارها وعمارتها ورونقها، أو كادت، عدا خراسان والعراق فقد أصيبت كل مدينة منها بحمى مطبقة، وسعير مقيم، فهم أغاروا على المدن وقتلوا أهلها، ومن الآن والى يوم الحشر إذا توالد الناس فلن يصل عددهم إلى عشر ما كانوا عليه قبل الهجوم المغولي»[1].

أما ابن الأثير فبعد تردد وإعراض عن تدوين المصيبة الكبرى التي ألمّت بالمسلمين يعود مكرهاً لرواية ما سمعه فيقول:

---

(١) تاريخ فاتح العالم جـ (١) الجويني ص ١١١.

«فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله تعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرونه من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها إضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج (الخروج الأخير).

وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإن لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

وليت الأمر اقتصر على القتل وحده، ولكنهم يمثلون بجثث ضحاياهم تمثيلاً تشمئز منه النفوس، يحكي هيرودوتس ما كان يفعله السيكيثيون في قتلاهم فيقول:

«... وأما من جهة الحرب فهذه هي العوائد التي اصطلحوا عليها: السيكيثي يشرب من دم أول رجل يقتله، ويقطع رؤوس كل الذين يقتلهم في الحرب ويحملها إلى الملك، فإذا قدم له رأس عدو يكون له نصيب من الغنيمة وإلا يحرم منها.

ولكي يسلخ السيكيثي الرأس يصنع أولاً شقاً على شكل دائرة من جهة الأذنيين ثم يمسكه من أعلاه ويهزه فينزع جلدته ثم يفرك الجلدة بين يديه بعد أن ينزع منها اللحم بضلع ثور، ومتى ليّنها جيداً يستخدمها بمثابة

(١) الكامل في التاريخ جـ (١٦) ابن الأثير ص ٣٥٧، ٣٥٩.

فوطة فيعلقها في لجام الفرس الذي يركبه ويفتخر بها، لأنه كلما كثرت هذه الفوط عند السيكيثي يزداد اعتباره بالشهامة والشجاعة.

وكثيرون منهم يخيطون جلود البشر بعضها ببعض على شكل كبوت ويلبسونها، وكثيرون منهم أيضاً يسلخون الأيدي اليمنى من الذين قتلوهم حتى الأظافر، فتبقى مع الجلد ويجعلون ذلك أغطية لخوذهم، وجلد الإنسان طبعاً سميك وبياضه أكثر لمعاناً من كل الجلود تقريباً، ومنهم من يسلخ الإنسان من رجليه إلى رأسه، ويمدون الجلد على قطعة خشب ويحملونه على الخيل.

ولا يستعمل السيكيثيون نفس الطريقة التي أتى على ذكرها لكل أنواع الرؤوس على السواء، بل يخصصون لرؤوس أكبر أعدائهم طريقة أخرى، وذلك بأنهم ينشرون الجمجمة من تحت الحواجب وينظفونها، فالفقراء يكتفون بأن يلبسوها من الخارج قطعة من جلد ثور بدون إعداد، وأما الأغنياء فلا يلبسونها قطعة جلد الثور فقط، بل يذهبونها من الداخل أيضاً، ويتخذها الجميع الأغنياء والفقراء قدحاً للشرب.

وكل والٍ يولم كل سنة وليمة في ولايته تسقى فيها الخمر ممزوجة بماء في الجامات، فكل الذين قتلوا من أعدائهم يشربون من تلك الخمرة، والذين لم يفعلوا شيئاً من ذلك لا يذوقونها، بل يجلسون في ناحية وهم في حالة من الخجل، وهذا عار عظيم عليهم»[(١)].

أما تخريبهم للمعمور من الأرض والمدنيات والحضارات فنكتفي منها بما أحدثه الهون في أوروبا والمغول في العالم الإسلامي.

فقد أحدث الهون في إمبراطورية الرومان الشرقية خراباً مروعاً شمل أربع مقاطعات هي: تراقيا ومقدونيا وهاريانوبل **Harianople** وموسيا العليا، ومن ضمن عشرات المدن التي تعرضت للخراب في هذه المقاطعات هناك

---

(١) التواريخ - هيرودوتس ص ٢٨٤، ٢٨٥.

سبعين مدينة منها مدن سويت بالأرض، ومنها مدن دمرت تدميراً لم تعد صالحة بعده للسكن.

وبلغ تخريبهم لبلاد البلقان درجة من الوحشية والقسوة امتد لما يزيد على أربعة قرون، تحولت فيه مدنه إلى أطلال بالية تأوي فيه البوم والوحوش، ومر على نهر الدانوب وقت لم يعد فيه كما كان طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب، وبالتالي اضمحلت أغلب المدن القائمة على شاطئيه.

ولم يكن حال الإمبراطورية الغربية بأفضل من الشرقية، فقد دمرت العشرات من المدن أو أحرقت، وتعد مدينة أكويليا Aquileia خير مثال على ذلك، فقد خربت المدينة العامرة تخريباً شاملاً إلى حد تعذر معه على الجيل التالي من الرومان اكتشاف أطلالها وخرائبها، وكثير من المدن التي خربت على أيديهم أعاد الرومان بناءها وتعميرها، وازدهرت فيها الحياة من جديد، إلا مدينة أكويليا فقد قضى عليها الهون قضاءاً مبرماً، ولم تقم لها قائمة إلى يومنا هذا.

وما عانته بلاد المسلمين يفوق بمراحل ما عانته بلاد الرومان، بل لا توجد أمة من الأمم تعرضت مدنها وحضارتها للتدمير والتخريب مثل أمة الإسلام، وتتمثل أبشع صور الدمار والخراب في إقليمي خوارزم وخراسان حيث قضى المغول على أغلب ما شيّده المسلمون، ويتحدث أرمينوس فاميري عما فعله المغول في هاتين المنطقتين فيقول:

«لم يتعرض أي جزء من أجزاء آسيا كلها لما تعرضت له الأقاليم الواقعة على جيحون وسيحون من القسوة والعنف بسبب غارات المغول عليها، فحروب أبناء الصحراء المتوحشين هؤلاء كانت حروباً مدمرة، ولا سيما ما كان منها عند خجندة وبخارى وسمرقند، إذ كانت هذه أول مواقع يتصلون فيها بطرق التجارة والرفاء الزراعي التي أثارت جشعهم فتسابقوا يشبعون غريزة السلب والنهب التي كانوا عليها.

وكانت بلاد ما وراء النهر إلى جانب ذلك كله هي المنفذ الذي تدفقت منه سيول المغول فيما بعد صوب الفولجا والفرات والسند والخليج الفارسي فلا عجب إذن أن نرى في مدى خمس سنوات من هذه الحروب طرق آسيا العظيمة التي كانت بواسطتها تنقل حاصلات الصين والهند إلى آسيا الغربية وأوروبا قد هجرت، وأن الواحات التي اشتهرت بخصبها قد باتت جرداء مهملة، أو نرى تجارة الأسلحة والجواهر والحرير قد انهارت إلى الأبد، فالبلدان خيّم عليها الخراب، والفلاحون قتلوا جميعاً، أو ارغموا على الانضمام إلى الجيش المغولي قسراً، والصناع قد سيقوا بالألوف ليقوموا بتزيين موطن الغازي وتجميله»[١].

ويصف رينيه موسيه ما حدث في شرق إيران فيقول:

«لقد دمرت مدن بكاملها وجعلت عاليها سافلها، كما لو أن زلزالاً قد زلزلها، وهدمت السدود وخربت أقنية الري، وتحولت الحقول إلى مستنقعات، وأحرقت البذور والحبوب، واجتثت أشجار الفاكهة من أصولها، وقطعت الأشجار التي كانت تحجب رمال الصحراء وتقي المدينة من هجوم الجفاف، وغدت البساتين عاجزة عن صد الرياح العاتية التي تخترق المنطقة قادمة من السهوب والصحارى، وصارت تلك الواحات التي انبثقت منها الأسماء الرنانة في قصص ألف ليلة وليلة، والتي ازدهرت فيها المدينة العربية الفارسية الرائعة، وأنجزت فيها المنجزات الحضارية في المشرق القديم، أصبحت كلها أثراً بعد عين، ومجرد سهوب جرداء استعادت الصحراء سيطرتها عليها، ومثل هذا موت للأرض كما يحدث أحياناً عقب بعض الكوارث الطبيعية العارمة، لكن القضية هنا والفارق أن شرقي إيران لم يستطع بعد هذه النازلة أن يتعافى ثانية تماماً»[٢].

---

(١) تاريخ بخارى ـ أرمينوس ناميري ص ١٨٠.

(٢) جنكيزخان قاهر العالم ـ رينيه غروسيه ص ٣١٩.

ومن أقاليم المسلمين التي سلمت من الخراب جنوب إيران، وذلك لأن القائمين عل أمره رأوا أنه من العبث مقاومة المغول، فآثروا الدخول في طاعتهم، ودفعوا لهم عن طيب خاطر الجزية فآمنوا شرهم، وإلى هذا النهج القويم يشير الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي في قصيدة بمدح فيها الأتابك أبا بكر بن سعد فيقول:

بسد من الحديد والحجارة ضيق الإسكندر طريق يأجوج ومأجوج، أما سدك دون يأجوج الكفر فهو من الذهب وليس من الحديد مثل سد الإسكندر(١).

وأدى خراب مدن المسلمين الزاهرة بالعلم والعلماء إلى تعطل حركة العلوم والمعارف، وبالتالي اضمحلت روح التجديد والابتكار والإبداع وسادت روح التقليد، وجنح الناس جنوحاً غريباً من هول ما رأوه قد حل ببلادهم وأنفسهم إلى التصوف والانقطاع عن الحياة، وسادت بينهم روح الاتكالية والتواكل، ومنذ ذلك التاريخ سقط العالم في وهدة من الظلام والجهل استمرت لقرون عديدة.

السرعة:

من أكثر الأمور التي كانت مثاراً لدهشة واستغراب الأمم التي ابتليت بغضبة يأجوج ومأجوج الحقودة، وأربكت جيوشهم، وأوهنت من مقاومتهم سرعتهم الخارقة في الحركة والسير والارتحال، وتخريب مدن عامرة في زمن قصير يخرج عن مألوف حياة الناس ويخالف إيقاع حركة زمانهم، وهي سرعة لا يعوقها لا الأنهار العميقة ولا الجبال الشاهقة الوعرة.

وكل من أرّخ لهم في دورات خروجهم السابقة لفتت نظره هذه السرعة الخارقة لعوائد الناس، ورغم ذلك لم تتوفر لنا تفصيلات وافية عنها، ورصد دقيق لها كالذي فعله المسلمون ومؤرخيهم، وإليهم يرجع

---

(١) المغول ـ فؤاد عبد المعطي الصياد ص ٢٤٥.

الفضل في إبراز هذا المظهر من مظاهر خروجهم، نكتفي منها بما رواه ابن الأثير، يقول رحمه الله:

«إن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشفر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.

ثم لما فرغوا من أذربيحان وأرانية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، وفي ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً، ثم قصدوا بلا قفجاق، وهم أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الفياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها، فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم لا غير.

ومضت طائفة أخرى غير هذه إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً، إنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبق أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم، ويترقب وصولهم.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإن معهم الأغنام والبقر

والخيل وغير ذلك من الدواب، يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج»[1].

وشك ابن الأثير في أن روايته تلك قد لا يصدقها أحد ممن يأتي بعده في مستقبل الزمان لخروجها عن مألوف ما عهده الناس، لذا عقب عليها بقوله:

«وتا الله لا شك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمن استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في زماننا هذا في وقت كل ما فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين من لا تتعدى همته بطنه وفرجه، ولم ينل المسلمين أذى وشدة مذ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن»[2].

وليس هذا بالأمر العجيب فقد كان باستطاعة الجيش المغولي أن يقطع مسافة ٧٠٠ كيلو في غضون أسبوعين، وعند الضرورة القصوى يقطع مسافة ٣٠٠ كيلو في ثلاثة أيام، وأحياناً أقل من ذلك، فعلى سبيل المثال قطع جنكيز خان في شهر سبتمبر من عام ١٢٢١ م، وهدفه مفاجأة السلطان جلال الدين منكبرتي، المسافة من مدينة باميان إلى مدينة غزنة في يومين، دون أن يسمح لجنوده ولو باستراحة قليلة لإعداد الطعام، قاطعاً مسافة ٢١٠ كيلو، وعبر منطقة من أكثر مناطق أفغانستان وعورة وارتفاعاً.

وفي غضون ثلاثة أيام قطعت طلائع جيش سوبوتاي مسافة ٤٧٠

(١) الكامل في التاريخ ج (١٢) ـ ابن الأثير ص ٣٥٩، ٣٦٠.
(٢) المصدر السابق ص ٣٧٦.

كيلو، وعبر منطقة معادية ومغطاة بالثلوج فوصلت الدانوب يوم ١٥ مارس، ووصل هو مع بقية جيشه في يوم ١٧ من الشهر نفسه، وفي عام ١٢٤١ قام باتو بغزو هنغاريا، وعند وصوله إلى مضيق روسكا في جبال الكاربات كانت طليعة جيشه قد قطعت مسافة ٣٠٠ كيلو في الفترة ما بين ١٢ و ١٥ مارس.

ومثل هذا الإنجاز الخارق للعادة لا يحققه سوى جنود يتمتعون بطاقات هائلة ولا مثيل لها، ولذلك قال أحد المؤرخين عن سرعتهم تلك:

«من النادر إذ لم يكن من المستحيل مصادفة مثلها في التاريخ»[١].

خمود التأجج:

إن انفتاح جموع يأجوج ومأجوج على العالم يأخذ شكل دورة تستغرق فترة زمانية قد تطول وقد تقصر، يستنفدون خلالها كل طاقاتهم وقواهم الدافعة، وعند نقطة بعينها يضمحل تأججهم وتتراخى قبضتهم وتزول مهابتهم من القلوب، وينكشف عنهم ما كان محجوباً بقوة التسلط القهري، وإن بقيت لهم قوة يسودون بها على الناس، ويتسلطون بها عليهم فهي بقية من قوة الانفتاح الأولى، ولكنهم في كل الأحوال لا يستطيعون الحفاظ طويلاً على كيانهم وذاتيتهم المميزة، فمنهم من يرتد إلى ما كان عليه قبل الخروج فيعود إلى موطن الآباء والأجداد، ومنهم من يستقر حيث أوصلته دفعة الخروج الأولى، ورويداً رويداً يندمج في الوسط الذي يعيش فيه، فيمتصه ويتشربه، ويقطعه عن كل صلة له بأصوله العرقية.

ولعل أول من تنبه إلى هذا التغير الكبير بعد خمود تأججهم واضمحلال قواهم، وتخليهم التدريجي عن كل مميزاتهم وخواصهم إلى حد الذوبان في الغير هو المؤرخ اليوناني هيرودوتس، فقد تحدث عن الجيل الثاني من السيكيثيين والذين استقروا شمال جبال القوقاز بعد

---

(١) جنكيزخان ـ محمد أسد الله ص ٣٩٥.

ارتدادهم عن سد ذي القرنين ممثلاً في ملكهم سكيلاس الذي جلس على سرير الملك خلفاً لوالده، وتزوج كما عاداتهم من إحدى زوجات أبيه، ولكن عادات قومه لم تعجبه مطلقاً، وكان يتحين الفرص للتخلص منها، واتخاذ عادات الأغارقة فيقول عنه:

«... كان يأخذ عسكره إلى مدينة بورشنيبا، وحالما يدخلها كان يأمر بإغلاق الأبواب، فيخلع حينئذ اللبس السيكيثي ويلبس ثوباً إغريقياً، وحينما يلبس اللبس المذكور يتمشى في الساحة العمومية بلا حرس في صحبته ولا شخص آخر.

وكان يستعمل عوائد إغريقية كثيرة منها محافظته الدائمة على احتفالاتهم وتقديم الضحايا لآلهتهم، وبعد أن يقيم في تلك المدينة شهراً أو أكثر كان يعود إلى اللبس السيكيثي، ويمضي فينضم إلى عسكره، وكثيراً ما كان يعمل نفس هذا العمل، وبنى لنفسه قصراً في بورشنيبا فسيح الجوانب حوله تماثيل أبي الهول والعنقاء من الرخام الأبيض، وتزوج بها امرأة من أهلها»[(١)].

ويمكن اعتبار وفاة أتيلا في دورة خروجهم السادسة البداية الفعلية لخمود تأججهم، وبداية النهاية للدورة ككل، إذ أعقبه تنازع أبناؤه الكثيرون على قيادة قومهم وعلى السيادة على شعوب المنطقة، في هذا الوقت أحست الشعوب الخاضعة لهم ليس فقط بمدى ما وصلوا إليه من ضعف نتيجة الصراع على السلطة، بل أيضاً بزوال ذلك السلطان الخفي الذي أجبرهم على السير في ركابهم مذعنين وطائعين، ولأول مرة تنبهوا إلى أن الفرصة قد سنحت للمطالبة باستقلالهم، وتزعم الجيبيد سائر القبائل الجرمانية الثورة على سادتهم.

ولما حُسم النزاع على السلطة بين أبناء أتيلا إلاك Ellac وأرناك

---

(١) التواريخ - هيرودوتس ص ٢٩٠.

Ernac لصالح الأول، سارع بالهجوم على تجمع الثائرين في ضفاف نهر نيداو Nedao في بانونيا، حيث جرت بين الطرفين معركة كبيرة (٤٥٤ م) احتشد فيها كل أتباع الهون السابقين، وفيها هزم الهون هزيمة شنيعة أودت بحياة ما يزيد عن ٣٠ ألف مقاتل من بينهم إلاك نفسه.

وعلى أثر هذه المعركة أغلقت الحدود مع الهون، ومنعوا من الحصول على السلاح، وأغلقت في وجوههم أسواق المدن التجارية، كما تقلصت حدود إمبراطوريتهم المترامية إلى أقصى حد، إذ لم يبق لهم إلا ضفاف نهر الدانوب وما حوله، في حين آلت عاصمة أتيلا وقصره وبلاد داكيا القديمة من جبال الكربات إلى البحر الأسود إلى أرداريك ملك الجيبيد، واحتل القوط الشرقيون بانونيا من فينا إلى سرميوم، ووزعت باقي أراضيهم على غير نظام على القبائل التي اشتركت في هذه المعركة المصيرية.

وعلى الرغم من كل هذا فقد بقي الهون تحت قيادة دنزيك Dinzic ابن أتيلا أقوياء وقادرون على القتال، ولكن مملكتهم قد انحصرت حول دائرة عرباتهم ومحاطة بالأعداء، مما جعلها في وضع قلق ومتوتر على الدوام، خصوصاً بعد قطع كل علاقة معها، مما اضطر دنزيك في عام ٤٦٨ م إلى إرسال سفارة إلى القسطنطينية عرض فيها على الرومان إقامة معاهدة سلام لإعادة فتح أسواق المدن للتبادل التجاري، ورأى الإمبراطور ليو الأول Leo إنه ليس هناك مصلحة في تقوية الشعب الذي طالما كان سبباً في خراب بلادهم، ففشلت السفارة.

وفي محاولة يائسة لفك الحصار المضروب حولهم عمد دنزيك إلى غزو الإمبراطورية الشرقية من جهة الدانوب، ولكن البيزنطيون كانوا لهم بالمرصاد، فتصدوا لجموعهم في معركة شرسة تعاون فيها معهم القوط الشرقيين، وأنزلوا بهم هزيمة قاسية قتل فيها دنزيك.

وقطع القائد البيزنطي رأس عدوه وأرسله إلى القسطنطينية ليعرض

وبصورة علنية في حلبة السباق، ويومها خرجت القسطنطينية على بكرة أبيها لترى رأس أحد أبناء أتيلا، في مشهد يعد بحق وبعد خمسة عشر عاماً من موت أتيلا إعلاناً رسمياً باضمحلال قواهم، وتعبيراً حقيقياً عن خمود تأججهم.

وعقب مقتل دنزيك انسحب أرناك أصغر أبناء أتيلا والذي كان يرجى منه إدامة عمر الدورة، كما تنبأ بذلك كهان الهون وعرّافوهم إلى شمال البحر الأسود في محاولة أخيرة للمحافظة على وجود وحياة أمته، في حين أقام آخرون في حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وبين الفينة والأخرى كانوا يشنون غارات على الحدود بقصد السلب والنهب، ومنهم من عمل مع الرومان أنفسهم كمرتزقة في حربهم ضد القوط الشرقيين.

ومهما يكن من أمر فقد استمر الهون في الحياة كشعب صغير مجرد من أي أهمية تذكر، إلى أن انقسم من ظل متمتعاً منهم بسيادة ما شمال البحر الأسود وفي أوكرانيا إلى قسمين: قسم استقر شمال غربي بحر أوزوف، والقسم الآخر استوطن في المناطق الواقعة على مصب نهر الدون، ثم اشتبك القسمان في صراعات ومنافسات أزكى نيرانها الرومان، وظلت الحرب مستعرة بين أبناء الشعب الواحد إلى أن طغت عليهم سيول جديدة من برابرة الشمال، فسحقوهم واحتلوا أراضيهم، وانتشروا فوق مناطقهم، ليقضوا في النهاية على كل وجود مستقل لهم في المنطقة.

وقبيل نهاية القرن السادس الميلادي تحطم الهون تماماً، ومن بقي منهم بعد هذا التاريخ فقد اندمج وتلاشى في شعوب المنطقة، ولم يعد أحد يسمع عنهم شيئاً إلا في القليل النادر كأن لم يكونوا من قبل، ومن ذلك الزمن البعيد وإلى يومنا هذا لم يبق ما يدل على وجودهم في أوروبا إلا اسمهم الذي يطلق في الوقت الحاضر على هنغاريا الحالية.

وحدث الشيء نفسه تقريباً في دورة خروجهم السابعة، فبعد مضي سنوات قلائل على انحسار مدهم التسلطي حتى تبنّى المغول عادات وأفكار

الشعوب التي قهروها، بل اندمجوا فيهم إلى حد الذوبان وهجروا ما كان عليه آباءهم وأجدادهم، ففي العالم الإسلامي استقر هولاكو وأحفاده في فارس واعتنقوا الدين الإسلامي، وآثر باتو وأبناؤه البقاء على ضفاف نهر الفولجا. ولما شق ماركو بولو أراضيهم في رحلته شرقاً لاحظ هذا التعبير الهائل الذي طرأ عليهم فعلق قائلاً:

«وكل ما روي هنا (أي في كتابه) يدور حديثه حول العادات الأصلية لرؤوساء التتار، ولكنهم في الزمان الحاضر داخلهم الكثير من الفساد، فمن يقيمون منهم في أوكاكا نسوا شرائعهم الخاصة، وتبنوا عادات القوم الذين يعبدون الأوثان، كما اتخذ من يسكنون الولايات الشرقية عادات العرب المسلمين»[1].

وخير مثال تمثل فيه هذا التغيير الهائل، وأفضل نموذج لخمود تأججهم هو قوبلاي خان، فبعد أن آلت إليه القيادة هجر وطن الأجداد وذهب ليستقر نهائياً في بكين عاصمة الصين حيث القصور الضخمة والدعة والترف، وبمضي الوقت أصبح أقرب شبهاً بالصينيين وأبعد عن أقاربه وقومه، حتى إنه اتخذ لنفسه اسماً صينياً هو يوان شيه تسو Yuan Shih Tsu أُطلق على أحفاده من بعده.

وتبعاً لذلك اندمج المغول في الحياة الصينية، وظلوا حكاماً على الصين ومواطنين فيها إلى منتصف القرن الرابع عشر، حيث دب الضعف في أسرة يوان في وقت واحد تقريباً مع إخوانهم في أوروبا والعالم الإسلامي. وفي السنوات الأخيرة اشتعلت ثورة الصينيين ضد حكامهم الأجانب وفي أكثر من مقاطعة، وأهم هذه الثورات تلك التي قادها شو يوان شانغ Chu Yuan Shang في مقاطعة أنهوي Anhwei في جنوب الصين.

وبحلول عام ١٣٦٧ م كانت معظم الأراضي جنوب النهر الأصفر

(١) رحلات ماركو بولو ص ١١٠.

في حوزته، ومن هناك أرسل جيشاً قوامه ربع مليون جندي إلى بكين، لم تصادفه أي مقاومة، ووقف حاكم أسرة يوان المغولية عاجزاً عن أي فعل وقبل وصول الجيش إلى العاصمة، وفي صيف عام **١٣٦٨** م غادر آخر إمبراطور لأسرة يوان الصين وعبر السور الكبير إلى داخل منغوليا، وأعلن شو يوان شانغ إمبراطوراً على الصين الموحدة مؤسساً بذلك أسرة منغ Ming.

وحكم المغول العالم الإسلامي ردحاً من الزمن ذابوا خلاله في أمة الإسلام ذوباناً لم يترك لهم بقية من خصائصهم ومميزاتهم المعروفة وأخذوا وبشكل ملحوظ كل مظاهر المسلمين في زمانهم، متخذين لأنفسهم ليس فقط ما تتميز به الحياة الإسلامية في أعرق بلاد الإسلام، بل حرصوا على إخفاء الطابع الإسلامي في كل تصرفاتهم ومظاهر حياتهم الخاصة والعامة.

أما انفعالهم بدين الإسلام فقد بلغ درجة كانوا يحرصون فيها على أداء الصلوات في أوقاتها، وصلاة الجمعة في المساجد، وإذا غادروا محل إقامتهم كانوا يحملون معهم خياماً يجعلونها مساجد أينما حلوا ويؤدون فيها الصلوات، وقد بلغ حرصهم على أداء الصلاة في جماعة أن اتخذ كل أمير منهم لنفسه إماماً ومؤذناً خاصاً به، وكان المقصرون منهم في أداء صلاة الجماعة يتعرضون للعقاب.

فمثلاً كان السلطان طرمشيرين (آسيا الوسطى) يواظب على صلاة الجماعة في المسجد لا يختلف عنها صيفاً ولا شتاءاً. كان أشد ما يحرص عليه صلاة الصبح والعشاء، ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، ويأتي إليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده، وكذلك يفعلون في صلاة العصر، ويعود السلطان بعد الصلاة إلى منزله ماشياً على قدميه، فيقدم إليه الناس شكاياتهم، فيقف لكل منهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى.

وأخضع المغول حياتهم بالكامل لتعاليم الإسلام وشريعته وفي كافة

نواحي الحياة، فهم مثلاً لا يتخذون أكثر من أربع زوجات، ولا يقربون الخمر ولحم الخنزير وغيرها من المحرمات، كما أن التقاضي يتم بينهم أمام قضاة المسلمين ووفقاً للمذاهب الفقهية المعروفة وخاصة مذهبي أبي حنيفة والشافعي.

واهتم سلاطين المغول بالحج اهتمام سائر حكام المسلمين به، ويعتبر السلطان محمود غازان[1] (٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ ـ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ م) من أوائل السلاطين الذين سهلوا السبل لأداء هذه الفريضة وساعد الناس على أدائها، فقد خصص مبالغ كبيرة للإنفاق فيها على الحجاج وعلى قوافل الحج التي انتظمت في عهده بين إيران وبلاد الحجاز، وعيّن أميراً خاصاً على رأس فرقة عسكرية لحراسة هذه القوافل حتى تبلغ مقاصدها، كما أرسل كسوة للكعبة مطرزة بألقابه.

وحرص المغول على أداء هذه الفريضة حرص سائر المسلمين عليها، ومنهم من بنى لنفسه مقبرة يدفن فيها عند موته تبركاً بهذه البلاد الطاهرة، ومنهم من وجه كثير من أعمال البر والخير إلى هذه البلاد، مثال الأمير جوبان الذي حرص على تزويد مكة بالماء العذب وعلى حسابه الخاص، وأمر ببناء مقبرة يدفن فيها بعد موته في المدينة المنورة، ولما توفي جيء بجثمانه ووقف به حاملوه على جبل عرفات للتبرك وطلب الغفران، ثم حمل الجثمان إلى المدينة ليدفن في المقبرة التي اتخذها بالقرب من مسجد الرسول، وشاء الله تعالى أن يدفن في مقابر البقيع لاعتراض أمير المدينة على دفنه في مقبرته بحجة عدم وصول أوامر من السلطان محمد بن قلاوون بذلك.

وبديهي بعد هذا كله أن يبتعد المغول في أسمائهم وأسماء أبنائهم عن أسماء الأجداد بطابعها الوثني، وتسموا بالأسماء العربية الإسلامية، بل

---

(١) انتشار الإسلام بين المغول ـ رجب محمد عبد الحليم ص ٢٢١، ٢٢٢.

اتخذوا لأنفسهم ألقاباً إسلامية فها هو بركة خان (٦٥٤ ـ ٦٦٥ هـ ـ ١٢٥٦ ـ ١٢٦٧ م) في بلاد القفجاق وأول من أسلم من خوانين المغول كافة يسمي نفسه أبو المعالي ناصر الدين السلطان بركة خان، وأوزبك خان سمى نفسه السلطان أبو المظفر محمود جاني بك، ولقب سلطان هذا لقب إسلامي اشتهر به ملوك الإسلام قبل ظهور المغول، كما أنهم فوق ذلك اتخذوا لأنفسهم ألقاباً إسلامية معظمها عربي الأصل مثل شيخ وسيد وحاج وعرب وخوجة.

فلقب سيد هذا تسمّى به عدد كبير من بيت كوتشلك محمد خان القبيلة الذهبية، مثل سيد نادر محمد وأبنائه وإخوانه، كما تلقب خوانين خوارزم بهذه الألقاب مضافاً إليها لقب حاج وعرب، مثل حاجي طولي، وسلطان حاجي، وحاجي محمد خان، وعرب شاه، وعرب محمد خان[1].

وشهد كل من عاصرهم بعد خمود تأججهم مبلغ ما وصلوا إليه من ذوبان في أمة الإسلام، ووصل الحال بهم إلى درجة أنهم كانوا يتقبلون زجر علماء الإسلام لهم وتعنيفهم إياهم، وفي مسجد جامع رفى مواجهة رعاياهم، حتى إن بعض هؤلاء العلماء كانت كلمته تعلو كلمتهم سلاطينهم في كثير من الأحيان، وهم بدورهم لا يستغربونه ولا يستنكرونه، بل يتقبلونه بكل تواضع كنصح من علماء الأمة إلى حكامها وسلاطينها.

ويكفي تدليلاً لذلك أن نورد هذه الواقعة التي شهدها ابن بطوطة من ضمن وقائع كثيرة تخرج عن الحصر، فيقول:

«ومن فضائل الملك طرمشيرين إنه حضرت صلاة العصر يوماً ولم يحضر السلطان، فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب، حيث جرت عادته أن يصلي، وقال للإمام حسام الدين الباغي:

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٦، ١٤٧.

ـ إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً ريثما يتوضأ.

فقال الإمام المذكور:

ـ نماز رمضاه الصلاة خدا أو براي طرمشيرين (أي الصلاة لله أو لطرمشيرين).

ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان، فصلى الركعتين الأخيرتين حيث انتهى به القيام، وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد، وقضى ما فاته وقام الإمام ليصافحه وهو يضحك، وجلس قبالة المحراب والشيخ إلى جانبه وأنا إلى جانب الإمام، فقال لي:

ـ إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيراً من فقراء من الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان المغول.

وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة، ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم، ويغلظ له في القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكي، وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً، ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه»[١].

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٧٢.

المصـــادر

أولاً: المصادر العربية:

١ - القرآن الكريم.

٢ - إبراهيم علي طرخان، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨.

٣ - ابن كثير، أبو الفداء الحافظ، النهاية في الفتن والملاحم، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار التراث الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

٤ - ابن كثير، أبو الفداء الحافظ، قصص الأنبياء (المجلد الأول)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب الإسلامية، القاهرة ١٩٨١.

٥ - ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة العربية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، شركة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢.

٦ - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي أكرم، الكامل في التاريخ (المجلد ١٢)، دار صادر، بيروت ١٩٦٦.

٧ - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، بيروت ١٩٦٠.

٨ - ابن حنبل، الإمام أحمد بن محمد، المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٥.

٩ - ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٣.

١٠ - إسحاق عيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٣.

١١ - أزاد، مولانا أبو الكلام، ويسألونك عن ذي القرنين، ترجمة أحمد حسن الباقوري، مطبوعات الشعب، القاهرة ١٩٧٢.

١٢ ـ أبقراط (أبو الطب)، الأهوية والمياه والبلدان، ترجمة شبلي شميل، مطبعة المقتطف، القاهرة ١٨٨٥.

١٣ ـ أرمينوس فاميري، تاريخ بخارى من أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة أحمد محمد الساداتي، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٨٧.

١٤ ـ أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢.

١٥ ـ أندريه إيمار وجانين أوبوابه، تاريخ الحضارات العام (المجلد الثاني)، روما وإمبراطوريتها، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشور عويدات، بيروت ١٩٨٦.

١٦ ـ أبو داؤد، سنن أبو داؤد، تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٥٠.

١٧ ـ البخاري الإمام، الجامع الصحيح، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

١٨ ـ البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل، البدء والتاريخ، تحقيق كلمان حوارا، مكتبة خياط، باريس ١٨٩٩.

١٩ ـ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧.

٢٠ ـ الجزائري، السيد نعمة الله، النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ.

٢١ ـ الجويني، عطا ملك، تاريخ فاتح العالم (جها نكشاي)، ترجمة محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب ١٩٨٥.

٢٢ ـ جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

٢٣ ـ جيمس هنري برستيد، العصور القديمة، ترجمة داؤد قربان، المطبعة الأمريكانية، بيروت ١٩٣٠.

٢٤ ـ حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٩.

٢٥ ـ رجب محمد عبد الحليم، انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٦.

٢٦ ـ رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الأول الجزء الأول، ترجمة محمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٧ ـ رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان، المجلد الثاني الجزء الأول، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣.

٢٨ ـ رينيه غروسيه، جنكيز خان قاهر العالم، ترجمة خالد أسعد، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٢.

٢٩ ـ سعد بن محمد حذيفة الغامدي، المجتمع المغولي ضوابطه وقوانينه، مطابع الشريف، الرياض ١٩٩٠.

٣٠ ـ سعد بن محمد حذيفة الغامدي، المغول بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية، مطابع الشريف، الرياض ١٩٩٠.

٣١ ـ سليم واكيم، إمبراطورية على صهوات الجياد، دار الكاتب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٣٢ ـ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسين، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١.

٣٣ ـ عباس العزاوي، الموسيقى العراقية في عهد المغول والتركمان، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد ١٩٥١.

٣٤ ـ عبد الخالق سيد أبو رابية، الإسلام والتتار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩.

٣٥ ـ عبد الحكيم الذنون، الذاكرة الأولى، دار المعرفة، دمشق ١٩٨٨.

٣٦ ـ عبد العليم عبد الرحمن خضر، مفاهيم جغرافية في القصص القرآني، (قصة ذي القرنين)، دار الشروق، جدة ١٩٨١.

٣٧ ـ فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ جـ (١)، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠.

٣٨ ـ الكسائي، محمد بن عبدالله، قصص الأنبياء (المجلد الأول)، تحقيق إسحاق بن ساؤول إيزنبرغ، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٢٢.

٣٩ ـ الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)، مطبعة جامعة كمبردج ١٩٧٠.

٤٠ ـ الكشميري، محمد أنور شاه الهندي، التصريح بما تواتر في نزول المسيح، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب ١٩٦٥.

٤١ ـ ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧.

٤٢ ـ محمد السفاريني، أهوال القيامة وعلاماتها الكبرى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٨٦.

٤٣ ـ محمود محمد الحويري، رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١.

٤٤ ـ مسلم (الإمام)، الجامع الصحيح، شرح النووي، بدون، دار نشر، القاهرة، بدون تاريخ.

٤٥ ـ النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، دار الرائد العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٤٦ ـ النسوي، محمد بن أحمد، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٣.

٤٧ ـ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الأول، الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٨١.

٤٨ ـ هارولد لامب، جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة متري أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٢.

٤٩ ـ الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدس، القاهرة ١٣٥٢ هـ.

٥٠ ـ هيرودوتس، التواريخ، ترجمة حبيب أفندي يسترس، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت ١٨٨٦.

ثانياً: المصادر الإنجليزية:

1 - J. B. Bury, A History of the Later Roman Empire, (395-800 A.D), Argonaut Inc. publishers, Chicago 1889.

2 - The Cambridge Ancient History (Vol. 3), The Assyrian Empire, Cambridge Un. press 1960.

3 - The Cambridge Ancient History (Vol. 4) The Persian Empire and the west, Cambridge Un. press 1974.

4 - Chester G. Starr, A History of the Ancient World, Oxford Un. press 1983.

5 - Edward Gibbon, Decline and fall of the Empire Rome (Vol. 3), Every Man's Libibary - Dulton, Newyork 1966.

وأيضاً المجلد الثاني من الترجمة العربية: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة لويس إسكندر، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٩.

6 - C. D. Gordan, The age of Attila, the University of Michigan 1960.

7 - Hilda Hookhan, A Short History of China, Longmans Greens and Co, London 1967.

8 - R. Ghirshman, Iran, Penguin Books, Newyork 1978.

9 - Jonathan Fryer, The great wall of China, A. S. Barnes and Company, Newyork 1977.

10 - J. Macgowan, The Imperial History of China, Barnes and Noble Books, Newyork 1973.

11 - William Watson, China Before The Han dynasty, Thames and Hudson, London 1961.

12 - Witold Rodzinski, A History of China, Pergamon, Press, London 1976.

13 - William G. Sinnigen, Ancient History, Macmillan Publishing Co. Newyork 1981.

14 - Wolfram Eberhard, A History of China, Roulledge and Kegan Paul Lib. London 1964.